جان دوست

إنهم ينتظرون الفجر

رواية

دار الساقي

إنهم ينتظرون الفجر

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- عشيق المترجم
- ثلاث خطوات إلى المشنقة
- نواقيس روما

جان دوست

إنهم ينتظرون الفجر



الطبعة الورقية، 2022
الطبعة الإلكترونية، 2022
ISBN-978-614-03-0265-5
Published 2022 by Dar Al Saqi
Dar Al Saqi
Westbourne Grove, London W2 5RH, United Kingdom 26
7492

Tel: +44 (0) 20 7221 9347; Fax: +44)0(20 7229

e-mail: info@daralsaqi.com يمكنكم شراء
كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com

إلى زين
الفجر ينتظرنا.

جملة أشبه بحشرجة محتضر بقيت عالقة بين شفتي رجل أربعيني بلحية غير مشذبة شاب نصفها. أراد الرجل أن يتفوه بها وهو ينحني على جثة شابة لم تتجاوز عشرين ربيعاً لكن الجملة بقيت عالقة كسمكة في ثقب شباك. كانت الجثة غارقة في الطين والدماء وعليها آثار جراح بليغة. بدا من الواضح أن شظايا قذيفة مدفعية أصابت الجسد الصغير في الصدر والوجه وأجزاء أخرى. كان الجسد النحيل يبدو كأنه تعرض لطعنات متلاحقة بالسكين.

تهدج صوت الرجل الأربعيني وهو يحاول أن يلفظ جملته الأسيرة وصار يعاين الجراح العدة ويلمس بأصابعه الدماء القاتمة التي تخثرت حولها.

كان وحيداً مع جثة الفتاة المجهولة. لم يأبه له الآخرون ممن كانوا يتجولون بين الأنقاض هنا وهناك في حي يافث، أو كما يسميه السكان المحليون حي نهر اليهود، في مدينة جزيرة بوطان التاريخية الواقعة على الضفة الغربية من نهر دجلة في الزاوية الجنوبية الشرقية من المستطيل الجغرافي الذي تسميه الخرائطُ تركيا. شهدت تلك المدينة مثل مدن أخرى حرباً قاسية على مدى أشهر بين الجيش التركي ومقاتلين أكراد معظمهم من المتطوعين الشباب تحصنوا في الحارات الشعبية وأزقتها الضيقة وأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق وحملوا أسلحة خفيفة ليعلنوا إدارة ذاتية في مغامرة أقرب إلى الحلم.

لم يأتِ أحد ليواسي ذلك الرجل الأربعيني الحزين. لم يذهب هو أيضاً ليواسي أحداً في الجوار. كان الجميع مشغولين بالبحث عن قتلاهم ودفنهم. رجال كثيرون كانوا يمشون مذهولين بين أنقاض الحارات المدمرة. نساء مرعوبات يبكين بحناجر مخنوقة في بيوت لم يبقَ منها سوى حجارة مبعثرة كأعمار السجناء وأحلام الثوار.

بدا الوضع في حارة يافث كأن زلزالاً ضرب المكان. البيوت مدمرة. والشوارع ليست سوى أطلال. الناس حائرون مذهولون وتائهون يمشون بصمت وهم يرمقون الخراب. لم تكن الحارات الأخرى أحسن حالاً من حارة يافث. حارة جودي، حارة السور، حارة النور...

كلها تضررت من القصف. لم يعد حتى ابن الحارة يعرف أين يقع بيته! الزلزال شمل نصف حارات الجزيرة التسع.

في كل زاوية، تمددت جثة مقاتل أو مقاتلة. تهدمت بنايات كثيرة من القصف. شوارع عدة سدَّتها الأنقاض المتراكمة. روائح الجثث المرمية بلا دفن تزكم الأنوف. هواء خانق يلف المدينة المنكوبة. في الأقبية أسفل البنايات، ظهرت جثث متفحمة لمدنيين وفتيان وفتيات صغيرات ممن حملوا السلاح وقاتلوا في الخنادق ووراء المتاريس طوال الشتاء. كثيرون من الضحايا كانوا بلا بطاقات شخصية تفصح عن هوياتهم. لم تكن لهم هوية سوى جراحهم التي نزفت الدماء حتى فاضت أرواحهم. أمهات كثيرات يبكين بحرقة على ناصية كل زقاق. يلقين المراثي التي يرتجلنها مذهولات أمام المشهد المرعب. آباء مكلومون يقفون فوق جثث أبنائهم ويحدقون فيها بصمت ويستذكرون أيام النقاشات اللاهبة قبل أشهر عدة.

هبت نسمة باردة من جهة نهر دجلة فأنعشت ذاكرة الرجل الأربعيني أحمد رضا آيدن، الروائي المعروف بلقب آمَدْ، الذي لم يشأ أن يغادر الجثة المرمية في بيته.

***

صباح الأربعاء الثاني من آذار عام ألفين وستة عشر، وحين رنَّ منبه الموبايل مشيراً إلى الخامسة والنصف صباحاً، كانت المعارك قد توقفت نهائياً في جميع أحياء الجزيرة.

تردد صدى المنبه في أرجاء ضريح أعظم شعراء الكرد الكلاسيكيين، ملا أحمد الجزري الملقب نيشاني من القرن السادس عشر، الذي اختاره الروائي الأربعيني آمَدْ معتكَفاً يستلهم فيه فصول روايته ''مجنون سلمى'' عن الجزري المدفون هناك. لم ينم الروائي في تلك الليلة. لكنه مع ذلك ضبط المنبه من باب الاحتياط على الخامسة والنصف حين سيبدأ رفع حظر التجول المعمول به منذ تسعة وسبعين يوماً في الجزيرة.

كانت مصادفة عجيبة أن ينتهي الروائي من كتابة سيرته الذاتية وكذلك روايته القصيرة ''مجنون سلمى'' بالتزامن مع انتهاء العمليات الحربية في الجزيرة ومعظم المدن الكردية التي

خيضت فيها معارك شرسة سميت حرب الخنادق، بينما أصر إعلام الدولة على تسميتها حرب الحُفَر.

"استراحت البنادق فاستراح القلم أيضاً. لقد حان الوقت لأخرج من هذا المعتكف"، قال لنفسه وهو يغادر باحة المدرسة الحمراء الشهيرة في محلة داغ قابي في جزيرة بوطان، وهي أشهر مدرسة في تاريخ بلاد الكرد وكانت بمكانة جامعة بناها الأمير الكردي خان شرف قبل خمسة قرون وتخرج فيها مئات الشعراء والعلماء وطلبة الفقه ورجال الدين من أئمة وخطباء.

لم يكن لدى الروائي أحمد رضا آيدن من هدف سوى رؤية الفتاة العشرينية نِشتيمان التي أحبها بعنف وعمق لأنها "أعادت إليه رجولته المسلوبة" كما اعتقد لاحقاً. استعجل الخروج من صومعته بعد أن كاد الملل يشلُّه آخر أسبوعين. تناول قبل خروجه قطعاً من الجوز المغموس في عصير العنب المجفف الذي يسميه أكراد تلك المناطق بَني Benî وألحقها ببضع حبات من القهوة غير المطحونة قضمها بأسنانه سعياً إلى نشاط سيحتاج إليه في يومه المرتقب الطويل.

كان الجو بارداً ذلك الصباح الآذاري الباكر. لبس معطفه الجلدي الأسود المبطن بفرو صناعي يشبه إلى حد كبير فرو الحملان، ولف عنقه بشال خفيف، وحمل مخطوط روايته مع الأوراق التي دوّن عليها سيرته الذاتية في حقيبة جلد ألقاها على كتفه ثم خرج على عجل صوب حارة يافث حيث ترك بيته قبل شهور عدة.

بعد أن غادر باحة المدرسة الحمراء مشى بضع خطوات دخل جادة يَني تشارشي حتى وصل بعد دقائق عدة إلى مسجد ابن الأثير الجزري لينعطف من هناك يميناً إلى شارع البلدية ثم يساراً عند إحدى الحدائق إلى شارع سياهْ تَبَه حتى وصل إلى بيته القريب من جامع وَسْطاني ذي المئذنة الحلبية الرشيقة.

لم يكن آمد وحده في يوم الحشر ذاك. خرج العشرات مثله منذ الصباح الباكر ليتفقدوا بيوتهم التي حولها رفاق الحزب إلى خنادق وأحالتها مدفعية الجيش التركي إلى أطلال. خرجوا يبحثون عن أقاربهم الذين تحصنوا هناك بعد أن أعلنوا إدارة ذاتية متحدين الدولة مسترشدين بالتجربة التي حدثت في بلدة كوباني شمالي سوريا في المنطقة التي سماها الكرد

روجافا. عشرات السيارات كانت تقل الذين نزحوا قبل بدء المعارك وقفت في طابور طويل عند مدخل المدينة تنتظر الدخول. كانت قوات الأمن تدقق في البطاقات الشخصية وتمنع على الأخص دخول المراسلين الأجانب. لم يدخل سوى بعض الصحافيين المحليين الذين يعملون لصحف ووكالات أنباء عالمية دون أن يفصحوا عن ذلك. عاد الناس إلى بيوتهم فلم يجدوها. كانوا مذهولين ساخطين حائرين صامتين.

لم يتعرف أحمد رضا آيدن إلى بيته. لكن ما ساعده تالياً على تحديد الموقع والاهتداء إلى البيت وسط تلك الخرائب كانت المنارة التي تلقي بظلالها على الشارع المواجه للمنزل بعدما تميل الشمس بعد الظهيرة غرباً. توجه إلى المنارة التي ظهرت في الفضاء نصلاً فضياً يطعن زرقة سماء ذلك اليوم. كان الخراب المحيط بمسجد وَسْطَاني فرصة لتزهو المنارة البيضاء بقامتها الشامخة بعدما كانت بعض الأبنية تحجبها في السابق. وجد الروائي أخيراً منزله، وقادت الذاكرة المشتعلة قدميه المتعثرتين إليه. كان كتلة من الأنقاض والجدران المهدمة وقضبان الحديد التي لفظتها الأعمدة والأسقف الإسمنتية جراء القصف فظهرت كأنها أمعاء قتيل بقروا بطنه. غرفة وحيدة هي الغرفة الشمالية بقيت نصف مهدمة وما تبقى سُوِيَّ بالأرض.

دار الروائي قليلاً حول الأنقاض. عاينها من زوايا عدة لعله يفهم كيف أصابه كل ذلك الدمار. ابتعد قليلاً وهو يتعثر بالحجارة المتناثرة. زَكَمَتْ أنفَه رائحة ثقيلة. رائحة نفاذة سرعان ما ازدادت ثقلاً. لفّ أنفه وفمه بالشال الذي كان في عنقه وتوجه صوب غرفته الشمالية، صومعته الأثيرة التي ورثها عن أبيه مهندس الإنشاءات كمال الدين آيدن. الغرفة التي احتضن فيها نِشتيمان بحرارة قبل أن يفترقا، هو إلى ضريح الشاعر الجزري وهي إلى القتال. زادت الرائحة حين وصل إلى حدود الغرفة. هناك وقع نظره على جثة وحيدة بالقرب مما كان سابقاً باباً يطل على حديقة جميلة في الحوش.

كانت الرائحة النفاذة قوية إلى درجة أن الروائي مد يده إلى أنفه القابع تحت الشال ليسده بإحكام.

***

بُنيت أمام الغرفة الشمالية مصطبة ترتفع متراً عن الأرض لتشرف على الحوش الفسيح كله. تحت تلك الغرفة بنى المهندس المدني كمال الدين آيدن، والد آمد، قبواً لمؤونة البيت والأغراض التي لا لزوم لها.

حين اجتاز آمد امتحان البكالوريا بنجاح أخذه والده إلى القبو. قال له: ”اليوم سأدلك يا ولدي على الكنز الذي حدثتك عنه مراراً“. نزلا اثنتي عشرة درجة حتى وصلا إلى قبو بارد مظلم تفوح منه رائحة العفن والرطوبة. ضغط آمد زر النور المثبت على الجدار بعد أن اجتاز خلف والده آخر درجة. تقدمه والده المهندس ووقف في الزاوية اليمنى التي لا يبدد عتمتها سوى ضوء النهار. كانت هناك خزانة صغيرة دفعها والده برفق فظهر تحتها بساط عتيق سحبه وطرحه بعيداً.

راقب آمد حركات والده بصمت ولهفة. تسارعت نبضات قلبه وهو ينتظر ما سيكشف عنه أبوه من سر. بعد أن مرت أقل من دقيقة انتظار ظهر تحت البساط العتيق لوح خشبي مربع رفعه والده بحرص. تحت اللوح كان هناك ما يشبه صندوقاً معدنياً موضوعاً في حفرة في أرض القبو. رصفت في قاع الصندوق مجموعة من الكتب والصور. حمل أبوه المهندس أول كتاب برفق ورفعه ليعاينه في ضوء المصباح الشحيح: ”هذا هو مم وزين يا بني“.

مدَّ والده الكتاب صوبه بعد أن شمه بعمق غامضاً عينيه معبراً عن إجلال كبير يكنه لذلك الكتاب الثخين الذي زادته رطوبة القبو ثخناً. حمله الشاب في يده وقلب بضع صفحات منه. فاحت منه رائحة زكية جداً. قال أبوه إن لكل كتاب رائحة خاصة هي هويته. للكتب روائح تشي بمضمونها. وكتب الحب لا بدّ أن تصدر عنها أزكى الروائح يا بني.

كان الغلاف جميلاً تزينه لوحة تجمع العاشقين مم وزين اللذين خلد الشعراء والمغنون قصة حبهما الأليمة التي جرت أحداثها في تلك المدينة التاريخية قبل مئات الأعوام.

”اشتريت هذا الكتاب بعد أن حملت أمك بك. اشتريته من أجلك. انظر! إنها الطبعة الأولى 1968“.

قرأ أحمد ما كتبه والده من إهداء باللغة الكردية: ”إلى ولدي القادم أحمد رضا. هذا الكتاب يغنيك عن كثير من الكتب الأخرى. إنه يجمع بين الفكر والفلسفة والحب السامي والأدب

الجميل‘‘.

هز أحمد رأسه بسعادة. قال: ’’سآخذه معي إلى الغرفة لأطالعه‘‘.

رد أبوه: ’’يمكنك مطالعته هنا متى شئت ثم إعادته إلى المخبأ‘‘. ’’وهل هو ممنوع؟‘‘ سأل أباه فأجابه متنهداً: ’’لا قوانين تسمح بتداوله. بعد الانقلاب عمدتُ إلى إخفاء الكتب التي قد تثير المشكلات. هل تعلم عدد الكتب التي أحرقت بعد انقلاب أيلول العسكري؟ مئة وثلاثون ألف كتاب، يا ولدي‘‘.

كتب كثيرة أخرى أشار إليها الأب المهندس. كان يخرجها ويعرفها ببضع جمل ثم يعيدها إلى مكانها في الصندوق. فاحت من تلك الكتب أيضاً روائح جميلة لا تشبه أي روائح أخرى.

قال أبوه وهو يغلق باب الكنز بعد أن انتهت حفلة التعارف: ’’رائحة الكتاب هويته‘‘.

بصمت واضح وبهجة خفية، غادر الاثنان تاركين وراءهما القبو في عتمته الرطبة يحرس الكتب التي لا ينبغي أن تعرف الدولة أنها متداولة في بيت المهندس.

***

تبين أن الجثة المرمية عند باب الغرفة الشمالية في منزله المدمر هي مصدر الرائحة. تعجب آمد. كل هذه الرائحة القوية من جثة واحدة! صادف في طريقه جثثاً عدة مرمية. ألقى عليها نظرات فاحصة سريعة ليعرف هل إحداها لنِشتيمان، ثم واصل سيره الحثيث إلى بيته بصمت. رأى في سيره إلى البيت ناساً كثيرين عند مداخل البنايات المهدمة وعلى ناصية كل شارع. كانوا أيضاً ينحنون على الجثث، يتفحصونها ويبحثون فيها عن وجوه معروفة. وفجأة تنطلق صرخة من امرأة تعرفت للتو إلى ابنها أو قريبها. يخفي الرجال حزنهم وغضبهم وراء وجوههم الملفوفة بمناديلهم فيما يراقب الأطفالُ المشهدَ بفضول وصمت، فيشحنون ذاكرتهم الغضة بالقسوة ويسقون شجرتها بالرعب.

اقترب الروائي الأربعيني من الجثة بحذر. ازدادت الرائحة. ظل يسد أنفه بإصبعي السبابة والإبهام حتى وقف مباشرة على الجثة وصار يحدق في ملامحها.

لم تمر ثوانٍ قليلة حتى شعر بما يشبه طعناً متلاحقاً في صدره. إنها هي. غير معقول! لا ليست هي. بل هي. ليست هي. كانت الجثة متفسخة قليلاً. بدا أنها مرمية هناك منذ أيام عدة. الوجه مزرق ومنتفخ قليلاً. الجسد كله منتفخ كأنه يريد الهرب من الثياب الضيقة. جراح عدة تملأ الجسد الفتي الذي شوهه الموت. الدم متخثر على وجه الفتاة وحول جراحها وعند عينيها المسبلتين. شعرها المقصوص الجميل ملوث بقطع من الطين والدماء المتخثرة. انحنى عليها متأملاً تغزوه مشاعر لم يجد لها وصفاً. تمنى أن يكون ما يراه كابوساً. تمنى أن تكون الجثة جثة مقاتلة أخرى غير نِشتيمان. لكنها هي. عرفها من تفاصيل كثيرة. من قصة شعرها. ملامح وجهها وحتى بنطلون الجينز والحزام الجلدي الأبيض. كانت نِشتيمان قد تحصنت في بيته لتقاتل. وفي تلك الغرفة الشمالية التي تتمدد جثة نِشتيمان قريباً منها، عانقها قبل نحو ثلاثة أشهر، وودعها وغادر من جديد إلى ضريح الجزري ليعكف على كتابة الرواية وسيرته الذاتية.

إنها نِشتيمان. إن خانته عيناه، فسيعرفها بقلبه.

حاول أن ينحني على الجثة ليعاين تفاصيل الوجه ويقرأ في ملامحه رسالة الموت الأخيرة. لكنه ارتد بعفوية وانسحب إلى الوراء. كانت الرائحة نفاذة جداً.

وقف حائراً دقيقتين ثم عاد للوقوف قرب الجثة. لكن الرائحة دفعته بعيداً مرة أخرى.

نظر إلى الخلف فلمح شجرة التين. دُهش كأنه يراها لأول مرة. إنها شجرة التين المباركة التي زرعتها أمه بيديها. جاءت بفرعها الصغير قبل أعوام عدة من شجرة تين باسقة عند مزار شهير معروف بمزار بابا عُريان في مدينة خربوط مسقط رأس والده. روت له أمه مراراً قصة الشجرة وكيف أنها دعت عند ضريح بابا عُريان أن يثمر رحمُها فاكهةَ السعادة فيرزقها الله ولداً يؤنس وحشتها ويضيء عتمة لياليها.

بدت أغصان شجرة التين من بعيد حبلى بالبراعم داكنة الخضرة. قدحت في ذهن الروائي فكرة أن يدفن نِشتيمان أسفل تلك الشجرة حيث فسحة من الأرض لم تتناثر عليها حجارة الأنقاض. فكَّ الشال عن عنقه واقترب من الجثة فربط قدميها به وسحبها وراءه وهو لا يعي تماماً ماذا يفعل. فاحت الرائحة أكثر من السابق. نظر خلفه فرأى الجثة تكاد تتمزق وهي

تتعثر بالحجارة. صار كلما خطا خطوة، ازدادت الرائحة الواخزة. تذكّر خلال رحلته القصيرة مشاهد شبيهة بمشهده ذلك الصباح وهو يجر جثة نِشتيمان. تذكر ما قرأه في **الإلياذة** ورآه في لوحات بديعة الرسم تخلد مشهد هكتور بطل طروادة الأسطوري وهو يجر جثة غريمه أخيل الإسبرطي. تذكر قابيل وهو يسحب جثة أخيه القتيل هابيل حائراً فيه. تذكر العجوز سانتياغو المكافح في رواية همنغواي وهو يسحب وراءه السمكة العظيمة. لاحت في خياله صور الجنود الأتراك وهم يسحلون جثث مقاتلين كُرد سقطوا في معارك جبلية. تذكر مشاهد السينما التي تصور سحل جثث الخصوم المربوطة إلى السيارات أو الأحصنة وغير ذلك من المشاهد العنيفة التي غزت الذاكرة في تلك اللحظة.

بعد عناء وغضب وحزن وأفكار كثيرة تزاحمت في مخيلته وصل بالجثة إلى أسفل الشجرة ثم دفعته الرائحة الكريهة ليقف بعيداً عن الجثة يتأملها من جديد.

***

هبت في تلك اللحظة نسمة باردة من جهة نهر دجلة فانتعشت ذاكرته أكثر. تذكر وهو غارق في تأملاته أن في القبو أسفل الغرفة الشمالية معولاً ومجرفة وبعض أدوات الفلاحة من أيام والدته التي كان دأبها العناية بالأشجار والمزروعات وأصص الورد الكثيرة التي تملأ باحة الدار. كانت شجرة التين مقدسة عندها. تهتم بها كأنها طفلتها. تتبرك بها وتبتسم لها حين تورق وعندما تثمر. تحزن حين يعريها الخريف من ثوبها الأخضر ويقسو عليها الشتاء فيتركها كاليتيم. لم يدع الروائي نفسه تستغرق في الذكريات. توجه فوراً إلى القبو. وجد بعض الحجارة تسد بابه. أزاحها على عجل حتى ظهر الدرج الإسمنتي الذي يفضي إلى القبو. رائحة واخزة هبت من داخل القبو أيضاً. لم يأبه لها. نزل اثنتي عشرة درجة حتى اصطدم بالظلام. كان القبو بارداً مظلماً. وقف أكثر من دقيقة يحدق في الظلام الرطب حتى بدت أمام عينيه ملامح ضبابية لموجودات القبو. حاول أن يشعل النور. كان التيار الكهربائي مقطوعاً. انتظر أكثر من ربع ساعة

حتى اتسعت حدقتا عينيه إلى أقصى مدى. رويداً رويداً تكيف بصره مع الظلام. صار يرى بعض الأشياء ويميز حدود القبو. مشى بحذر إلى الزاوية اليمنى حيث توقع أن يجد المعول والمجرفة. اصطدم بشيء لم يستبنه أول الأمر ثم أدرك أنها جثة. صارتا عيناه تريان جيداً بعد أن بقي في القبو الذي ينسرب إليه ضوء النهار من كوة صغيرة في الشرق. كانت جثة متفحمة. وراءها جثة أخرى، ثم جثة ثالثة. ثلاث جثث متفحمة في القبو. كاد الرعب يشله. لكنه استجمع شجاعته وواصل طريقه مرتبكاً حتى وجد المجرفة والمعول مركونين إلى الزاوية. حملهما وأسرع بالخروج يتحاشى الجثث المتفحمة الثلاث. حين صعد الدرج ووصل إلى باب القبو التقط أنفاسه. وقف بضع ثوانٍ لاهثاً لا يصدق ما رأته عيناه.

قبل أن يخطو عائداً رأى دمية بنية. دمية احترقت أطرافها. دمية مبللة ملطخة بالطين. انحنى والتقطها. إنها دياري. دياري الشهيرة دمية نِشتيمان التي لم تفارقها في أي لحظة. حملها معه وقال في نفسه: هي أيضاً شهيدة مثل صاحبتها. سأدفنها معها. ثم مشى باتجاه شجرة التين الوحيدة.

كانت الأرض رخوة رطبة. خلال أقل من ساعتين تم تجهيز حفرة بطول مترين وعمق متر ونصف تقريباً تكفي لدفن الجثة الممددة بجانب الشجرة التي ظلت تفوح منها الرائحة النفاذة.

في هذه الأثناء، سمع آمد جلبة. رفع رأسه ورمى المعول جانباً فرأى هناك من يمشي متعثراً بالأنقاض التي تملأ أجزاء واسعة من باحة الدار. كان الرجل يرتدي معطفاً جلدياً طويلاً، وعلى رأسه قبعة شتوية ويمشي صوبه، ويده اليسرى في جيب المعطف وبالأخرى يتوكأ على شمسية سوداء مضمومة. مشى الرجل صوب آمد. تقدمته رائحة عطر شهير. آراميس. إنه عطر آراميس الباريس. تمتم آمد وهو يستمتع لأول مرة برائحة طيبة منذ شهور. كانت تلك رائحة الزائر الغريب الذي ظل يسد أنفه بمنديل أصفر يشبه مناديل الكاوبوي حتى وقف على حافة القبر.

– مرحباً، يا أخي.

– أهلاً وسهلاً. تفضل، يا أخي.

– وصلت هذا الصباح إلى الجزيرة. ركنت سيارتي في منطقة بعيدة بسبب الشوارع المسدودة بالحجارة وأكياس الرمل. المدينة تعرضت لزلزال.

– نعم. هذا صحيح.

– أنا قلتها على سبيل المجاز.

– لا مجال للمجاز في بلد يغتصب الحقيقة. إنها الحقيقة. هذا زلزال.

– الرائحة كريهة جداً.

– ما من حروب زكية الرائحة.

– الجثث في كل مكان.

– المكان جثة.

رد آمد بلا مبالاة ثم انتبه إلى أنه لا يزال داخل الحفرة. وضع يديه على إحدى الحافات وبعد محاولتين صار في الأعلى. ألقى نظرة فاحصة على عمله. كانت الحفرة متقنة كأن حفار قبور خبير حفرها، نفض يديه ثم قال: ”كما ترى. في باحة بيتي أيضاً جثة مقاتلة. في القبو هناك تحت تلك الغرفة المهدمة ثلاث جثث“.

– أنا أبحث عن ابنتي.

– ابنتك؟

– نعم. سمعت أنها التحقت بالمقاتلين هنا في الجزيرة. لم أرها منذ مدة طويلة.

– الجثث التي في القبو هي لشباب مقاتلين. هل ألقيت نظرة على جثة المقاتلة بجانبنا؟ دقق فيها.

تقدم الرجل بضع خطوات صوب الجثة ثم تراجع. قال ممتعضاً: ”لست مجبراً على شم كل هذه الجثث. سأتقيأ“.

– هل عرفتها؟ هل هي ابنتك؟

– لا أعتقد. هذه الفتاة بدينة جداً.

– ليست بدينة. إنها منتفخة بسبب بقائها مدة طويلة دون دفن. برودة الجو ساعدت أصلاً على بقاء الجثث بحالة شبه سليمة وإلا لتفسخت منذ أيام.

– إذن جثث محظوظة.

– هذه الجثة ستكون محظوظة أيضاً لو ساعدتني في دفنها.

– آسف. لا وقت لدي، لا لدفن الجثث ولا للبحث عن الموتى المفقودين بعد أن فقدت الأحياء. تباً لهم.

– لمن؟

"للذين يستدرجون القطا إلى هذه الفخاخ"، قال الرجل بنفور وازدراء ثم سحب سيجاراً ثخيناً من جيب معطفه الداخلي. أشعله بهدوء ونفث الدخان صوب السماء بعصبية. سأله آمد: "لم تعرفني بنفسك، يا أخ".

– أنا سِنان دوغان. لدي شركة تجارية صناعية في إسطنبول. شركة باطمان تكستيل للتصدير. أنا في الأصل من باطمان. ابنتي الوحيدة التحقت بالمقاتلين وهي هنا في الجزيرة وفق معلوماتي. لكن يبدو أنها إبرة في كومة قش. البحث عنها عبث.

– ربما هي على قيد الحياة. وإذا كانت مقتولة، فستعثر عليها بالتأكيد.

– سأعثر عليها؟ لكي يحدث ذلك، ينبغي أن أمر على كل الجثث التي تفسخت غالبيتها للأسف. لكنني تعبت. عشرات الجثث رأيتها اليوم، وكلها بروائح كريهة.

– لن تلتقي بجثة تفوح منها رائحة عطر فرنسي. حتى لو كانت جثة أميرة. للموت رائحة كريهة.

– أي صباح هذا. أي بلاد هذه! عبث. سأغادر. طاب نهارك.

***

ابتعد الرجل الغريب حتى غاب واختفى خلف الحجارة المتراكمة على ناصية الشارع الذي يفصل المنزل المدمر عن مسجد وسطاني.

مشى آمد باتجاه جثة نِشتيمان المنتفخة ثم مد يده إلى طرف الشال الطويل الذي لفه على قدميها وسحبها إلى أحد أطراف الحفرة. بعد ذلك ذهب إلى الطرف الآخر الشال في يده.

سحبها من جديد وابتعد مفلتاً الشال من يده فارتطمت الجثة المنتفخة بقاع الحفرة. انحنى قليلاً على داخل الحفرة فرأى نِشتيمان متمددة كالنائمة هناك. غابت عنه المشاعر. لم يفكر في شيء ولم يخطر شيء على باله. التفت فرأى الدمية القتيلة لا تزال عند طرف الحفرة. رفعها عن الأرض وأمسكها بيده قليلاً ثم رماها فوق الجثة وأخذ يهيل التراب عليهما حتى طمرهما واختفتا تماماً.

حين أراد العودة إلى الغرفة الشمالية المهدمة، وجد دفتراً صغيراً، دفتراً بحجم الكف يبدو أنه وقع من جيب السترة التي كانت نِشتيمان ترتديها. التقطه بسرعة. اندهش. لم يكن الدفتر بالجلد الأحمر سوى مفكرته الصغيرة لعام 2015 التي دوَّن على صفحتين منها بعض الملاحظات المتعلقة بروايته "مجنون سلمى" وبعض اليوميات المتناثرة الموزعة على الأشهر الأولى من السنة. نسي آمد مفكرته تلك في غرفته الشمالية يوم غادر المنزل إلى المعتكف.

فتح المفكرة. قرأ ما هو مكتوب في أول صفحة: يوميات مقاتلة في جزيرة الحب.

في هذه اللحظة، حط غراب على السطح المتبقي من الغرفة الشمالية وصار يحدق بفضول إلى آمد ويقرأ حزنه وحيرته. لم ينعق الغراب. بقي في مكانه متأملاً المشهد العجيب يحرك رأسه في اتجاهات تمكنه من الإحاطة بتفاصيل الموت الذي بسط جناحيه على ذلك الصباح البارد.

وضع آمد المفكرة الحمراء الصغيرة في جيب البنطلون الخلفي. نصب حجراً كشاهدة للقبر ثم نهض مبتعداً. لكنه ظل يلتفت إلى القبر وهو يمشي ويتعثر بالحجارة المرمية هنا وهناك. لم يعرف إلى أين تقوده قدماه. فجأة وجد نفسه يصعد إلى سطح غرفته نصفه المدمرة. كان الجدار القبلي مهدماً تماماً وحجارته متراكمة كأنها درج.

وصل إلى السطح لاهثاً وصار يتأمل الخراب من حوله. الخراب منتشر على مد البصر في الجهات الأربع، من ضفاف دجلة شرقاً والمسجد التاريخي الكبير بمنارته الحمراء المميزة غرباً إلى الشمال الشرقي حتى حدود المدرسة الحمراء وجنوباً إلى حدود مسجد حاجي طه. ليس هناك سوى أبنية مهدمة ورائحة الموت الواخزة تفوح من كل الأرجاء.

طار الغراب مبتعداً صوب شجرة التين حتى حط عل غصن منها وصار يحدق في القبر الحديث.

تبعه آمد بنظراته ثم أغمض عينيه واستسلم للنعاس.

في هذه الأثناء، وبينما بدأ ينوس بين عالمين، تارة تدفعه أمواج النعاس إلى جزيرة النوم وتارة يعود مبحراً منها إلى شاطئ النعاس، شاهد آمد المرهق ما يفوق الخيال.

رأى الجزيرة تميد تحت معالمها، ثم تختفي بقعة وراء بقعة. الجسران الكبيران فوق النهر ينهاران، والشوارع تزول شارعاً في أثر شارع. كل شيء يتحول إلى غبار. البرج الأبلق التاريخي وضريح الجزري والمدرسة الحمراء الشهيرة حيث قضى شهور الشتاء. ضريح مم وزين، مدرسة العبدالية، مسجد النبي نوح، مسجد وسطاني، ما تبقى من قصر محمد آغا سور الأثري، المسجد الكبير، جامع أَرْزَنْ ذي المنارتين التوأم في الشمال... الحارات والأبنية وكل المعالم الأخرى تتحول إلى غبار. ارتفعت في السماء أعمدة كالأعاصير صعدت إلى الجو من كل ركن، وصارت تزمجر مثل الرعود. رويداً رويداً كانت الجزيرة كلها تختفي كأنها حلم تبدده اليقظة. لفَّ الغبارُ قممَ جبل الجودي من الشرق. ظهر الجبل الأشم من بعيد مثل عجوز صامت حزين يدخن بشراهة. تبخرت الأشياء وزالت المعالم حتى لم يبقَ في الأجواء سوى عاصفة من الغبار الكثيف غطت الجزيرة مثل قبة فطر هائلة خلفتها قنبلة نووية.

يوميات مقاتلة في جزيرة الحب

أنا نِشتيمان دوغان. أنا نِشتيمان ابنة سِنانْ دوغان صاحب شركة باطمان تكستيل في إسطنبول. أنا نِشتيمان الميتة، بل القتيلة، فهذا وصف أدق. هكذا سأفترض. سأكتب يومياتي في هذه الحرب، وراء هذه المتاريس في الشارع الذي يقع فيه بيت آمد، حصني المنيع، كأنني استشهدت فعلاً. فأنا رميت نفسي في هذه النار لأحترق. بحثت عن موت مشرف فلم أجد أفضل من القتال جنباً إلى جنب مع شباب في مثل عمري يقاتلون من أجل وطن يحلمون به حراً كما حلم به الآباء والأجداد. إذن أنا الشهيدة نِشتيمان دوغان. وما أجمل هذا اللقب! وسام شرف سيتدلى على روحي إلى الأبد. كنت أعشق الحياة رغم كل القسوة التي عشتها. كنت أتمنى أن أرسم لنفسي درباً معشباً يمتد سنوات طويلة لا تقل عن المئة. لكنني، لحظة قتلت، كنت في التاسعة عشرة أتلهف مثل كل البنات في عمري إلى بلوغ العشرين حيث تكتمل دورة الأنوثة وينضج القلب مثل رغيف.

سوف أكتب هنا عن يوميات الحرب كما كتبت عن حياتي الغريبة في دفتر وضعته في بيت آمد. سأكتب يومياً عن هذه اللحظات التي ترفع الأدرينالين إلى ذروته. لا أعرف إن كانت في الحروب فرصة للكتابة أم لا. لكنني سأحاول. الحرب نفسها كتابة قاسية. سأفترض من الآن أنني غير موجودة على سطح هذا الكوكب الظالم. أنا ميتة، قتيلة أو شهيدة أو جيش الدولة قام بتحييدي كما يحلو لإعلامه أن يصف قتل "الإرهابيين" الذين هم نحن. لكن هذا لا يهم. فالموتى يرون من المضحك أن يحار الأحياء في ألقاب يسبغونها عليهم ويختلفون فيها إلى حد التناقض.

***

لقد قتلت قبل لحظات برصاصة أصابت منتصف قلبي الذي أزهر فيه الحب. رصاصة واحدة ذهبية، صغيرة بحجم نحلة كانت لسعتها كافية لتنهي حياتي القصيرة مثل لمعة شهاب في سماء الصيف.

لكن لماذا أبدأ من النهاية؟ لماذا أبدأ الحكاية من لحظة مقتلي المفترض؟ لا أعتقد أنها فكرة جيدة أن أبدأ حكايتي بالموت. الموت لم يكن ولن يكون البداية أبداً. قد تبدأ رواية ما بمشهد الموت. قد تبدأ أحداث فيلم درامي طويل بمشهد قتل ومع ذلك يدشن المشهد إعلان ولادة جديدة. وقائع الموت في مبتدأ الروايات أو الأفلام ولادات جديدة. ولادات نصوص وحيوات وكائنات متخيلة على الأقل.

لكن مهلاً! من قال إنني ميتة أصلاً؟ لا دليل على موتي عند أحد. ولا حتى القناص الذي سدد بندقيته تجاهي وأصاب صدري يعرف تماماً أنه قتلني. لا أحد يعرف شيئاً عن مقتلي. إذ لا قبر يضم عظامي. ولا شاهدة رخام تشير إلى اسمي وتاريخ قذفي من رحم أمي إلى رحم القسوة كتلة لحم باكية. لن تكون هناك شاهدة قبر يدون عليها أحد شيئاً. سأحترق وأصبح رماداً يذروه الرفاق في دجلة كما أوصيتهم صباح اليوم. وهكذا من لا قبر له ليس ميتاً. سيبقى حياً في ذاكرة الآخرين إلى الأبد.

لست حزينة لأنه لا قبر لي. لست حزينة لأنني لن أجد باقات من الورد على قبري كل يوم جمعة. هذا لا يحزنني أبداً. بل يسعدني إلى حد ما أنني فتاة بلا قبر. القبور براهين التراب للباقين على فقد أحبائهم. ولأنني بلا قبر أنا متأكدة من أنني أحيا في ذاكرة من أحبني بجنون. الروائي آمد الذي أحببت أدبه. تركت له الدفتر الذي دونت فيه أفكاري وقصتي الأليمة. كذلك دفتر عمي كمال الذي وجدته في السرداب بعد موته. هذان الدفتران سيكونان كل شيء. سيكونان برهاناً على أنني عشت. لكن لا برهان على موتي. ولذلك أنا متأكدة من أنه لن ينساني. بل سيعيدني إلى الحياة كل دقيقة، ويتحدث عني، ويتخيلني، يتخيل تلك اللحظات التي عشتها، وبذلك سيمنحني حياة إضافية. الخيالُ بعثٌ جديد. والميت هو من لا يتذكره أحد، من لا يمر في خيال أحد.

ستصبح هذه المفكرة التي سأدون فيها يومياتي شاهد عيان يروي قصة مقاتلة في سبيل الوطن. سوف تُدفنُ روحي في دفتر مذكراتي ليبعثها آمد إلى الحياة. أنا متأكدة أن ما مررنا به من قصة خاطفة وهذه الأحداث الدراماتيكية ستكون مادة خاماً ودسمة جداً لفكرة رواية. عجينة سيحولها آمد في مخبز خياله إلى رغيف ناضج لذيذ. سترفرف روحي في روايته القادمة بلا شك. أما الجسد فلا يهم أين يكون لأنه فانٍ. جاء من العدم وإليه يعود.

هذا الصباح كتبت لآمد: "سنحتفل بالنصر قريباً يا ماموستا آمد (مع إيموجي يعبر عن الثقة والحماسة)".

رد فوراً: "عبارتكِ هذه سمعتها حرفياً لمرات متكررة حتى قبل أن تولدي بأكثر من عقد كامل يا رفيقة نِشتيمان (مع إيموجي بعينين تذرفان دمعاً أزرق)".

رددت عليه: "تختلف هذه المرة عن كل ما سبق يا آمد. أنا أثق بكلام الرفاق. لن يقدر أحد على أن يهزم إرادتنا. نحن ممتلئون بالأمل. بل نحن الأمل. انظر".

وأتبعتُ جملتي الأخيرة بصورة سيلفي التقطتها وخلفي الرفاق بالبنادق وإشارات النصر.

***

تسارعت الأحداث. وبدا بوضوح أن المواجهة العسكرية على وشك أن تحدث. أسرعت مرة أخرى إلى الجزيرة. أخبرت آمد بعودتي بسبب شعوري أنها المرة الأخيرة التي قد نلتقي فيها. وصلت بعد ثلاث ساعات من السفر. في الطريق شاهدت آليات عسكرية وعربات مصفحة وجنوداً منتشرين على جانبي الطريق في مداخل البلدات. كانت رائحة المواجهة تفوح من كل مكان. استقبلني آمد في محطة الحافلات. شاهدته متوتراً عبر زجاج النافذة المطرزة بخيوط المطر. لوحت له، وحين رآني هرع إلى مقدمة الباص ليعانقني بحرارة. حمل عني حقيبتي الصغيرة وصار يهذي ويثرثر كالأطفال من شدة الفرح. أشفقت عليه. لو كان بإمكاني أن أمنحه حباً يليق بقلبه الطيب، ما بخلت. لكنني أحب وطني أكثر. لا ينافس حب الوطن شيء آخر.

كانت الدنيا لا تزال تمطر. فتح آمد مظلته الشفافة الكبيرة ورفعها فوق رأسينا. غادرنا المحطة بعد أن اجتزنا أشجاراً عدة ودخلنا شارع ماردين ثم سرنا فيه حتى دخلنا شارع ميدان باشي ومنه وصلنا إلى جامع وسطاني حيث منزل آمد الحجري الجميل إلى الشرق منه مباشرة. في بيته القريب من ضفة دجلة الغربية، ناقشته في موضوع الانضمام إلى وحدات الحماية المدنية كثيراً. بينت له أنني جئت هذه المرة بغاية الاشتراك في القتال وألا عودة عن هذا القرار.

– ثلاثون عاماً والحرب قائمة بلا فائدة. بل لم ينلنا منها سوى الخسارة. قرانا تهدمت. فرغ الريف من السكان بعد أن نزح الملايين وتقطعت بهم السبل وتشردوا في مدن الغرب التركي. الآن يجب تغيير الإستراتيجية. ليس بالحرب وحدها تتحقق أهداف الشعوب. الحرية لا تأتي بفوهة البندقية دائماً. بالعكس ربما يفقد المرء حريته إن حمل السلاح.

– لا حل مع العدو الهمجي سوى الحرب.

– الحرب لا تجلب إلا المزيد من الدمار إلى منطقتنا. الحرب عجوز لا تلد إلا الخراب. لقد جربناها. فلنجرب النضال السلمي لو مرة واحدة. إنه يؤثر أكثر. صدقيني. اللاعنف حرر الهند من المستعمر البريطاني.

– متى أصبحت من أتباع غاندي؟ يا حبيبي، هذا العدو لا يفهم إلا لغة السلاح.

– ولغة السلاح لم تجلب إلينا سوى المزيد من المصائب. الدروب التي تؤدي إلى الحرية كثيرة جداً، وأحدها فقط هو طريق السلاح.

– هذا التراب لن يتطهر إلا بالدماء. كوباني لم تتحرر بالأدعية والصلوات ومناشدة قطعان "داعش" ترك المدينة. كوباني تحررت بالدم والرصاص.

سكت آمد. نظر إليّ نظرة غاضبة. وضع يديه في جيبي البنطلون وذهب إلى النافذة يحدق في جهة نهر دجلة الذي يطل عليه جبل الجودي العظيم من الشرق. بعد مدة قصيرة قال دون أن يدير ظهره: "أنا أرى مدننا تنهار وتهوي. أرى دخان الحرائق يختلط مع الغيوم وأسمع أنين الجرحى وعويل الأمهات. أرى جثثاً تتفحم وأطفالاً يتامى وأرامل وثكالى. أرى دماءً تسيل وقبوراً تملأ الساحات. أرى غباراً خانقاً يحجب الشمس".

وضعت كأس الشاي على الإسكملة المزخرفة ثم قمت من الكنبة العتيقة متوجهة إليه. وقفت بجانبه وقلت له: ”هذا بالضبط ما حصل في كل مكانٍ. نعم سيحدث كل هذا الذي تتنبأ به عندنا أيضاً. لكن هل رأيت سناً منخوراً يخلعه الطبيب دون أن تنزف اللثة دماً؟ كيف إذن وأنت تريد خلع أنياب الظلم وإزالة أشواك الفاشية، تلك المغروزة في جسد شعبك وبلادك بعمق؟ لا بد من الدماء والضحايا يا آمد. الغد مشرق. الغد أفضل بكثير من هذا الذي تتخيله“.

التفت إلي. قبلني قبلة خاطفة ثم حدق في عيني وقال: ”والجامعة، ومستقبلك؟ ألا يشكل كل ذلك في حياتك أموراً مهمة؟“

– بلى. لكن الوطن أهم. هذه المدن التي ترزح تحت النير التركي تنادينا الآن لنعينها على النهوض والتحرر.

– وحبنا؟

لم أتوقع هذه النقلة الخطيرة في النقاش. كان صاعقاً. كان آمد بارعاً جداً في إدارة النقاشات السياسية مثل لاعب شطرنج يمتلك خططاً لا نهائية لإدارة اللعبة، لكنني انتصرت بالشعر. كنت أرد على حججه القوية المقنعة بلغة شعرية ضبابية تحتمل معاني كثيرة. كنت بارعة في هذا الأسلوب حتى أن آمد سماني ذات مرة آنا آخماتوفا الكردية وقال لي وعيناه تلتمعان عشقاً: ”آخماتوفا مع كل سوداويتها. لكن ليس مثلها تنتقل من رجل إلى آخر. لن تحبي سوى رجل واحد هو أنا يا نِشتيمان“.

وحين سألني عن مصير حبنا خلال ذلك النقاش المحتدم قلت له: ”لا تخف يا آمد. لا تقلق. لا تقلق على الحب. سيأتي في وقته. هل تتوقع أن تثمر شجرة التين هناك الآن؟“

– لا.

– إذن دع الأقدار ترسم لنا دروب المستقبل. المهم الآن حربنا ضد العدو. بعدها ستثمر قلوبنا حباً نقياً يليق بنا كلينا.

– يا نِشتيمان الحرب شيء يختلف عن الحب. قد يكون إنهاء قصة حب أمراً مستطاعاً رغم مرارته، لكن الحرب لا. ربما يكون أمر بداية الحرب في يدك، لكن نهايتها ليست كذلك أبداً.

– الرفاق يقولون إنها ستكون خاطفة وستجبر العدو على الاعتراف بنا وبحقوقنا. المزاج العالمي تغير. لم تبقَ هناك حروب تدوم عشرات السنين. لقد ألهمتنا كوباني تماماً كما ألهمت ثوار العالم كلهم أن الحرية ثمرة العزيمة الصلبة والإصرار على النصر مهما سقط من ضحايا في الميدان. كوباني دليلنا إلى النصر. سنعيد تجربتها هنا في الجزيرة وشرناخ وباتمان ونصيبين وغيرها. صدقني. أنا أثق بكلمات الرفاق.

– الرفاق. الرفاق. وهل تظنين أنه يوحى إليهم؟

– لا تحتد يا آمد. لقد مضى زمن الوحي. لا أنبياء الآن، لكن المقاتلين والمقاتلات يتلقون وحيهم من انتصارات الثوار في كل مكان. كوباني منبع الوحي. إنها غار حراء أنبياء النضال في كل أصقاع الدنيا.

– وهل بقي في كوباني بيت لم يُدَمَّر؟ ما نفع النصر بعد أن تتحول البيوت إلى ركام؟

– يا آمد أنت أكبر مني وأكثر علماً ومعرفة بالثورات. ولك خبرة طويلة في هذا المجال. فهل غاب عنك أن البيوت حجارة يمكن إعادة بنائها؟ أيخفى عليك أن الأهم كرامة الأمم وشرفها؟ فلتذهب المدن والبيوت إلى الجحيم يا رفيق.

– وليذهب النازحون كذلك إلى الجحيم يا رفيقة. وليولد من رحم الحرب ناس يتضورون جوعاً وعائلات تتفكك وأمهات ثكالى ونساء أرامل وأطفال يتامى يتسولون الخبز على الطرقات، وحتى مجتمع منحل أخلاقياً وفاسد تنتشر فيه الرذيلة ولتغرق الأجيال القادمة في مستنقعات الضياع و...

على مدى يومين كاملين حاول آمد أن يقنعني بعدم جدوى ما يفكر فيه ويخطط له رفاق الحزب وكوادره. خضنا حوارات مضنية حتى الفجر. حاول كثيراً أن يثنيني. حدثني عن نشاطات السود السلمية في أميركا. روى قصة جميلة عن امرأة سوداء لم أعد أتذكر اسمها رفضت الخضوع لقوانين ولايتها العنصرية واستطاعت تغيير تلك القوانين لمصلحة شعبها. قصة فيها حديث عن باص نقل يفرضون فيه على الركاب تمييزاً عنصرياً. قلت له: ”لا تقارن دولة مثل أميركا فيها رغم إمبريالتها ورأسماليتها المتوحشة صحافة حرة وديمقراطية شئنا أم أبينا بدولة مثل هذه التي نعيش فيها محرومين كل حق“. لمست في محاولاته حرص

الأب أكثر من وله العشاق. لكنني لم أستمع لتوسلاته. انتصرت عليه وأزحته من طريقي. انتصرت الإرادة على العقل والعاطفة معاً. انتصر حب الوطن على حب الإنسان. والحب الحقيقي هو الذي تمنحه لوطنك المحتل الذي سيبقى إلى الأبد وليس لجسد يفنى بعد مضي قليل من السنوات.

في اليوم الثالث جاءت الرفيقة جيلان. كنا قبل أن تأتي الرفيقة جيلان نستمع معاً للارا فابيان التي ربطتني بها أواصر روحية قوية.

قال آمد مازحاً: "في الجبهة ووراء المتاريس لن تسمعي لارا فابيان. لن تسمعي سوى صوت الرصاص".

رددت عليه: "اسمع عني. تذكرني كلما غنت هذه المريضة مثلي".

حين طرق الباب وثب آمد يحتضنني ويقبلني ولما أخذ يتمادى نهرته وأبعدته عن نفسي بعنف.

لمعت عيناه ببريق حزين. رأيت طيف دمعتين في عينيه. لم أعرف هل هو يبكي لفراقي أم تأثراً بكلمات الأغنية أم لأنه لم يستطع تحقيق ما كان يتمناه من لقائي. قلت له مبتسمة: "للأسف سنسلبك بيتك يا آمد".

– لقد سلبتِ أغلى ما هو من البيت. سلبت عقلي وقلبي يا حمامتي.

تجاهلت غزله، وقلت له بنبرة حزينة: "أنت ستغادر المنزل يا آمد. الرفاق اختاروا هذه الحارة لجعلها ميدان قتال. إن بقيتَ سنقاتل معاً وقد نستشهد معاً وهذه فرصة رائعة لنا كلينا".

لم يرد. نظرت في وجهه. كان حزيناً يعج بالأسئلة، ويطفح بالحيرة.

غادر وصوت لارا فابيان يلاحقه كيدٍ أم تمتد إلى طفل يحترق.

لم يكن أمامي سوى هذه الطريق. لم يكن أمامي سوى أن أقاتل دون تردد. كانت الحياة عندي قد أصبحت بلا قيمة والشهادة صارت أكبر أمنياتي.

***

تحولت المدينة إلى ساحة حرب. جزيرة بوطان، الجزيرة التي ينتمي إليها آمد الذي انتشلني من كآبتي وخوفي ونفوري من الذكور ومنحني بعض

الأمان الذي افتقدته على مدى أعوام، صارت قلعة لمقاومة المستعمر التركي. انكفأ الشعر والحب وهمس العشاق وطمأنينة النفس لمصلحة معركة الحرية وزغردة الرصاص وصخب القتال.

***

منذ وصلت إلى الجزيرة وصدري يضمر يوماً بعد يوم.

"أنت تنحفين"، قالت لي رفيقة تدرس الهندسة المدنية في جامعة شرناخ ذات صباح.

– لم يحدث معي هذا قبل الآن. النحافة شيء أعرفه. لكن نهديَّ يصغران وهذا غير مألوف.

– وماذا ستفعلين بهما؟ هل هما قنابل يدوية؟ نحن أمازونيات أصلاً.

– على الأقل يبقى ثدي واحد لأكون أمازونية حقيقية.

– أمازونيات كُردستان بصدور مسطحة. السطوح المستوية في الهندسة تمتد إلى اللانهاية بعكس الدوائر والكرات.

تبادلنا، أنا وطالبة الهندسة، الضحكات وسط إطلاق رصاص كثيف اضطرنا إلى الصمت.

***

موقعنا في الناصية التي يقع فيها منزل آمد، حيث أقمنا المتاريس والخنادق. إنه غير بعيد عن منطقة تمركز قوات العدو التركي على الطريق المؤدية إلى إقليم كردستان العراق عبر الجسر الكبير الذي يقع إلى الجنوب. نرى الجنود الأتراك عبر ناظور الرفيق زرادشت يروحون ويجيئون ويقصفون ويسقطون قتلى. يقول الرفيق زرادشت إن الألغام التي زرعها الرفاق كفيلة بردع العدو. يقول أيضاً: "إننا محصنون تماماً وتحمينا الألغام والخنادق التي حفرناها. إن وجود المدنيين هنا أو وجودنا بينهم يشكل لنا عنصرَ حماية إضافياً إذ لن تتجرأ قوات العدو على قتل أعداد كبيرة من المدنيين خوفاً من الرأي العام العالمي".

***

الحرب تشتد. المعارك لم تتوقف منذ البارحة.

شهداء كثيرون سقطوا. سمعت على مدى ساعات جرحى يئنون. قيل أن جريحاً بجانب جامع وسطاني نزف حتى الموت.

لم يستطع الرفاق إسعافه. قناصة الجيش منعوا أي محاولة للاقتراب.

سمعت أنينه واستنجاده وكدت أبكي.

أن تخوض الحرب ليس كما تسمع عنها.

ما أسهل الحرب حين نقرأ عنها في الكتب والروايات!

تحصيناتنا ليست محكمة. العدو يقصف كل شيء. يضرب بالمدفعية والطيران. لم نتوقع هذا الأمر. هناك منازل تنهار.

لا نعرف ماذا يجري في الحارات الأخرى. التنقل صعب بل مستحيل في ظل القصف. يضطر الرفاق إلى حفر منافذ في جدران الغرف من أجل الانتقال من مكان إلى آخر. سنقاتل العدو حتى النهاية. والنهاية احتمالان: إما أن نستشهد وإما أن ننتصر. العدو يرتكب المجازر. البنايات تتهدم. ما هذه الوحشية؟

على كل حال ليس لدي ما أخسره. إن لم أعش في وطن حر فالموت أهون.

***

الألم بين فخذي غريب. وضمور الصدر مستمر عندي. الموضوع ليس مقلقاً، لكنه غريب. هل سأصبح أمازونية حقاً؟ يا للروعة!

***

ليس أمامنا خيار آخر غير المقاومة. أصلاً لم يترك العدو التركي أمام شعبنا مجالاً إلا القتال.

تقول الرفيقة جيلان: ”لا يتركون لك سوى طريق واحد وعر ثم يحاسبونك على السير فيه“.

الحرب ليست نزهة. كل التصورات الرومانسية تتلاشى بعد أن تصبح الحرب واقعاً. نواجه الموت كل لحظة. بعد النصر، بعد انتهاء الحرب، سأكتب تجربتي في المقاومة.

سننتصر. وربما تنتهي مغامرتنا الثورية هذه وأسقط شهيدة. وهذه أمنية. ستتطهر روحي المعذبة. النيران تزيل الصدأ. والأرواح حين تصدأ لا تتطهر إلا بنار تجربة حياة سامية. سأصبح صفحة بيضاء ناصعة باستشهادي بعد أن تلوثت روحي ولم أعرف كيف أعيدها إلى براءتها الأولى.

***

المتراس الذي أقمناه من أكياس الرمل بارتفاع متر ونصف أصبح بيتي. لم أعد أغادره. نلاقي صعوبة كبيرة في تأمين مستلزمات الحياة. الخدمة اللوجستية ضعيفة جداً. الخبز أصبح حلماً.

الطعام ترف. والنوم رفاهية لم نعد نحلم بها. والموت في كل مكان. لا أعتقد أنني سأستمر في كتابة اليوميات في هذا الوضع الجديد.

***

دميتي معي. دياري التي رافقتني في طفولتي المعذبة معي. ستبقى معي لتشهد موتي وتسرد أوجاعي لدمية أخرى إذا صادفتها.

حين تصيبني الطلقة الذهبية الرشيقة كما أتمنى سأنظر ملياً في عينيها. سأحدق فيهما لأشاهد كل أسراري المكتومة تلمع كأنها سراب في ظهيرة صيف، أو سرب حمام هائم في لحظة قصف. سأخبرها بنغمة بطيئة كبقية دم يسيل من جرح: ”أنا أموت يا دياري. يحزنني أننا سنفترق. لكن لا تبوحي بأسراري لأحد. اتفقنا؟“

ستصمت دياري. سألاحظ ارتجافةَ شفتيها وملامح الحزن التي تبدل سحنتها من محببة جميلة إلى فظيعة مخيفة.

ستومئ لي برأسها تقصد ”نعم“ وأنا أسلم الروح. عندئذ سأغادر الدنيا وأنا مرتاحة إلى أن أسراري محفوظة عند دمية خرساء لن تبوح بها إلا لدمية خرساء مثلها.

أما دفتري، فسيقرأه آمد. سيكون مادة ملهمة لكتابة رواية. أنا أثق بقدرته.

***

استشهد اليوم ثلاثة من رفاقنا المقاتلين. سحبناهم تحت وابل الرصاص إلى داخل قبو تحت الغرفة الشمالية من منزل آمد. قالت الرفيقة زيلان: ”حين تهدأ الأوضاع سندفنهم بكرامة، سندفنهم بشعائر تليق بالشهداء“.

الرفيقة زيلان في عمر آمد. حنون وطيبة ومتفائلة بالنصر. تمتلك شجاعة فائقة وثقافة ثورية عميقة. حين حدثتها عن آمد قالت إنها تعرفه وتعرف أن هذا منزله. مصادفة عجيبة. قالت لي قبل قليل وهي تضع أمامي صندوق الطلقات: ”كنا رفاقاً في الجامعة في أول سنة. حين سمعنا أنه اعتقل مع سائق الحافلة في طريقهما إلى بلدة شرناح طلب مني الرفاق أن أتوارى عن الأنظار. كان سائق الحافلة الخال حامد رجلاً أمياً لكنه كان الأكثر ثورية في مجموعتنا“.

بعد شهر من القلق والترقب اخترت الالتحاق بالجبال. هناك تكتشف المرأة ذاتها الجبارة. المرأة ليست زوجة وأماً فقط كما يحلو للرجال أن يضعوا لنا أطراً ترضي ذكوريتهم. المرأة هي منبع النضال وهي الركن الأساسي في كل ثورة.

***

نهداي اختفيا تقريباً. لست حزينة عليهما.

فليذهبا إلى الجحيم. الحرية أهم من الأنوثة.

***

منذ أسبوعين لم أكتب في هذه المفكرة شيئاً. لا وقت لدينا. المعارك تشتد. الرفاق يسقطون بكثرة. لا يمكن إسعاف الجرحى. والذين يستشهدون لا يمكن دفنهم. الرصاص يسقط أكثر من المطر. وفوق كل ذلك طرأ في جسدي أمر غريب. النهدان ضمرا إلى درجة أن صدري أصبح

سطحاً مستوياً تقريباً.

تبدل آخر شاذ أقرب إلى الخيال وأفلام الرعب يطرأ على جسدي بوتيرة متسارعة. ازدادت منذ نحو عشرة أيام آلام منطقتي الحساسة. شعرت بأن شيئاً ما ينمو هناك ويضغط ليخرج. أحسست أن فرجي يكاد ينفجر. في البداية، ظننت أن وقوفي الطويل وراء المتراس سبب كل تلك الآلام. لكنني حين نظرت صباح اليوم إلى ما بين فخذي رأيت بروزاً عجيباً تخيلته ندبةً أو ورماً.

قبل قليل ذهبت لقضاء الحاجة. بعدها نزلت إلى القبو المعتم أعاين ما يحدث بين فخذي. انزويت في زاوية خالية من القبو وسلطت ضوء المصباح الكهربائي الصغير على فرجي.

يا للهول!

إنه قضيب. لمسته بيدي لأتأكد من أنني لست في كابوس.

نعم، تسطح صدري وغاب نهداي ونبت لي قضيب حقيقي.

قضيب صغير انتصب بعنف حين داعبته.

فتاة مدفونة أسفل شجرة تين

سأكتب عن حياتي الأليمة التي عشتها. سأكتب في هذا الدفتر عن الرعب الذي تقلبت على شوكه عاماً كاملاً وترك في روحي ندباً عميقة وجراحاً لا تندمل.

لست كاتبة متمرسة. لا أجيد أبداً فن كتابة السيرة الذاتية لكنني قارئة نهمة. وشاعرة شهد لي بعض النقاد الذين التقيت بهم بتميزي وصوتي الفريد وكذلك كثيرات من رفيقاتي شهدن لي بالموهبة الأدبية وتوقعن لي مستقبلاً باهراً ومكانة مرموقة بين شاعرات الكرد. لكن الألم الكبير لا يحتاج إلى كثير من البلاغة أو الخيال لتدوينه بصدق. يكفي أن تتألم الأنثى حتى تسيل في أودية الخيال أفكار تتحول إلى كتابة متقنة. أحياناً أسأل نفسي كيف ستكون الحياة إذا حذفنا الكتابة من نشاطات الإنسان؟ لا يمكنني أبداً تخيل البشرية دون كتابة.

أما لماذا أكتب هذا البوح؟ أنا أيضاً لا أعرف. لا أعرف لماذا يكتب الإنسان تجاربه حلوة أو مرة ويحرص على تدوين ما شهده من أحداث بوجوهها المتعددة؟ هل ليخفف عن نفسه؟ هل ليضع ما عاشه أمام عينيه ويتأمل المشاهد والفصول المكتوبة ليفسر ما حدث؟ هل هو فعلاً شيطان العبقرية يوحي أو يوسوس لابن آدم أن يشاكل الخالق في الخلق، أم هي نزعة الإبداع الأدبي التي تميز البشر عن غيرهم من الكائنات؟ لا أعرف. الكتابة، كما قال لي آمد ذات مكالمة بعد لقائنا الأول قيد وتحرير. "الأفكار كثيرة تسرح كغزلان برية لا بد من اصطيادها وتقييدها بالكتابة. وفي الوقت نفسه الصور والأفكار مقيدة في المخيلة كالطيور في الأقفاص لا تحررها إلا الكتابة. الكتابة تقييد وتحرير في الوقت نفسه يا نِشتيمان. هكذا شرح لي آمد موضوع الكتابة وشجعني على البوح.

قلت له: "أنا لست متمرسة". قال: "كل الكتاب العظماء لم يكونوا متمرسين. لم يولد أحد وفي يده ورقة كتب فيها عن تجربته في بطن أمه. لم يأتِ كاتب إلى الدنيا وبين أصابعه قلم. اكتبي ولا تتهيبي يا نِشتيمان".

ثم قال ضاحكاً: "القلم أول مخلوقات الرب. هل رأيت؟ حتى الرب بدأ كاتباً".

***

لم أكن أثق بالرجال ولا أثق بهم حتى هذه اللحظة. أستثقل حتى ظلالهم إن مرت بقربي. أشعر بها ثقيلة خشنة فأتحاشاها. نفوري منهم يعود إلى أيام الطفولة. لم أعد أطيق رائحة الذكور ولا كلامهم ولا نظرات أعينهم التي تخفي وحشية الإنسان الأول تحت بريق مزيف. ولأنني أعلم أنني ذاهبة الآن إلى موتي وواثقة من حدوثه لن أتحرج من سرد أي حادثة مهما كانت بشعة. سأقول كل شيء. سأبوح بالسبب الذي جعلني أضع بيني وبين الذكر سداً مثل سد يأجوج ومأجوج. نعم. سأقول كل شيء لم تسعفني الحياة لقوله. سأكتب ما لم ترد أمي أن تسمعه مني رغم محاولاتي. سأسرد على هذه الصفحات كل شيء لم أتجرأ وأنا حية على سرده. سأحكي ما جرى لي مذ كنت طفلة وحيدة لأبوين أحدهما لا يعيش في البيت. سأحكي كل ما جرى لي في سنتي السادسة كطفلة لا تعي من الدنيا سوى ألعابها ودُماها. سأحكي وأبوح فالموت يمنح المرء جرأة البوح. إنه مثل السُّكْر تماماً. الموت سكرة رهيبة. سكرة تزيح كل الحواجز التي تعيق انطلاقة اللسان. تمنحه سوطاً يجلد به حمار الحياء فيهرول في دروب الجرأة. الموت مطرقة تحطم قيود الكتمان. إنه الفرصة الوحيدة التي تُمنح للمرء ليرفع الضماد عن جراحه ويزيح الغطاء عن أسراره ويرمي عن وجهه القناع الثقيل الذي عاش به طوال عمره.

كان أبي في السجن.

هذا ما عرفته في ما بعد. فالأطفال لا يعرفون الحقائق إلا بعد مضي وقت طويل. قالوا لي وقتذاك إنه مسافر إلى إسطنبول لقضاء أشغاله. لم يكن لي شقيقات ولا أشقاء. لقد أجبر والدي أمي المسكينة على أن تجهض ثلاث مرات أو أربعاً. قالت لي أمي وهي تسرد لي في زمن متأخر قصة زواجها بأبي وسبب كوني وحيدة: "أنت جئت بالمصادفة يا نِشتيمان".

وكم من المرات تمنيت لو أن هذه المصادفة لم تكن! تمنيت كثيراً لو أنني أحد الأجنة التي طرحتها أمي.

"لا يخلقني الله إلا لأتعذب"، أردد لنفسي دائماً. رفعت يدي إلى السماء متضرعة متذمرة مرات كثيرة وأنا أدعو الله بيأس: "لا أستطيع أن أحيا كما أريد، ولا حتى كما تريد فلماذا خلقتني يا رب؟"

اضطرت أمي بعد مضي شهرين من غياب أبي أن تنزل عند رغبة جدي الملا عبد القدوس والد أبي وتنتقل إلى بيته. كان جدي إماماً وخطيباً وكان بيته ملاصقاً لمسجد البلدة الصغيرة التي هاجر إليها هرباً من الغبار الذي عصف بالقرى المنسية في أحضان الجبال الوعرة. كانت هناك حجرة للضيوف شبه مهجورة في ركن قصي من باحة الدار وتحتها سرداب ينزل إليه المرء بست درجات.

في ذلك السرداب المعتم، عشت سنة كاملة من الرعب والكوابيس. أسابيع وأشهر طويلة سممتْ حياتي حتى هذه اللحظة التي أدون فيها قصتي.

بدأ الأمر في أحد أيام الربيع. لم أكن قد أكملت عامي السادس.

كان الوقت قريباً من المغرب وكنت في باحة الدار ألعب وحدي تحت ظل شجرة التين في الزاوية الشمالية. ركبت الأرجوحة التي عملتها أمي بربط حبل بغصن التينة ووضعت عليه مخدة محشوة بصوف الغنم. استمتعت بهواء عليل خشخشت له أوراق التين العريضة وصرت أرى ضوء النهار يتلاشى رويداً رويداً ويحتضر. ولما مللت من التأرجح، نزلت وانزويت في ركن الباحة وصرت ألعب مع دميتي الكبيرة التي كنت أسميها دياري[1] وكان أبي سِنان دوغان قد اشتراها لي من ديار بكر ذات مرة.

1 باللغة الكردية هدية.

بعد دقائق لمحت عمي قادماً من غرفة المعيشة وبيده الطنبور. حين وصل قريباً مني شاهدت ابتسامة غريبة تتأرجح على شفتيه وعيناه تلمعان بوهج غريب. لم أعهد ذلك التوهج في عينيه قبل ذلك. كنت أحب الموسيقا وأستمتع بعزف عمي وأعتبره أعظم عازف في الدنيا.

حين صار بجانبي وضع الطنبور تحت إبطه الأيمن، وأمسك بطرفي الأرجوحة ثم مال علي وهو يقول بصوت كأنه الفحيح: ”تعالي أعزف لك“.

بغريزة الأنثى التي لا يمكنها أن تخطئ في استكناه مرامي الذكر، لو عبر حركة بسيطة أو نبرة صوت أو إيماءة أو ملمح يظهر على الوجه، أدركت أن عمي ليس في حالة طبيعية.

نظرت إلى عينيه فرأيت الشهوة تمطر منهما كأنها السَّحُّ. كنت طفلة صغيرة نعم. لكنني كنت أنثى، والأنثى تستشعر هبوب عاصفة الشهوة عند الذكر حتى لو كانت في رحم أمها.

جلس عمي في الأرجوحة ثم دعاني إلى الجلوس في حضنه. قمت من مكاني حتى وصلت إلى الأرجوحة وقفزتُ حتى استقرتْ مؤخرتي الصغيرة فوق فخذه اليمنى.

في البداية، مرر أصابعه على الأوتار ببطء. انسابت الألحان هادئة لطيفة. بعد ذلك شعرت به يطوقني بين ذراعيه. ثم أخذ يعزف أسرع وأحسست بأن شيئاً ما يتمدد تحتي لم أعرف ما هو. شيء صلب وساخن يكاد يستقر أسفل مؤخرتي بالضبط كأن بالوناً صغيراً ينتفخ. صار عمي يلهث وهو يعزف. سمعت لهاثه مختلطاً بنغمات الطنبور. أمسكتُ بدميتي الصغيرة وشددتها إلى صدري كأنني أحتمي بها وأحميها، وصرت أراقب الوضع وأنتظر ما ستؤول إليه الأمور. بعد مدة قصيرة شعرت بالضيق فحاولت الإفلات من بين ذراعيه لكنه ضغط بمرفقيه على خاصرتي ليمنعني من النزول حتى أوجعني. وعندما أوشكت أن أصرخ من الألم أرخى يده التي تمسك بمقبض الآلة الموسيقية وقال لي: ”سأكمل لك العزف في سرداب حجرة الضيوف يا حبيبتي. تعالي معي يا نِشتيمان“.

ثم نزل من الأرجوحة وأنزلني معه. أمسك بيدي اليسرى وصرنا نمشي باتجاه الحجرة الواطئة الخالية بينما ارتفع صوت جدي الملا عبد القدوس من المنارة الحجرية المضاءة بمصابيح كهربائية عدة يدعو لصلاة المغرب.

***

في المرة الأولى، انتابني رعب لا نهائي. لم أفهم لماذا دفع بي إلى ذلك السرداب الذي كنا نخاف الاقتراب منه. حذرتني أمي دائماً من الذهاب إلى الحجرة المهجورة وعدم النزول إلى السرداب. حكت لي عن أرواح

معذبة تسكنه وتصيح في الليل. كانت تلك الحكايات أكبر من وعيي. أرواح معذبة؟ لمن هي؟ ولماذا لا نراها؟

– فليكن معك دائماً دبوس، مسمار، قطعة معدن حين تذهبين إلى هناك.

– ولماذا؟

– لأن الجن يخاف من الحديد؟

– وما الجن؟

في ذلك السرداب، عرفت الجن على حقيقتهم. هم مثلنا. يعيشون بيننا، ويأكلون معنا، ويقاسموننا أسرتنا وموائدنا وهواءنا الذي نتنفسه والغبار اللعين الذي نستنشقه. لا فرق بيننا وبينهم. هم منا. ونحن منهم. هم نحن.

اختلطت لدي الأمور. خفت كثيراً. أيقنت أن الذي يأخذني باتجاه الحجرة اللعينة وسردابها المخيف كلما سنحت الفرصة لتتفتق شهوته عن فنون شيطانية مقرفة يمارسها علي ليس عمي. لا يمكن أن يفعل العم بابنة أخيه ما يفعله هذا الجني اللعين. كنت صغيرة جداً على ذلك العهر الذي مارسه الجني أو عمي الجني بحقي. تشوشت. هل ما يحدث لي حقيقة أعيشها أم كابوس طال به العهد كثيراً ولا أحد يوقظني منه؟ أين أنت يا أبي؟ لماذا لا تأتي وتأخذني في حضنك لأنام بأمان؟ جدتي مشلولة وجدي لا يأتي إلى البيت إلا لينام وأمي مشغولة بحكاياتها عن الجن إذ تقصها على نساء الحي اللواتي يأتين في الصباح لشرب القهوة عندها وفي الأصائل يشربن الشاي ويدخن بشراهة وهن يتحدثن عن أزواجهن بخفوت تام وقهقهات ماجنة.

***

ذات مرة لاحظتُ أن الجني يحدّق في جسدي وعيناه تفيضان بالشهوة. ثم ما لبث أن ضمّني وأصبح يفحُّ في وجهي مثل كوبرا هائلة، عصرني وهو يتحسّس جسدي الصغير. خفق قلبي بشدّة ثم استبدّت بي رغبة عارمة في التقيؤ ولم تمضِ دقائق حتى تقيأت.

شعرت أنني منهكة، منتهكة، خائرة، خائفة، محترِقة، مخترَقة، ملوّثة، مشوشة. خرجت ومعي دميتي دياري. شددت عليها بقوة. حاولت أن أواسيها لأنها شهدت معي كل شيء. لكنها لم ترد علي. كانت خرساء. مجرد دمية لا أكثر. كم كنت أحسدها لأنها لا تعاني مثلي من جني يضحي ببراءتها على مذبح شبقه.

لا أعرف كيف كان الجني يتصرف بعد خروجي. بالتأكيد، كان يغسل قيئي، ويرتب السرداب العفن ثم يجلس على الكنبة الحقيرة ويعزف. عرفت ذلك لأنني كنت عقب كل خروج أسمع ألحانه تتبعني حتى لحظة وصولي إلى جمع النساء المتحلقات حول أمي تبصر لهن في الفنجان، أو تحكي لهن حكايات الجان.

لم تلاحظ أمي شيئاً. هي أصلاً لم تكن تكترث لوجودي ولا حتى غيابي إن كانت صديقاتها عندها. مرات عدة أحببت أن أحكي لها، لكنها كانت تصدني، وتبعدني عنها بحركة خشنة من يدها وتقول: "أنت مثل القراد. تلتصقين بي وتظلين توشوشين. ابتعدي عني يا قملة. لا وقت لدي لسماع طلباتك التي لا تنتهي. ثرثري لأبيك ما تشائين حين يعود".

***

قال الجني حين انتهكني في المرأة الأولى: "الجن سيحولونك إلى كلبة إن قلت شيئاً لأحد".

صدقته طبعاً. وأي طفل لا يصدق ما يقوله الكبار!

ثم كرر كل مرة: "الجن سيحولونك إلى عقرب، إلى أفعى، وربما حولوك إلى حشرة كريهة تدعسك الأقدام. إن تكلمت بكلمة واحدة، فسيخطفك الجن ليحولوا دمك إلى عصير وعظامك إلى كؤوس".

صدقته أيضاً. صدقت كل تحذيراته. الكبار لا يكذبون. الكبار يعرفون كل شيء. الكبار قادرون على فعل كل شيء.

عمي الجني، العازف بمهارة فائقة على أوتار الشهوة، أتقن اللعبة. كل مرة كان يحذرني من إفشاء السر ويخوفني بالمسخ، ومرات كثيرة كان يغريني بأشياء جميلة جداً، فيضع في

كفي مثلاً ورقة نقدية لا يحلم بها أي طفل: ”يمكنك شراء ما تشائين. عشر بالونات ملونة من دكانة الحارة. عشر مصاصات سكرية“.

ثم يعدني: ”سأشتري لك دراجة. ألا تحبين الدراجات؟ ماذا تحبين؟ ها؟ هيا يا عسل. انطقي. سأشتري لك كل شيء“.

أشد قبضة يدي على الورقة النقدية مكافأتي على السكوت، وأمشي بلا روح، ممسكة بيد دميتي الخرساء، صوب حلقة النساء الغارقات في مجون قهقهاتهن، اللواتي لا يأبهن لوجودي.

***

حدثت بعد ذلك من أمور وحوادث عجيبة مرعبة خفت من البوح بها حتى لكاتمة أسراري ورفيقتي دياري الخرساء.

يوماً بعد يوم صرت أشعر بتبدلات عجيبة تطرأ على أصابعي العشرة. شعرت بها في البداية كأنها تفقد سلامياتها. كل إصبع من أصابعي صارت رخوة بلا عظام. ثم سرعان ما اتخذ الإصبع الأوسط من كل يد شكل قضيب. ما لبث أن طاول التحول كل الأصابع.

أي رعب هذا؟ أي امتحان يا رب؟ وما الحل؟ لا بد من إخفاء هذه الأصابع الشيطانية.

صرت في البداية أضع يديَّ تحت إبطيَّ أخفيهما عن كل عين. لكنني بحثت عن حل دائم. لم يعد بإمكاني البقاء مكتفة طوال الوقت. لا بد أن أمد يدي إلى الطعام مثلاً. سأمسك القلم حين أدخل المدرسة. كيف سأضم هذه الأصابع الرخوة على القلم؟ كيف سأرفع يدي في الصف وأنصب إصبعي السبابة في وجه المعلمة مثل قضيب الجني المنتصب؟ يدي غابة أيور. يا إلهي. ما هذه اللعنة.

تحولت أصابعي العشرة إلى استطالات شبيهة بعضو الجني الذي كنت أضمه بين أصابعي ثم أصبحت أمصه أحياناً.

نعم. صرت أمصه أيضاً. صار الجني يبحث عن أي ثقب يضع فيه عضوه المتوتر. كان يعبد الثقوب مثل كل رجل.

في إحدى المرات، اشتد هياجه. صار يأمرني بالإسراع والنظر في عينيه مثل كل مرة. فجأة صرخ: ’’افتحي فمك‘‘.

نظرت إليه مدهوشة دون أن أعي ماذا يقول: ’’افتحي فمك‘‘.

فتحت فمي. لكنه أمرني وهو يشد شعري بعنف: ’’أكثر‘‘.

***

تقيأت تلك المرة أيضاً حين أحسست بشيء يلامس أقصى حلقي.

أردت أن أبكي لأنني أوشكت على الاختناق. لكن الجني حشا فمي بمنديل كان معه على الدوام: منديل مربع سماوي اللون على أطرافه خطوط كحلية كان يمسح به عرقه ومنيه ولعابي. أجبرني على الصمت.

وخوّفني كما في كل مرة: ’’سيطحن الجن عظامك وسيحولونه إلى دقيق إذا بكيت‘‘.

عشت في ذلك السرداب أهوالاً وقبائح أخجل من البوح بها حتى هذه اللحظة. نويت حين بدأت الكتابة أن أقول كل شيء. لكنني لا أستطيع. تلك اللحظات الأكثر رعباً وبشاعة وقذارة من حياتي وأنا طفلة لا يمكن أن أستعيدها. ولا يمكن أبداً أن أستحضر تلك الثواني التي مرت ثقيلة كالمداحل على روحي حين كان يستفرد بي الجني. لقد تركتْ تلك السنةُ الكابوسية ندبةً بارزة في روحي لكن لم يلاحظها الآخرون وليس بإمكاني أن أريها لأحد.

خلال ذلك العام المنحوس حاولت مرات عدة أن أبوح لأمي بما يجري معي. كنت أذهب إليها وأحاول أن أوشوش بما يحدث معي. أردت أن أتحدث إلى أمي لكنها كانت دائماً منشغلة بصديقاتها وفناجين القهوة وقراءة الفأل. في بعض الأحيان، كانت تنهرني قبل أن تسمع شكواي أو تصغي إلى قصتي ومأساتي.

ذات مرة، كنت في السرداب كالعادة مع الجني.. سمعت وقع أقدام تقترب من باب السرداب. بحركة خاطفة ارتدى الجني بنطاله. زرره ومد يده إلى نسخة من **القرآن** كانت على الرف وفتحها على الصفحة الأولى.

فوجئت بجدي واقفاً لدى الباب يمسك بإحدى عضادتيه ويحجب ضوء الخارج بجسده الضئيل ويقول مخاطباً عمي: ’’سأرفع أذان العصر. حذار أن تفوتك صلاة الجماعة‘‘. ثم

أردف كأنه فوجئ برؤيتي: "ماذا تفعلين هنا يا نِشتيمان؟" رد عمي الجني بسرعة كأنه صاغ الجواب سابقاً: "سأعلمها الفاتحة".

ردد جدي عبارة "ما شاء الله" مرات عدة ثم قال وهو يدير لنا ظهره متجهاً إلى المسجد: "الله بك يا ولدي. ليت أخاك سِنان كان مثلك".

***

لم أجد أمامي سوى دميتي السمراء دياري لأحكي لها قصتي المرعبة المقرفة. قصصت عليها كل شيء، وبحت لها بما أعانيه يوماً بعد يوم. كل ليلة حين كنت آوي إلى فراشي، كنت أقص عليها حكاياتي. كانت المسكينة تنظر إليّ بحزن وصمت. أحياناً كثيرة كنت أرى طيف دمعتين تنحدران على خديها القماشيين. قصصت عليها أسراري كلها وطلبت منها أن تتكتم عليها. بالطبع لم تبح دياري لأحد بما أفشيته لها. لم تغادر حضني ولم أسمح لها بأن تتركني. كانت معي دائماً وستظل معي حتى أموت.

***

لم أعد قادرة على أكل اللحم بعد تلك التجربة المقززة. ضربتني أمي كثيراً لأنني لا أتناول اللحم. أجبرتني مرات عدة وفي كل مرة كنت أتقيأ. كانت تسألني باستمرار: "لماذا لا تأكلين يا قردة؟" وكنت أجيب كل مرة: "لا أقدر. لا أشتهي اللحم". ظنت أمي أنني مريضة. أخذتني إلى طبيب في مركز البلدة. وصف لي الطبيب نوعاً من حبوب فتح الشهية، فصرت آكل فعلاً بشهية كبيرة لكنني لم أقرب اللحم. ظللت ممتنعة عنه كأنه لعنة. كانت أمي تقول كل يوم: "ستموتين من الهزال. سينقصف عمرك كما عود ريحان". وحين لاحظت شهيتي الجيدة توقفت عن إلحاحها. لكنها بقيت مصرة على أن آكل اللحم فأخذتني بعد مدة إلى شيخ منصور

وكان شيخاً مشهوراً يسكن حارتنا ويكتب الرقي والتعاويذ فحصلت منه على تميمة جعلته على شكل قلادة وألزمتني ارتداءها دائماً. صادف ذلك التحاق الجني بصفوف الجيش التركي ضمن الخدمة الإجبارية. عدت إلى أكل اللحوم ففرحت أمي وصارت تحكي لصديقاتها عن كرامات شيخ الحارة وقوة مفعول تمائمه.

أصابعي أيضاً عادت إلى طبيعتها بعد أن أصبح الجني جندياً.

استغربت أن أمي أو الآخرين لم يلاحظوا تبدل أشكال الأصابع عندي. حتى عمي الجني لم يقل شيئاً. قلت لنفسي: ربما كان الأمر مجرد تهيؤات. ربما كنت أتخيل أموراً لا تربطها بالواقع أي صلة! من يعرف ما الذي تفعله الصدمات النفسية بالإنسان، هذا الكائن المتناقض، الهش كرقاقة خبز يابس والمتين كصفيحة فولاذ مسقي!

لكن أمراً غريباً عكّر صفو فرحتي المؤقتة بعد التحاقه بالجيش. صرت أرى في كل ثقب من ثقوب جدران البيت عضواً مقطوعاً، عضواً شبيهاً بعضو عمي الجني. كان يبدو من الدماء التي تسيل من نهايته كأنه عضو طازج قطعته للتو مدية حادة. سددت أول ثقب بمنديل الجني الذي تركه في البيت. برز آخر في الثقب التالي. سددته أيضاً، فظهر عضو جديد في ثقب ثالث ورابع وخامس وسادس حتى عجزت عن العد. كانت الجدران مبنية من حجارة ومليئة بثقوب لا تعد ولا تحصى. صرت أخاف اللعب بجانب الجدران التي كنت أستمتع فيما مضى بظلالها. جدار شرقي كان يهديني ظلالاً باردة منعشة في الصباح، وجدار غربي كان يمنحني ظلالاً رائعة عند العصر حين يخف الحر في الصيف. صرت أتخيل أن القضبان الذكرية اللعينة تتحول إلى ثعابين تخرج زاحفة من تلك الثقوب لتأتي وتتكور في فراشي وتلدغني. لم ينتهِ الأمر مع هذه المخاوف التي كتمتها كالعادة إلا حين جاء جدي ذات نهار بعاملين لبَّسا كل جدران البيت من الداخل والخارج بطبقة قوية من الإسمنت درءاً لخطر الأفاعي والعقارب وهوام الصيف كما سمعت جدي يقول لجدتي المشلولة ذات صباح.

***

ذاقت روحي طعم الهدوء بعد أن تكفل الإسمنت سدّ كل الثقوب في

جدران بيت جدي. لكن من يسد ثقوب الذاكرة التي تنسرب منها أفاعي تلك الأيام المرعبة؟ هذا كان السؤال المهم الذي لم يستطع أحد أن يجيبني عنه. كانت ذاكرتي متخمة بصور كابوسية رهيبة، ومليئة بلحظات جهنمية من استفراد ذئب يتضور جوعاً بخروف رضيع لا تسعفه قوائمه بالهرب أمامه. عجَّت أحلامي بمشاهد مخيفة كنت أرى فيها السماء تمطر قضباناً، والأرض تنبت قضباناً، ودالية العنب الأبيض وسط الحوش تحمل عناقيد حباتها تتدلى مثل أعضاء ذكرية صغيرة والهواء متخم بقضبان منتصبة تتصادم فأسمع لتصادمها صوتاً لا يشبه أي صوت.

صارت عشرات الأفاعي تتدلى من ثقوب ذاكرتي الغضة الطرية كما تدلت القضبان الذكرية في كرمة خيالي حتى بتُّ أخشى النوم أو إغلاق عيني. ورغم أنني سردت لدميتي السمراء دياري كل شيء لكن ذلك لم يخفف عني. كانت الدمية تبقى صامتة حزينة ترنو إليّ بنظرات جامدة تؤلمني أكثر مما تساعدني على تجاوز المحنة.

كنت بحاجة إلى عينين تنبضان بالحياة لأقصّ حكايتي وأرى فيهما وقع المصيبة التي مررت بها، عينين بشريتين رحيمتين تتقاسمان معي هذه الأهوال لعلهما تخففان عني قليلاً مما أعانيه. لكن هيهات.

***

لم أكن أرى أبي سِنان إلا نادراً.

وحين يتهادى طيفه في ذاكرتي لا أتخيله إلا مرتدياً طقم سموكن مكوياً بحرص شديد، وتتدلى على صدره ربطة عنق فاخرة وتحجب عينيه نظارة سوداء كان يرتديها على الدوام وكانت تضيف إليه مهابة غامضة. لم أرَ عيني أبي ولم أستطع أن أقرأ فيهما أسرار حياته الصاخبة المتقلبة.

تزوج أمي وهي صغيرة ثم ذهب إلى إسطنبول وأنشأ وأدار شركة باطمان للتصدير وهي شركة تكستيل. لم نعد نراه إلا كل عامين أو ثلاثة. كنت أسمع من أمي أن الشركة تأخذ كل

وقته بالإضافة إلى أن غبار منطقتنا يضر برئتيه ولذلك يجب أن يبقى بعيداً في مدن نائية لا تصلها عواصف الغبار.

"ولماذا لا يأخذنا بابا معه؟" سألت أمي مرات عدة. كانت كل مرة تجيب: "عندما يعود اسأليه".

لكنه حين عاد ذات مرة إلى البلدة التي كنا نعيش فيها قريباً من ماردين، لم أجد فرصة للسؤال. بعد يوم على قدومه أُلقي عليه القبض بوشاية بعض المخبرين بسبب تعامله مع الرفاق ودعمه المادي لهم. هكذا قيل أول الأمر. كنت صغيرة ولم أعرف تفاصيل الموضوع. حين كبرت وصارت أمي تثق بي قليلاً عرفت منها أن سجن أبي كان بسبب آخر. صحيح أنه كان يغدق المال على الرفاق لكن السبب الأساسي لزجه في السجن عامين كاملين كان اتجاره بمواد ممنوعة.

"ممنوعة؟ ما هي؟" سألت أمي أستوضح الأمر، فقالت متبرمة: "مواد ممنوعة. ألا تفهمين؟ ممنوعات".

أدركت في ما بعد أن أبي اللطيف كان تاجر مخدرات.

لم يشأ جدي أن نبقى، أنا وأمي، في البيت وحدنا، فطلب أن نقيم عنده في البلدة التي نزح إليها من قريته المنكوبة. وهكذا انتقلنا إلى بيت جدي في البلدة القريبة من باطمان.

بعد سجن أبي أصيبت جدتي التي كانت تحبه جداً بجلطة دماغية أقعدتها الفراش. لم تحتمل جدتي آلام النزوح والبعد عن القرية وحياة البلدة الصاخبة ثم سجن ابنها وغيابه. شهراً بعد آخر ساءت أحوالها. كان جدي قد اشترى أراضٍ وأملاكاً وحوانيت في السوق. لم نعرف من أين كان يأتي بالمال إلا بعد موته بعامين. كان جدي الملا وإمام المسجد شريك ابنه في تجارة المخدرات وكان يقوم بتبييض أمواله فيشتري بها العقارات والأراضي دون أن يعرف الناس مصدر أمواله.

خلال سنة كاملة من تلك السنوات المغبرة، وفي خضم النَّخر الذي أصاب شجرة العائلة كانت طفولتي تُنتهك. عشت لحظات الرعب الطويلة برفقة عمي الجني الذي لم يأبه لكل الغبار الذي ملأ الأرجاء واكتفى بقطف ثمار متعته من بستان طفولتي. لم ينقذني منه سوى

التحاقه بالخدمة الإجبارية في صفوف الجيش التركي. أتذكر جيداً حين أخذته دورية للشرطة التركية. حاول الجنيّ أن يمانع سوقه إلى العسكرية فصفعه أحد أفراد الدورية صفعة اهتزت لها الأرض تحت قدمي. شعرت لحظتئذ أن قارورة الخوف التي كنت محبوسة فيها تهشمت ورأيت قيوداً كانت تكبلني تتحطم ودوائر نار كانت مشتعلة حولي وتحاصرني تخمد. سمعت لكل ذلك صدىً مدوياً أزاح الصدأ عن روحي الخائفة وجسدي المنتهك وتصورت نفسي مارداً يغادر القمقم. لكنني رغم كل ذلك حزنت. حزنت لأنني رأيت ما كنت أعتبره عملاقاً لا يُقهر وجنياً قادراً في غمضة عين على تحويل جبل من الرصاص إلى كومة رماد ينهار بصفعة واحدة من جندي تركي قميء. تجلببتْ روحي بصدأ خوفٍ جديد نما في تربة خيالي المزدحمة بنبات شرير. نما في قلبي الخوف من جنود يقهرون الجن ويسوقونهم كخراف العيد إلى المسالخ. التفّ الخوف على روحي كشجرة لبلاب شيطانية حتى اختنقت.

لا شك أن معدن الترك حديد أو فولاذ وإلا ما غلبوا الكُرد الذين هم في الأصل من نسل الجن. هكذا كان يقال لنا ونحن صغار: من يحمل في جيبه دبوساً أو إبرة أو أي قطعة من المعدن يدرأ عن نفسه أخطار الجن.

بعد أشهر كثيرة ماتت جدتي. في الأيام التالية على موتها، اكتشفت أن لي عمتين. كانتا تعيشان في أنقرة دون أن أسمع أمي أو جدتي تتحدثان عنهما في أي يوم. سمعت أمي خلال العزاء وهي تتحدث إليهما بالهاتف. بدا أن كل واحدة منهما تعتذر عن عدم التمكن من المجيء. كان تصرفاً غريباً لا يشبه الدارج في عادات مجتمعنا. حين تموت الأم يحضر أولادها إلى العزاء حتى من أقاصي الدنيا. ثم شرحت لي أمي أنهما من زوجة أخرى لجدي. كان جدي قد تزوج بامرأة ماتت أثناء الولادة بعد إنجابها توأمين من البنات حين كان لا يزال في القرية قبل أعوام طويلة. لم أكترث لهاتين العمتين البعيدتين لكن الفضول دفعني إلى طرح بعض الأسئلة المتعلقة بهما على أمي. نهرتني كالعادة وقالت: ’’هذا الأمر لا يخصك. لا تحشري أنفك في أمور أكبر منك. انقلعي. اذهبي والعبي مع رفيقاتك‘‘.

أما أخوالي وخالاتي، فعرفت مذ وعيت الدنيا أنهم جميعاً في أوروبا. هرب الكل حين عصف الغبار الكبير بالقرى والمدن. هربوا ولاذوا بغيوم أوروبا وأمطارها. بل هاجر

بعضهم كما تقول أمي حتى قبل هبوب عاصفة الغبار حين صارت ألمانيا قبلة للراغبين في العمل والمتبرمين من حرير الأوطان وسراب الآمال الزائفة. ويبدو أنهم استطابوا العيش هناك إذ لم أسمع أن أياً منهم عاد لو على سبيل السياحة. كانت أمي، حين أسألها عنهم، تقول ساخرة: ''سيعودون حين يفقدون عقولهم أو أرواحهم فقط. كل من هاجر لا يعود إلى وطنه إلا محمولاً في نعش''.

لم أشعر بفراغ كبير بعد وفاة جدتي. أصلاً لم تكن سوى جثة ممددة على فراش في زاوية من زوايا غرفتها الكئيبة الموحشة. كنا نسيناها تقريباً. لا نتذكرها إلا حين يرتفع صوتها الواهن قليلاً تطلب حاجة ما. مرات عدة كنت أجلس في غرفتها أراقبها وهي تتنفس بهدوء شديد إلى حدّ أننا لا نكاد نلاحظ أنها على قيد الحياة. صارت أمي تحدثني عنها بعد وفاتها وتروي لي قصصاً عن طيبتها وحنانها وتحملها نزق جدي الملا الذي أراد أن يتزوج بامرأة أخرى بعد موتها بعد فشل مساعيه في الزواج خلال حياتها. سمعت نساء الحي يضحكن ذات مرة وهن يحتسين الشاي تحت عريشة العنب الأبيض. رمت إحداهن شرارةَ جملةٍ قصيرة أشعلت حقلاً من القهقهات: ''قضيب الرجل بوصلته''.

ذهبت أمي وخطبت لبوصلة جدي شمالاً تنجذب إلى مغناطيسه. كانت أرملة أربعينية من مدينة باطمان مات زوجها تحت التعذيب في سجن ديار بكر وهي صبية أيام الانقلاب العسكري في خريف 1980. ولم تشأ الأرملة أن تتزوج مثل كثير من النساء اللواتي يحجمن عن الزواج بعد وفاة أزواجهن، خاصة إن كان لهن أولاد، مراعاة لشعور المجتمع الراقد على بيض التقاليد مستظلاً بظلال القضيب يجتر فحولته المهدورة في السجون والحجرات المغبرة وكهوف الجبال الوعرة.

أوشكت الأمور أن تسير كما تشتهي بوصلة جدي لكن الموت عاجله أيضاً. مات جدي الملا وعمي الجني غائب عن البيت يقضي خدمته العسكرية في صفوف الجيش التركي.

أحاطت بنا الرزايا من كل جانب. كان كل شيء ينهار في عائلتنا الهشة.

''ما حل بالعائلة. هذا الأمر ليس طبيعياً. الحسد والعين بلا شك''، رددت أمي حانقة خائفة وهي تستعد لزيارة أبي في سجن ديار بكر.

***

حين عادت أمي من السجن كادت ابتسامتها تتجاوز أذنيها.

"رأيت أبي؟" سألتها، فقالت وهي تواصل ابتسامتها المديدة: "سيخرج قريباً. إنه يعيش مثل ملك هناك. اشتهيت أن أكون معه في السجن".

لم أكن أعلم أن أبي يرتبط بعلاقات وثيقة بضباط الجيش في المنطقة. كنت أعرف أنه يدعم الرفاق بالمال ولا يبخل عليهم. "هؤلاء أملنا"، رأيته يرد بهذه العبارة على أمي بعد خروجه من السجن حين همستْ له بضرورة الحذر عندما كان يسلم الرفيق المكلف جمع المساعدات الشهرية أو السنوية رزماً ثخينة من الأوراق النقدية.

كشفت أمي لاحقاً أن والدي السجين منح رشوة كبيرة لضابط متنفذ من ضباط المنطقة على علاقة بالوالي الذي توسط لدى مدير السجن لإطلاق سراحه على أن يلتزم البقاء في المنزل في ما يشبه الإقامة الجبرية.

لكنه لم يلتزم شيئاً.

بعد أسبوع غادرنا إلى إسطنبول وغاب كعادته.

"ماذا يفعل أبي في إسطنبول؟" طرحت هذا السؤال على أمي دون مقدمات. لم أكن أستوعب بنفسي هذا السؤال الأكبر مني. ربما كان منشؤه الخوف الذي نشأت عليه بسبب غياب أبي. كان صبر أمي على غياب أبي وتبريراتها له يعذبني. يقولون عن أمثال أمي إنها تحفر البئر بالإبرة وتقطع الصخرة بالأظفار، أي تصبر وتشقى في سبيل هدفها. لكنني لم أفهم ما الذي يدعو زوجاً غنياً للعيش بعيداً عن زوجته وأولاده.

كانت أمي البسيطة تحبه كثيراً. وكان لا يبخل عليها بالمال. أدركتُ حين كبرتُ أنه كان يشتري صبرها وصمتها بالنقود الكثيرة التي يرسلها إليها. تزوجته وهي صغيرة فأحبته وعلقت به ولم تتصور يوماً أن هناك رجلاً في العالم يضاهيه. كانت تجد ألف عذر وعذر لغيابه.

– إنه يعمل من أجلنا. يكد ويتعب في سبيل راحتنا وعلينا أن نكون ممتنات له. هو عمود الخيمة ولولاه، لبقينا في العراء بلا سقف.

– لكنني أشتاق إليه.

– خذي المكنسة واذهبي لتنظيف الدار. عمك سيتسرح اليوم من العسكرية.

كادت مدحلة الهلع تسحقني حين سمعت هذه الجملة المرعبة.

عمي سيتسرح! واليوم؟ أي مفاجأة هذه يا أمي؟ آه لو تعلمين ما الذي فعله هذا الجني بي قبل نحو سنتين وأكثر! آه يا أمي لو تعرفين. إذن لفهمت سؤالي المتكرر عن أبي على الأقل.

حملت مكنسة القش صامتة وخرجت من عند أمي التي صارت تدندن بلحن أغنية تركية مألوفة.

***

عاد عمي بهيئة غريبة وأحوال عجيبة استطعت رغم صغر سني وكوني طفلة لم أتجاوز الحادية عشرة من العمر أن أميزها وأدرك خطورة ما طرأ عليه من تبدلات جوهرية.

قالت أمي: "عمك مرهق. لا يريد التكلم مع أحد كعادته. سنتركه في حاله".

– ليس من عادته أن يبقى شارداً إلى هذه الدرجة. لا يغادر غرفته ولا يكلم أحداً. لم نعهده هكذا.

– ومن أين لك معرفة عاداته يا نملة؟ أنا أعرف أبناء هذه العائلة وعاداتهم وقد خبرتهم جيداً. سيعود إلى طبيعته خلال يومين.

خفت من تأكيدات أمي أنه سيعود إلى طبيعته. لم تكن أمي تعرف أن طبيعته ذئبية، وأنه يفترس الخراف القاصية التي لا راعي لها. لم تكن تعرف أن ما جعل عمي صامتاً منزوياً كئيباً ليس بالأمر العادي وأنني أعرفه أكثر منها. أعرفه من زاويتي الخاصة وتجربتي المريرة معه التي منحتني خلال نحو أربعمئة يوم دراية كافية به وبطباعه ونزواته وخطه النفسي البياني المتعرج بشكل حاد صعوداً وهبوطاً.

دائماً يفترض الكبار، خاصة الآباء والأمهات، أن الصغار لا يعون شيئاً ولا يفهمون من هذه الحياة سوى أن يلعبوا مع أقرانهم في البيت أو الشارع. استيعاب الأمور من اختصاص الكبار. إدراك كوامن الأشياء والتصرفات بعيد عن عوالم الطفولة. الطفولة لا تعني عند

الكبار إلا البراءة والبساطة والسذاجة وعدم النضج. هم لا يعرفون أن بعض التجارب القاسية تضيف للأطفال أعماراً إضافية. صحيح أنني كنت طفلة وكنت أبكي حين تمتنع أمي عن أن تنفحني قطعة نقود أشتري بها سكاكر أو أشياء أخرى، أو حين أحصل في المذاكرة الكتابية على علامة ضعيفة أقل من المتوقع، لكن ما جرى معي في السرداب المشؤوم جعلني أقفز في حقل العمر قفزات واسعة من سنة إلى أخرى وأحرق ورائي مرحلة الطفولة بكل هشيم براءتها وكامل قشها اليابس.

كان الجني قد تبدل فعلاً. كان قد تبدل كلياً وتحول من ذئب يفتك بالخراف وثعلب يفسد عناقيد العنب ويخنق فراخ الدجاج إلى كوالا مسالم يتمسك بغصن شجرة الكاليتوس ويقضي سحابة نهاره في النوم أو التأمل.

ما الذي جرى له خلال الخدمة العسكرية؟ ماذا رأى فيها؟ كيف تبدلت حاله إلى درجة أنني صرت أشفق عليه حين أراه وحيداً يطالع كتاباً ما أو صحيفة؟ لا أحد يعرف. لم يكن يستقبل أحداً ولا يذهب إلى زيارة أحد. لم أجده يعزف مذ عاد من العسكرية، هو الذي كان لا يضع الطنبور من يده. مرت أيام وأسابيع على تلك الحال ثم رأيناه صاحب لحية سوداء كثة يواظب على أداء الصلوات الخمس في المسجد.

في تلك الأيام، أرسل أبي نقوداً كثيرة إلى أمي اشترت بها فيلا جميلة قريبة من ديار بكر فانتقلنا إلى هناك. كانت فرحتي عظيمة جداً. على الأقل، لن أشاهد السرداب الحقير بعد اليوم، هكذا قلت لنفسي. صحيح أن عمي الجني تبدلت أحواله وبات وديعاً إلى أبعد حد لكن الخوف منه لم يتبدل، الخوف من أن ينقلب فجأة إلى وحش وينقض علي بقي يؤرقني. حين انتقلنا إلى الفيلا الجميلة التي اشتريناها شعرت بأنه صارت بيني وبين الوحش مسافة أمان على الأقل. كنت قد أصبحت في الصف الثالث، وازداد طولي بضعة سنتيمترات وبدأت أفهم العالم حولي أكثر من ذي قبل.

فهمت وأنا في العاشرة من عمري أن هذا العالم عالم وحوش. وعليك لكي تعيش بقليل من الأمان، أو على الأقل لتستطيع الدفاع عن نفسك، أن تكون وحشاً. لا حياة للخراف في وادي الذئاب ولا حياة للدواجن في حقل تحيط به أوجار الثعالب. على الإنسان أن يأتي إلى هذا

العالم بأنياب وبراثن ومخالب حادة. لا مكان لذوي العظام اللينة والنفوس الهشة في عالم بالغ القسوة. العائلة قاسية، المجتمع قاسٍ، الدين قاسٍ، الحزب قاسٍ، الدولة قاسية حين لا تعترف بهويتك الخاصة وباللغة التي ورثتها من أبويك. إن وطناً غريب الملامح لا يمكن أن تألف رائحته لن يصبح عشاً آمناً لك. إن وطناً يظهر لك بدل الأحضان أنياباً غريبة تشتهي لحمك لتمزقه ليس وطناً بل حقل كراهية تُستعبد فيه حتى تحين لحظة رحيلك الأبدي.

بهذا الفهم المبكر لكل ما حولي، عشت ما تبقى من سنواتي في هذه الدنيا وحاولت كسر أبسط قواعد الطاعة كتمرين على التمرد.

قرأت كتباً كثيرة. روايات وكتب علم نفس وفلسفة ومجتمع. قرأت الشعر وحاولت أن أقرضه. كانت قراءتي الكتب نوعاً من الانتقام لروحي الجريحة. كانت القراءة عزائي الوحيد في عالم متوحش مدجج بالجهل. وكان أفضل ما ربحته من القراءة أنها زادت من نسبة الوعي عندي. جعلتني أكتسب خبرة ولغة لا يكتسبها الإنسان إلا بعد أن ينضج تماماً. لكن المكسب الحقيقي الذي ورثته من مطالعة الكتب الكثيرة أنها ألهمتني أن أتمرد.

***

كان التدخين بداية مشواري في التمرد. في البداية، كنت أشعل سجائر أمي حين تطلب مني أن أحضر لها علبة سجائرها المفضلة ماركة "برلمان". استهوتني تلك اللفافات البيضاء الرشيقة بأعقابها الفريدة المميزة. صرت أشعلها بلذة عارمة، وأسحب نفساً أو نفسين ثم أعطيها لأمي المشغولة بصديقاتها المطلقات والأرامل ونكاتهن الجنسية الفاحشة.

يوماً بعد يوم وجدت نفسي أنجذب إلى التدخين إلى أن قررت إعلان نفسي مدخنة بحضور أمي وصاحباتها.

عدت من المدرسة عصر أحد الأيام فرأيت أمي وصاحباتها جالسات في الصالون يشاهدن مسلسلاً تركياً مشهوراً. كن يضحكن على تسريحة أحد الممثلين ويصفنه بالتيس المخصي. لم أفهم قصة التيس المخصي ولم آبه لها لكنني بعد أن تناولت سندويشة صغيرة من الجبنة

البيضاء وهريسة الفليفلة انضممت إلى حلقتهن. طلبت أمي كالعادة أن أشعل لها لفافة. كنت قد بيَّتُّ النية وجهزت نفسي لإعلان التمرد منذ الصباح فأشعلت لها لفافتها ثم أشعلت لنفسي لفافة وجلست على مسند الأريكة أسحب الدخان وأنفخه بهدوء وسط شهقات النسوة الحاضرات وأمي.

كانت تلك الصدمة ضرورية لأنفصل عن عالم الطفولة، العالم الحقير الذي انتهكه الجني ولطخه بمنيه وأنين شهوته الفاجرة، ويستحق أن تواجهه بكامل طاقتك وقدرتك على التمرد. كنت أستعجل الخروج من مرحلة الطفولة التي كانت كابوساً يؤرقني ويكتم أنفاسي. توقعت أن تكون الصدمة قوية لكنني فوجئت بأمي تقول بكل برودة أعصاب: ”لا تدخني أمام الآخرين يا نِشتيمان“.

اعتبرت جملتها هذه ترخيصاً لي بالتدخين في البيت واعترافاً ببلوغي سن الرشد.

”سيأتي يوم أدخن فيه أمام الآخرين أيضاً يا أمي. سأدخن في الشارع والمقهى وكل مكان. حتى أمام أبي إن عاد يوماً إلى البيت“، قلت بيني وبين نفسي وأنا أبتسم ابتسامة المنتصرين وأطفئ سيجارتي في المنفضة الزجاجية على الإسكملة الجميلة المطعمة بالصدف بجانبي.

في المساء، احتفلت بنصري. أرسلت إلى رفيقاتي صورتي وأنا أنفخ مجرة دخان من فمي وسيجارة ”برلمان“ البيضاء تحترق بين إصبعي الشاهد والأوسط من يدي اليمنى.

في اليوم التالي، أعلنتني رفيقاتي في المدرسة بطلة وصرن يسألنني عن سر قوتي.

***

بحثت عن سبل أخرى لأبرز بها قوتي وأصقل شخصيتي. أردت أن أنتقم لنفسي أولاً ولأمي الضعيفة الساذجة ثانياً. انضممت إلى جمعيات نسوية. وجدت في الفيمينيزم تعويضاً عن كل ما تعرضتُ وأمي له كأنثى. شاركت في نشاطات جمعية نسوية في ماردين تسمى جمعية المرأة الحرة، وخرجت إلى الشارع أرفع قبضتي في المظاهرات وأهتف ضد الدولة وضد الرجل. ”الرجل دولة حتى لو كان مسحوقاً مثلنا“، هكذا قالت إحدى النساء الناشطات ذات يوم واقتنعت بكلامها. قلت لها مازحة:

”قضيب الرجل قضيته“. ضحكت حتى شهقت وخفت عليها من الاختناق. قالت لي: ”من أين أتيت بهذه الفكرة يا نِشتيمان؟“ قلت لها وأنا أتصنع البراءة: ”قرأتها في كتاب لباحثة مصرية“.

رحت أتحدث لأمي عن الظلم الذي لحق بها، فحدثتها عن أنوثتها المهدورة على أعتاب ذكورة منقوصة تريد تعويض ضعفها باضطهاد الأنثى. قلت لها إن زواجها في عمر الخامسة عشرة كان انتهاكاً لطفولتها وأنوثتها غير المكتملة وإن المجتمع الذكوري يبحث عن التمتع بالأنثى تحت ستار الحفاظ على الشرف والغيرة. حدثتها عن كثير من الأشياء التي تعلمتُها من رفيقاتي الناشطات في الحركة النسوية. حاولت تأليبها على أبي الذي عرفت منها أنه يخونها منذ سنوات. لكنها كانت راضية بقدرها. كانت ”تعيش“ وفق قولها. أدركت أن أبي أعماها وأخرسها بالأموال التي يغدقها عليها. اشترى حريته الفاجرة بمال اكتسبه من تجارة المخدرات.

– إنه يخونك يا أمي. ما من رجل يبقى بعيداً عن عائلته كل هذه المدة!

– أعرف. هذا أمر لا يخصك أيتها الشيطانة. المهم أنه يحبني.

– أي حب وأي بطيخ يا أمي؟ من يحب لا يخون.

فجأة تحولت أمي إلى لبوة شرسة. تقدمت صوبي وقد اتسعت عيناها وأصبحت وجنتاها مثل حبتي طماطم ناضجتين. وعندما صارت في مواجهتي صرخت بحدة: ”يخون أو لا يخون هذا ليس شأنك يا نِشتيمان. اهتمي بنفسك. أنت لم تفقس عنك بيضتك بعد يا فرخة. لا تعرفين الحب ولا كُنْهَ العلاقة بين الرجل والمرأة. الزواج رابطة مقدسة. وحين تكبرين ستفهمين معنى كلامي هذا. اذهبي إلى غرفتك“.

أشعلت سيجارتي بهدوء وجلست على الأريكة المواجهة للتلفزيون الذي كان يبث مباراة حاسمة بين فريقي فنر باهجة وديار بكر سبور في الصالون الفسيح. دعوت أمي إلى الجلوس معي قليلاً للحديث. أردت أن أخفف عنها، وأن أحكي لها عن حقوقها كامرأة مستعبدة مرتبطة برجل لا يحبها ويمكنها الانفصال عنه بكل بساطة دون الالتفات إلى أراجيف المجتمع الذي يتظاهر بالفحولة وهو مخصي تماماً.

– أبي يعيش حياته الصاخبة في إسطنبول ويتركك تحترقين كشمعة وحيدة هنا. أنجبني دون أن يحضر ولادتي ولا التحاقي بالمدرسة ولا نجاحي ولا أي شيء. هذا ليس زواجاً يا أمي. ولا يمكنني اعتباره أباً. ذكور القطط أفضل منه. لقد هجرك ونسينا ويعيش كرجل بلا التزامات. إلى متى ستبقين مرتبطة به؟ مم تخافين؟ من المجتمع؟ تباً لهذا المجتمع الذي يصفق للذئاب ويزغرد للثعالب.

– من علمك هذا الكلام يا نِشتيمان؟ هذا ليس كلامك.

– تعرفين أنني ناشطة فيمينيست. نحن النساء يا أمي بحاجة إلى ثورة، ثورة عارمة ضد الرجل وذكوريته البشعة قبل أي شيء. قبل أن نثور ضد ظلم دولة الأتراك علينا بالثورة ضد دولة الرجل. إن لم نفك عن رقابنا قبضة الذكر، فلن نرفع عن كاهلنا ظلم النظام السياسي القائم.

سكتت أمي. لأول مرة وجدتها يائسة حزينة. أشفقت عليها كثراً. كانت شفقة مشوبة ببعض الحقد في الحقيقة. لو كانت امرأة قوية، ما تركتني بين يدي الذئب وأنا صغيرة لا أفقه شيئاً من عالم الرجال. لو كانت قوية، لحمتني كما تحمي كل أنثى صغارها. لكنها لم تهتم بي. عاشت عالمها النسوي تدخن وتثرثر مع مثيلاتها وتسهر وتشاهد المسلسلات السخيفة دون أن يكون لها أي هدفٍ سامٍ في هذه الحياة.

بعد مدة صمت طويلة رفعت رأسها وقالت كمن تسمع اللفظة لأول مرة: "فيمينسيت؟"

– فيمينيست.

– لا فرق. المهم هل تقصدين هؤلاء المسترجلات اللواتي لا ينزعن الشعر عن سيقانهن وأذرعهن ولهن شوارب كالرجال ولا يتجملن وتفوح من أجسادهن رائحة النفتالين؟ انظري إلى نفسك. لقد أصبحت واحدة منهن. انظري إلى ساقيك اللتين تشبهان ساقي شاب في العشرين. ألا تخجلين من كل هذا الشعر؟

لم أستطع أن أقنعها بأي شيء. بقيت كما هي. صارت تشرعن ما يفعله أبي. "هو رجل ويحق له ذلك"، سمعت منها هذه العبارة مراراً. رددت عليها ذات مرة محتدة: "لأنه كائن يحمل بين فخذيه عضواً استطال قليلاً يحق له كل شيء. أما نحن ذوات الأعضاء المنكفئة،

فعلينا الخضوع لأصحاب الاستطالات؟ أي ظلم وأي مهزلة؟" لم ترد أمي. اتجهت إلى المطبخ وهي تدندن بلحن أغنية من أغانيها المفضلة.

تركتُ أمي في عبوديتها وحاولت نشر الوعي بين نساء أخريات.

"على الفتيات الصغيرات... الجيل القديم لا أمل فيه. ما فعله فيهن المجتمع الذكوري لا يمكن تغييره بسهولة. علينا التواصل مع أمهات المستقبل. اهتمي بهؤلاء الفتيات الصغيرات يا نِشتيمان. من في عمرك أو أقل. اذهبي إلى الأعراس والحفلات. هناك تجتمع الفتيات المسكينات ليعرضن أنوثتهن التافهة. يعرضنها كما يعرض أي بائع بضاعته. هناك يتم تحضيرهن ضحايا للذكور. اذهبي إلى هناك. لا يمكننا إنقاذ الفرائس إلا في أماكن الصيد"، قالت لي آيسَل أوزتورك، المرأة الخمسينية ورئيسة "جمعية المرأة الحرة في ماردين" التي انضممت إليها حديثاً وهي تضع في يدي طبعة حديثة من كتاب **مذكرات فتاة** للفرنسية سيمون دي بوفوار.

لم يكن نشاطي النسوي بلا ثمن. دافعت وأنا في السابعة عشرة والثامنة عشرة من عمري عن المعنفات جنسياً وعقدت ندوات محلية في بعض الحارات الفقيرة لتحريض الفتيات والنساء على التمرد في وجه استبداد الذكور. ومع دخولي الجامعة هذا العام وازدياد نشاطي اتهمني الرجال تهماً شتى. قالوا عني: قحبة، مثلية، بنت شوارع، خارجة من مبغى تنشر الرذيلة وتريد استدراج القاصرات إلى دور البغاء في إسطنبول. للأسف، انضمت كثير من النسوة إلى تلك الحملة وصدقن أكاذيب الرجال الذين رأوا أن عرش ذكوريتهم المستندة على قضبانهم قد بدأ يهتز.

لكنني بقيت صامدة ولم أهدأ.

وبدلاً من أن أكمل دراستي في الجامعة كما كانت أمي تتمنى، تركتها وواصلت نضالي في سبيل بنات جنسي.

***

في عز نشاطي في مجال الدفاع عن المرأة وفي نهاية العام الماضي، عاد أبي سِنان من إسطنبول.

جاء بستايل شبابي جديد مختلف كلياً عن ستايله الرسمي الذي تعودناه لأعوام عدة.

كانت سلسلة ذهبية غليظة تطوق عنقه وتتدلى على صدره وتنتهي بلوحة مستطيلة حفرت عليها جمجمة ضاحكة. في السابق، كان أبي يرتدي دائماً بدلة رسمية. بنطال وجاكيت سموكن فاخر، قميص وربطة عنق ساتان وحذاء من الجلد الإيطالي مع عطر آراميس الفائح منه دائماً. والآن؟ قميص بهيج اللون شبابي الموديل مفتوح الأزرار من الأعلى تحت معطف قصير مبطن بالفرو، وشعر طويل مصبوغ ومجدول من الخلف مع لحية مدببة مصبوغة بلون بني فاتح. بنطاله الجينز الضيق من الأسفل يشي بأنه لا يعترف بسنواته التي جاوزت الستين. وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل صار يسخر من ثياب أمي وطريقة مكياجها وحتى ذوقها في الموسيقا والأغاني لدرجة جعلتها تبكي ذات ليلة وتتمتم بخفوت: "طبعاً سيسخر مني الأفندي. بغايا إسطنبول من كل جنس ولون وخبيرات في ارتداء الثياب الفاضحة وقد أخذن عقله".

حزنت على أمي. أحزنني ضعفها واستكانتها. كانت أنثى مستلبة الإرادة لدرجة تعودها خيانات زوجها. بل إنها كانت تشرعن تلك الخيانات وتراها حقاً من حقوق زوجها. "أنا لا أصلح لفراشه وهو رجل يحب الجنس. إنه مريض جنسياً"، كررت هذه الجملة مرات عدة حتى صرخت في وجهها يوماً وقلت: "لكن هذا لا يعني أن يخونك بالاتفاق معك. يمكنه أن يطلقك وتعيشين بحرية ويعيش هو كما يحلو له. ثم إن الجنس ليس إلا أحد جوانب الحياة الزوجية وليس كلها".

كان أبي قد تجاوز الثلاثين حين تزوج أمي الصبية ذات الخمسة عشر عاماً. روت لي أمي ذات أمسية كئيبة بعضاً من قصتها الحزينة معه: "خانني في الشهر الأول من زواجنا، الشهر الذي يُفترض أن يكون شهر العسل. خانني في بيتي. كنت بنتاً صغيرة في الخامسة عشرة حين تزوجني. سررت بالحرية الشكلية التي حصلت عليها بزواجي به. تحررت من ظلم أبي وأخي الأكبر وتضييقهما عليَّ. لكن لم تكن تلك الحرية للأسف سوى عبودية مقنعة وقعت في حبائلها. انتقلت من قفص إلى آخر. ذات صباح استيقظت باكراً فرأيت صديقتي التي كانت تكبرني بعامين نائمة في فراشه. سهرت عندنا في إحدى الليالي وتأخرت السهرة فطلبت منها

البقاء عندنا. كنت حاملاً. سكتُّ بعد أن اكتشفت الخيانة صباح اليوم التالي. كان سكوتي يشبه ابتلاع شفرة حادة. خفت أن أفاتح أباك بالموضوع فيغضب ويضربني. قلت لنفسي: العيش مع خائن أفضل من العيش مع أب يعنفني وأخ يمنعني حتى من التنفس. كان أبوك يدللني، ويشتري لي أثواباً جميلة وهدايا ثمينة ويقول لي دائماً: أحبك وأنت عندي الملكة المتوجة. كعب حذائك بآلاف النساء. إنهن لسن سوى خدم لي ولك وأنا أقضي مصالحي بواسطتهن. غمرني بالمال والهدايا. كنت أعتبر ذلك دليل حبه لي. لم أعرف أن كل تلك الهدايا الكثيرة ثمن بخس مقابل سكوتي عن نزواته التي لا تتوقف".

حاولت كثيراً أن أؤثر في أمي لأشجعها على الطلاق. هي كانت تعرف واقعها لكن دون أدنى محاولة للتغيير. كانت أشبه بربة بيت أخرسها حريق مفاجئ فباتت تنظر إليه عاجزة مدهوشة حتى التهمتها ألسنة النار. وهذا النوع من النساء هو الغالبية. لا تتمرد النساء في مجتمعاتنا إلا نادراً. ليس لأنهن لا يعرفن واقعهن ولا يشعرن بخطورة ما يحدث لهن، بل بالعكس هن يعرفن جيداً مستوى الاضطهاد الذي يرزحن تحت ثقله لكنهن تائهات لا يعرفن الطريق. ليست لهن مرجعية ثقافية سوى الأمثال الشعبية التي وضعها الموروث الذكري وبعض الأغاني والأقوال المأثورة دينية أو شعبية. تتدرب الأنثى على الصبر منذ طفولتها، ويتم تلقينها السكوت على الظلم وتحمل الآلام، بل يُطلب منها حتى إخفاء بروز النهدين في عمر المراهقة. لا يتحدث لها أحد عن الدورة الشهرية حتى تتفاجأ بها وينالها خوف غير قليل من رؤية الدم يلون سروالها الداخلي. تتعقد الفتاة من الموضوع وتعتبر الأنوثة عاراً ونقصاً في غياب الوعي وسيطرة الرجل. المرأة هي الكائن الأكثر تعرضاً لتلويث الدماغ في مجتمعنا. زوجها يمارس تلويث دماغها، ووالداها وإخوتها كذلك، والمجتمع بأخلاقياته ومُثُله الإقطاعية الخاصة يشارك في العملية بكل قوة. وهكذا تنشأ المرأة وهي تحمل على ظهرها جبالاً من العقد النفسية تورثها لأبنائها وبناتها خاصة. ليس للمرأة في مجتمعنا الغارق في الجهل سوى تكرار الأمثال الشعبية التي ترسخ عبودية الأنثى للذكر كأنها وصايا الرب وسنن الأنبياء.

قالت لي أمي ذات مرة، بعد أن تناولنا الغداء وجلسنا في الصالون، وكرَّرْتُ عليها مطالبتي بطلب التفريق بينها وبين أبي: ’’الطلاق أبغض الحلال يا نِشتيمان. تعرفين مصير المطلقات في مجتمعنا‘‘.

أجبتها: ’’اللعنة على المجتمع يا أمي. وهل يجب أن تذوبي لإرضاء هذا المجتمع! أنت تُنتهكين في أنوثتك وأمومتك وكونك زوجة. هذا ما لا تقبله أي امرأة. الدنيا تغيرت يا أمي. تغيرت كثيراً. وإن كان الطلاق أبغض الحلال، فحياتك مع رجل مثل أبي هو أبغض الحرام ولا شك أنه لا مجال للمقارنة بين الأبغضين‘‘.

سكتت أمي. عرفتُ أنها لن تقتنع بأقوالي. ألقيت بيني وبينها جملة مثل قنبلة يدوية: ’’طيب وإذا طلقك أبي؟‘‘ ثم وقفت أنظر إليها أراقب وقع سؤالي.

اتسعت حدقتا عينيها. رأيت الإجابة تتدلى من فمها دون أصوات وحروف. ثم حين انتهت صدمة جملتي المتفجرة قالت بثقة مطلقة: ’’مستحييييل‘‘.

ونهضت لتذهب إلى المطبخ وتصنع شاي العصر.

***

في أوائل خريف 2014 انقطعت عن الدورة الشهرية. مضى شهران ثم دخل الثالث واقتربنا من رأس السنة دون أن أجد أثراً لدماء الدورة.

قالت أمي في حفلة رأس السنة التي حضرها معنا أبي لأول مرة منذ سنوات: ’’هذا بتأثير متابعتك الأخبار الحزينة، استباحة سنجار وكوباني وغيرهما. دعي هذه الأمور ولا تهتمي بها وتفرغي لحياتك ودراستك المستقبلية‘‘.

كانت أخبار الإيزيديين في سنجار بعد هجوم ’’داعش‘‘ الخاطف في الثالث من آب مرعبة حقاً. لم يخفف من رعبها سوى مقاومة كوباني التي ملأت الدنيا بأخبارها. كان خريفاً رهيباً أعقبه شتاءٌ يتنفسُ الزمهريرَ ورمى بأعداد هائلة من اللاجئين في مناطقنا الحدودية المتاخمة للعراق وسوريا. بعد رأس السنة بأسابيع قليلة هزَّ خبرُ تحرير كوباني من ’’داعش‘‘ جميع استوديوات الأخبار في العالم. رقص الناس في الشوارع وارتفع منسوب العاطفة القومية حتى فاضت عن المعدلات الطبيعية.

فرح الناس لتحرير الأرض لكن أحداً منهم لم يأبه لتحرير الإنسان من كوارثه النفسية. لا أحد من الناس اهتم بالمساكين مثلي الذين يحملون معهم نُدوباً عميقة سيأخذونها معهم إلى قبورهم. لا جهة تهتم بالمعنفين عائلياً ولا بالأطفال المعرضين للانتهاكات الجنسية من المحارم. هذا الموضوع في مجتمعنا المنافق وعاء لا يجرؤ أحد على رفع الغطاء عنه وكشف ما فيه. ستسقط أقنعة كثيرة إن تم ذلك. لذلك نرى الجميع متواطئين على جعل الحقيقة طي النسيان. ولذلك يُبقون الغطاء على حاله حتى تتعفن النفوس وتتقيح الأرواح ثم يستغربون سبب ضعف المجتمعات وهشاشتها!

لقد وجدت في استمرار توقف العادة الشهرية نذير شؤم لكنني لم أكترث في البداية كثيراً. ''المهم ليس حملاً''، قلت بيني وبين نفسي ثم ضحكت من هذا الاحتمال الأخرق: ''ومن أين سيأتي الحمل؟ من الجن؟''

نعم، لم أكترث ولم أنزعج في تلك الشهور من انقطاعي عن دماء الحيض، تلك العادة الشهرية التي طالما اعتبرتها ظلماً تمارسه الطبيعة ضد المرأة. لكنني مع ذلك ذهبت إلى طبيبي الخاص وخضعت لاختبارات وتحاليل طبية بتوصية منه. بعد أيام خرجت النتائج الصادمة، بالنسبة إلى طبيبي طبعاً، التي بينت أن لديَّ نسبة هرمونات ذكرية عالية.

''نسبة هرمون التستوسترون عالية جداً عندك. بلغ الضِّعف تقريباً''، قال طبيبي بقلق فسألته: ''وماذا يعني هذا يا دكتور؟''

– على وجه الدقة وحسب بيانات مختبر التحليل إن نسبة الهرمون الذكري عندك بلغ 150 نانوغرام لكل ديسيليتر. هذا يعني أن الوضع يتطلب علاجاً مكثفاً.

– ولماذا العلاج المكثف، دكتور؟ ما خطورة ازدياد نسبة الهرمون الذكري للفتاة؟

– نمو الشعر الزائد. خشونة الصوت، نمو العضلات. باختصار شديد هذا يعني: غياب ملامح الأنوثة التي تبحث عنها كل فتاة.

– لكنني لست مثل كل فتاة. ولست قلقة من هذا الأمر. لن أخضع لأي علاج.

– القرار النهائي لك بطبيعة الحال. لكن كطبيب عليّ أن أشرح لك مضاعفات حالتك الصحية.

– شكراً لك دكتور.

خرجت من عند الطبيب وأنا أضمر فرحاً أبى إلا أن يظهر على ملامحي، فرحاً لمحته كل الجالسات وكل الجالسين في قاعة الانتظار في العيادة وربما اعتبروه فرحاً بسماع خبر سعيد كالحمل مثلاً!

لم تكن تحذيرات الطبيب لتهمني، ولم يكن ليهمني حتى لو نبت لي شاربان مثل شاربي سلفادور دالي أو فريدريك نيتشه أو حتى شارلي شابلن. المهم أنني تخلصت من تلك الدورة الدموية الحقيرة وما يرافقها من آلام. تخلصت من كابوس يتكرر كل شهر وكان على مر التاريخ سبباً لاتهام الأنثى بأنها أقل درجة من الذكر وأنها لا تصلح بسبب ذلك لا للعمل ولا للنبوة ولا للقيادة ولا للانخراط في كثير من الأعمال التي احتكرها الرجال الذين حرمتهم الطبيعة أرحاماً تنزف دماً كل شهر. حتى الثورات كانت مثلاً حكراً على الرجال وبقيت النساء في الخلف لينجبن المزيد من الرجال الذين سينخرطون وحدهم في ثورات المستقبل.

ما كان يزعجني في الموضوع حقاً هو أن آلاماً مجهولة صارت تنتاب عضوي التناسلي. آلام لم أعهدها من قبل حتى خلال الدورة الشهرية التي كانت تعذبني أسبوعاً كاملاً.

***

في أواخر الربيع وقبل حلول صيف هذا العام حدث ما كنت أتوقعه وأنتظر حدوثه.

كانت أمي سعيدة جداً بعودة أبي من إسطنبول أخيراً ليستقر عندنا. لكن الاستقرار كان شكلياً إذ كان يغادر المنزل صباحاً ولا يعود إلا بعد منتصف الليل حين تكون أمي قد نامت بسبب التعب الذي سببته الأعمال المنزلية المرهقة.

في إحدى المرات النادرة، بقي أبي في البيت حتى الظهر. قضى كل وقته جالساً على الكنبة يحدق في هاتفه النقال، ويتصل أو يرد على مكالمات مجهولة وهو يقهقه ويلعب بسلسلته الذهبية المتدلية على صدره.

فجأة انتصب واقفاً وهو يصرخ بجزع شديد: "كمال؟ مستحيل".

انتحر الجني شنقاً في السرداب.

بالنسبة إلي لم يكن مستحيلاً أن ينتحر من تعرضت روحُه للخراب وعرَّضَ للخراب أيضاً أرواح الآخرين، بل كان الانتحار نتيجة حتمية وحلقة أخيرة في مسلسل عذاب امتد على مدى سنوات ثقيلة.

لا أعرف كيف أصف شعوري لحظة سماعي الخبر الصادم. كان شعوراً طاغياً بالفرح، الفرح بزوال الكابوس الذي عكر طفولتي وشوه نفسي حتى هذا العمر وسأبقى أعاني آثاره إلى الأبد. كان فرحاً يشبه فرح جندي شاهدته ذات فيلم: داس المسكين لغماً أرضياً فتوقف فوراً. كان واضحاً أن اللغم سينفجر به إن رفع قدمه عنه، فبقي كذلك والرعب يحيط بروحه إلى أن جاء رفاقه فأنقذوه بخطة معقدة. صار وجه الجندي غدير فرح غنت الأطيار على ضفافه. وأنا شعرت بنفس ذلك الفرح حين زال اللغم الذي كنت أجثم عليه أكثر من عشرة أعوام لا أخبر به أحداً.

لكنني حزنت أيضاً في الوقت نفسه. تسابقت مشاعر الحزن والفرح فتولد عندي شعور هجين غريب. وهو ما لا أقدر على وصفه. مشاعر الفرح فهمتها ولكن من أين جاءني الحزن ولماذا أحزن على من شوهني من الداخل وترك في نفسي ندوباً لا يمحوها الزمان؟ لماذا أحزن على وحش انتهى خطره وما زلت أرى آثار أنيابه في روحي؟ هل لأن الإنسانية تبقى في حالة كمون حتى عند أكثر الآدميين قسوة؟ تنتظر الإنسانيةُ الكامنةُ عند قساة القلوب حدثاً ما، كلمة أو أي ظرف طارئ حتى تستيقظ. إنها الفيزياء البشرية التي تتحكم في النفوس كما تتحكم الفيزياء العلمية في المواد فتجعل للماء درجة غليان محددة وللأجسام الصلبة درجة انصهار خاصة وهكذا.

اختلطت في حوجلة روحي مشاعر الفرح بالحزن بالشفقة بالشماتة وتولد في النتيجة شعور مريح على كل حال.

ذهبنا فوراً إلى بيت جدي. تقدمنا أبي إلى السرداب. دخلتُ مرعوبة وراءه. لم تشأ أمي أن تلحق بنا إلى هناك فبقيت في باحة الدار.

تجمدت من الرعب وأنا أنظر إلى عمي الجني يتدلى عارياً من السقف.

لم يكن بين فخذيه ما يدل على أنه ذكر.

كان بلا أعضاء ذكرية، بلا قضيب وبلا خصيتين.

***

بعد انتحار الجني ببضعة أيام ازدادت الآلام في منطقتي الحساسة. أهي حكة أم ألم طارئ عادي؟ لم أشأ أن أتابع الأمر. كرهت روتين زيارة عيادات الأطباء. شيء مقرف أن تحجز موعداً قد تنساه أو تذهب إليه لتنتظر ساعتين حتى يأتي دورك ثم لا يمنحك الطبيب سوى خمس دقائق لمعاينتك. كرهت الأطباء لكنني اضطررت إلى زيارتهم.

حين انتهت أيام العزاء طلب منا أبي أن ننتقل إلى بيت جدي لنسكن فيه بدلاً من الفيلا بغاية ترميمها، بل لأقل بحجة ترميمها فقد كانت الفيلا جميلة رغم كل شيء ولم يكن يعيبها سوى أنها بعيدة عن مركز المدينة. لم تكن أمي تحب الإقامة فيها ولذلك فرحت بالقرار. أما لي، فكان الأمر صعباً قليلاً. لم أحبب أن أعود إلى الدار التي عشت فيها كابوس طفولتي المنتهكة. لكنني تحملت الأمر لسبب وحيد هو أن المنزل يقع في قلب البلدة ويمكنني بكل سهولة ممارسة نشاطي بين صفوف النسوة في الأحياء القريبة والعودة مشياً إلى البيت.

بعد يومين من انتقالنا إلى بيت جدي، الذي صار بيتنا، عثرت تحت الكنبة الحقيرة على دفتر صغير في السرداب الذي كنت أرتبه ليصبح غرفتي. كان دفتراً أسود الجلد بورقات قليلة. اختطفته فوراً وأخفيته. ساورني الشك في أنه سيحمل بعض أسرار الجني وأفكاره ومذكراته فدسسته بسرعة في جيب البنطلون الخلفي دون أن تلاحظني أمي التي كانت تدندن بلحن أغنية تركية وهي تنظف إطار النافذة الجنوبية. شعرت كأن الدفتر يحمل رسالة خاصة إليّ. وكان كذلك فعلاً.

كانت فرحة أمي كبيرة بالانتقال إلى بيت جدي خاصة أن أبي سجله باسمها بعد أن دفع لأخواته بعض النقود كتسوية عقارية.

وفي زحمة النقل وفوضاه، نسيت أمي بعض أشيائها في الفيلا لكنها تكاسلت عن الذهاب إلى هناك لإحضارها. وبعد نحو أسبوع أرادت أن ترتدي أحد فساتينها الأثيرة لديها لحضور

سهرة مع رفيقاتها. كان الفستان من ضمن ما نسيته أمي في الفيلا فطلبت مني أن أرافقها وذهبنا معاً لجلبه.

"الحمد لله أن معي نسخة من المفتاح"، قالت أمي ونحن نستقل سيارة الأجرة التي أقلتنا إلى الفيلا.

ما إن دخلنا الفيلا، حتى صارت أمي تسعل وتسب أبي: "لقد ملأ البيت برائحة الخراء".

كانت رائحة كريهة تفوح في الأرجاء بالفعل. قالت أمي إنها رائحة الحشيش. كانت رائحة لم أعهدها من قبل فسألتها: "وهل أبي يحشش يا أمي؟"

"أبوك يفعل كل شيء. كل شيء"، أجابتني وهي تصعد الدرج إلى غرفة النوم بينما بقيت في الصالون أبحث عن أشياء ربما نسيناها أثناء انتقالنا. فجأة سمعت صرخة أمي المدوية: "يا قذرررر".

صعدت الدرج بسرعة فوجدتها واقفة لدى باب غرفة نومها السابقة ترتجف وهي تحدق في الداخل الذي كانت تتردد منه أصداء موسيقا رومانسية.

رأيت أبي في السرير مع امرأة غريبة عارية نحتَ الذهولُ ملامحَ مرعبة على وجهها. صعقني المشهد لكنني مع ذلك رميت كرة سؤالي في مرمى لا مرئي بالغرفة العابقة برائحة الحشيش والعطور الفاخرة: "من هذه؟"

كان أبي ذاهلاً مصدوماً من مفاجأة أمي وصرختها فلم يجب. ربما لم يفهم أن السؤال موجه إليه أصلاً فردت أمي: "كما ترين. هذا القذر أبوك، حول الفيلا إلى مبغى. الخنزير".

***

لم يصدف سابقاً أن تحدثت أمي بسوء عن أبي حتى في ذروة غضبها. كانت تلتمس له الأعذار دائماً. لكنها في ذلك اليوم الفاصل وحين رأته متلبساً بالجرم المشهود في حضن امرأة غريبة فقدتْ آخر ذرة من تماسكها. تجرأت فشتمت أبي ووصفته بالقذر الوضيع والقواد الرخيص إلى آخر القائمة. استغربت من أبي صمته وهدوءه ومحاولته المضحكة لتوضيح الأمر حين قال بصوت واهن مرتجف: "افهميني فقط. سأوضح لك

كل شيء“.

– توضح؟ توضح ماذا؟ أيها القذر، لا يحتاج الأمر إلى توضيح. كل شيء أصبح الآن واضحاً يا ديوث. لم يكن واضحاً من قبل لكنه الآن صار أوضح من شاشة تلفزيون. لستُ بحاجة إلى من يحكي لي أي شيء بلا شك. لن أكذب عيني بالطبع لأصدقك أيها الكذاب الدجال.

تحولت أمي في تلك الساعة إلى لبوة شرسة. صفعت أبي على وجهه صفعتين مباغتتين وهي تقول له: ”أنت قواد. كيف أثبت لك؟ أنت قواد وكفى“.

أعجبني ذلك في الحقيقة. بل كنت أحرض أمي سابقاً على أن تتحول إلى لبوة بدلاً من كونها نعجة مسكينة. لقد آتى تحريضي أُكُلَه إذن! نجحت في تأليب أنثى ضعيفة على ذكر شرس.

صارت أمي تشتم وتشتم وتشتم حتى أغمي عليها.

***

لم نكن، لا أنا ولا أمي المسكينة، نعرف أن أبي كان يخطط لجعل الفيلا وكر دعارة يفجُرُ فيها هو وبعض أصدقائه ويحيي فيها كل ليلة حفلة قصف وعربدة ومجون. اكتشفت أن أبي يعاني من وسواس جنسي قهري مزمن قياساً إلى سلوكاته منذ تزوج بأمي. واعتماداً على شهادتها الحزينة عنه وبالنظر إلى ما قرأته في هذا الباب في أحد كتب علم النفس تأكدت أن أبي كان مهووساً بالجنس إلى درجة مرضية وأنه دمر عائلته إشباعاً لرغباته فوق الطبيعية. هل للموضوع علاقة بالجينات؟ هل الجني أخوه فعل بي ما فعل بسبب اضطراباته النفسية؟ يا إلهي! لماذا ولدت في هذه الأسرة؟ لماذا تزوجت أمي هذا الأب المهووس باللذة، هذا الأب الذي لا ينظر إلى الأنثى إلا بمنظار الجنس؟ عائلة مريضة بالجنس وتحمل جبالاً من العقد النفسية على ظهرها فكيف سأعيش خالية سالمة من أمراضها؟

اكتشفنا بالمصادفة أن أبي صرفنا عن الفيلا لكي يخلو له الجو ويأتي باللاجئات المقيمات في معسكرات اللجوء القريبة ويحيي الليالي الحمراء معهن مستغلاً أوضاعهن التعيسة وحاجتهن إلى المال والمأوى وتفكك أسرهن وانهيار المنظومة القيمية الذي يلازم الحروب في كل مكان فيقضي على الأخلاق ويدمر المجتمع.

بعد أن صاحت أمي وأطلقت سيل شتائمها على أبي وصفعته أغمي عليها. ركضتُ إلى الصالون وأتيت ببعض الماء فنثرته على وجهها لتصحو. في تلك الأثناء، سمعت جلبة وضحكات خليعة ترن في بعض الغرف. وسرعان ما خرجت بعض النساء والرجال في مشهد لا يمكن رؤيته إلا في ماخور.

بعد صمت نهض والدي من فراش الخيانة. بدا وجهه بشعاً بلا روح. تخيلته أحد شخصيات أفلام الرعب، تمثالَ شمعٍ قبيحاً. طفح قلبي بكراهيته وانتظرت رد فعله. صرخ كالملسوع: "أنت طالق. واخرجي من بيتي، أنت وابنتك".

لم أصدق بالطبع ما أسمعه. تخيلته كابوساً من كوابيسي التي تسبب فيها عمي الجني. لكن أبي عاد وكرر عبارة "أنت طالق مرتين" أخريين ليكتمل نصاب الطلاق حسب الشريعة التي تتيح وتبيح للذكر تطليق أنثاه بمجرد لفظ كلمة يكررها ثلاث مرات حتى لو عابثاً أو في حالة سكر.

نظرت إلى أبي بغضب. كان وجهه كالحاً مثل سحابة غبار. لم أشعر نحوه بأي عاطفة. حين لاحظ ذلك صرخ في وجهي: "وأنت أيضاً طالق".

بقيت ذاهلة ثانيتين ثم انفجرت بالضحك. ضحكت بهستيرية من عبارة أبي المجنونة. طلقني أبي. يا للنكتة السخيفة! أب يطلق ابنته وزوجته. أي فانتازيا نعيشها؟ أي عائلة مجنونة ابتليت أمي بها؟

لا أعرف كيف خرجنا، أنا وأمي، من الفيلا. أخافني شحوب وجهها كثيراً فاستأجرت سيارة وعدنا إلى البيت على عجل. شعرت في السيارة بنار تشتعل بين فخذي. كانت حرقة لا تشبه الآلام التي تعودتها في منطقتي الحساسة.

كل يوم كانت تأتيني نوبات من الألم في منطقتي الحساسة. هل لذلك علاقة بالخلل الهرموني الذي حدثني الطبيب عنه بعد تشخيصه الأخير؟ لم أذهب ثانية إلى الطبيب. صرت أكره أن يفحص الطبيب فرجي بأصابع يده وهو يرتدي القفاز. حتى لو كان طبيباً، فهو ذكر. والذكر حيوان مهووس بالجنس، ولم يستعبد الأنثى إلا لأنه اعتبرها آلة للمتعة. لم أشك أن الطبيب يستمتع حين يعبث بفرجي بدعوى الكشف عن أسباب الآلام.

فكرت طوال الطريق في كل ما جرى وأنا أرتعد غضباً من أبي وحزناً على أمي. وسرعان ما توالدت الأسئلة من جديد: هل كان ذلك الوحش المفترس أبي منذ البداية؟ هل أنبه ضميره بعد أن خرجنا من عنده وهل فكر في عاقبة الأمر؟ هل سيأتي ليعتذر من أمي ومني؟ كيف استطاع أن يعيش بقناع الملاك مع أمي ومعنا كل تلك الأعوام؟ هل طرأ عليه تبدل جذري فجأة أم هو نفسه مذ عرفته أمي؟ كيف يمكن أن يأتي باللاجئات السوريات اللواتي هربن من الحرب وفقدن أزواجهن وأبناءهن ليستغلهن ويعتدي على شرفهن بحجة أنه يمنحهن مالاً يسد حاجاتهن كما سمعنا حججه لاحقاً؟ أي غول أنجبني؟ هل كان أبي جنياً مثل عمي؟ هل هو أبي أصلاً؟ لماذا لم أعد أشعر نحوه بأي عاطفة؟ لا، إنه ليس أبي. إنه مجرد كائن غريب تم فرضه على أمي وقد حان الوقت لإزالة الحجب عن وجه الحقيقة. لقد حان الوقت لإبعاده عن حياتنا، أنا وأمي التي كانت منهارة تماماً، منهارة مثل فارس عاد مهزوماً من معركة كبيرة ونظف كل ما عروقه من دم. لو جُرحتْ من وجهها، ما نزلت قطرة دم واحدة.

***

ما جرى بعد ذلك كان دراما حقيقية. الأصح أن حياتنا كانت ضرباً من ضروب السريالية بل تفوقها بأشواط طويلة. ولو سمع ديفيد لينش بقصتنا، لحولها بلا شك إلى فيلم على غرار أفلامه الرهيبة، إذ لا أحد يصدق الأحداث التي مرت ومررنا بها. لا يمكن أن يحدث على أرض الواقع ما جرى لنا فعلاً. إن مثل هذه الأحداث التي تصدم البشر تخلق لديهم عقداً نفسية خطيرة لا يشعر بها الذين حولهم إلى حين تحدث الجرائم

والنكبات فيسألون بغباء: كيف أصبح هؤلاء مجرمين؟

لا يعرف هؤلاء أن تجارب مريرة كالتي مررنا بها تحول بعض الناس إلى مجرمين وقتلة يقبعون في السجون بينما تحول البقية إلى مرضى نفسيين وحتى مجانين يتعالجون في المصحات والمستشفيات. لا أحد يخرج من هذا النفق الأسود المرعب إلا بعاهة في الروح لا تقبل الشفاء.

إذن لقد حدث ما عاشت أمي حياتها كلها على وقع الخوف منه. حدث الطلاق أخيراً.

حاولتُ كثيراً التخفيف عن أمي. كررت على مسامعها مازحة أكثر من مرة: "يا أمي تجمعنا وحدة حال، لا تحزني فأنا شريكتك حتى بالطلاق. أنا أيضاً مطلقة مثلك". كانت تبتسم بحزن ولا ترد. أي أسى سببه لتلك المرأة المسكينة غول بشري برتبة زوج؟ قلت لأمي إن غياب رجل مثل أبي عن حياتها مكسب وليس خسارة إن اعتبرنا الزواج علاقة تؤطرها معايير الربح والخسارة. لم تهتم أمي بمواساتي. لم أستطع رفع الأثقال التي كادت تحني ظهرها بل إن أحوالها الصحية تدهورت أكثر رغم دعمي النفسي لها. وما إن مرت أسابيع قليلة، حتى تفاقم الوضع وانهارت أمي كلياً. اضطررت إلى أخذها إلى مصحة للأمراض النفسية في ديار بكر لعلها تشفى مما هي فيه.

كانت البلاد في تلك الأيام تشهد تبدلات أكثر دراماتيكية مما تشهده حياتنا الأسرية.

تحررت كوباني وفرح الناس واحتفلوا بالنصر في كل مكان. صرنا نتبادل التهاني وننشر صور المقاتلات اللواتي أصبحن أيقونات يحتفي بهن العالم بأسره. وكم تمنيت لو كنت واحدة من الفتيات اللواتي قاتلن في كوباني بدلاً من العيش في أسرة تتفكك! أجلت دراستي في الجامعة إلى حين تنجلي الأوضاع. شاركت في النشاطات النسوية والمسيرات التي نظمها اتحاد الشباب الاشتراكي في مدن وبلدات كثيرة منذ تحرير كوباني.

أعقب ذلك ربيع صاخب ثم صيف حار.

في أحد الأعراس، في حزيران الفائت، التقيت آمد. دخل حلقة الرقص وتشابكت أيدينا. صار يضغط برفق وحنان على أصابعي ويفرك يدي في كفه. بالطبع، تبرمت من ذلك. استغربت جرأته واستغربت أن أصادف رجلاً في العرس الذي حضرته للقاء مجموعة من

الفتيات المعنفات جنسياً. كانت آيسل أوزتورك رئيسة جمعية المرأة الحرة دعتني لحضور ندوة خاصة عن موضوع التحرش الجنسي وزنا المحارم. وكانت مهمتي إقناع الفتيات بحضور الندوة المغلقة والبوح بما عانينهن داخل أسرهن وعلى يد أقربائهن. وبالفعل، استطعت خلال ثلاثة أيام من اللقاءات المستمرة إقناع خمس عشرة امرأة وفتاة وقاصراً بالحضور للإدلاء بشهاداتهن تحت أسماء وهمية.

***

أعجبتني رقة آمد وجذبني إليه شيء مميز يختلف به عن الآخرين. وحين عرفت أنه الروائي أحمد رضا آيدن ازددت ثقة به. كنت قرأت بضع روايات من أعماله وأعجبت بها. دخلت إلى عالم الحب من باب الرواية. انجذبت إلى آمد رغم أنه كان يكبرني سناً بأكثر من عقدين. وجدت بقربه بعض ما كنت أفتقده في حياتي السابقة. عثرت فيه على الأب والصديق وحتى الحبيب.

طالعت دواوين شعر وروايات وكتباً أخرى كثيرة. اقترح عليّ آمد روايات عالمية مترجمة إلى التركية وكتباً في نقد الشعر لم يتسنَّ لي الوقت لحيازتها. كنت في الأصل ماكينة لقراءة الكتب وكانت المطالعة هوايتي المفضلة منذ تركت جثة طفولتي في العاشرة. شهدتُ أمسيات توعوية وانخرطت في نقاشات حامية أكثر حرارة من ذلك الصيف، وحين سمعت أنه ستكون هناك مسيرة كبرى في بلدة سروج دعماً لكوباني والانخراط في إعادة إعمارها ذهبت مع بعض الرفيقات إلى تلك البلدة الصغيرة التي تقابل كوباني على الطرف الآخر من الحدود الدولية بن تركيا وسوريا.

كان ذلك يوم الإثنين الذي صادف العشرين من تموز هذا العام، أي في ذروة الصيف وحين تتنفس جهنم في سهل سروج والمناطق القريبة منه.

وصلنا في الصباح الباكر إلى البلدة. وفوراً توجهنا إلى حديقة المركز الثقافي قرب مبنى البلدية حيث ضوضاء المتظاهرين وجلبتهم تملأ الأجواء. صرت أتجول بين الحشد الذي كان بحدود ثلاثمئة من الشباب كأنني أبحث عن أحد حتى انزويت أخيراً إلى مكان هادئ قليلاً

فاستندت إلى جذع شجرة صنوبر يرسم لها الضوء ظلالاً وارفة على الأرض وصرت أتأمل جماعة تحمل لافتة كبيرة مكتوب عليها بالتركية: ”معاً دافعنا عنها، ومعاً نبنيها“. وهم يقصدون بالطبع مدينة كوباني التي دافع عنها أبطالنا الذين لبوا نداء النخوة وتقاطروا على المدينة من كل مكان في كردستان.

صرت أتخيل نفسي أدخل كوباني مع مجموعة من الشباب لأشارك في إعادة بنائها ما دمت قد حرمت شرف المشاركة في الدفاع عنها. تخيلت نفسي أتسلق هضبة مشتنور وتلة كانيا عربان التي كانت أول بقعة رفع فيها ”داعش“ رايته السوداء. حلمت بأنني أشارك في زراعة أشجار السلام كما تم التخطيط لذلك في اتحاد الشباب الاشتراكي. غرقت في الأحلام حتى شعرت فجأة بيدين دافئتين تحجبان المشهد عني وتقطعان تدفق الحلم.

كان هناك شخص ما يقف خلفي يحيط بذراعيه جذعَ الشجرة التي استندت إليها ويطبق كفيه برقة شديدة على عينيَّ.

انتابني الذهول والفضول فمددت يديَّ لا إرادياً إلى اليدين الغريبتين أتحسسهما.

”من أنت؟“ قلت وأنا أستحضر أيام الرعب في سرداب الحجرة المشؤومة في منزل جدي.

”أنا“، صوت لم يكن غريب الوقع على السمع.

زال خوفي فأمسكت بيديه وأزحتهما عن عيني.

رأيت أول ما رأيت ساعة جميلة من ماركة ”فوسيل“ ذات الأرقام الرومانية والمينا السوداء التي تزين معصم يده اليمنى. كانت تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً.

ترى، من هو؟

التفت إلى الوراء وأنا ممسكة بيديه بشكل عفوي وقلت مندهشة: ”آمد؟ هذا أنت؟ متى وصلت؟“

– حين كتبت لي قبل يومين أنك ستكونين هنا عزمت على الالتحاق بك. أردت أن أعمل لك مفاجأة صغيرة. ألم تقرئي رسالتي؟

– بلى قرأتها. لكنني ظننت أنك في الجزيرة. أنا سعيدة لأنك ستشارك في الحملة.

ابتسم وهو يعانقني ويهمس في أذني: ”جئت من أجلك لا من أجل الحملة. أحييت حفل توقيع في مدينة أورفة وهناك عرفت أن حملة إعمار كوباني ستبدأ من سروج. أيقنت أنك ستكونين هنا“.

– كيف عرفت؟

– أينما تشتعل الشمعة، تتراقص الفراشة. منذ الثامنة أبحث عنك.

– يعني أنك تلاحق الفراشات؟ ألست مهتماً بهذا النشاط؟ ألا يهمك إعمار كوباني البطلة الجريحة؟ إلى متى ستبقى عدمياً؟

– لست عدمياً.

– بلى، أنت عدمي.

– هناك حدود غير مرئية بين العدمية واليأس الخلاق.

– اليأس الخلاق؟

– نعم. هذا مصطلح قدح في ذهني للتو. اليأس الإيجابي الذي يدفع إلى التأمل في الذات الجمعية والبحث عن الحلول. ليس اليأس السلبي الذي يدفع بصاحبه إلى الانتحار مثلاً، أو العدمية التي تتحدثين عنها.

لم يكن مزاجي الحماسي يسمح بخوض نقاش قد لا أخرج منه منتصرة، ولذلك لم أرد عليه بل اقترحت أن نفترش الأرض قليلاً، ثم جلسنا يسند أحدُنا ظهرَه إلى ظهر الآخر.

قلت مرة أخرى: ”ألن تشارك في حملة إعمار كوباني؟“

– سأشارك في إعمار قلبينا بالحب. الحب هو ما ينقص هذه الجغرافيا يا نِشتيمان. رأيت ماذا فعلت الكراهية بها.

”نحن من ندفع عن أنفسنا العدوان. نحن من نصد أمواج الكراهية“، قلت له بشيء من الحدة.

وصمتنا.

أطلق المحتشدون في هذه الأثناء شعارات متلاحقة يتغنون فيها بكوباني، وصاروا يغنون ويرقصون وتتعالى هتافاتهم بينما رددت أغصان أشجار الصنوبر صدى تلك الهتافات

فتتمايل مع النسمات ويصدر عنها حفيف أنيس يخفف من غلواء الحر السروجي الرهيب.

بعد صمت تخلل ذلك الضجيج دبَّت فيَّ الحماسة فنهضت وقلت لآمد: ''سأذهب لأحمل مع المحتشدين اللافتة الكبيرة. لم آتِ إلى هنا لأتفرج فقط''.

لم يرد حتى بربع كلمة لكنه ابتسم ابتسامة عذبة. فهمت ابتسامته على أنه لا يمانع. ذهبت متحمسة إلى الحشد بينما بقي مكانه جالساً على الأرض في ظل شجرة الصنوبر.

لم أبقَ سوى نصف ساعة تقريباً عدت بعدها سريعاً لأفترش الأرض من جديد مع آمد الذي بقي ينتظرني هناك. شيء غامض جذبني إليه. أهو الحب؟ لا أعتقد. فقد كنت أتصور قلبي كتلة فحم مرمية في قفصي الصدري لا يمكن أن تشعلها نيران الحب مهما كانت عاتية. لكنني كنت أحتاج إليه. كنت أحتاج إلى رجل يعيد إليّ توازني النفسي ويقضي على نفوري من الرجال. وكان آمد ذلك الرجل لكنه جاء متأخراً جداً. جاء بعد أن تعمق الجرح وتقيح.

– لماذا عدتِ؟

– لا أعرف. ضجرتُ.

– ألا تضجرين من صحبتي أيضاً.

– لا. يعتريني شعور جميل حين أكون بجانبك.

– هل تحبينني؟

– ما رأيك؟

– أنا أسألك.

صمتُّ. لم أعرف بما أجيبه! إنه يكبرني كثيراً. لكنني أشعر معه بأمان افتقدته طويلاً. هل أحبه فعلاً؟ هل أعترف له بقصة حياتي؟ هل أخبره بما جرى معي في طفولتي؟ ''لا. هذا سري وسأدفنه معي''، قلت لنفسي ثم نظرت إليه بابتسامة حزينة وقلت: ''لنبتعد قليلاً. سأعترف لك بسر''.

اقتربت الساعة من الثانية عشرة ظهراً فازدادت درجة حرارة الجو. تعامدت الشمس تقريباً على حشد المتظاهرين فانحسرت الظلال وابتعدنا، أنا وآمد، حتى وصلنا إلى شجرة نائية وحيدة تناجي ظلها وهربت مثلنا من بنات جنسها.

فتحت فمي لأعترف بحبي له، ولكن قبل أن أبدأ جملتي دوَّى صوت انفجار عنيف هزَّ المكانَ كله.

لفحنا الهواء الناتج عن ضغط الانفجار فسقطنا أرضاً.

أصابني رعب غير قليل. شعرت أنني أسقط في هاوية سحيقة لا قرار لها. أهوي وأهوي دون أن أصل إلى القاع.

كانت الصدمة عنيفة. لم يوقظني منها سوى صوت آمد يقول: "نِشتيمان! نحن بخير. نحن على قيد الحياة. لقد نجونا".

فسألت وأنا أرتجف: "ما الذي حدث؟"

رد آمد وهو يمسك بيدي كأنني موشكة على الغرق: "انفجار!"

وسرعان ما سمعنا أصواتاً خائفة مرعوبة تنادي: "إسعاف إسعاف"، وأصواتاً أخرى مذهولة ويائسة ولغطاً يختلط بنداءات مبهمة وأنين جرحى وبكاء وصرخات جزع تأتي من كل اتجاه.

***

قيل في الأخبار أن انتحارياً داعشياً فجر نفسه في الحشد وقضى نتيجة ذلك أكثر من ثلاثين شخصاً بينما جرح العشرات. رفيقتي جانسيل، وهي يسارية تركية، كانت بين القتلى وكثير منهن وقعن جريحات. بعد لحظات ملأت سيارات الإسعاف المكان وجاءت الشرطة أيضاً. اقترح عليّ آمد أن نغادر المنطقة لأنها أصبحت خطيرة. كنت تحت وقع الصدمة فوافقت دون تفكير. وهكذا عدنا إلى أورفة بحدود العصر.

اضطربت الأوضاع بعد ذلك.

قتل مجهولون عنصرين من الشرطة التركية في منزليهما بمدينة أورفة. تبنى الحزبُ تلك العملية لتنتهي بذلك مبادرة السلام التي كان يؤيدها القائد في سجنه. وكانت تلك المبادرة التي أعلنت في آذار 2013 تمهد لإنهاء الحرب المستمرة منذ سنة الغبار قبل تسعة وعشرين عاماً. توترت الأجواء كثيراً. أجهضت مبادرة السلام وبدأنا نشم رائحة معركة قادمة.

ازدادت آلام منطقة الفرج عندي بينما ساءت أحوال أمي في المصح. زرتها مرات عدة. كانت ذابلة حزينة ترنو إليّ بعينين لا بريق فيهما. لم ترغب في أن تكلمني. ولم أعرف كيف أواسيها! أحياناً تكون الآلام أكبر من الكلمات. لم يخترع البشر مفردات مناسبة تستطيع التعبير عن بعض حالات القهر واليأس. تقف اللغة مشلولة عاجزة أمام بعض المشاعر الفريدة. هذا ما كنت أشعر به كلما زرت أمي في المصح. لقد تفككت عائلتي وصرت مثل لوحٍ هائم من زورق حطمته الأمواج. لا أعرف متى وكيف وعلى أي شاطئ سأستقر. كنت أحب آمد. لكن مشاعري تجاهه كانت غريبة. كنت أنظر إليه كأنه أب أو أخ أكبر. كان صديقاً رائعاً، ومثقفاً جميلاً. لكنه لم يكن قد تخلص بعد من إرث الذكورية. كان عيبه الوحيد أنه لا يستطيع التفكير في الأنثى دون أن يعتبرها موضوعاً جنسياً. ناقشنا هذا الأمر مرات عدة. لم أستطع أن أقنعه بعلاقة لا جنس فيها. علاقة مبنية على حب من نوع خاص متحرر من خرافة النار والبارود التي يروج لها المربون وأولياء الأمور في مجتمعنا ويرون كل لقاء بين الرجل والمرأة مقدمة لانفجار جنسي بمباركة الشيطان. لكنني وجدت قليلاً من التعويض في المنظمات النسوية التي نشطت في المنطقة. عرفت خلال ذلك كثيراً من الفتيات اللواتي تعرضن للتحرش من المحارم، بل روت لي بعضهن قصصاً مرعبة عن الاغتصاب الذي تعرضن له من الأهل. كان الأمر أشبه بفانتازيا كابوسية لكنني صدقتهن. الأنثى، والإناث الصغيرات خاصة، صيد سهل للوحوش المفترسة التي من المفترض أنها تحمي الصغار من هجمات الوحوش الأخرى. الذكر وحش. وحشٌ أينما كان. لا يهم النوع الحيواني الذي ينتمي إليه لكنه وحش كامل مستوفي صفات الوحشية. وهذا بالضبط ما جعل علاقتي بآمد متناقضة متذبذبة. أنجذب إليه وأنفر منه في الوقت نفسه.

ذات مرة قالت لي رفيقتي جانسيل التي قتلت في انفجار سروج: "القط الذكر يلتهم الهررة الصغار. هل تعرفين لماذا؟ لأنه لا يفكر إلا بالمتعة أثناء العلاقة مع أنثاه. ليست الأنثى له سوى شريك في المجامعة ولا يشترك في ألم الولادة. بل لا يعرف ما هو الألم. همه الأساس اللذة التي تمنحها له العملية الجنسية. بل إن بعض ذكور القطط يلتهمون المواليد الجدد. لا يعرف القط الذكر مشاعر الأبوة، بينما القطة الأم هي التي تتألم وتعاني متاعب الحمل

شهرين كاملين ثم تأتي لحظة الولادة المؤلمة فتطرح المواليد العميان وتبدأ مشكلة الإرضاع وتأمين الصغار وحمايتهم. الألم هو الذي يربط الأم بوليدها. وهكذا الحال مع بقية الكائنات. هذه هي قوانين الطبيعة يا نِشتيمان: الأنثى والألم توأمان".

لم يكن سهلاً أبداً أن أثق بآمد. كان ذلك يعني المصالحة بيني وبين الذكور. لكن سحره وجاذبيته وقوة منطقه بالإضافة إلى حاجتي إلى من يسندني في محنتي جعلتني أتعلق به. لقد كان آمد القشة التي توسمت فيها النجاة من الغرق. كان واحة ظهرت لي وسط صحراء أنهكني العطش فيها.

كانت فيه من الصفات الأنثوية ما جذبني إليه بقوة وأنساني فارق السن الكبير بيني وبينه. الحنان والرقة والعاطفة الجياشة كل ذلك كانت من صفاته التي تجعله أقرب إلى أنثى حالمة من ذكر غليظ. لم أكن من الليزبيان لكنني كنت أخاف الذكور ولا أميل إليهم بل أكن لهم كراهية لا توصف. لم يكن الذكور يعنون لي سوى الرعب والقرف وكنت أنفر حتى من ظلالهم ورائحتهم وأصواتهم.

لكن آمد كان مختلفاً بحق. لا أملك القدرة على الشرح ولا أعرف كيف لكنه كان أكثر من عوضني عن فقد أهلي وتناثُر القش الذي بني به عشنا العائلي. كان حنوناً صافياً يشبهني في كثير من الأمور. يشبهني حتى في هزائم داخلية لم يشأ أن يطلعني عليها لكنني شعرت بها في اللقاءات القليلة التي جمعتني به. كان يحمل ندبة كبيرة، أثر جرح قديم غائر في روحه دون أن يبوح لي بقصته. كل إنسان في هذه الأرض الملعون يموت وعلى روحه آثار جراح غائرة. هنا في هذه البلاد يموت المرء موجوعاً مكبلاً بقيود متنوعة لا يقدر على تحطيمها سوى أولئك الناس الذين أصروا على ذلك.

بعد مجزرة سروج التي شهدنا أهوالها معاً غادرنا فوراً إلى أورفة. هناك عرض عليَّ آمد أن أرافقه إلى بلدته: "تعالي معي إلى الجزيرة".

ثم ابتسم وأردف: "إنها موطن الحب. مسرح قصة عشق مم وزين وفيها ضريح أعظم شعراء الغزل الكُرد".

لم يكن الحب ليهمني في تلك الأيام. لكنني رأيت في العرض شيئاً إيجابياً. فلأخض المغامرة، قلت لنفسي.

لقد مزقت الطفولة الأليمة التي عشتها روحي بأنيابها الحادة. عرفت خلال نشاطي في الصيف أن عدداً من الفتيات اللواتي تعرضن لمثل تجربتي توجهن إلى الدعارة. لقد انتقمن من ماضيهن الأليم بالإمعان في امتهان الجسد.

هذا الجسد هو ما يطلبه الذكور؟ فليكن مشاعاً، ليكن هذا الجسد متاحاً مثل باب يطرقه العابرون كلهم. ليكن عتبة منزل حقير يطأه الرائح والغادي، هذا كان لسان حال أولئك الفتيات المسكينات المسكونات بروح الانتقام. قالت لي آيسَل أوزتورك، رئيسة "جمعية المرأة الحرة في ماردين" ونحن في الطريق إلى سروج يوم الانفجار المروع: "تسليع الجسد الأنثوي رغبة ذكرية بحت. على الأنثى أن تملك جسدها ولا تعرضه للبيع. إن من يتجهن إلى الدعارة يساعدن الرجل على التمادي في امتهان المرأة. أصلاً لو كان الأمر بيد الرجل، لقام بتوجيه كل النساء إلى طريق العهر. هَمُّ الرجال اللذةُ. إنهم وحوش شبقة".

أردت أن أنتصر على الماضي بشيء مميز أحققه في حاضري المغاير. لكنني مع ذلك كنت هشة، وكانت روحي مهشمة كزجاج تعرض لضربة حجر طائش. حاولت كثيراً أن أجبر تصدعات روحي وأصلح كسورها فلم أفلح. فكرت في الانتحار لكنني فشلت في تنفيذه. كان شيء ما يشدني إلى الحياة. كنت أحيا بأمل الانتقام لأنوثتي المهدورة وطفولتي المغدورة بطريقتي الخاصة. الأوضاع التي آلت إليها أمي بعد تطليق أبي لها زادت من إصراري على خوض مغامرة الانتقام. صرت أبحث عن ثغرة في عالم الرجال أنفذ منها لأجهز عليهم. لكن ظهور آمد في ذلك العرس ورقصي معه، ثم قدومه إلى سروج يوم التفجير، أفشلا كل خططي في هذا الصدد.

***

في نهاية تموز، ازدادت أحوال أمي سوءاً.

تلقيت اتصالاً من مصحة الأمراض النفسية يفيد بأنها بحاجة إلى عملية جراحية. اكتشف الأطباء أن عضلة قلبها تضخمت بشكل مرعب وأن شريانين تاجيين من أصل ثلاثة شبه

مسدودين.

نأى بي ذلك الاتصال مرة أخرى عن المرفأ بعد أن أوشكتُ أن ألقي فيه المرساة وأهبط إلى اليابسة مثل بحار أرهقته مغالبة الأمواج وصراع الحيتان ومكاسرة الأنواء. أخرجتني مكالمة المستشفى من بحيرة الأحلام وألقت بي مرة أخرى إلى مستنقع الحياة.

أصر آمد على أن يأتي. أراد أن يكون معي حيث تتعالج أمي في مستشفى القلب التابع لجامعة دجلة في قلب ديار بكر لكنني رفضت.

– لا أريد أن ترى عمق جراحي. ستغرق فيها.

– لا وقت للشعر يا نِشتيمان. سآتي.

"لن تأتي"، رفضت بعناد طلب آمد.

"هو جرحي وعليّ وحدي أن أتحمل ألمه"، قلت له بإصرار وسافرت وحدي. لكنني لم أستطع أن أفعل شيئاً لأمي. ماتت قبل أن أصل إليها.

شعرت بأنني سقطت في حفرة لا قاع لها. هويت وهويت وهويت مرتطمة بجدران الحياة القاسية.

التقيت في تلك الأثناء ببعض الرفيقات اللواتي نزلن من الجبال لخوض الحرب في المدن. كن متفائلات بالنصر كثيراً.

– العدو يتخبط. يعاني من ضعف شديد. اقتصاده ينهار وانتصارات رفاقنا الأبطال في روجافا أفقدته الرشد.

– إنها فرصتنا. كل المدن ستنتفض.

– معظم الرفاق هبطوا من الجبال. إنها الحملة الكبرى.

– حرب الخنادق هو التكتيك الجديد الذي سيرغم العدو على ترك المدن لنعلن إدارتنا الذاتية.

في نهاية أيلول، تأزم الوضع أكثر من السابق ولاحت في الأفق نذر المواجهة بين الحزب والدولة. كانت كوباني كلمة السر. في تلك الأيام، أخبرني آمد أنه في زيارة قصيرة إلى ماردين. اقترح عليّ أن نلتقي.

– نِشتيمان أنا قريب منك. على بعد ساعتين.

– أين أنت؟

– في ماردين. ما رأيك أن نلتقي؟

ضحكت. قلت له إن المسافة بين الجزيرة وباطمان أيضاً ساعتان. وسنلتقي حين يحين الموعد.

– أي موعد؟

– سأخبرك به حين يحين. لا تكن عجولاً.

لم أكن متحمسة للقاء آمد. اعتذرت له بلطف: ”سنلتقي يا آمد. أعدك. سنلتقي قريباً وفي الجزيرة“.

يتداول الشارع الكردي أن الرفاق سيحاولون تكرار تجربة كوباني في مدن ديار بكر والجزيرة ونصيبين وماردين وشرناخ وباتمان وغيرها. كنت متأثرة جداً وفخورة مثل غيري بما حدث في كوباني. حسدتُ بعض الرفيقات اللواتي قاتلن هناك ودافعن عن كوباني. زرتهن مرات عدة في الحارات التي وصلن إليها وأصبحن يشاركن الرفاق في إقامة المتاريس. كن يتحدثن بفخر أنهن هزمن أعنف قوة في الأرض. ولطالما كنت أبحث عن فرصة لأحقق ذاتي حتى لو كان ذلك في ميادين القتال.

لقد قررت الانضمام إلى الرفاق. هذا أهم قرار أتخذه في حياتي.

***

الآن أنا في محطة الباصات شمالي البلدة. أجلس وحيدة في مقعدي. أنتظر انطلاق الرحلة المتوجهة إلى الجزيرة. الليلة الماضية نمت قلقة جداً.

غير بعيد من هذه المنطقة، يجري أحد روافد نهر دجلة. نهر جميل اعتدنا أن نتنزه على ضفته الشرقية والحقول المترامية هناك أيام الربيع وأواخر الصيف. سأترك باطمان. سأتركها اليوم ولا أعرف إن كنت سأعود إليها مرة أخرى.

رأسي يضج بالأفكار. إنها كباش تتناطح. في الخارج يملأ صخب الحافلات المغادرة والقادمة والمعاونين الذين ينادون على الركاب الأجواء. لا أحسن قراءة الوجوه لكنها في هذه الحافلة وخارجها حين أرقب من زجاج النافذة تفصح بوضوح عما يعتلج دواخل أصحابها. الوجوه بوابات كما قال آمد. كل وجه مدخلٌ منقوش عليه عبارات تشرح ما خلفه. يكفي لمعرفة ما في الداخل أن يحسن الإنسان قراءة النقوش.

يصعد الركاب بصمت. يجلسون في مقاعدهم بصمت لكنني على يقين أن رؤوسهم كرات منفوخة بالصخب.

الوجوه متجهمة، قلقة، مترقبة، عليها مسحة بينة من الرعب والحذر. البرد يزيد التجهم، ولا أعرف كيف يبدو وجهي للآخرين الآن!

إنها تمطر. أسمع نقر حبات المطر على أسطح الحافلات المنتظرة في الساحة. خيوط المطر تنزلق على زجاج النافذة على يميني. صوت أغنية حزينة من مسجل الحافلة يزيد الأجواء كآبة. أوشك على أن أنتهي من الكتابة. قلت ما عندي. رويت ما عشته بصدق. والآن جاء وقت إرادتي الحرة. لم أختر هذه الطريق. هي التي اختارتني واختارت كثيرات مثلي يبحثن عن وطن بلا عقد، بلا ظلم، بلا تمييز جنسي.

سأذهب إلى بلدة الجزيرة. إنها روح الكرد في هذه البلاد. ليس من أجل الحب. سأذهب لأمارس الحرب. سأقف وجهاً لوجه مع الوحش الذي جلب إلى أرضنا كل هذه المآسي وسأبصق في وجهه.

***

وصلت الآن بعد ثلاث ساعات إلى الجزيرة.

السبت 5 كانون الأول 2015

السرداب المقدس

استعداداً لإنهاء قصتي، علقت حبلاً متيناً إلى سقف هذا السرداب الملعون الذي سأسرد ما جرى فيه. على بعد مترين مني الآن تنتصب إسكملة صغيرة مباشرة تحت الحبل المتدلي الذي ينتظر رقبتي الآثمة. ولكي تفهموا لماذا أقدمت على إزهاق روحي التي قد تصفونها بالبريئة، سأكتب لكم في هذا الدفتر بعض الإضاءات التي تثبت لكم أن روحي لم تكن بريئة وأنها كانت شديدة التلوث وتستحق هذا العقاب. وعندئذ ستغفرون لي فعلتي وتفهمون علتي وتسامحونني، وأرجو أن تسامحني ضحيتي قبل الجميع.

***

سماني أبي كمال على اسم أبيه.

"ولدتَ في سنة الغبار. في سرداب معتم تحت غرفة أبيك في القرية"، سمعت هذه العبارة كثيراً من أمي وأبي وأختي الكبرى.

وسنة الغبار تعني عام 1984 حين شهد صيفه غباراً لم تعهده البلاد. هبت عاصفة قوية من الغبار قادمة من الجنوب فغمرت بلدات شمدينلي وشرناخ وأروه وسلوبي وغيرها من مدن الشرق المغتصَب بأكثر من قضيب. عمّ الغبار حتى امتلأت الآفاق منه واختنق الناس.

في تلك الأعوام لعلع الرصاص في القرى والوديان وتردد الصدى في كل مكان. هوجمت المدارس وطردَ الرفاقُ المعلمين فتعطلت الدراسة. أحرقت المنازل البسيطة وقتل كثيرون من حماة القرى الذين حملوا سلاح الدولة التركية واعتبروا خونة من قبل الحزب يجوز قتلهم مع أطفالهم ومواشيهم بلا أدنى رحمة. كما قتل العديدون ممن رفضوا حمل سلاح الدولة وألقي ببعضهم في السجون وعذبوا وشردوا من ديارهم إلى مدن نائية لا يُسمع فيه صدى البنادق وحشرجات المغدورين.

في قرية أورتاباغ، وذات شتاء قارس بعد ولادتي بثلاث سنوات، هاجم الرفاق بالقنابل اليدوية أولئك القرويين الذين وقفوا بجانب الدولة. كان ذلك في يوم جمعة أواخر كانون الثاني. قالت لي أمي ذات ليلة من ليالي حنينها إلى قريتها النائية، وهي تبكي وتسرد سبب هرب عائلتنا من قرية مجاورة لتلك القرية: "تحولت ثلوج القرية إلى عجينة حمراء من الدم الذي سال عليها".

ثم أردفت بعد أن هدأ نشيجها: "لم يكن أمامنا سوى الهرب يا ولدي. فإما أن نقف مع الرفاق وإما مع الدولة. لم يقبل أحدٌ منا الحياد. الطرفان المتقاتلان اعتبرا المحايد خائناً. كان لا بد من طريق رابع فاخترنا الهرب. لم يبقَ أمامنا سوى أن نهرب بأرواحنا الحائرة. القليلون الذين بقوا في قراهم تعرضوا للقتل في مجزرة شبيهة بمجزرة أورتاباغ ثم بينارجك وزاخوران وغيرها. مجازر ارتكبها رجال بلباس الجيش. قالت الدولة: هم الإرهابيون انتحلوا صفة جنود الدولة. مجازر أخرى ارتكبها رجال بلباس الرفاق. قال الرفاق: هم عناصر جيش الدولة انتحلوا صفة الكريلا. اختلطت الأمور يا ولدي ولم نعد نعرف من الذي يقتل الآمنين؟ كانوا يُقتلون سواء وقفوا إلى جانب هذا أو ذاك".

إذن هربت عائلتي مثل كثير من العائلات من القرية الصغيرة إلى أطراف بلدة قريبة من مدينة باطمان. كانت المدن والبلدات أكثر أماناً من تلك الجغرافيا المنسية الوعرة الغارقة في الغبار الكثيف الذي ابتلع الشعاب والوديان العميقة والقرى المتناثرة مثل كرات البلياردو التي ما إن تضرب واحدة منها حتى تسمع قرقعة بقية الكرات وهي تتصادم بعنف.

استقر أبي الملا عبد القدوس بعائلته الصغيرة في حي من أحياء البلدة القريبة من حقول النفط وبنى بمعونة المحسنين مسجداً صغيراً ليؤم فيه المصلين في حيّنا والأحياء المجاورة. كان أخي الأكبر سِنان غائباً عنا دائماً مشغولاً بملذاته وحياته الخاصة في إسطنبول يرسل إلينا بين مدة وأخرى مالاً نعتاش منه.

كنت في عامي الثالث ولا أتذكر من تلك الهجرة القسرية شيئاً سوى ما كانت أمي تردده على مسامعي قبل أن يصيبها الفالج قبل أعوام: "كانت أعواماً صعبة يا ولدي. اضطرتنا إلى أن نهرب من قرانا التي عشنا فيها وعاش فيها آباؤنا وأجدادنا. لم نغادر قرانا حتى في زمن

السفربرلك والقحط الكبير والثلج الأحمر. لكننا غادرناها بعد سنة الغبار. ما جرى كان أكبر من أن نحتمله. هربنا من عواصف الغبار الخانقة. ملأت عواصفُ الغبار السماءَ والأرضَ والحقولَ والبيوت والوديان. لا ندري من أين جاء ذلك الغبار الفجائي؟ كان غباراً كثيفاً لكنه كان شفيفاً خادعاً مثل سراب صيف. كان غباراً يقتل كأنه وباء يا ولدي. كنا نختنق منه ونسعل حتى يسقط أحدنا أرضاً. حجب عنا ذلك الغبارُ الرهيبُ رؤية المسالك فكدنا نتيه في دروب الهرب. لكن الله لطف بنا فوصلنا إلى باطمان بأمان بعد رحلة دامت أياماً عدة بسبب حواجز الجيش الكثيرة التي ذقنا فيها الويل والإهانات المتكررة. لم نأخذ معنا من قريتنا سوى أرواحنا ومرآة صغيرة كانت ذكرى جدتك. أما أبوك، فلم يأخذ معه سوى سجادته التبريزية التي ورثها من والده. تركنا هناك كل شيء: ذكرياتنا وأشجارنا وأزاهير الخطمية وكرمة العنب الأبيض وشجيرة السماق الكئيبة. هربنا في أوائل الصيف وقبل أن تزهر تلك الشجيرة. في باطمان هدأت نفوسنا قليلاً. على الأقل لم تحدث مجازر مثل التي سمعنا عنها في قرانا اليتيمة البعيدة. صحيح أن حوادث القتل كثرت، واتهمت الأجهزة السرية في الدولة بارتكابها لكنها لم تكن جرائم بشعة بمستوى قتل الأطفال الرضع والنساء التي خبرتْها قرانا المسكينة. أنت لا تعرف ما هي المجزرة يا ولدي. أنت لا تعرف قسوة أن ترى ابنك أو ابنتك الرضيعة غارقين في الدماء لا لشيء سوى لأنك مِلت مُكرهاً إلى هذا الطرف أو ذاك".

لم أصدق أن ما حدث في القرى المجاورة كان سبباً أساسياً للنزوح عن قريتنا الوادعة الصغيرة في سفح جبل وعر. عاش في تلك القرية أجدادنا دون أن يغادروها حتى في أحلك الظروف كما روى لنا أبي مراراً. كنا كالأشجار يا ولدي. الأشجار لا تغادر تربتها. لكن بعض الأعاصير تقتلع حتى الأشجار العنيدة". كثيراً ما تتهادى ذكرى نزوحنا غامضة مثل الحلم مع أمواج الخيال. إنها ذكرى رهيبة تجعلني أخاف دون أن أعرف السبب. ذكرى تشبه شمساً ذات نهار مغبر لا تكاد تظهر من كثافة الغبار. لا أدعي أنني أتذكر ما جرى لنا في القرية لكن شيئاً ما له طنين مستمر في أذني يشبه بكاء أطفال واستغاثات نساء، أنيناً وصياحاً يختلط بنباح كلاب وزمجرة جنود. ربما كان شيئاً محفوراً في الذاكرة الغضة حين كنت طفلاً

لم أتجاوز الثالثة من عمري لكن لم يبقَ منه أثر سوى ما يشبه سراباً يلوح للمسافرين الضجرين على طريق إسفلتي في نهار صيفي.

ذات يوم سألت أمي بإلحاح شديد: ”ما الذي جرى في قريتنا حتى تركتموها؟ هل حملنا سلاح الدولة؟ هل صارت هناك مجزرة كما في بعض القرى؟ هل انضم شبابها إلى الرفاق؟“

كانت أمي تعرف أنني حين ألح على موضوع فلن أتركه حتى أفهمه تماماً.

”لو ألححتَ على دجاجة لأرغمتها على أن تبيض“، قالت لي متأففة وأنا أطلب منها أن تسرد قصة النزوح.

– طيب أمري لله. سأروي لك الحقيقة. لكن بشرط ألا تقاطعني كما تفعل دائماً. اتفقنا؟

– نعم. اتفقنا.

– تمام. اسمع إذن. بعد مجزرة أورتاباغ طلب الجيش من القرويين حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم ضد الإرهابيين كما قالوا. بعدهم جاء الرفاق وقالوا لرجال القرية: ”لو حملتم سلاح الجيش، فمصيركم لن يختلف عن مصير عائلة ياقوت في قرية أورتاباغ. الثورة لن ترحم الخونة“.

”بعد تداول الأمر والمشورة استقر رأي أهل القرية على رفض سلاح الدولة. ’هذا أفضل من عار الخيانة الذي سيُجللنا حتى أحفاد أحفادنا‘، قال المختار للرجال الأربعة ومنهم والدك حين ناقشوا القضية في آخر اجتماع لهم. ولما علمت الدولة بالقرار، أرسلت عناصر الجيش إلى قريتنا. كانوا عشرين جندياً مسلحين حتى أضراسهم يتقدمهم ضابط بوجه حليق وعينين صغيرتين متقاربتين. جمعونا في ساحة فسيحة على شكل حلقة. الرجال والنساء والأطفال. حتى جارنا العجوز العاجز شَيْخْمُوسْ أجبر على حضور الاجتماع. حملته ابنتاه اللتان كانتا تقومان على خدمته ببطانية رثة وأتيا به إلى الساحة بناء على أوامر قائد مجموعة الجيش الذي زمجر فينا: حتى دجاجاتكم يجب أن تحضر. دجاجاتكم التي تنبش الروث وتنقر الخراء أعقل منكم على كل حال“.

”لم نفهم ما يقوله. فطلب أحد الجنود من المختار أن يترجم الجملة التي قالها الضابط الحليق الوجه. رأيت نساء القرية يبتسمن من هذه العبارة. لكنني عرفت أن الأمر ليس نكتة

يحكيها لنا ضابط تركي بلغته القاسية''.

''كانت شمس آذار قد ارتفعت قليلاً وكان الجو لا يزال بارداً في الوادي الذي تقع فيه قريتنا. اختلطت رجفة الخوف بقشعريرة البرد. صار الجميع يرتجفون وكنتَ متعلقاً بثوبي تنظر بقلق إلى الجند الذين حاصروا حلقتنا الواسعة. كنا نحو أربعين شخصاً. وقف المختار بجانب أبيك الملا وهمس له قائلاً: 'سَيْدا[2] ماذا نقول لهم؟' رد أبوك بصوت لا يكاد يُسمع: قل لهم سنفكر''.

2 تقال لرجال الدين الكرد، بمعنى يقارب معنى مولانا.

''تقدم الضابط نحوهما بخطى متباطئة، واقترب حتى شممنا رائحة عرقه ورأينا رفة جفنيه اللذين يعلوان عينيه. ثم وقف ثانيتين في مواجهة والدك والمختار مثل تمثال حجري. وفجأة صفع المختارَ صفعة قوية تردد صداها في الوادي الصامت. حاول والدك أن يتحدث إلى الضابط الغاضب فقال بتضرع: يا حضرة الضابط، أراد المختار أن... لكن صفعة أقوى من صفعة المختار دوَّت على وجه والدك الملا. صفعة لم يتردد صداها فقط في الوادي الأخرس ذلك الصباح، بل في أحلام أبيك لسنوات عدة. في أحلامي وخيالي أيضاً يا ولدي. كان ذلك اليوم لحظة في الجحيم الذي ستلهبنا نيرانه سنوات طويلة. ثبت والدك في مكانه ولكنني رأيت انكساراً هائلاً في عينيه. كاد يذوب من القهر. أما أنت، فتبولت في ثيابك. سال جدول صغير يعلوه البخار بعيداً عن قدميك الصغيرتين الحافيتين. لم أقل لك شيئاً، ولم يكن لدي وقت لتأنيبك أصلاً أو حتى لتهدئتك. بقينا جميعاً صامتين وقد كبلنا الخوف. وحدها كلاب القرية صارت تنبح بقوة. كانت تحوم حول الحلقة الصامتة وتنبح على الجنود والضباط كأنها تحتج على ما يقومون به. كلبنا المدلل شيروان اقترب من الضابط الذي صفع أباك وصار ينبح عليه نباحاً متواصلاً فما كان من الضابط إلا أن سحب مسدسه وقتله بكل برودة برصاصة واحدة في الرأس وكأنه يصوب على دريئة من الورق المقوى. بعد أن خمدت أنفاس شيروان أمر الضابطُ الجنودَ بقتل بقية كلاب القرية فتمددت فوراً جثث خمسة كلاب أخرى حولنا. أخيراً انتهى النباح الذي كان عزاء لي وربما للآخرين في تلك اللحظات المرعبة. وجدت في نباحها دعماً ومساندة بعد أن فقدنا كل سند ونحن مطوقون بالجند في ذلك الصباح الكافر''.

"إن أردتم الأمان فما عليكم إلا استلام الأسلحة والانضمام إلى تشكيلات حماة القرى. نحن نحارب الإرهابيين دفاعاً عنكم وعليكم أن تقفوا في صفنا وإلا فإن مصيركم لن يكون بأحسن من مصير كلابكم. فهمتم؟"

"ترجم المختار كلام الضابط فسكتنا جميعاً. زعق الضابط حين رآنا ساكتين: أيها الضباع المتوحشة هل فهمتم؟

– فهمنا.

– إذن سأعود بعد أسبوع لتسجيل أسماء من سيستلم الأسلحة والذخائر".

***

"كان بين الكلاب التي قتلها الجند كلبة العجوز المقعد شَـيْخْمُوسْ. كانت كلبة شرسة تكره الغرباء. سماها أهل القرية هاوار لأنها ما كانت تكف عن النباح كلما مرت سيارة غريبة من القرية أو وفد علينا في القرية ضيف طارئ. وفي ذلك الصباح، طغى نباحها على نباح بقية الكلاب وصارت تنتقل من جندي إلى آخر تنبح عليه من بعيد وتهز ذيلها بتوتر شديد حتى تلقت رصاصة أخرستها هي أيضاً. سكتت الأرض والسماء في ذلك النهار الجهنمي ولم يدافع عنا سوى كلابنا التي قتلت في مذبحة غير متوقعة".

"حين أخرست رصاصةُ الجندي التركي الكلبةَ المسكينة، صرخ شَيْخْمُوس بالكردية في الجندي القاتل: تقتل كلبة يا عديم الناموس؟ تقتل كلبة لا سلاح لها سوى النباح؟"

"لم يكن الجنود بحاجة إلى ترجمة ما يقوله شَيْخْمُوسْ العجوز العاجز. فهموا من نبرته ومن عبارة ناموس سز التركية أنه يشتم فتقدم منه الجندي قاتل الكلبة وضرب رأسه بأخمص بندقيته ضربتين قويتين. رأينا الدم يغطي وجهه. ولولت ابنتاه وانكبتا عليه تحميانه فيما ذهب الجنود صوب سياراتهم يتقدمهم الضابط ذو العينين الصغيرتين والوجه الحليق".

"حين ابتعدت سيارات الجيش ركضنا صوب شَيْخْمُوسْ وابنتيه. كان جرح غائر في رأسه ينزف دماً غزيراً. حاولنا أن نوقف النزيف فلم نستطع. طلب المختار من أحدهم الذهاب إلى قرية أورتاباغ ليُحضر رجلاً من عائلة ياقوت كان يمتهن الطب الشعبي. 'وهل بقي أحد من

عائلة ياقوت؟ بل هل بقي أحد في أورتاباغ أصلاً؟ لقد قتلوا جميعاً وأحرقت القرية‘، صاح أبوك في المختار بينما كان العجوز شَيْخْمُوسْ يسلم الروح“.

سألت أمي: ”لماذا قتل الحزب عائلة ياقوت؟“

حكت لي أمي القصة بصوت كسير: ”حوادث مشابهة كثيرة في تلك الأعوام. ومن هذه الحوادث ما جرى في قرية أورتاباغ التي اضطر سكانها إلى حمل سلاح الدولة. وصاروا بسبب ذلك هدفاً لهجوم مباغت من مقاتلي الحزب حين كنت في عامك الثالث. دهم المقاتلون القرية أثناء حفل زفاف وألقوا القنابل على المحتفلين فقتلوا ستة من عائلة ياقوت، طفلين وأربعة نساء، فيما مات رجل وامرأة من الجرحى متأثرين بجراحهما في مستشفى الجزيرة“.

”المهم يا ولدي. لنعد إلى حكاية نزوحنا عن قريتنا. في ذلك اليوم المشؤوم نسينا كل شيء. نسينا حتى أمر جنود جيش الدولة وإهانتهم لنا وانشغلنا بدفن شَيْخْمُوسْ والبكاء عليه“.

”مساء، بعد أن غربت الشمس، اجتمعنا عند باب بيت شَيْخْمُوسْ المسكين. واصلت ابنتاه الوحيدتان البكاء عليه وصارتا تنوحان عليه وتندبانه بحرقة بينما وقف الرجال واجمين لا يعرفون كيف يتصرفون. في تلك الليلة، تقرر النزوح عن القرية. لم يكن هناك مجال آخر: إما قبول سلاح الدولة وإما رفضه. ما من حل آخر. ولأننا قرويون ضعفاء الأمران يعنيان لنا الموت بيد هذا الطرف أو ذاك. قبول سلاح الدولة يعني قتلنا على يد الرفاق بوصفنا خونة، ورفض السلاح يعني حرق قريتنا وطردنا منها وزج رجالنا في السجون وحتى تصفيتهم بصفتنا خونة للدولة. هل ترى؟ خونة مهما تصرفنا. لذلك اخترنا الرحيل الذي كان أمرَّ علينا حتى من الموت. خُنَّا قرانا وأعشاشنا وأرضنا التي ولدنا فيها ونشأنا عليها وهربنا بأرواحنا الجريحة لنداويها بعيداً عن الجذور“.

كانت كل القصص التي ترويها أمي تنتهي في كل مرة بدموع غزيرة تجود بها عيناها المكحلتان على الدوام.

وفي الدروب الصغيرة التي كان يرسمها الدمع المكحول على وجه أمي المخدد القاسي، رأيت فظائع لا تُحصى وخوفاً لا يوصف. رضعتُ الخوف مع حليبها. فطمتني أمي من

الرضاعة ولكنها لم تفطمني من الخوف. نبت الخوف من كل شيء في قلبي مثلما نبتت شجيرة سماق كئيبة في حوش منزلنا الجديد.

كنت صغيراً في تلك الأعوام التي تلت نزوحنا، صغيراً بحيث لا أعرف لعضوي الصغير وظيفة سوى التبول حين خصص أبي الملا رجلاً لتحفيظنا، أنا وبعض أطفال الحي، **القرآن**. كنا نجتمع في سرداب تحت حجرة أبي الملاصقة لجدار المسجد ونحفظ قصار السور ونحن نعتمر طاقيات بيضاء على رؤوسنا الصغيرة الخالية سوى من الخيالات الطفولية.

"كنتَ طفلاً بالغ الوسامة، بشعر ذهبي طويل وعينين قريبتين إلى الزرقة وبشرة بيضاء"، كانت أمي تقول بعد أن كبرتُ ولوَّحتني شمسُ البلاد السخية فجعلتني أسمر داكن البشرة بشعر كستنائي غامق وعينين بنيتين، "في طفولتك كنت مثل دمية جميلة".

كانت تضحك وهي تسرد في بعض الأحيان قصة نساء القرية اللواتي لم يصدقن أنها أنجبت ذكراً: "كنت أضطر إلى أن أنزع سروالك لأريهن ما بين فخذيك".

مضت الأيام في الكُتَّاب رتيبة متشابهة إلى أن جاء يومٌ أسود نزعَ كلَّ براءة عن طفولتي.

حين انتهى الدرس في ذلك اليوم وصرف الفَقَهْ حمدي التلاميذ كلهم، أبقاني عنده ثم قال مبتسماً: "والدك مولانا الملا طلب مني تحفيظك سورة الفلق".

– أعرفها.

– إذن هات اقرأها.

قرأت السورة لكنني أخطأت في الآية الأخيرة بسبب ارتباكي. ابتسم مرة أخرى وقال: "هذه خاتمة سورة الناس". قلت وقد بدأت أستشعر خطراً مجهولاً: "سأحفظها. والله العظيم سأقوم بذلك".

فجأة خطفني من يدي وأجلسني على ركبتيه فوجدت نفسي في حضنه وشعرت بقضيبه الغليظ يتمدد أسفل مؤخرتي الصغيرة. أمسك بذراعي وهو يقول غاضباً بينما خيول الشهوة تصهل في عينيه السوداوين: "يجب أن تحفظ قصار السور كما يجب. هذه وصية والدك الملا. حين يعود من الحج يجب أن تكون قد حفظت الكثير من جزء عمَّ".

لم أجرؤ على قول شيء لأبي أو لأمي أو لأحد من أهل بيتي. لا أعتقد أن أحداً كان سيصدقني. لذلك صمتت وصبرت على انتهاكات فقه حمدي. كان الغبارُ الشغلَ الشاغل للناس. لم يكن هناك حديث سوى عن الغبار الذي غزا المدن والقرى وحجب الشمس وأفسد الزرع وأغرق الوديان في غموضه وجعل الناس يهربون من قراهم ووديانهم المنكوبة به إلى أماكن أقل غباراً.

كبرت وصارت السرداب وما جرى لي فيه ماضياً أسود لا أنساه، ماضياً يهوي كالمطرقة الثقيلة على كل لحظات الحاضر فيجعلها هشيماً. ثم مرت السنوات على وقع المجازر وهجوم الجيش. لم يكن أمامنا سوى أن نكون مثل نعل فرس لا المطرقة ترحمنا ولا السندان يحمينا ولا نذوق غير طعم الحريق في كور الحدادين. كبرت وكبر الخوف معي. حين صرت في الثانية عشرة من العمر أصيبت أمي بالشلل. أصابتها جلطة دماغية حادة أفقدتها القدرة على الحركة والكلام. طلبنا من أخي سِنان العودة لكنه بقي غارقاً في عسل حياته الإسطنبولية واكتفى بإرسال النقود إلينا من هناك. وحين عاد بعد إلحاحنا ألقي القبض عليه وأرسل إلى سجن ديار بكر. في ذلك العمر، صرت أخالط بعض الشباب من المؤيدين للحزب. لاحظ أبي ذلك. خاف عليّ من الانخراط في صفوفه. كان ينتظر أن أكبر لأدير شؤون أملاكه وعقاراته التي اشتراها بمال أخي سِنان وأموال التبرعات التي ظل يجمعها كل يوم جمعة من أجل رعاية أيتام لم نعرفهم وبناء مئذنة ظلت ترتفع شاهقة في خياله. حبسني أبي أياماً في سرداب الحجرة الملاصقة للمسجد. ضربني بوحشية وهو يردد: ”سأسلخ جلدك إن انضممت إليهم. سأنتزع خصيتيك وأرميهما لكلاب السوق. سأجعلك عبرة للناس، سأسلمك بنفسي للعسكر حتى يرسلوك إلى سجن ديار بكر. سيخصونك هناك كما خصوا العديدين مثلك“.

نالني رعب غير هين من فكرة الإخصاء. كان الناس يتداولون فعلاً قصصاً مرعبة عن سجناء سياسيين خرجوا مخصيين من سجن ديار بكر. شباب كثيرون كان يطلق سراحهم والقاسم المشترك بينهم هو رفض الزواج رغم إلحاح الأهل. ”لا شك أن خصاهم صارت طعاماً للقطط والكلاب الشاردة عند أسوار السجن“، سمعت هذه العبارة أكثر من مرة.

أرعبتني فكرة أن تصبح خصيتاي طعاماً لقطة شرسة أو كلب عقور. كنت أراقبهما وأراقب عضوي. اعتبرت ذكورتي كنزاً ثميناً ينبغي الحفاظ عليه بأي شكل. بحثت عن ساحة أروِّض فيها خوفي وأنتزع أنيابه وأقلم مخالبه. بحثت عن ساحة أحمي فيها فحولتي وأدربها على البقاء في زمن العِنَّة.

وكانت فريستي أقرب المقربين إلي، فريسة صغيرة لا تفهم من الدنيا شيئاً سوى دميتها وألعابها. تحولت إلى وحش وافترست طفولتها البريئة كما افترسوا طفولتي من قبل. أكان ما فعلته انتقاماً؟ وممن؟ ضحية تفترس ضحية.

كنت أريد أن أتوقف عن ارتكاب تلك الحماقة. لكن الإغواء كان كبيراً. آمنت بالشيطان وقوته. عرفت أن الله ينسحب من المشهد أحياناً ليختبر ابن آدم. لكنني سقطت في الامتحان الرباني. أغواني الشيطان وزين لي قبح عملي، ومنح لذة عابرة لروحي الملوثة بقذارة الشهوة مقابل تهشيم روح طفلة مسكينة بريئة لا تعي من الدنيا غير لعبتها. أورثتني تلك الشهوة الحرام لعنة لاحقتني إلى هذا اليوم حيث أكتب اعترافي المرير هذا.

المفارقة الرهيبة كانت حين التحقت بالجندية الإجبارية. من السخرية المرة أن خدمتي في الجيش التركي وفرت لي فرصة كبيرة كي أتجنب الشيطان اللعين وأتعرف بصورة أعمق على الله وأخدمه كعبد تائب.

الله الرحيم، القوي القادر على كل شيء، الله الغفار لكل الذنوب لم أعرفه وأنا أسكن بيتاً مجاوراً لمسجد أبي ولكنني عرفته وأنا أخدم الجيش التركي في قونية. كنت أنوء بأثقال آثامي التي ارتكبتها، وأحاول أن أتخفف منها بأي ثمن حين تعرفت إلى رفيقي العريف التركي المتطوع محمد يَشيلنور من مدينة مرسين الساحلية.

كان شاباً نحيفاً للغاية. له عينان صافيتان وابتسامة مرسومة على شفتيه في كل لحظة. قسمات وجهه تشي بقساوة الحياة التي عاشها. لكنه كان يبدو قوياً صلباً كمقبض فأس. تطوع في الجيش التركي بعد أن شهد قصة حب فاشلة وقوية كما قال لي ذات مرة.

حين أفضيت له ببعض ما يضيق به صدري في جلسة صفاء قال لي مبتسماً: "لكي تتخفف من ثقل آثامك عليك أن تعرف الله على حقيقته. فإذا عرفته، وصلتَ". سألته بيأس: "يعرف

المرء ربه على حقيقته؟ ومن يقدر على ذلك أصلاً؟'' رد محدقاً في سماء طرزتها حمامات بعيدة: ''ربما لا تصل إلى حقيقة الله بالشريعة. بل من المؤكد أنك لن تصل فالشريعة تنظم أحوال عبوديتك لله وخضوعك المطلق لمشيئته. الشريعة صنعت لك طرقاً معقدة وشعائر ينبغي لك التزامها للوصول إلى ربك. بل هي لا توصلك إنما تضعك على طريق طويل فيه تعاريج ونتوءات والتواءات كثيرة. لكن التصوف اختصر الطريق إليه. التصوف طريق مستقيم قصير يضعك وجهاً لوجه أمام خالقك، فتخاطبه دون حجب، وتعاتبه، وتستغفره وتتوب إليه وتسمع صوته كأنك تستند متذللاً إلى أحد أعمدة عرشه. للوصول إلى الله ثمة طريقان: طريق الشريعة وطريق الحقيقة. لكي تسلك طريق الشريعة لن تصل إلى الله دون دليل. أما على طريق الحقيقة، فلن تحتاج دليلاً. قلبك دليلك''.

يوماً بعد يوم انخرطت في التجربة. ومع أن حياة الجيش قاسية ومليئة بالالتزامات الصارمة، وجدت فسحة لتمرين روحي على الاسترخاء والتأمل ومطالعة بعض الأمور التي كان يدلني عليها رفيقي التركي ليضعني في أول الدرب.

تعرفت بعد ذلك إلى بديع الزمان سعيد النورسي وأعجبت بكلماته المدهشة وعباراته المليئة بنور رباني. حدثني العريف التركي عنه، وقال لي إنه كردي مثلي. لكن ما معنى كردي وتركي؟ الخلق كلهم عيال الله. القومية قميصٌ أجبرتنا المصادفة على ارتدائه، فمنا من أعجب به فلا يريد خلعه ومنا من يستطيع التخلي عنه ببساطة ليبدله بقميص أجمل منه: الإنسانية التي هي الوجه الناصع لفكرة محبة الله.

خلال حياتي القصيرة في الجيش، عرفت حجم الخطيئة التي أوقعني فيها شيطان النفس. هناك وقفت أمام مرآة الحقيقة ونظرت إلى روحي فرأيتها ملوثة قذرة أكثر من خنزير يتمرغ في روثه.

لماذا يرتكب الإنسان خطايا رهيبة؟ لماذا لا يمنعه الله من ذلك وهو القادر على كل شيء؟

طرحت هذا السؤال على رفيقي محمد يشيلنور في إحدى أمسيات الصيف ونحن نستمتع بتناول بطيخ قونية اللذيذ نكسر به سورة الحر.

مسح فمه بظاهر كفه ثم نظر إليّ عيني مباشرة وقال: ''أعرف أنك ارتكبت خطايا أو خطيئة كبيرة. لن أسألك عنها فذلك سرك الذي لن يخفى على رب العباد. لكنني سأذكر لك مثلاً قرأته في بعض كتب الصوفية: خطايا العبد كالحجارة ورحمة الله أوقيانوس محيط بالكون كله، ومهما رميت في هذا البحر من حجارة، فسيكون هناك متسع لحجارة أخرى كثيرة إلى ما شاء الله، أي رحمة الله واسعة تشمل ذنوب البشر مذ خلق الله أبانا الخطَّاء آدم إلى آخر آدمي من نسله يقبض الله روحه عند النفخة الأولى. وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة. تشجع يا صديقي وارمِ حجارتك في عرض البحر. ارمها كلها وتخلَّ عنها، وتخفف من ثقلها وكن على يقين أن ربك سيغفر لك. ألم تسمع حديثاً يقول بما معناه: لو لم ترتكبوا الآثام، لخلق الله بشراً يأثمون ليغفر لهم. إن الله - تعالى - غافر غفور غفار، وأسماؤه الثلاثة هذه أزلية مثل صفاته الأزلية. أي إن الله تقدس اسمه الأعلى يعلم منذ الأزل أن عباده سيأثمون وسيغفر هو لهم وإن تابوا، فسيتوب عليهم ويتجاوز عن سيئاتهم فالتواب اسمه. وأسماء الله أزلية كما قلت، أي الله يعلم من الأزل أنه سيكون له عباد يأثمون فيتوب عليهم. إن الله يفرح لتوبه عبده كما يفرح صاحب الجمل الضائع في الصحراء حين يعثر عليه. تب وليفرح بك ربك. لا تيأس من رحمة الله يا كمال. لا تيأس فاليأس مقدمة الكفر أعيذك منه''.

لكن النار التي كانت تأكل أحشائي لم تخمد.

لم تنفعني توبتي كثيراً. لم ينفعني رمي حجارة الآثام في بحر مغفرة الرب سبحانه. كان ذلك مثل مسكن ألم يتناوله صاحب سن منخور أو رأس يثقله الصداع. خفَّت الآلام قليلاً لكن الصداع لم يغادر الرأس والسن بقي منخوراً يعود إليه الألم كل لحظة ليذكرني بحقيقته.

بحثت عن علاج يشفي روحي خارج إطار الدين.

حاولت أن أقترب من ضحيتي بعد انتهاء الخدمة العسكرية مرات عدة لكنني لم أجرؤ. أردت أن أعتذر لها وأكفر عن ذنبي وأبين أن الشيطان أغواني وحاد بي عن الطريق وأوردني سبيل الضلال لكنني خفت أن يزداد ألمي وأن تنفتح الجروح القديمة لدى الضحية فآثرت أن أجتر خيبتي وحدي يطحنني الندم برحاه الثقيلة.

لجأت إلى قراءة كتب علم النفس لعلني أرى فيها ما يدلني إلى ما يخفف عني. قرأت روايات ذات أبعاد نفسية. كانت رواية **الجريمة والعقاب** رفيقتي على مدى أشهر طويلة. قرأتها أكثر من مرة. رأيت نفسي في شخصية البطل راسكولنيكوف. اعتراني ما كان يعتريه من حيرة قبل الجريمة ثم هذيان بعدها. خفت أن أتمشى في الشوارع وأهذي بما فعلته كما كان يفعل راسكولنيكوف في شوارع بطرسبورغ فأكشف نفسي. في النهاية، أنقذ الحب راسكولنيكوف، وجاءه الشفاء على هيئة عاهرة اسمها سونيا رافقته محنة العمل الإجباري حتى تطهرت روحه. لكنني بسبب انطوائيتي الشديدة لم أقترب من عالم الإناث. كنت أتهيب منهن، وأتصبب عرقاً حين تكلمني فتاة في أمر عادي. حاولت أن أقهر خجلي مراراً ففشلت. الموسيقا التي كنت أحبها كثيراً ولم يمر يوم دون أن أعزف بضع مقطوعات صارت جزءاً من الماضي. نسيت أنني كنت أعزف. لم أفهم سر عزوفي عن العزف! صرت كلما مددت يدي إلى الطنبور، شعرت بنوع من الشلل في أصابعي.

حاولت كثيراً أن أبعد شبح الماضي وسردابنا المشؤوم الذي انتهكت فيه طفولتي ثم ارتكبت أيضاً خطيئتي التي سممت حياتي هناك. باءت محاولاتي بنهايات غير موفقة. كان الأرق سيدمرني لولا المنومات والمهدئات. كرهت حياتي، وكرهت سنة الغبار التي ولدت فيها. أنا ابن الغبار الذي عاث فساداً في هذه البلاد. أنا وليد لحظة تاريخية مشوهة مشبوهة مشؤومة. ولدت وكبرت بروح مشوهة. سكنني جني شرير. كنت شيطاناً في إهاب إنسان.

كتبت رسائل عدة إلى رفيقي في أيام الخدمة العريف التركي محمد يشيلنور. لم أتلقَّ رداً. قلقت كثيراً ثم تذكرت أنه متطوع في الجيش ولا يمكنه الرد إلا حين يأتي في إجازة ويفتح رسائله. بعد مدة طويلة جاءتني رسالة من مرسين. كنت بحاجة إلى رفيقي فقد كانت لكلماته تأثير إيجابي مهدئ. كنت كلما تحدثت إليه شعرت بالطمأنينة وأن باب التوبة مشرع حتى يموت المرء. فرحت كثيراً حين استلمت رسالته. فتحتها بلهفة سرعان ما تحولت إلى خيبة وحزن كبيرين.

الأخ كمال المحترم،

بعد التحية والسلام،

يؤسفنا إخبارك أن أخانا ورفيقك محمد يشيلنور قد استشهد أثناء قيامه بمهامه وواجباته العسكرية تجاه وطنه وشعبه. لقد سقط وهو يدافع عن قيم الحق أثناء مواجهة مع مجموعة من الإرهابيين في جبال هكاري.

الحق؟ الجميع يرون أنفسهم على حق. كانت صدمة فعلاً. صدمة أن أكتشف أن رفيقي الطيب الذي لم يكن يحب سفك الدم ويدعو للمحبة دائماً يقضي في معركة في أغوار جبال بعيدة عن وطنه وأهله. حزنت عليه وتمنيت لو أنه عاش في بلادنا معلماً لا مقاتلاً. لو جاء إلى هذه المنطقة يبشر بالخير والتسامح والمغفرة كما تعلمت منه، لو تم ذلك، لنفعنا بسمو أخلاقه ونقاء روحه وما ضر نفسه وفجع أهله بتلك الميتة.

لم يبقَ أمامي أحد أبث إليه ما أشعر به. لم يبقَ أمامي سوى الكتابة.

قررت في لحظة من لحظات اليأس وربما التجلي أن أكتب.

لم أتجرأ على كتابة قصتي في البداية. لم أملك القوة الكافية على بسط أسباب معاناتي الحقيقية حتى عندما اختليت بهذا الدفتر الذي جلبته خصيصاً لهذه الغاية. لكنني رأيت أنه لا بد من تدوين اعترافي على هذه الأوراق لأتخفف من أعباء السر الذي سآخذه إلى القبر.

أما ما جرى لي كعقاب رباني على خطيئتي المقرفة، فقد كان شيئاً رهيباً.

لاحظت قبل أشهر ارتخاء شديداً في عضوي. صباحاً، وبعكس العادة، حين كنت أستيقظ من نوم متوتر صرت أجده رخواً متدلياً كعرف ديك رومي. لم يعد ينتصب رغم محاولاتي المتكررة. قلت في نفسي: لعل للأمر علاقة بالمهدئات. ثم لاحظت ضموراً متسارعاً فيه. ظل عضوي يضمر ويضمر حتى كاد يتلاشى قبل أيام. أصبت بفزع كبير. هل يعقل أن أفقده؟ هل هو عقاب الرب على ما ارتكبته؟ يا إلهي! ألم أستغفرك؟ ألم أتذلل لك وأعترف بجريمتي؟ ألم ألقِ كل حجارتي في بحر غفرانك؟ أتعاقب المستغفرين أيضاً؟

لم أشأ أن أذهب إلى طبيب. قلت لنفسي سأبقى أراقبه فلعل الموضوع عَرَضٌ طارئ.

لكنه لم يكن كذلك.

يا لخيبتي ومحنتي! استيقظت هذا الصباح فلم أجد عضوي. كل ما رأيته بين فخذيَّ لم يكن سوى بروز صغير يتوسطه ثقب كفم سمكة صغيرة. كان ما رأيته هذا الصباح أقرب إلى

فرج أنثى من ذكر رجل.

هل بلغت قصتي نهايتها الوخيمة؟ لا أدري. لم أعد رجلاً. زالت ذكورتي وهذا عقاب عادل. لأن ذكورتي دفعتني إلى خوض وحول الخطيئة بحثاً عن لذة شخصية غير آبه لتدمير روح بريئة. إنه عقاب عادل نعم، لكنه ليس خلاصاً. أعتقد أن الخلاص النهائي لا يكون إلا بنهاية الحياة. نهاية حياة المرء تعني نهاية قصص أحزانه، نهاية خيباته وآلامه، نهاية كوابيسه، نهاية كوابيس ضحيته كذلك.

نعم، الحياة كابوس طويل ولكن بيد المرء أن ينهي ذلك الكابوس في غضون دقائق. الحياة كابوس لن يوقظك منه إلا جرس الموت.

لن أطلب الصفح من ضحيتي. فهذا هراء. ماذا يعني الصفح بعد إصابة الروح بجرح عميق!

سأصعد الآن. ربما تتطهر روحي حين أتدلى من هذا الحبل المعلق بالسقف، الذي ينتظر رقبتي.

سأغادر هذا الجحيم الذي أتعذب متقلباً في سعيره. سأغادر نفق الحياة إلى رحابة الموت.

سأصعد إلى المطهر فلعله يؤدي بي إلى الفردوس. أعرف أن ربي رحيم. وسيتفهم معصيتي هذه أيضاً.

سأصعد.

أرجو أن تكون القصة قد بلغت خاتمتها. نقطة.

مقدمة في علم هندسة الكوارث

هذه نبذة مختصرة عن الأساليب العلمية الحديثة في ترميم الجسور المتضررة بفعل الحروب والكوارث الطبيعية

إعداد: المهندس المدني كمال الدين
آيدن – جامعة دجلة
ديار بكر – الجمهورية التركية 1987

الإهداء

إلى ولدي الحبيب أحمد رضا.

سأكتب في هذه الورقات القليلة خلاصة خبرتي المتواضعة في الهندسة. وسأبين بالتفصيل أن هدم الجسور المتضررة من الزلازل والسيول والقصف الجوي ليس الحل الوحيد لإعادة تأهيلها. إنما هناك طرق ووسائل عدة يمكننا بها إصلاح الجسور المهدمة وترميمها من جديد لتوفير النفقات الباهظة التي يتطلبها هدم الجسر المتضرر وإزالة الركام ثم بناء جسر جديد مكانه.

سأكتب عن سيرتي الشخصية أيضاً. أنا لا أعرف بالطبع فنون الكتابة الأدبية. ولست ضليعاً في كتابة البيوغرافيا. وحياتي أصلاً لا تستحق عناء الكتابة وليس فيها ما يمكن أن يكون مثيراً سوى بضع محطات جديرة بالتأمل. وما عدا ذلك حياتي تشبه حياة ملايين الناس في أنحاء هذه الكرة المنكوبة ببني آدم التي تدور بجنون ورتابة في الفراغ العظيم. لكن ربما تستفيد يا ولدي أحمد رضا مما سأدبجه هنا. طبعاً لا يتسنى لنا، أنا في خضم أشغالي في البناء والإنشاءات، وأنت بسبب انشغالك في الدراسة ونشاطاتك الأخرى، أن نتناقش حول أمور كثيرة مهمة. حتى حين تكون في الجامعة بديار بكر لا نراك إلا آخر الليل. وأغلب مناقشاتنا تنتهي حين تقوم فجأة إلى موعد أو أقوم لأنا أرد على مكالمة هاتفية بخصوص عملي.

أحياناً أنظر إليك كأنني أنظر إلى نفسي في مرآة صافية. أرى نفسي أتكرر فيك، وفي أفكارك وحركاتك وحتى ثوريتك. والدتك المسكينة تقول: ”هذا الولد مثل الزئبق لا يستطيع

أن يستقر في مكان واحد". طبعاً أنا أيضاً لاحظت عليك الصفة الزئبقية وفق وصف أمك لكنني لا ألومك أبداً على فرط نشاطك وحماستك واندفاعك في هذه الحياة. إنها قصيرة لدرجة أنني أقول بيني وبين نفسي أحياناً: "الجلوس جريمة، والنوم جريمة، وعلى الإنسان أن يكون كفراشة الحقل التي لا تهدأ". حتى أنني عرفت، بعد فوات الأوان، أن الزواج من أكبر معوقات الحياة الحقة. بالمناسبة والدتك تصر على أن نبحث لك عن عروس. أنا أقترح ابنة عمك شكران التي تعيش مع عائلتها في أدرنة. تتذكرها ربما. كانت في مثل عمرك. ربما تكبرها بشهرين أو ثلاثة. وحين غادرنا أدرنة كان عمرها خمس سنوات، مثلك تماماً، وكانت طفلة لطيفة وذكية وجميلة ذات جدائل شقراء وعيون عسلية كبيرة. لا أعرف إن كنت تتذكرها! أجدها مناسبة لك.

على كل حال، سأكتب نبذة عن حياتي التي لم أحدثك عنها، سأكتب عن جذورك التي تجهلها ومن يدري؟ فربما لا تريد أن تعرفها، وقد تتنكر لها غداً ونحن الذين دفعنا ثمن الانتماء إليها غالياً غالياً أكثر مما تصور يا ولدي. لقد نشأنا في جو من الرعب ولم نجرؤ على الإفصاح عن أصولنا ومساقط رؤوسنا. لقد حطموا كبرياءنا يا ولدي، ودمروا شخصيتنا في محاولتهم صهرنا وتذويبنا. وأنا أوافق على كثير مما يتحدث عنه رفاقك الشباب لكنني لا أثق بالرأس المدبر ولا بكثير من سلوكات نضاله. هل تفهم ما أقصده؟ أكيد أنك تفهم. القطار لا يستطيع الوصول إلى أي محطة إذا كان الرأس معطلاً. المقطورات الجميلة والأنيقة والقوية والمليئة بركاب ذوي رتب أكاديمية عالية أو رجال أصحاب شجاعة فائقة لا تستطيع أن تسير متراً واحداً دون القاطرة المحركة الأمامية التي يتربع فيها سائق متمرس وخبير. أعتقد أننا ناقشنا قضية الرأس المحرك ذات يوم. هل تتذكر؟ كنا نمشي بجانب سور ديار بكر وحين وصلنا إلى باب الجبل قلت لي: "هنا أعدموا الشيخ سعيد". وقلت لك: "الشيخ سعيد كان رجلاً نزيهاً لكن لم يستطع الوصول إلى النهاية بسبب افتقار ثورته إلى رؤوس مفكرة". سألتني: "كثرة الرؤوس قد تسبب النطاح". فقلت لك :"في النطاح يبرز الكبش القوي وينهزم من يظن نفسه كبشاً. ولكن ربما لن تتناطح الكباش بل ستقوم بوظائفها في إخصاب النعاج على أحسن ما يكون". أجل يا ولدي. الثورات تحتاج إلى رؤوس كثيرة لا رأس واحد يحتكر

كل القرارات ويخضع الثورة لمزاجه الشخصي وسلوكاته وحتى عقده النفسية. أنا مطّلع على كثير من الأمور. حدثني عنها صديق كان في دمشق بسوريا ووصل إلى أسرار عدة مما يجري. لكنني ألتزم السكوت بسبب حرصي على عملي وخوفي من تكرار مأساتنا التي عشت فصولها المرعبة قبل نصف قرن.

سأكتب في هذه الصفحات أيضاً بعض الأفكار التي تراودني بخصوص المستجدات التي طرأت على منطقتنا منذ هبوب عاصفة الغبار الكثيف في صيف 1984. هذا الغبار يا ولدي حجب الرؤية. حجب عن أعيننا رؤية الكارثة القادمة. هذا الغبار يخفي وراءه الحقيقة التي لا يمكنك فهمها إلا بتراكم خبرة الحياة أو بعقل نقدي سليم أو بملاحظة مباشرة. هذا الغبار مثل جبل شاهق لشخص وُلد في قرية على سفحه. حين يكبر لن يعرف من تلقاء نفسه أن وراء هذا الجبل مدينة عظيمة أو بحيرة واسعة أو حتى بقعة أرض مغايرة. هو سيرى أن الجبل الذي ولد عند أقدامه آخر حدود الدنيا.

***

أنا يا ابني الوحيد العزيز وُلدت في إحدى قرى خربوط عام 1930. أي عمري الآن سبعة وخمسون عاماً. آيدن ليس لقباً حقيقياً لنا. مثل باقي العائلات في تركيا فرض علينا اختيار لقب عائلي أو قبول لقب تقترحه الحكومة. لا أعرف لماذا اتخذنا هذا اللقب أو لأي سبب فرض علينا. لم يكن في عائلتنا حسب علمي مثقفون أو حتى من سلك سبيل العلم والدراسة. كان أبي وجدي محاربين جبليين وكانت عائلتنا معروفة ببسالتها في المعارك القبلية. أبي حيدر أُعدم عقب فشل ثورة ديرسم وجدي قتل في معركة قبلية. وعلى كل حال هذا ليس لقباً سيئاً. إنه على الأقل لا يشبه تلك الألقاب الموغلة في شوفينيتها واستلابها هويتنا. كان لقبنا الأصلي سراً أفشاه عمي عَليباز آخر شهر قبل وفاته: ”نحن من عائلة هَزاركُوه. إننا معروفون منذ عقود طويلة بهذا اللقب“.

تغيرت أسماء المدن والقرى والأنهار والجبال. تغير كل شيء. تغير المكان الذي كنت متعلقاً به إلى حد الجنون. تم تهجيرنا من خربوط إلى أدرنة وهي أقصى بلدة في الغرب. ولعلك لا تعرف أن خربوط التي شهدت إحدى قراها مولدي كانت مسرحاً لإعدام والدي مع سيد رضا ورفاقه الذين ثاروا في وجه الجمهورية التركية حين كنتُ في السابعة من عمري.

أتذكر تلك الأعوام السوداء رغم أنني كنت طفلاً صغيراً. كانت طفولتي رعباً مستمراً ثم يُتماً وتشرداً وترحيلاً قسرياً. والذكريات السيئة والمؤلمة كالأنهار العظيمة تحفر مجراها عميقاً في الذاكرة، تجعل من الذاكرة ودياناً عميقة. كل حدث وادٍ لا قرارة له. بعض الذكريات لا تمحوها السنوات. إنها مثل نقوش محفورة بأزاميل فولاذية في الصخر. لا تمحوها الرياح ولا الأمطار.

بعد فشل الثورة التي أُعدم فيها جدك، والدي، وعمره إحدى وعشرون سنة، تم ترحيلنا بموجب قانون الإسكان القسري إلى أدرنة. كانت الرحلة إلى أدرنة أوديسة حقيقية يا ولدي. أصعدونا إلى الشاحنات بالعشرات وحشرونا كالغنم في صناديقها الخلفية العميقة محروسين بجنود مدججين بالبنادق. عانينا من كثرة محطات الطريق في بلاد لا نعرفها وقاسينا الجوع والعطش والإهانات المستمرة وحاصرتنا الآلام النفسية، ما جعلني أتعفن من الداخل. أقول أتعفن وأنا على يقين من أن هذا الفعل مجاز قاصر لا يمكنه أن يفي بربع ما عانيناه في الحقيقة. كنا نريد أن نصل. إلى أين؟ لا يهم، بل المهم أن نصل إلى أي مكان ونتخلص من مشقة السفر وانتظار الانطلاق كل بضع ساعات.

بكيت مرات عدة في الطريق وأنا أتحسر على قريتي التي تركتها خلفي وعلى والدي الذي لم أستمتع بحضنه ما يكفي. رأيت أطفالاً عديدين يبكون مثلي في أحضان أمهاتهم الحزينات. كانت النسوة يندبن بصوت خفيض وكل واحدة منهن تلف على فمها خماراً تزين حافاته صفوف من الخرز. كنت محاصراً بعيون دامعة لنسوة يفترشن أرضية صندوق شاحنة تتجه إلى اللاتعيين. لن تفارق هذه الصورة مخيلتي ما دمت حياً. طوال الطريق طوقتني الأعين الدامعة.

حتى الآن، حتى لحظة تحبير هذه الورقات أبكي كلما تذكرت تلك الأيام. أبكي كلما قرأت قصيدة الشاعر جمال ثريا من ديرسم، الذي رحلوه مثلي حينذاك وهو طفل في مثل عمري مع عائلته إلى بيلجيك البعيدة في الغرب. لقد كتب قصيدة حزينة عن تغريبتنا تمثل كل الأطفال الذين عاشوا مرارة سنوات النفي القاسية تلك.

لم تبارحني صورة القرية على امتداد الطريق الطويل حتى وصولنا. كنت متعلقاً بقريتي علي نور القريبة من خربوط أكثر من تعلق جنين بمشيمته. ضربني أبي ذات مرة من شدة غيظه وأراد أن يجبرني على الذهاب معه إلى خربوط: ”يا كمال الأحمق! سآخذك إلى السوق المسقوفة في المدينة، وإلى قلعة خربوط. سأشتري لك سكاكر مغلفة بالورق الملون وحمصاً مشوياً ولوزاً مُحَلَّى. سنشاهد المهرج والدب الراقص. وسنتفرج على القرد المضحك الذي يقلد البشر ويدخن الغليون. هيه! ماذا قلت؟“

– أريد أن أبقى في القرية.

– وماذا في القرية يا كمال الأحمق؟ بيتان من طين وساحة صغيرة مثل فرج العنزة! ابقَ وتزحلق على روث البقر يا ابن الدابة. ابقَ هنا فلست جديراً بمشاهدة المدن.

ثم صفعني وانطلق ليغيب أسبوعاً قبل أن يعود ومعه ما وعدني بشرائه لي إن رافقته.

سمعنا كثيراً من القصص المهولة التي لا يمكن تصديقها من فظاعتها. قيل أن عائلات بأكملها أُحرقت حتى الموت في الكهوف التي هربت إليها بوادي إيسكور شمالي ديرسم. قيل أن نهر مونزور اختلط بدماء القتلى حتى احمرَّ لونُ مياهه. وقد انتشرت قصة رهيبة في تلك الأثناء عن حادثة من حوادث الحرق الفظيعة فقيل أن عائلة اختبأت في كهف فتبعهم الجنود وأشعلوا فيه النار. وفجأة ظهر طفل مرعوب خارجاً من النار المشتعلة في الكهف، ولما وصل إلى الباب، ألفى الجنود هناك فهرب من خوفه عائداً داخل الكهف حيث عائلته التي تحترق وقضى معهم. قيل الكثير مما يشبه هذه المآسي حتى صار الناس يخافون ظلالهم. أُلقي القبض على أبي حيدر ضمن من أسروا، كما روت لي أمي بعد، في إحدى المعارك على جبهة هوزات. ثم سيق مع رفاقه المقاتلين الأسرى إلى ساحة الإعدام وعلقوا بالمشنقة حتى ماتوا.

”لم نستطع استلام جثمان أبيك لكي ندفنها باحترام يليق بإنسان. رموه في البرية حتى تفسَّخ كفطيسة. أما ولدي عباس وعلي، فسمعنا فقط بمقتلهما في إحدى المعارك. لكن أين وكيف؟ هذا ما سيبقى حسرة في قلبي إلى آخر يوم“، قال عمي عَلِيباز ذات مرة وهو يختصر لي ما حدث خلال وبعد انتفاضة ديرسم علم 1937.

تزوج عمي الخمسيني بأمي الأرملة الصغيرة بعد وصولنا إلى أدرنة مباشرة. صارت أمي ضرة لزوجة عمي الشرسة. عشت بقية طفولتي في بيت لم يعد يعرف الهدوء بسبب شجارات الضرتين، أمي وزوجة عمي، وحفلات الضرب التي كان يقيمها عمي لجميع أهل البيت في نهاية كل شجار.

أسكنتنا الحكومة في بيت من بيوت العائلات اليهودية التي تم ترحيلها في أحداث تراكيا المعروفة باسم بوغروم تراكيا سنة 1934. في ذلك العام قام بعضُ الكتاب الأتراك المتأثرين بالفكر النازي بالتحريض على اليهود في الصحف وسرعان ما تم ترحيلهم من بعض المدن الغربية مثل أدرنة وجناق قلعة وتكيرداغ وغيرها. سلب الغوغاءُ اليهودَ الهاربين صوب إسطنبول واليونان وبلغاريا ونهبوا محلاتهم واستولوا على منازلهم وضربوهم وسحلوهم في الشوارع حتى فرغت تلك المدن من اليهود نهائياً.

نعم يا ولدي. إنها مفارقة مضحكة مبكية. رَحَّلونا من قرانا وبيوتنا قسراً إلى مدن بعيدة في الغرب وأسكنونا بيوت من رحّلوهم قسراً إلى أماكن بعيدة شرقاً. إنها الحلقة الشيطانية ودورة الظلم التي لا تعرف كيف تتوقف منذ أول صخرة هشم بها إنسانٌ رأس أخيه الإنسان. إنها دورة أبدية فظيعة لن تتوقف ما لم تتوقف الأفلاك نفسها عن الدوران.

***

كنت طالباً في بداية المرحلة الثانوية حين عدت من المدرسة ظهيرة أحد أيام نيسان. مع اقترابي من البيت سمعت عويلاً وبكاءً. انتفض قلبي. قلت لنفسي إن عمي قد مات. كان مسناً ومريضاً يشكو من مرض السل وتأتيه نوبات متكررة من السعال الدامي والإغماء. ما إن دخلت الدار، حتى استقبلتني زوجة عمي وهر تشد شعرها وتبكي وتقول: ”يا يتيم الأبوين

يا كمال''.

لم أكن بحاجة إلى ذكاء كبير لأفهم ما جرى.

لقد ماتت أمي فجأة.

حدث ذلك في العام الأخير من الحرب العالمية. شعرت بفراغ هائل. هاوية عميقة سقطت فيها. ركلني القدر من مؤخرتي ركلة ثانية ودفعني إلى قعر الهاوية. أصبح عمي لطيفاً جداً معي. تغيرت معاملته كلياً. حتى زوجته الشرسة لانت كثيراً. شعرت كأن مشكلتها الوحيدة في هذه الحياة كانت أمي المسكينة وما إن ماتت حتى ساد الهدوء أجواء البيت.

''يجب أن تتزوج''، سمعت هذه العبارة عشرات المرات. لم أعرف بما أجيب. لم تكن عندي تصورات معينة حول هذا الموضوع. كنت أحب الدراسة وتعلقت بها أكثر بعد موت أمي. كانت الدراسة عزائي الوحيد. قلت لعمي مبدياً رغبتي الأكيدة في مواصلة الدراسة: ''أريد أن أدرس الهندسة في إسطنبول''.

''تتزوج وتدرس''، رد عمي بخشونة.

ثم أردف: ''أنت الولد الوحيد لأخي. وها هي أمك قد ماتت. سأزوجك ابنتي جانان. لا ينبغي أن ينقطع نسل عائلتنا على هذه الأرض''.

حزنت ولم أعرف ماذا أفعل.

''سأرسلك إلى إسطنبول للدراسة، لكن ليس قبل أن تتزوج جانان''. هكذا ببساطة. صفقة واضحة. الدراسة بشرط الزواج.

كنت أعتبر جانان أختاً لي. لم أفكر فيها كزوجة أبداً. نشأنا معاً في بيت واحد. لكن قرارات الكبار مقدسة ولا بد من تنفيذها.

تزوجتُها وأنا في السابعة عشر من عمري. كانت حفلة عرسنا بسيطة. اقتصرت على بعض العائلات المهجرة معنا ومطرب محلي غنى بالتركية.

في تلك الأيام، انتهت الحرب العالمية الثانية المرعبة وانشغلت الشعوب بلملمة قتلاها وتضميد جراحها الغائرة وترميم المدن التي هدمها القصف المتبادل المجنون بين الدول.

ألغت الدولة قانون الإسكان القسري عام 1947 لكننا لم نعد. ألفنا منفانا الجديد. نعم يا ولدي ألفنا المنفى وتعودنا المشي فوق أشواكه رغم شوقنا إلى حلاوة الوطن وطعم ذكرياته.

شدنا الحنين صوب الوطن بقوة ولكن الخوف جذبنا إلى المنفى فالتزمناه. غلب الخوفُ الحنينَ الطاغي. ذكريات القتل والمجازر وسفك الدماء والاضطرابات التي لازمت ثورة ديرسم جعلتنا نكتفي بالحنين واسترجاع الذكريات.

***

ذهبت إلى إسطنبول للدراسة وتركت زوجتي جانان، أمك الجميلة الشقراء، عند أبويها. كنت أعود كل بضعة أشهر مرة إلى أدرنة. أبقى فيها بضعة أيام ثم أتوجه مرة أخرى إلى إسطنبول. وعلى هذه الشاكلة قضيت سنواتي الخمس حتى انتهت دراستي في كلية الهندسة.

تخرجت في جامعة إسطنبول مهندساً مدنياً عام 1954. لم يطل بي البحث عن عمل بل وجدت وظيفة في الشركة الهندسية للإنشاءات في أدرنة. في عهد حزب الديموقراطية بقيادة الرئيس جلال بايار ورئيس وزرائه عدنان مندريس، زادت وتيرة الإعمار واستطاعت الدولة الاكتفاء الذاتي في مجال صناعة الإسمنت وهي المادة الضرورية للإنشاءات. نشطت شركتنا في مجال البناء وأشرفتُ على كثير من مشاريعها. تعرفت في تلك الشركة إلى مستخدم عجوز تجاوز السبعين عاماً اسمه سيف الدين. كان ينحدر بأصوله من جزيرة بوطان. اقتصر عمل سيف الدين آمجا، كما كان الموظفون يلقبونه، على تنظيف المكاتب وتوزيع الشاي علينا وهو يدندن بألحان جميلة وحزينة. وكان في أحيان قليلة يترجم لبعض الكرد المنفيين أو المهاجرين في دوائر الحكومة. كان سيف الدين، بعد أن توطدت علاقتي به وبنيت جسر ثقة متيناً بيني وبينه، رجلاً ممتلئاً بالأمل لا تفارق الابتسامة العذبة شفتيه ولا تجد وجهه إلا بشوشاً. صار يزورنا في البيت كل يوم سبت وأصبح صديقاً لعمي يقص أحدهما على الآخر ما جرى له في حياته المريرة. تعلمت منه الكرمانجية التي لم أكن أعرف كلمة واحدة منها. أما هو، فكان يعرف لهجتنا الزازائية وقال إنه تعلمها من جيرانه الزازائيين في ديار بكر حين كان صبياً قبل أن يهاجر جده وأبوه إلى أدرنة. كان كلما زارنا ينشد قصيدة للجزري

على مقامات البوطانيين بصوته العذب الرخيم. التقطت كثيراً من الأبيات وصرت أترنم بها حين أختلي بنفسي. ذقت حلاوة الشعر وسحر العبارات الكردية لأول مرة من فم ذلك العجوز.

"يا أستاذ أحمد رضا عد إلى منبعك"، قال لي ذات يوم بعد أن وضع كأس الشاي على مكتبي في الشركة. فسألت: "منبعي؟"

فقال: "نعم منبعك. حتى الأنهار تعود إلى منابعها".

قلت مندهشاً: "الأنهار؟ هذا مخالف لقوانين الطبيعة يا عم سيفو".

فقال: "كل الأنهار تصب في البحار. أنت مهندس وتعرف أكثر مني. البحار تنفث الغيوم في الجو فتمطر وتتسرب المياه إلى باطن الأرض لتتفجر الينابيع في ما بعد وتجري الأنهار. عد إلى الشرق. عد إلى منبعك في أرض الآباء والأجداد. على الأقل لن تخسر نسلك. على الأقل لن تخسر نفسك". قلت له مبتسماً: "لكنني يا عم سيفو لست نهراً". فرد علي: "غداً مساء سأسهر عند عمك وسأشرح لك".

- ألن تأتي إلى العمل نهار الغد؟

- لا. غداً إجازتي.

أتذكر ذلك اليوم جيداً.

كان يوم الخميس السادس والعشرين من أيار 1960. لم أكن لأحفظ هذا التاريخ لولا أنه كان اليوم السابق للانقلاب الدموي الشهير، انقلاب العسكر على الرئيس جلال بايار ورئيس وزرائه عدنان مندريس وما تلى ذلك من أحداث وإعدامات واعتقالات. اعتقل العديد من زملائي في الشركة ممن كانوا ضمن الحزب الديموقراطي. دُهشت حين علمت أن بعض زملائنا الآخرين من أنصار حزب الشعب الجمهوري المعارض أصبحوا وشاة لدى الانقلابيين يرشدون البوليس إلى منازل أعضاء الديموقراطي. سمعنا في الأيام التي تلت الانقلاب أخباراً مرعبة ولم يكن لنا من نافذة على العالم الخارجي سوى جهاز الراديو. حين تم التخفيف من إجراءات حظر التجول توقعت عودة العم سيفو. لكنه لم يعد. أقلقنا غيابه. كان عمي يسأل عنه كل لحظة. كنا نخاف من الاتصالات الهاتفية. وفي الأيام الأولى، لم نرفع

السماعة ولم نرد على أي اتصال. بعد أسبوع أو ربما أكثر تلقيت اتصالاً من ابنته. قالت بصوت مرتجف: ”لقد أخذوا أبي. لا نعرف أين هو. أرجوك أستاذ أحمد رضا افعل شيئاً“.

قال عمي: ”لا تتهور يا ابن أخي. البلاد تعيش حالة انقلاب ولا نعرف حقيقة سيف الدين. سننتظر ريثما تنجلي الأمور ونفهم إلى أين تسير الأمور“.

إلى جانب انشغالنا بأخبار الانقلاب والاعتقالات والشائعات المتناقضة، كنت شخصياً مشغولاً في تلك الفترة بمشكلة عدم الإنجاب. كان جدك يهتم بالأمر كثيراً. ورغم أن أطباء أدرنة أكدوا لنا أن الوضع طبيعي وأن الإنجاب غير مستحيل طبياً، ألح علينا أن نذهب أنا وأمك جانان إلى إسطنبول لعمل فحوصات مخبرية إضافية.

هناك أيضاً أخبرنا الطبيب المختص ألا مانع طبيعياً من الإنجاب. كثيراً ما تناقشنا، أنا وأمك، في هذا الموضوع. وفي غياب سبب طبي، لجأنا إلى تفسيرات غيبية، أساطير وما إلى ذلك.

– لعلنا مثل البلابل!

– البلابل؟

– نعم يا جانان. البلابل لا تبني أعشاشاً في الأقفاص. ونحن رُمينا في هذا القفص بعيداً عن خميلتنا منذ ربع قرن. لعل هذه البلاد ترفض أن تكون مسقط رأس أبنائي. لعل رحمك يرفض أن يتشكل فيه جنين يتغذى على الغربة والنفي. لعل الله يريد ذلك لحكمة ما يعلم هو وحده بها.

عادت أمور البلاد إلى طبيعتها رويداً رويداً. صرت أفكر في كلام العم سيفو: ”حتى الأنهار تعود إلى منابعها“. يا له من كلام حكيم! لماذا لا أعود أيضاً إلى منبعي الأصلي بين تلك الجبال الشاهقة والطبيعة الساحرة؟ لماذا لا أعود إلى حيث أسمع صدى لغتي وأرى وجوه بني قومي وأستمد من جذوري الضاربة في التراب نسغ الحياة؟ لماذا لا أعود كي لا ينشأ أطفالي غرباء منفيين! سأعود يا عم سيفو. سيعود النهر إلى منبعه. لا أعرف ما الذي كنت ستقوله لي لكنني أعدك بأنني سأعود. بل سأعود وأستقر في جزيرة بوطان التي حدثتني عنها كثيراً.

"تلك الجزيرة الصغيرة يا أستاذ تمثل الكرد وبلادهم أصدق تمثيل. ففيها قبر العاشقين مم وزين. وفيها ضريح الجزري، الشاعر الكبير صاحب الديوان الموجود مع أضرحة أخرى في المدرسة الحمراء التي تخرج فيها كبار الشعراء والفقهاء الكرد خلال قرون عدة. فيها أيضاً البرج الأبلق مركز الإمارة العزيزية الكردية. فيها قبر نوح العظيم. وفيها قبل كل شيء يجري نهر دجلة الصاخب متوجهاً إلى بغداد هائماً على وجهه كما ورد في قصة مم وزين للشاعر أحمد الخاني. وأخيراً ينتصب شامخاً في الجهة الشرقية منها جبل الجودي المقدس الذي استوت عليه سفينة نوح خلال الطوفان وهو الجبل الثاني الذي ورد ذكره في **القرآن** بعد طور سيناء".

عقدت العزم على العودة. رغم وظيفتي الجيدة وانهماكي في مشاريع الإعمار في أدرنة، خططت للعودة وراسلت موظفين أعرفهم تم تعيينهم في ديار بكر واتفقنا على الانتقال خلال أسابيع. لم يكن عمي راضياً بالطبع لكنه ترك الأمر لي ولأمك جانان التي لم تكن متحمسة هي أيضاً.

لكن... مات عمي.

مات الذي رباني وأرسلني للدراسة في إسطنبول وأنفق عليّ مما كان يحمله من مال وذهب ادخرتْه زوجتُه. مات عمي الذي زَوَّجَني ابنتَه، أمَّك جانان، قبل أن نسافر إلى الجزيرة. حزنت عليه كثيراً. رغم قسوته وخشونته، كان يحبني ويعطف علي وينتظر أن تنجب ابنته ولداً يحمل اسم العائلة.

"هَزاركُوه .لا تنسَ هذا اللقب. ورثناه من أجدادنا ويجب أن نورثه لنسلنا حتى تقوم الساعة"، صار يردد دائماً بعد أن أفشى السر ويخفض من صوته كأنه يدلني على مكان كنز مخبوء.

كان سعيداً بقرار العودة ومتخوفاً منه في الوقت نفسه. ويقول: "نحن هنا في مأمن؛ لا أحد يعرف جذورنا. وأن نذوب في هذا البحر أفضل لنا من أن نعود إلى بحر لا نعرف قراره ولا علو موجه". جادلته كثيراً حول ألغازه وكلامه الموارب. لم يقتنع. بقي عمي عالقاً في شباك ذاكرة انتفاضة سيد رضا وما رافقها من تنكيل وقتل وتشريد ومجازر.

قبل إعدام رئيس الوزراء مندريس بيومين مات عمي بالسل.

اختلط الحزن على عمي بالحزن على عدنان مندريس.

صباح الإثنين، الثامن عشر من أيلول 1961، حملت جميع الصحف خبر الإعدام في الصفحة الأولى وبالخط العريض. كانت إحدى الصور تبين معاينة رئيس الوزراء من الطبيب الشرعي قبل تنفيذ الحكم. كذلك نشرت صورته وهو يسير برفقة جنديين إلى منصة الإعدام. ثم صورته مشنوقاً وعلى صدره ورقة ممهورة بتواقيع عدة. بدا من الصورة أن عملية الشنق تمت في فضاء مفتوح، فالغيوم ظهرت في السماء التي كانت تعلو رأس مندريس وهو في ثياب الإعدام والحبل في رقبته. صحيفة ملليت، وآكشام، وحريت، وغيرها من الصحف حملت في صفحاتها الأولى خبراً وحيداً هو: لقد تم إعدام مندريس.

انتعش الاقتصاد في السنوات الخمس الأولى من حكم مندريس وهي السنوات التي قضيتها في جامعة إسطنبول طالباً للهندسة. ازداد هامش الحرية وازدهرت الصحافة. تراجعت الدولة عن بعض إجراءات أتاتورك مثل الأذان بالتركية وغير ذلك. كنا متفائلين أن تركيا ستسير نحو الديموقراطية. لكن الأوضاع انتكست وازدادت تركيا تقرباً من الغرب ومشاريعه وأحلافه العسكرية. أفلست الخزينة وأراد رئيس الوزراء فتح نافذة على الشمال حيث السوفيات، لكن الزمن لم يمهله.

لم يطلق سراح العم سيفو حتى بعد شهر من اعتقاله. عرفنا في ما بعد أنه مسجون بتهمة الانتماء إلى الحزب الديموقراطي. قمت بتوكيل محامٍ للدفاع عنه في المحكمة. بعد مضي أشهر قليلة، وقبل أن نغادر أدرنة متوجهين إلى جزيرة بوطان أطلق سراح العم سيفو. رأيناه هزيلاً شاحباً لا يتكلم إلا إذا طلبنا منه ذلك. لم يعد يأتي إلى زيارتنا كما في السابق. ونهار انطلقت الحافلة تقلنا صوب الشرق ذهبت إليه صباحاً وودعته. عانقني وبكى بحرارة.

– قبّل عني تراب تلك البقعة المقدسة.

– سأفعل يا عمي. وليتك رافقتنا إلى هناك. إلى المنبع.

– لم يعد ينبع في هذه البلاد سوى الظلم. فلترافقكم السلامة. اذهبوا في أمان الله.

***

بالنسبة إلى أمك كان انتظار إنجاب ولد أهم من كل التغيير الذي حدث في حياتنا وبلادنا وتركيا والعالم كله. كان أهم من عودتنا الشاقة من أدرنة وأهم من بيتنا الجميل الذي اشتريناه قريباً من ضفة دجلة الغربية في حارة يافث، البيت الذي ما زلنا نسكن فيه إلى الآن، وكان كذلك أهم من المكتب الهندسي الذي أنشأته في ديار بكر وأيضاً أهم من عزمنا على السفر إلى خربوط لنلتقي بالتربة التي اقتلعتنا الدولة منها ورمتنا بعيداً في أقصى الغرب. صارت تذهب إلى المزارات، تربة الجزري، قبر مم وزين، قبور الأولياء والصالحين وحتى بعض الأديرة المسيحية ونذرت نذوراً كثيرة. كثيرون أشاروا عليّ بالزواج بامرأة أخرى لكنني رفضت. لم يكن الإنجاب ذلك الهم الكبير الذي يشغلني. عملي في الهندسة المدنية ومشاريعي التي نجحت فيها سلبني كل وقتي تقريباً.

– لمن ستجمع هذه الأموال إن لم تكن لولد يرثنا؟

– إنها إرادة الله يا جانان. هذا قدرنا ولا نستطيع رده.

– ولكننا كما يؤكد الأطباء لا نعاني من شيء. لو كان بطني قبراً، لوجب عليه أن يلفظ ميتاً. يا رب.

– إنها حكمة ربنا. ولنصبر لعل الخاتمة خير.

أخيراً سافرنا إلى خربوط، تلك المنطقة التي كنت أتهيب زيارتها. كنت دائماً أؤجل السفر بينما تلح جدتك عليّ أن نذهب.

– أريد أن أموت هناك. لا أريد أن أدفن في أرض غريبة مثل عمك عليباز. وإن كانت لي وصية أتمنى أن تنفذها، فهي أن تنقل رفات عمك إلى خربوط وتدفنه بجانب قبري.

هناك لم أعرف أحداً. وحدها زوجة عمي تعرفت إلى بعض أقاربنا البعيدين من عائلة هَزاركُوه. كانت مكروبة تبكي كلما ذهبت إلى محلة. تتذكر أيامها السعيدة قبل انتفاضة سيد رضا وتروي للجميع رحلة نزوحنا الشاقة وما جرى لنا بعد ذلك. كانت تعيد في كل بيت الحكاية نفسها وتبكي فتبكي معها النسوة اللواتي يستمعن إليها.

أما أمك، فذهبت في اليوم التالي لوصولنا إلى ضريح بابا عُرْيانْ وفق نصيحة إحدى النسوة. لم أشأ أن أمنعها عن ذلك.

نذرت أن تلازم المزار ثلاثة أيام بلياليها صائمة بنية إنجاب ولد.

***

بعد شهر كامل عدنا إلى الجزيرة.

وحدثت المعجزة يا ولدي.

أعلنت أمك بعد وصولنا بنحو أسبوع أنها تعاني من أعراض الحمل. لم أصدق ذلك. بعد أكثر من خمسة عشر عاماً على الزواج وعدم الإنجاب سنُرزق بمولود!

حين أكد الطبيبُ الحملَ لم أصدق أيضاً. أما أمك، فصارت تتصدق على الفقراء وتقرأ **القرآن** وتزور قبور الأولياء في المنطقة حتى ولدتك ذات شتاء قارس.

لم أنتظر أحداً ليقترح عليّ اسماً لك. كنت منذ تعرفي إلى سيفو أقول في نفسي لو جاءني ولد ذكر، فسأسميه أحمد، على اسم هذا الشاعر الجميل وأضيف إليه رضا اسم قائد ثورة ديرسم. وبعد انتقالنا إلى الجزيرة وزياراتنا المتكررة إلى ضريح الشاعر أحمد جزري ازددت إصراراً على تسمية أول مولود باسم أحمد.

ذات مرة قالت أمك: ”وإن أنجبت لك بنتاً، فماذا ستسميها؟“

قلت فوراً: ”سنسميها حمدية. لا بد من الحمد يا جانان“.

كانت تلك الأعوام صعبة علينا. اشتد فيها الصراع بين اليمين واليسار وبرز التيار الإسلامي وكثرت الاضطرابات والاغتيالات وعمليات الخطف ونهب البنوك والمظاهرات. عرفنا أن شبح انقلاب عسكري يلوح في الأفق من جديد.

حدث ما توقعناه في ربيع 1971.

لكننا، أمك وأنا، كنا مشغولين بك. كنا سعيدين بك وأنت تخطو خطواتك الجميلة في باحة دارنا في حارة يافث. لم يكن هناك شيء يمكن أن يشغلنا عن سعادتنا بك. لا الانقلاب العسكري ولا غيره. أنت الذي أحدثت أكبر انقلاب في حياتنا.

***

الآن يا بني، الآن شبت النار في بيادرنا بعد أن نهبت الغربان كل ما فيها من قمح. داست الفيلة حقولنا وبساتيننا وعبثت بمزروعاتنا. هبت الرياح العاصفة من كل صوب وتكسرت الأغصان ووقعت الأعشاش وتكسر البيض دون أن يفقس. ملأ الغبار أعيننا وأنوفنا ولم تعد تنفعنا كمامات ولا ستائر نسدلها على نوافذنا. انهارت الجسور بفعل الزلزال ولا بد أن نبحث عن طريقة آمنة لترميمها. ما يحدث الآن لا يمكن أن يبني جسراً. وأفضل الجسور تلك التي تربط بين القلوب. لكن ما نراه وما يحدث شيء فظيع. لا يمكن لمن يريد بناء جسر أن يرمي حجارته بعيداً. هل سمعت بما حدث في قرية بينارجيك؟ حدث مثل ذلك في أورتاباغ وفي قرى أخرى كثيرة. اختنقت القرى بالغبار يا بني. اختنق الغبار بالغبار. على الأرض غبار وفي السماء غبار والجبال مختفية وراء ستائر الغبار والعقول غبار.

إنني أعرف حماستك واندفاعك. مررت مثلك بمرحلة الشباب. وكنت أنخرط في المظاهرات وأشارك في السجالات السياسية الحامية ولكنني في كل مرحلة من مراحل عمري لم أفكر أبداً أن أرفع سلاحاً. بمجرد أن تنخرط في حركة مسلحة ستبرر القتل. فالسلاح ليس له من وظيفة سوى القتل. السلاح لا يفسح للعقل مجالاً. بضغطة على الزناد يمكن أن تقتل إنساناً بريئاً مثلك. بضغطة من إصبع مرتجف يمكن أن تنتهي حياة كاملة. لقد كرهتُ الحروب منذ تهجيرنا عقب الانتفاضة المسلحة عام 1937. كنت في السابعة من عمري وأدركت أن الحروب لن تكون في مصلحة أحد. لقد قاسينا وعانينا كثيراً خلال وبعد الانتفاضة. وربما كانت لانتفاضة ذلك الزمان مبرراتها. فالناس لم يكونوا على قدر من الوعي ليخوضوا نضالاً سلمياً عبر الاعتصامات والمظاهرات. لكننا الآن نستطيع فعل ذلك.

العقل يا ولدي... العقل كفيل بإيصالك إلى الضفة التي تريدها سفينتك. العقل جسر إن عبرت عليه، سلمت من السقوط في قعر الوادي أو أعماق النهر. هل تعرف لماذا تقوى حاسة السمع لدى العميان أكثر مما تكون عند المبصرين؟ السر يكمن في اعتمادهم على هذه

الحاسة. حرمهم الله نعمة النظر وعوضهم بسمع مرهف لأنهم يعتمدون عليه في معرفة ما يجري في العالم الخارجي. وهكذا نحن يا ولدي حين نعتمد على عقولنا في تفسير الظواهر واكتشاف الأشياء ستنمو مثل نبتة تسقيها بحكمة وانتظام. ستصبح عقولنا أكثر قدرة على التحليل والتمييز واستنباط الحلول حتى في خضم أعقد الأزمات ووسط أعتى العواصف. انفض الغبار عن عقلك وفكر. أخرج عقلك من قوقعة العاطفة والاندفاع وعرضه لشمس المعرفة. اصقله في أتون العلم والمحبة والنضال السلمي للوصول إلى غاياتك التي أعرف أنها نبيلة جداً وأتبناها.

هذا الغبار عاصف خانق. إنه لا يشبه ما هب علينا من غبار العقود الماضية. إنه غبار يعمي العيون عن رؤية الأفق ويلقي بينك وبين الحقيقة ستارة كتيمة.

سيجرفك هذا الغبار يا ولدي ويطيحك. حاول أن تتخذ لنفسك سبيلاً وسطاً في هذه الحياة. الحماسة الزائدة لا تبني، وإن بنت، فسيكون ما بنته هشاً. البناء عملية عنصرها الأهم التخطيط الدقيق والصبر. هل رأيت سيلاً جارفاً من قبل؟ بعض السيول الهوجاء تجرف جسوراً بناها أفضل المهندسين وسهروا على تصميمها شهوراً ثم شيدوها في شهور أخرى حتى اكتملت. لا تنغر بقوة السيل الأهوج. القوة دون عقل سيفٌ أعمى. تعرف بيت الشعر الذي جعلتك تحفظه مع أبيات أخرى هي حكم جرت على لسان الشاعر الجزري الكبير الذي أسميتك أحمد حباً له وإعجاباً بفصاحته؟ البيت الذي يقول:

ما الذي ستفعله مئة قطرة من ماء بصخرة صماء؟

هذا مجاز شعري يا ولدي. وأنت تفهم الشعر أكثر مني فهو هوايتك. هو يقصد بالصخرة قلب حبيبته الذي لا يلين رغم دموعه التي يذرفها.

الحقيقة غير ذلك. ما البحر؟ قطرة جاورت قطرة وهكذا حتى أصبح هناك بحر هائج مائج يحيط بالدنيا. لا تستهن بقوة قطرات الماء. فهي إن ثابرت على إيقاعها في ضرب صخرة عصية على التفتت، فستثقبها في النهاية. قطرة الماء تفعل ما لا يمكن للمعول أن يفعله يا ولدي.

لقد ناقشتك في موضوع جدوى اللاعنف كثيراً. شرحت لك ما فعله غاندي في سبيل استقلال بلاده وكذلك ما فعله مارتن لوثر كينغ في سبيل حرية السود الأميركيين. كلاهما آمنا بالتأثير العظيم للنضال السلمي. والمفارقة المرة أن العنف الجسدي أودى بهما كليهما. قتلهما الرصاص الأعمى. لكن أفكارهما لم تمت بل استطاعت ببساطتها أن تنتصر. الهنود انتزعوا استقلالهم من أبشع إمبراطورية استعمارية، والسود خلخلوا النظام الإمبريالي في أميركا بنضالهم السلمي المشروع.

يسهل جداً في النضال المسلح أن تنحرف البوصلة. كذلك إن تهمة الإرهاب جاهزة لإلصاقها بأي جماعة مسلحة. لقد رأيت ما حصل بعد مجازر القرى وقتل القرويين الذين حملوا سلاح الدولة. الآن كل شعبنا متهم بالإرهاب.

في سبيل تحقيق الأهداف العظيمة يجب أن يكون اللجوء إلى السلاح خياراً أخيراً يا بني. أعرف جيداً كيف تفكر وماذا سيكون جوابك في هذا المجال. لكن صدقني فالنضال السلمي يزيد الوعي بين الجماهير. النضال المسلح أين ما كان لا بد أن يستند إلى شعارات براقة جذابة كالتي نجدها عند الشباب من رفاقك. لكن الشعارات لا تبني أوطاناً ولا تحرر بلاداً. قد يكون لها بريق خاطف وجاذبية كبيرة لكنها تتبخر. نعم، الشعارات قد تتبخر كقطعة جليد توضع على صفيحة مسجورة.

النضال السلمي يلفت النظر إلى مشروعية أهدافك. يزيد من مناصري قضيتك ويحرج عدوك أمام العالم. قالها غاندي يا ولدي: "سيتجاهلونك في البداية. ثم يحاربونك. ثم سيحاولون قتلك. ثم يفاوضونك ثم يتراجعون، وفي النهاية ستنتصر".

بلادنا وشعبنا بحاجة إلى نهج اللاعنف. وهذا بالطبع لن يحدث بين ليلة وضحاها. لا بد من العمل الدؤوب في سبيل تنظيم الناس في تجمعات لا عنفية قادرة على إحداث تغيير جذري. قرقعة السلاح مثل طبل العرس في القرية يمكنها أن تجمع كثيرين لكن العبرة بالنتيجة.

هل تتذكر يا أحمد أنك ناقشتني في موضوع الفيتناميين الذين انتصروا على الأميركان وهم أعظم قوة على الأرض؟ لقد شرحت لك بما أوتيت من معرفة ومعلومات حصلت عليها بالمطالعة كثيراً من الأمور وبسطتها لك. بينت لك لماذا انتصروا ولماذا صعب أن ننتصر

ونحن على هذه الحال. وأرجو أن تختلي بنفسك بعيداً عن الشعارات، بعيداً عن حماسة الشباب وتفكر في كل ما قلته لك بدلاً من أن تنقاد وراء هذا وذاك.

لقد تعبت من الكتابة يا بني. إنها ليست عملي ولم أجرب سوى تدوين بعض اليوميات في شبابي وخلال أيام الجامعة في إسطنبول. ستكون الأفكار التي وردت في هذه الصفحات لبّ مناقشاتنا المقبلة في هذا الصيف إذ سأقضي إجازتي السنوية في ربوع الجزيرة. أرجو أن تجد متسعاً من الوقت لسماعي، ومتسعاً أكثر لدراستك.

سيرة الغبار

السبت 15 آب 2015

ثلاثون عاماً وهذا الغبار يغطي البلاد. السماء مغبرة، الحدائق مغبرة، المقابر غارقة في الغبار. من نافذتي في هذه الصومعة الصامتة الكئيبة أرى غلالات الغبار تلتف مثل الأفاعي على جسد هذه المدينة الجريحة المغتصبة وكل مدن الغبار في هذه الجغرافيا المجنونة الملعونة. ليس في الأفق سوى غبار كثيف يحجب الشمس آن تشرق وحين تغيب. وفي الليل تبدو النجوم من خلال طبقات الغبار التي تملأ الأجواء مثل أزهار لوتس غارقة في نهر عكر يعلوه الضباب. حتى القمر بات يبدو كئيباً كأن الغبار امتص كل ضيائه. إنه يشبه رجلاً هارباً مثلي مختنقاً بالغبار لكنه يخفي سعاله مخافة أن ينكشف مخبأه.

منذ ثلاثين عاماً هبت عاصفة الغبار هذه ذات نهار أربعاء لاهب في منتصف آب. هبت ولم تهدأ إلى الآن. والأربعاء يوم شؤم ونحس، يقول العرافون وبعض ملالي القرى والأمهات اللواتي يمتنعن عن إنجاز كثير من الأعمال أيام الأربعاء. لم يبقَ بيت لم يطوقه الغبار أو يتسرب إلى حجراته، ولا حقل لم يدمر الغبار محصولاته، ولا قرية لم يسبب هرب سكانها إلى المدن البعيدة ناجين برئاتهم المرهقة يحمونها من الامتلاء بذراته والإصابة بنوع خاص من الربو عصي على الشفاء.

ربط الناس بين هبوب الغبار الرهيب وظهور أرتال من الجن في الشعاب والوديان السحيقة وعلى قمم بعض الجبال. خرج مردة الجن من قماقمهم المختومة وصاروا حديث الناس في الأسواق والمضافات وحتى على شاشات التلفزة وصفحات الصحف اليومية.

هرب عشرات الألوف في الشمال المصاب من بلداتهم وقراهم تاركين إياها نهباً لبراثن طوفان الغبار وأنياب الخراب وعبث الجن واتجهوا غرباً، بينما بقي الملايين في أماكن

سكناهم لا يجدون مفراً من التعايش مع المحنة الطارئة والتأقلم مع ثقل الأجواء المغبرة. تماهوا مع الغبار وآثاره وعاشوا مع مثيري الغبار من مردة الجن أحلك حقبة في تلك الجغرافيا الموبوءة.

هدأت الأحوال مدة قصيرة. انتعشت الأسواق وصارت للغتنا المقموعة سوق رائجة. لكن منذ حزيران الماضي ساءت الأوضاع من جديد.

انهارت الهدنة بين الدولة والحزب منذ تفجير سروج قبل خمسين يوماً. يتداول الناس بينهم خطة الحزب لإعلان إدارة ذاتية شبيهة بما عليه الكُرد في روجافا شمال سوريا حالياً. أنا قلق، قلق بشأن هذه المدن التي ستقع مرة أخرى بين فكي كماشة ويكسوها الغبار. الشباب متحمسون. أسكرتهم الشعارات والوعود كما في كل مرة. أسكرتهم كوباني التي أصبحت أيقونة عالمية. من جديد يعد الحزب بنصر قريب وكاسح هذه المرة. وهذا وحده كفيل أن يخرج كل المردة من قماقمها الموصدة المختومة.

إنه الغبار يهب كثيفاً فيحجب الشمس وضوء النهار.

***

أنا أحمد رضا آيدن الملقب بالاسم الحركي القديم آمد الذي اتخذته اسماً أدبياً في ما بعد. عمري خمسة وأربعون عاماً. تخرجت في قسم الأدب التركي في جامعة دجلة بمدينة ديار بكر قبل أعوام طويلة عقب خروجي من السجن. منذ ذلك الوقت جذبني الحرف بأمراسه الشفيفة إلى موانئه. كنت قد هجرت السياسة والاشتغال بها إلى الأبد. هربت من شواظ السياسة ولهيبها ولجأت إلى ظلال الحروف. بنت لي اللغة سفينة جميلة بأشرعة من خيال فكتبت روايات عدة بالتركية والكردية وأبحرت بها أطوف الذاكرة شاطئاً فشاطئاً حتى حدث هذا الطوفان الذي نعيش تحت رحمة موجه العاتي. وها أنا أقيم منذ البارحة بجانب ضريح الملا أحمد الجزري متنكراً بزي خدم الأضرحة هارباً من سطوة الريح وأمواج الغبار. صحيح أنني أقضي ساعاتي خائفاً وحيداً لكنني سعيد جداً إذ أصبحت

بفضل هذه الظروف سادن كعبة الشعر هذه أنفض الغبار عن الشاهدتين المنقوشة عليهما أحرف عربية متداخلة وعن القماش القدسي الأخضر الموشى بالذهب كذلك. أكاد أسمع جلجلة القصائد ترتفع من أعماق القبر لتجتمع كغلالة شفافة من النور فوق الضريح المقدس. ما يخفف من خوفي هو الكتابة. هذه الأوراق تؤنسني في وحشتي وتبدد وحدتي، وتمدني بطاقة هائلة ورغبة ملحة في الحياة بعد كل هذا اليأس الذي دهمتني سيوله وأنا أرى الغبار يحجب الشمس، والدمار يقضم لحم هذه البلاد.

قضيت نهاري، اليوم والبارحة، في خدمة الضريح ومن يرتاده من المسنات والمسنين والعشاق وغيرهم من المبتلين بالعلل والأسقام. قرأت لهم ما حفظته من أبيات الشاعر الكبير فرأيت الرؤوس تتمايل والعيون تمتلئ دمعاً. أما في الليل، فإنني شغلت نفسي بترتيب الكتب التي جلبتها معي إلى هذه الصومعة المقدسة. ثلاثة كتب وضعتها في المقدمة لأنهلَ منها المزيد مما يروي عطشي لمعرفة سر تعلق الملايين من البشر بالأوهام: كتاب **الجماهير والسلطة** من تأليف إلياس كانيتي، و**سيكولوجية الجماهير** من تأليف غوستاف لوبون، وأخيراً كتاب **المؤمن الصادق** لإيريك هوفر.

بدأت بكتاب إلياس كانيتي الشهير الذي طبع في تركيا أكثر من عشر طبعات. هذا الكتاب يحلل العلاقة بين الجماهير والسلطة، ويشرح كيف ولماذا تقوم الجماهير برفع الحاكم وتقديسه ثم تلعنه وتهينه وقد تقتله في النهاية. قرأت في هذا الكتاب سابقاً حكايات الملوك الأفارقة وغرابة أطوارهم واستمتعت باستنتاجات كانيتي الذكية الرائعة. كانيتي يقول ملخصاً الصراع الأزلي على السلطة: "إنني لم أسمع أبداً عن ناس هاجموا السلطة وانتقدوها دون أن يريدوها لأنفسهم". كلام كانيتي هذا هو لب الحقيقة القبيحة التي تغلفها الأكاذيب المبرقشة. لقد نشبت ثورات على الأنظمة الفاسدة المستبدة ونجحت لكنها تحولت بدورها إلى أنظمة فاسدة تكرر ما سبق. كل ثورة استندت إلى العنف وسطوة الحشود فشلت في النهاية في تحقيق الغايات الأساسية وتحولت إلى سلطة كريهة عفنة.

مع هذه المقاربة الخلاقة لحقيقة الثورات من إلياس كانيتي يتفق كل من إيريك هوفر وسلفه غوستاف لوبون الذي أرى أن كتابه العبقري في هذا الباب فريد من نوعه ولا أستبعد أن الطغاة يعتمدون عليه في استنباط أساليب التأثير في الكتل البشرية وجعلها قطعاناً مطيعة للغرائز السياسية. يقول إيريك هوفر في جملة تبدو تطويراً أو تحويراً لجملة كانيتي: ''الغرور والطموح يشعلان الثورات. أما الحرية، فهي مجرد شعار وتبرير''. أما غوستاف لوبون، فسبقهما إلى تفسير هياج الجماهير واندفاعها لشن الثورات فيقول: ''إن ما يهيمن على روح الجماهير ليس الحاجة إلى الحرية بل إلى العبودية. إن توقها إلى الخضوع هو الذي يُخضعها غريزياً لمن يعلن أنه القائد''.

***

قررت ألا أخرج من هنا كي لا أتسمم بضجيج الشعارات. لقد هاجت الجماهير من جديد، الجماهير التي تحركها العواطف والأهواء والشعارات، الجماهير التي تكفيها نفخة واحدة لتثور وتدمر وتحرق دون أن تفكر في عواقب الأمور، الجماهير المحكومة بإعلام مضلل لا يبث سوى بروباغندا سطحية شعبوية قوامها الكلام العاطفي المهيج، بروباغندا تشبه أعواد الكريت التي تشعل الحقول الجافة. وبتعبير غوستاف لوبون ''فالدعاية السياسية لا تخدع الجماهير، لكنها تساعدهم على خداع أنفسهم''. وشعبنا المسكين لم يخرج قط من نطاق الجماهيرية إلى ساحة الاحتكام إلى العقل والمنطق. الشعارات والأمثال الشعبية تتحكم في جمهور يريده الحزب قطيعاً لا أكثر. وأنا هرباً من سحر الجماهير وخوفاً من عدوى الحماسة ارتميت أمام أقدام هذا الشاعر المتفرد الذي كان يشكو من غربته بين ناس زمانه.

لُذتُ بجوار هذه القامة الشاهقة لأنني أعرف ألا أحد سيأتي ليعكر صفو خلوتي الاختيارية هذه فالناس لا يلتفتون إلى الشعر في زمن الشعارات إلا إذا تحول الشعر إلى عزف نشاز للشعارات نفسها. لا أحد، في زمن تمجيد ثقافة الموت، سيفكر في العيش بجانب شاعر احتفى

بالحب والحياة والجمال. اعتزلت الخلق لأنني عصبي المزاج وأعرف أنني لو خرجت إلى الشارع وخالطت هذه الجماهير الهائجة، فإن كلمة واحدة قد تأتي بنهايتي على يد المراهقين المتحمسين الذين يستعجلون نصراً لا ملامح له.

***

من كان يظن أن قبراً سيصبح ملاذي للهرب من الغبار الكثيف وعواء الذئاب، ومن ملاحقة البوليس وغدر الملثمين؟ حي يطلب حماية ميت! لا عجب فهذا زمنٌ الأحياء فيه أكثر موتاً من الرمم البالية. لا حياة في هذه البلاد سوى لمن يرقد في القبور. وها أنذا أحتمي بقبر. ها أنا ألوذ بضريح رجل مات منذ مئات السنين. وأي قبر؟ قبر شاعر سَمَّاني أبي على اسمه.

إنه ضريح نبي العشاق الشيخ الشاعر أحمد الجزري الذي يلقب نفسه مَلا أو نيشاني في قصائده، ويرى كثير من الناس ديوانه قرآن العاشقين.

هل وجودي هنا مصادفة أم قدر؟ ربما هو مصادفة، وربما هو قدر. أليست المصادفة ضرورة حتمية أصلاً؟ بمعنى آخر: أليست المصادفة قدراً مكتوباً؟ هذا يعني أن موضوع إقامتي هنا مصادفة قدرية. هكذا ينبغي المزج بين مصطلحين يناقض أحدهما الآخر. يتولد من مزجهما مصطلح جديد يشبه تماماً ذلك الملاك الرهيب الذي ورد ذكره في قصة الإسراء والمعراج وقيل أن النبي محمداً رآه في السماء الأولى ليلة عُرج به على متن البراق. ملاك عجيب نصفه الأسفل من نار ونصفه الأعلى من ثلج. لا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج.

هنا، في وحدتي هذه وأنا أتأمل جدران الضريح الرطبة في هذه الليلة الهادئة انتعشت ذاكرتي. صرت أستعيد مناقشاتنا خلال مرحلة الجامعة أيام كنا طلاباً يساريين نطمح إلى تغيير العالم بقبضاتنا العارية المرفوعة المضمومة وصدورنا التي تخفي قلوباً عامرة بالتفاؤل وتكشفُ عن الشعر النابت عليها أزرارُ قمصاننا المفتوحة إلى المنتصف. كنا في تلك المرحلة نحلم بثورة نقودها نحن الشبابَ وننتصر. ما كان أحد منا يتوقع الانكسار والهزيمة في حربنا

الساعية إلى تغيير البلاد والعالم. كنا مؤمنين بالحتمية التاريخية ونتفاءل باقتراب زمن ديكتاتورية البروليتاريا حيث سينتفي الفقر والغنى على حد سواء ولن يبقى هناك سوى طبقة واحدة متساوية في المجتمع هي الشعب وهي الحاكم. وكنا نتناقش بصخب شديد المقولة الماركسية التي تبحث في المصادفة والضرورة ونرى أن الثورات ضرورات ولا تحدث مصادفة. كنا نقول إن ما يحدث في بلادنا ضرورة بينما كان هناك طلاب نعتبرهم من تيار القومية البدائية يردون علينا بأن حياتنا التي نعيشها هي القدر وهي الضرورة ولا فكاك منها. كانت أيام الجامعة أياماً عاصفة وكانت البلاد خروفاً يتداوله ذئبان من أشرس ما عرفته المنطقة من ذئاب.

***

هناك أشياء لا ننساها، أشياء تشبه في الأصل سيولاً هادرة تحفر مجراها عميقاً بكل صبرٍ. والذاكرة أخاديد. أخدود يتلوه أخدود. أما من يملك ذاكرة مسطحة، فلن يستمتع باستعادة اللحظات السعيدة في حياته الغابرة. كذلك لن يشعر بآلامٍ سببتها جراح قديمة غرقت في القاع ولا يمكن استخراجها مهما غاص المرء في الأعماق. الذاكرة المسطحة مثل القبة الصقيلة والذكرياتُ حَبَّاتُ بُندقٍ لا تثبت عليها أبداً. الذاكرة مستودع الأحداث الماضية. الذاكرة أرشيف الماضي ولا تنقطع علاقة الإنسان بالماضي مطلقاً. الذاكرة هي التي تحدد ما يجب أن يبقى ويطفو دائماً على السطح وما يجب أن يرسب إلى القاع ويختفي. حتى الذكريات والأحداث التي تهبط إلى قاع النسيان تنتشلها منه أشياء مفاجئة وربما تكون صغيرة تافهة كصوت أو رائحة مثلاً. للذكريات طنين داخلي خافت جداً، لكن فجأة يرتفع الطنين. تلح عليك الذكرى فتمضي معها إلى السنوات الغابرة.

لقد تأملت في الذكريات فوجدتها ترهق الإنسان سواء كانت ذكريات مرة أو حلوة. يتذكر الإنسان مراراته وخيباته وانكساراته، وأوجاعه الخاصة كموت الأقربين فيحزن ويتألم.

ويتذكر المرء حلو الأيام الغابرة وصفاء ورغد العيش فيها ويدرك أنها أصبحت مجرد ذكريات غابرة لا تمكن استعادتها مهما كان فيحزن أيضاً.

إنسان بلا ذاكرة، إنسان بلا أحزان.

قالت لي نِشتيمان ذات ليلة، بعد أن بكت طويلاً وألححت عليها أن تبوح لي بالسر الذي جعلها تبكي بمرارة: ״الذكريات يا آمد حقول بارود تكفيها شرارة صغيرة واحدة لتشتعل، وأنا عندي كثير من الشرر وحقول مترامية من البارود. أنا فتاة الذاكرة المهشمة يا آمد. أنا فتاة الطفولة المنهوبة يا رفيقي״.

ذبلت زنبقة الليل السوداء وسقطت تويجاتها. أصبحت رماداً في أتون الشفق دون أن تبوح نِشتيمان بسرها الذي أبكاها.

أسأل الضريح الأخرس: ״من يقدح صوان الذاكرة ويوري الزند اليابس ليتطاير الشرر وتحترق الحقول؟ من يفرز الأحداث إلى قسم يغوص إلى القاع وآخر يعلق بصنارة الذاكرة أو يطفو إلى السطح ليقتحم الحاضر بلا استئذان؟ من يغربل الذاكرة ويصنف الأحداث إلى نصف قابل للنسيان أو للأرشفة ونصف يشبه شمعة لا تنطفئ؟ أهو وعي المرء وإرادته، أم هو لا وعيه الذي يسجل الوقائع عارية مجردة من كل زيف ويقدمها كما ولدت دون قماط؟ لماذا تستعيد الأحلام أحداثاً يصعب على المرء تذكرها في حال اليقظة؟ من يتحكم في الحلم؟ من يوقظ الحدثَ المنسي حين يخلدُ المرء إلى النوم؟ كيف تلتقط الأحلام تلك اللحظات الهاربة من الذاكرة مثل رذاذ يتناثر في الضوء؟״

يجيبني الضريح الأخرس: ״الألم. الألم ولا شيء غيره. الذاكرة نبع ترتاده شياطين الإبداع حين ينتابها ألم الظمأ. إنها نار يتدفأ عليها الروائيون والشعراء وكل الذين ينخر بردُ الحاضر عظامَهم الهشة فيلوذون بجمر الماضي، ويتحلقون حول ناره ويقتبسون من نورها ما يضيئون به ظلمات أرواحهم״.

״يا مولاي الشاعر؟ الكتابة! من ينسج بُردَها ويُنزل وحيها؟״

يجيبني الضريح الأخرس: ״الكتابة فخ. إنها فخ بديع يغري الخيال الحيران فيستدرجه حتى يقع بين أنيابه الحادة. يأتي عصفور الخيال فيرتمي في حضن الفخ ويرمي فيه أدق تفاصيل

الذاكرة، ويرمم ما تآكل من لوحاتها، ويكمل مشاهدها الناقصة".

وأنا هنا في خلوتي أتعثر بهذه الفخاخ هذه الليلة، وأكتب عبارات قصيرة عن حوادث تجود بها الذاكرة، ثم أتوسع فيها. أتذكر التفاصيل المتعلقة بكل اللحظات الماضية التي تجرها الذاكرة كخروف العيد إلى مذبح الحرف. الكتابة رماد نغطي به جراحنا وأنا روح جريحة أبحث في هذه الوحدة الخرساء عن ضماد من كلمات. أستأنس بالكتابة التي تبدد وحشة المكان. وبقدر ما أستأنس في هذا المخبأ بالكتابة، أستأنس بهذا القبر المهيب أيضاً. أستأنس بالصمت الذي يلفه كغلالة لا مرئية. أتأمله، وأشم كسوته الخضراء المقدسة التي تزينها أي الكرسي المطرزة بخيوط ذهبية، وأستنطق صاحبه، وأخاطب المدفونَ فيه فأتخيله يجيبني بصوت رخيم يحمل شذى القرون الغابرة، أراه ينهضُ ليأتي ويجلس بجانبي متدثراً بعباءة مخططة، ويحدق في خيوط الزمن المتدفقة كشلال يسقط من شاهق ويسرد لي سيرة حبه الأليمة.

أمس دهمني رعب ثقيل. كنت في ساعات الليل الأخيرة وكنت أتناول الكأس الثالثة من نبيذ سرياني أهداني إياه صديقي جمشيد قوسَري، الشاعر الصعلوك من ماردين الذي يكتب مع كل كأس نبيذ يحتسيها قصيدة جديدة. حدقت في شاهدة القبر محاولاً تهجئة الحروف العربية التي لا أعرف قراءتها. سمعت ما يشبه حفيف أوراق شجرة عظيمة حين تهب نسمة ريح قوية. ولما التفت إلى زاوية الضريح، رأيته. كان يحدق في الشمعة المشتعلة أمامي ثم يرفع رأسه يحاول قراءة ما في الأوراق المتناثرة حولي.

تجمدت في مكاني مذهولاً. لم أجده يدخل من الباب الواطئ وما من نافذة هنا ولم أجده كذلك يخرج من القبر. فمن أين جاء؟

– جئت من ذاكرتك يا أحمد. خرجت من زحمة أفكارك. لا تخف. أنا مجرد طيف. لا أحمل سلاحاً ولا قدرة لي على الإيذاء. لست شبحاً أو روحاً شريرة. أنا روح شاعر يا أحمد. وأرواح الشعراء فراشات تحوم في الأثير ولا يحس بها سوى الذين اكتوت قلوبهم بنار الحب أو سعير الحرب، ولا يراها سوى الذين تصدعت أرواحهم من هول الهوى أو وطأة الوغى.

– أنا منهم يا مولاي. أنا ركامُ عشق زلزل قلبين. أنا بقايا حكاية حب نخرت فيها الحرب. أنا أثر إنسان أراد أن يعيش في بلاد حرة وتحت سماء حنون دون أن يطوق الخوف أحلامه.

– أعرف يا أحمد. أعرف. أعرف ما يؤلمك. يتآكل القلب حين تحوّلُ الأعوامُ الحبَّ إلى ذكرى. تصدأ الروح حين يصبح الوطن فراشاً من شوك، وتتصدع كأنها جدارٌ عصفَ به زلزال. انفخ في هذه الشمعة التي أمامك. انفخ فيها. هيا. لا تؤجل يا أحمد.

– ستنطفئ يا مولاي. ستنطفئ ونغرق في الظلام.

– لا يا أحمد. الذكرى شمعة لا تنطفئ. كل ذكرى شمعة تبدد ظلام النسيان. وذكريات الحب ليست شموعاً فحسب، بل نيران هائلة، نيران موسوية تضيء طُور القلب وواديَهُ المقدس. انفخ في الشمعة. لا تتهيب من الظلام فقلبك الآن عامر بنور الحب. هيا انفخ في الشمعة.

لم يبقَ أمامي، أمام إصرار طيف الشاعر الكبير، مجال سوى أن أنفخ في الشمعة التي ظلَّ لهبها يصارع الظلام ويمزق أوراقه السوداء غير عابئ بتراكمها. نفخت أول الأمر بِرِقَّةٍ فلم تنطفئ. عدت فنفخت بقوة أكثر؛ تراقص اللهب مثل ملاكم يتحاشى اللكمات لكنه عاد فاستقام يزيح العتمة بقبضاته النورانية. باءت كل محاولاتي في إطفاء الشمعة بالفشل. ظننت أنها مسحورة فقلت بيأس: ”مولاي. إنها لا تريد أن تنطفئ“.

نهض الطيف حتى سمعت حفيف عباءته المخططة كأن سرباً من الحجل يطير في برية مترامية ذات نهارٍ قائظ من صيف كسول. أسند ظهره إلى شاهدة القبر، ثم صفق وهو يقول: ”أحسنت يا أحمد. أحسنت إذ نسبت الإرادة إلى الشمعة. هي لا تريد. الشمعة لا تريد. هكذا هو الحب. هكذا هي ذكرى الحب. الحب الذي يملأ القلوب مثل شجرة موسى التي اشتعلت بجانب الطور من دون نار. لا أعاصير الزمن ولا نفخ السنين ولا طبقات الرماد بقادرة على إطفاء جذوة الحب إن هي أضاءت القلب. لا تنطفئ شعلته أبد الدهر ولا يخبو بريقه مهما طال العهد به ولا تذبل زهرته“.

حاولت أن أطرح سؤالاً فلم أرَ أحداً. اختفى محاوري الطيف في العتمة وبقي فمي مفتوحاً مثل شِقٍّ في زق ينساب منه سؤال شفاف كقوس ماء: ”ما هو لون الحب؟“

الجمعة 28 آب 2015

حين كنسَ الليل ضوءَ النهار ورمى جثته الدامية خلف الأفق الغربي جهة ماردين هرعت إلى صومعتي أكمل ما بدأت كتابته منذ أسابيع. منذ ذلك الوقت إلى الآن حيث لا صوت سوى صوت خيالي تضج به جنبات الضريح كتبت صفحات عدة مما جاد به الخيال عن الشاعر الجزري، نبي العشاق وجبريل الشعراء، من سيرة حياته وحبه وخيباته. لا أعلم متى سأنتهي من رواية "مجنون سلمى" لكنني مستمتع بكتابتها. أستحضر آلام الشاعر الذي رماه الحب أسير عيني أجمل أميرة في بلاد الكرد فلم يجد أمامه سوى اللوذ بالشعر والاختباء خلف ستائر الحرف الجميل.

***

يزورني الفتى حلمي يومياً في خلوتي هذه. وحلمي من تلامذتي الذين أدرسهم اللغة التركية، وهو صبي صغير في الرابعة عشرة من العمر من أبناء عمومة صديقي الشاعر جمشيد قوسَري. وهو الوحيد في الجزيرة الذي يعرف أنني مختبئ هنا. يأتيني دائماً بقليل من الطعام وبعض الحاجات الأخرى وكثير من الأخبار.

اليوم جاء حلمي الطيب متأخراً. قلقت عليه لما مالت الشمس وعرفت أن الوقت عصر وأنه لم يظهر. لكنه بدد قلقي حين جاء وسلم بخفوت ثم جلس صامتاً. رأيت أسراباً من الحزن تطير في عينيه.

– ما بك يا حلمي؟ لا تبدو على ما يرام!

– لقد قمنا يا أستاذ بدفن أربعة شهداء قبل قليل.

– صحيح؟ سقط شهداء في احتجاجات الأمس؟

– نعم قناصة الجنود الأتراك قتلوا أمس أولئك الأربعة وبينهم طفلان. لو رأيت أمهما في موكب الجنازة هذا اليوم يا أستاذ، لحملت السلاح وانضممت إلى الرفاق. رافق الشهداء من

مستشفى ديار بكر موكب مهيب حتى الجزيرة. أما نحن، فرافقنا الجنازات من المستشفى الحكومي حتى المقبرة.

أطرقت برأسي أفكر في ما جرى ويجري وسيجري. إلى متى سيتدفق نهر الشهداء في هذه الأرض؟ متى سيتوقف نزيف الوطن؟ لماذا تتعثر الحلول السلمية؟ من المستفيد من دوامة الحرب التي أنهكت الجميع إلا الذين يعتاشون على الشعارات؟ أردت أن أخلد قليلاً إلى الصمت لكن شهوة الحكي عند الفتى حلمي ازدادت فأردف مهشماً إناء صمتي: "كل أهل الجزيرة أغلقوا دكاكينهم. والموظفون لم يذهبوا إلى أعمالهم. إضراب عام. الآلاف شاركوا في الجنازة حتى المقبرة. ومن هناك ذهبنا إلى مقر القائمقامية. رددنا شعارات مدوية وصلت حتى جبل الجودي. وحين وصلنا...".

– وهل تدخلت الشرطة؟

– لا أبداً. لم نشم حتى رائحتهم. لقد ذابوا مثل الملح. هم جبناء. الجزيرة هذا اليوم كانت...

– وماذا يقول الناس؟

– يقولون إن وفداً من ديار بكر في طريقه إلى الجزيرة. هل تعتقد أن...

– وفد؟ لماذا؟

– وفد حقوقي. قالوا إن طاهر ألجي سيأتي مع الوفد. من هو طاهر ألجي؟

– هو رئيس نقابة المحامين في ديار بكر. ويدافع عن قضايا المغيبين قسراً ومن قامت الدولة بتصفيتهم في التسعينيات. أتمنى أن ألتقي به.

– أمي تقول إنها حلمت بغبار يسد الآفاق في الجزيرة حتى أن سحابة كثيفة من الغبار حجبت الجودي ودجلة. ما تفسير الغبار في الحلم يا أستاذ أحمد؟ قالت أمي إنه...

– أمك رأته في المنام. أما أنا، فأعيشه وأتنفسه وأختنق به منذ أيام الجامعة يا حلمي. شعبنا كله يعاني هذا البلاء.

– هيه؟

– بلاء. الغبار بلاء يا حلمي. في اليقظة وفي الحلم على حد سواء.

زَمَّ حلمي شفتيه المتيبستين ثم نهض من غير أن يقول شيئاً. وضع يديه في جيبي البنطال. رأيت أسراب الحزن تطير في عينيه السوداوين كأنها حبيسة في فضاء ضيق. ثم مضى بصمت. تبعته بنظراتي. دهشت.

لم يكن لخطواته المتقاصرة صوت. غاب حلمي فحضرت فراشات الخيال.

***

أنا أعرف أيها الليل الحقير التافه، أيها الليل التائه، أيها الليل القواد الماجن، أعرف تماماً إلى أين مضى صديقي الصغير الفتى الحزين حلمي. أعرف إلى أي بيت وأي حارة في الجزيرة المنكوبة قادته خطواته الحزينة. لكنني لا أدري إلى أين تمضي هذه البلاد وإلى أي مستقبل وإلى أي هاوية ينحدر بنا هذا الوطن المنكوب بالغبار، وإلى أي هاوية ننحدر نحن المنكوبون بهذا الوطن المغبر؟

لقد احتكر الحزبُ النضالَ ضد الدولة منذ نشأته إلى الآن. والدولة التي لا تعترف بهوية وحقوق وحتى وجود ملايين البشر من شعب يعيش ضمن حدودها تستحق أن يحاربها الأحرار لانتزاع حقوقهم. إنها دولة قامت على أنقاض أحلامنا. ثار ضدها أجدادنا وآباؤنا وقدموا آلاف الضحايا وها نحن نثور أيضاً ولم نبخل بآلاف الضحايا. منذ أكثر من قرن ونصف ونحن نحارب هذه الدولة. وإن بقيت الأوضاع على ما هي عليه الآن، فإن أبناءنا وأحفادنا سيثورون مثلنا في حلقة مفرغة لا تنتهي إلا بإحقاق الحق أو إبادة الشعب عن بكرة أبيه. إن هذا الحزب الذي قبض على كل مفاصل الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في البلاد منذ أكثر من ثلاثين عاماً لم يعد يعبر عن طموحاتي إذ لم تعد الحرية والاستقلال أصلاً جزءاً من برنامجه الغامض الذي يتغير كل سنتين أو ثلاث كما تغير الأفعى جلدها. صار الحزب يختزل في نفسه كل فاشية الدولة، فنسخ منها نسخة كردية محلية طبق الأصل. كان الأفضل أن تكون هناك جبهة وطنية واسعة تضم أطياف المجتمع الكردي كافة. جبهة تمثل الشعب فعلاً. جبهة لا أيديولوجية تستوعب جميع التيارات في المجتمع من أقصى يمينه إلى أقصى يساره. جبهة تجمع الطيف الديني بالطيف العلماني، القومي بالليبرالي لأن مجابهة

دولة أو نظام ينكر عليك هويتك الشاملة غير ممكنة بحزب لا يمثل إلا تياراً سياسياً محدداً، ودون إجماع شعبي لا يمكن مقارعة الظلم. طيف واحد بتوجه ماركسي لينيني مطعم بالشعبوية وبعض القومية لا يمكن أن يأتي بنتيجة. كانت هناك جبهة أسماها الحزب جبهة تحرير شعب كردستان انضممت إليها في سنتي الأولى في الجامعة وسُجنت بسببها ولقيت أهوالاً من التعذيب الذي لا يتخيله إنسان بسبب صحيفة سرخوبون، لسان حال الحزب، تم ضبطها معي. كان ذلك في سنة المجازر البشعة التي ارتكبها بعض عناصر الحزب بحق القرويين ممن أسموهم الخونة وأباحوا حتى قتل أطفالهم الرضع ونسائهم الحوامل. كان ذلك في عام مجزرة بينارجيك في ماردين وأورتاباغ في شرناخ وكليجكايا[3] في سيرت وغيرها من المجازر التي دار حولها نقاش كثير وقتذاك. في ذلك العام بالضبط، كنت أعلق في غرفتي شعار جبهة تحرير شعب كردستان المطبوع في السر، وهو علم أحمر تتوسطه دائرة خضراء بأرضية صفراء تملؤها نجمة حمراء. تبين بعد، أي بعد فوات الأوان، أن هذه الجبهة كرتونية مثل جميع المؤسسات التي أنشأها الحزب مثل المعاهد والأكاديميات وجمعية الهلال الأحمر وسائر المنظمات التي تعج بها البلاد وحتى الدول الأوروبية كما سمعت.

3 يسميها الكُرد دَفيكْ Devik.

لا يهدف الحزب من وراء هذه المؤسسات الخلبية سوى تحصيل الإتاوات تحت مسمى التبرعات وكذلك جذب المزيد من الشباب لتجنيدهم وإرسالهم إلى جبهات كثيرة متنوعة. قضى الحزب منذ تأسس على منافسيه من الوطنيين والمثقفين الذين كان يمكن أن يكون لهم تأثير في بلورة وعي وطني سليم فقتل وأرهب ونفى وضيق الخناق على الجميع حتى خلت له الأجواء وأصبح هو وحده ديك الساحة.

آه كم نشبه أعداءنا!

قلت متنهداً حين سهرنا، أنا وصديقي الشاعر الماrديني جمشيد قوسَري، حين كان في ضيافتي، ذات ليلة سكر وعربدة قضيناها معاً في الربيع الماضي على أنغام أغنية مشهورة للفنان أحمد كايا الذي مات في عز عطائه الفني في منفاه الباريسي الكئيب قبل خمسة أعوام، في مطعم الفانوس في محلة النور على ضفاف دجلة... غنينا في تلك الليلة ونحن نهز رؤوسنا

الثقيلة ذات اليمين وذات الشمال مثل مريدي الطرق الصوفية أغنية أحمد كايا الشهيرة الحزينة[4]:

[4] Bu dağlara bu yollara
Toz eyledi aşk beni.
Ben yanarım aşk için,
Ben yanarım gül için.

على هذه الطرق وفي هذه الجبال،
حولني الحب إلى غبار.
إنني أحترق غراماً.
أحترق لأنني أحب الوردة.

سكرنا، أنا وصديقي، وكررنا هذه الأغنية مرات ومرات حتى سمعنا أذان الفجر يرتفع من ميكروفونات مئذنة مسجد وسطاني.

رقصنا في تلك الليلة المقدسة على أنغام قرع الزجاجات بالزجاجات والكؤوس بالكؤوس وشتمنا الدولة والحزب والقائد ورئيس الجمهورية ومؤسسها ورئيس الوزراء والجنود والرفاق والخونة معاً.

– نعم يا صديقي. نحن نشبه أعداءنا في المنهج والسلوك. ونريد أن نغطي على ذلك بادعائنا محاربته أو بمحاربته فعلاً على غير هدى.

– الحرب لن تتوقف يا صديقي، لكن ذلك لا يعدو في الحقيقة عن كونه أمراً شبيهاً بمناطحة الكباش أو مناوشة الخنازير.

– نحن أعداء أنفسنا. نعم نحن. نحن الحجل الذي يغري البقية بالقدوم إلى الفخ ودخول القفص. لنحارب أنفسنا أولاً. إن لم ننتصر على ذواتنا، فلن ننتصر على عدونا.

– لا تظلم الحجل ولا تتخذه رمزاً للشعب. فنحن لم نفهم هذا الكائن الجميل بعد. إنه طائر ينبه قومه بالنقنقة إلى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر والابتعاد عن الفخاخ والأقفاص. لكن الغباء المغلف بالطمع يدفع الطيور إلى التهور والاندفاع ثم السقوط في الشراك نهاية الأمر. إنها لا تفهم الرسالة على حقيقتها. فتدفع حريتها ثمناً لغبائها وجهلها. ومن يدري؟ فلعل طيور

الحجل تفهم نقنقة رفيقها الأسير على أنها نداء استغاثة فتهرع إليه غير عالمة أو ربما غير عابئة بما يحيكه القدرُ الصيادُ لأقدامها المرهفة.

السبت 29 آب 2015

هي ليلة أخرى من ليالي الصيف الكئيبة. ترتدي عباءتها السوداء وتخرج باحثة عن نجوم سقطت مثل حبات توتٍ من غصنٍ طري هَزَّتْه ريح وحشية.

قلبي على نِشتيمان. قلبي على حبة التوت. أخاف عليها من هبة ريح غادرة. أعرف كم هي طرية. أعرف كم هي هشة هذه الصبية ذات العينين اللوزيتين الحزينتين المليئتين بأسرار عميقة. لا أريد أن أخسر هذه الفتاة التي رفعتني من بين الرماد وانتشلتني من بئر العِنَّة وجعلتني أرتبط بها بجنون. هل أنا متعلق بجسدها الفتي الشهي أم بروحها النقية أم بالاثنين معاً؟ هل أنانيتي تدفعني إلى التشبث بها أم هو الحب فعلاً؟ لم أتذوق طعم الحب منذ أكثر من ربع قرن. لم أجرؤ على الحب أصلاً بعد خروجي من السجن بعاهة واريتها تحت تراب الانشغال بالكتابة. كيف سينبض قلب المخصي بالحب؟ وأي أنثى سترتبط برجل ليس له من الرجولة إلا الشكل؟

عرفت فتيات كثيرات بعد أول كتاب صدر لي في إسطنبول. كن يتحلقن حولي في كل حفل توقيع مثل الفراشات، ويتراقصن بحبور، ويتغنجن بدلال مفرط. كن معجبات برواياتي. يقفن مبتسمات بجانبي ويلتقطن الصور التذكارية. لكن ماذا لو عرفن أنني مخصي؟ هل كان إعجابهن سيبقى على حاله أم سيتحول إلى نفور؟

لم أجرؤ أن ألفظ كلمة "أحبك" لأي أنثى استلطفتني أو أعجبتُ بها. لم يكن قلبي سوى قطعة فحم منزوية بين ضلوعي.

جاءت نِشتيمان من العدم فنفخت في فحمة قلبي لتشب فيها النار مثل عليقة طور سيناء. شغفتني نِشتيمان حباً ثم اضمحلَّتْ مثل نجمة في ضوء الصباح.

اشرب يا آمد. اشرب حتى الثمالة. إن فرغت كأسك، فاملأ كأساً أخرى. اشرب واسكر واهرب بوعيك خارج هذا المعقول القاسي. لتأخذك الخمرة إلى براري اللامعقول الرحيم، فأنت ابن ربع قرن من الخصاء. أنت ابن الهامش يا آمد. ما من ملاذ لك الآن سوى خمرة تعيد ترتيب وعيك، وتوقظ ذاكرتك وتهدهد أحلامك. الوعي بلاء يا آمد. الوعي بلاء.

كأس أولى، كأس ثانية، كأس ثالثة... رابعة خامسة سادسة ويظهر الطيف من جديد.

ينفض الغبار عن عباءته المخططة بأصابعه النحيلة. يحدق في الشمعة، ويشير إليها بإصبع رفيع كقلم ويبتسم.

– هذا هو لون الحب يا أحمد. الحب شمعة تزيح عن قلبك حجب الظلام.

– لكن يا مولاي...

يختفي الطيف من جديد تاركاً جملتي الأخيرة ذبيحة تتخبط في دمها. يختفي في لهب الشمعة التي يسيل دمعها على قامتها. أرى ابتسامته تذوب كفراشة بديعة في النور الخافت. يُفني أحدهما الآخر: النور والابتسامة، ويتحدان.

***

التقيت نِشتيمان في حزيران من هذا الصيف الحار في عرس أحد أقارب صديقي الشاعر جمشيد القوسري بماردين. كانت جالسة قريباً مني مع امرأة خمنت أنها تجاوزت الخمسين من العمر.

كانت ترتدي بنطال جينز ضيقاً وسترة بيضاء قصيرة بلا أكمام ولا أزرار مطرزة بخيوط ذهبية من القصب. رسمت تلك السترة البيضاء تضاريس صدرها الشهي البهي. تخيلت النهدين البارزين المختفيين تحت بياض السترة مثل طائري حجل يتحاوران بمجون.

ما إن حميت الدبكة وجُنَّت الكمنجات وارتفعت ألحان رقصة الكُرمانجي الصاخبة المتسارعة كنبضات قلب عصفور دهمه صياد مختبئ، رأيتها تنهض عن كرسيها في صف قريب من المنصة وتمشي مختالة إلى حلقة الرقص مثل أميرة من الحكايات. في الحلقة الكبيرة الدائرة حول القطب الموسيقي، توسطت فتاتين في مثل سنها وبدأت ترقص بجنون. تهز كتفيها وتحني ركبتيها مع الإيقاع كأجمل ما يكون الرقص.

ركزت عليها بين كل الفتيات. كانت تثرثر مع الفتاتين وتضحك، وتهز رأسها يميناً وشمالاً كأنها في حالة انجذاب روحي أو نشوانة من خمرة ماردين السريانية.

يا إلهي!

أي سحر ذاك الذي جذبني إليها ودعاني أتسمر أمامها وأحدق في تلك القامة الرشيقة التي صارت تهتز على وقع شلال الإيقاع الصاخب! لم أستطع أن أطرقَ لو ربع ثانية. بقيت أتمعن فيها، وأنحتها بإزميل نظراتي، وأكور نهديها الثائرين كقطاتين تنتفضان في الشراك. صرت أدور بعيني حيث ما دارت في حلقة الرقص مخافة أن يختفي المشهد الأخاذ عن بصري. شعرها الكستنائي الطويل رفرف بمجون. كان يلامس في كل حركة مؤخرتَها الرائعة التي تحاور الموسيقا الراقصة بتناغم تام.

غبت عن الدنيا.

أسكرني النهدان المنتفضان.

والمؤخرة الشهية.

ورائحة الجسد الطري.

والشعر الهادر كقصيدة بهية حرة وبلا قافية.

أطفأت لفافتي التي أشعلتها لتوي ولم أشعر إلا وأنا أقوم من مكاني بتحفز غريب. شيء ما فوق طاقتي دفعني دفعاً لأنضم إلى تلك الدبكة الصاخبة. شعرت أن يداً سحرية شدَّتني دون رغبة مني وانتشلتني من ترددي وجذبتني إلى الرقص.

حين شبكت يدي في يدها وضممت أصابعي على كفها أحسست ببرودة غير طبيعية. مازحتها: "نحن في الصيف ويدك في الشتاء!" لم ترد. لكنها التفتت ورفعت رأسها قليلاً لتنظر إليّ مع ابتسامة حزينة.

أكانتا عينين أم بحيرتي دهشة؟

لم يكن ما رأيتهما في ذلك المساء مجرد أداتي إبصار في وجه جميل وحزين، بل كانا بُراقين عرجا بي حتى وضعاني عند أعمدة عرش الإله.

لأول مرة بعد سنوات طويلة من العُنَّة شعرت بالإثارة. مع كل دقيقة مرت من الرقص أدركت أنني أُستثار أكثر. تسارعت أنفاسي كأنني في سباق. راقبتُ حركةَ ما بين فخذيَّ العجيبة. كان شيء ما يقوم من رقدته الطويلة فيتمدد وينتصب مانحاً إياي متعة لم أعهدها من قبل.

"آآآه. أنا أنتعظ"، قلت لنفسي وأنا أداري دهشتي وتوتري بثرثرة لا أتذكر تفاصيلها مع الفاتنة الشابة التي استمرت في الرقص دون أن تأبه لما أنا عليه بينما ظل نهداها يتعاركان تحت ثوبها اللازوردي وسترتها البيضاء القصيرة.

استمرت الموسيقا بإيقاعها الصاخب السريع، واستمر الراقصون في هز أكتافهم بتناسق وانسجام تام مع حركة الرُّكب التي تنثني مع رابع حركة للأرجل التي تخبط الأرض خبطات خفيفة. وصلتُ بعد دقائق إلى ذروة الانتعاظ. وحين أوشكت على القذف شددت يدي على كفها الباردة وبقيت أفركها بمنتهى الشهوة حتى أطلقتُ صرخة نشوة مدوية ظنَّ من حولي أنها صيحةٌ من راقصٍ أسكره العزف الصاخب لأصحاب الكمنجات.

"إنها معجزة"، قلت وأنا أترك يدها التي كانت قد أصبحت دافئة كحمامة. أردت أن أخبرها بقصتي الطويلة وأقول لها إنني كنت عنيناً على مدى سنوات وإن عينيها حققتا معجزة ربانية. أردت أن أفصح لها أنني قذفت منتعظاً لأول مرة منذ أكثر من ربع قرن وأنني مدين في ذلك لكفها الطرية الباردة وعينيها الغاويتين. أردت أن أثرثر لها بأشياء كثيرة فرحاً بالانتصاب المدهش لكنني وجدت نفسي أحجم عن كل ذلك ولا أقول لها سوى: "ما اسمك؟"

ابتسمت في وجهي مثل ملاك ثم نطقت اسمها بدلال كبير وموسيقا فاتنة لها وقع نسمة هبَّتْ على زنبقة في الوادي: "نِشتيمان".

***

ودعت الشاعر الصديق ثم عدت، بعد انتهاء العرس، متوجهاً إلى الجزيرة على متن حافلة صغيرة أقلت أربعة عشر راكباً إلى قرى وبلدات مختلفة على الطريق متناثرة مثل خرز قلادة انقطع خيطها.

كنت لا أزال أعيش سحرَ انتشائي المفاجئ في العرس. تعجبت مما جرى لي هناك! كيف حدث كل هذا؟ وأي إغواء جذبني إلى تلك الشابة، وما السحر الكامن في كفها الناعمة الباردة التي جعلت قضيبي ينتصب ويصل الذروة ويقذف بعد نحو ثلاثين عاماً من العنة المتواصلة؟ سمعت عن اشتداد شهوة الرجال في العقد الخامس اعتباراً من الأربعين أو ما يعرف بأزمة منتصف العمر، لكن حالتي لا تنطبق على ما قرأت في هذا المجال. أزمة منتصف العمر يمر بها الرجال المتزوجون سعياً وراء إثبات استمرارهم ذكوراً بقدرة جنسية فائقة. تستهويهم الفتيات الصغيرات سناً ليقنعوا أنفسهم أنهم ما زالوا مرغوبين من الجنس الآخر وأن حرارة جاذبيتهم لم تخمد وبريق شبابهم لم ينطفئ. يقعون في شرك الغواية رغم أنهم أزواج مخلصون وأوفياء ويعيشون حياة عائلية مستقرة وهادئة. لا، ما جرى لي ليس من أعراض تلك الأزمة. بل إنه الحب ومعجزاته. إنها القدرة العيسوية للحب على الإحياء. ألم يقل مولاي صاحب هذا الضريح في قصيدة له:

لو مرت على قبرٍ ميتٍ منذ مئة عام،
فستبعثه حياً وتعيد إليه الروح
إنها تحيي الموتى وتسبي القلوب
ألأنها تعرف الاسم الأعظم أم لأنها المسيح ذاته؟

وأنا في الحافلة الصغيرة، كتبت لـنِشتيمان على الواتساب: ''اشتقت إليك. لم يمضِ على فراقي عنك سوى ساعة ومع ذلك فإن قلبي ينبض شوقاً إلى يديك الجميلتين''.

– لا تبالغ في عواطفك كثيراً. ستنساني بمجرد وصولك إلى البيت. وسأنساك أيضاً.

انتهت الجملة القصيرة بإيموجي يغمز.

غرقتُ في الصمت غير آبه لثرثرة عجلات الحافلة على الإسفلت الحامي ولا لشخير راكب عجوز يجلس خلفي مباشرة ربما يحلم بذكر منتصب مثل مزمار الرعيان.

نسمة منعشة من الشباك نصف المفتوح كانت كفيلة أن ترميني في بحيرة النعاس. وسرعان ما غصت في أعماق تلك البحيرة.

***

قبل أن نصل إلى قرية كهف سنور جنوب الطريق، صاح أحد الركاب بالسائق: ”هل تستطيع أن توصلني إلى قرية بينارجك؟ إنها لا تبعد سوى عشرة كيلومترات من هنا. عشر دقائق أو ربع ساعة تقريباً. سأعطيك أجرة زائدة“.

لا أدري كيف حدث كل ذلك في غمضة عين! فما إن انعطف السائق نحو اليمين، أي نحو الجنوب، حتى لاحظت أن الراكب الجالس على يساري، وكان يرتدي تيشيرت أزرق وتغطي وجهه لحية ذات يومين ارتعد رعدة مخيفة ثم أصبح بلا حراك كأنه جثة. حدقت في وجهه المصفر وعينيه المقلوبتين فلم أشاهد فيهما سوى بياض مخيف ولاحظت قليلاً من الزبد الأبيض يحيط بشفتيه. ظننت أنه مات فأخبرت السائق بما رأيته وطلبت منه التوقف. قال السائق بلا مبالاة: ”كثيراً ما تكرر هذا الأمر مع هذا الشرناخي. حين يسمع باسم بينارجك ترتعد أوصاله كأنه يرى عزرائيل. لقد اعتدنا هذا الأمر. سنذهب إلى بينارجك ونعود. إن شئت أنزلناكما هنا ريثما نعود بعد نصف ساعة تقريباً. رش على وجهه قليلاً من الماء وسيصحو ويعود إلى وعيه. وإلا قد يتحول إلى تيس“.

– تيس؟

– هكذا أخبرنا الركاب الذين بقوا معه في كل مرة يرعونه ويهتمون به.

– كم تبعد القرية من هنا؟

– ليست بعيدة. سنعود إليكما في نصف ساعة تقريباً.

– إذن سأنزل مع الرجل.

وقفت الحافلة قرب شجرة ظليلة بجانب دكانة على الطريق فنزلتُ وأنزلت معي ذلك الرجل الذي بدأ، بعد أن غادرت الحافلة، يستعيد وعيه بصعوبة بالغة.

تركت الرجل المنهك في ظل الشجرة وذهبت إلى الدكانة فاشتريت زجاجتي ماء وعدت إليه: ”ما الذي جرى لك يا رجل؟“

”اسمي وَيْسْ. أنا من شِرناخ. لا بأس لم يحصل شيء. لا شيء لا شيء“، قال وهو يخطف إحدى قنينتي الماء من يدي ويشربها بنهم. ”أين الحافلة؟“ سألني وَيْسْ مرعوباً، فأجبته

مطمئناً: ''لا تقلق. ستأتي بعد قليل. ذهبت لتوصل راكباً إلى بينارجك وستأتي''.

ما إن لفظت اسم بينارجك، حتى رأيت تبدلاً غريباً في ملامح وجهه. بدا لي كأن أحداً وضع سكيناً حادة على رقبته يريد ذبحه. امتعض وجهه ونبتت عليه عرائش رعب لا نهائي. سألته: ''ما قصتك يا ويس؟ اسم بينارجك يسبب لك توتراً عجيباً؟ لقد تولد لدي فضول كبير لمعرفة السبب. لا تخف مني. يمكنك البوح بكل شيء. أنا روائي. وكل الأسرار التي أسمعها تجد طريقها إلى الروايات دون أن يستطيع أحد التعرف إلى الحقيقة''.

– روائي؟

– نعم. يعني أكتب قصصاً طويلة من الواقع أو من خيالي. ويمكن أن أُلبس أي قصة أسمعها ثوباً خيالياً فلا يستطيع حتى صاحبُها التعرفَ إليها. كذلك أكتب أشياء خيالية شديدة القرب من الواقع حتى أن القراء يعتقدون بصحة وقوعها.

– وهل إذا رويت لك قصتي ستنشرها في كتاب؟

– من يدري؟ ربما. إن كانت القصة مثيرة، وإن وافقت، فستأخذ طريقها إلى النشر في كتاب. أعدك يا ويس.

شرب جرعة كبيرة من الماء وقال لي برجاء: ''هل ستكتم سري إن رويت لك ما جرى معي؟ منذ زمن طويل أبحث عن أحد أقص عليه حكايتي. أريد أن أزيح هذا الحجر الثقيل عن صدري. يكاد يقتلني يا رجل. هذه القصة تخنقني. لقد رأيتَ بنفسك ماذا جرى. ثمانية وعشرون عاماً وأنا أعيش كابوساً لا مثيل له. عدني ألا تبوح لأحد باسمي''.

– أعدك وعد رجل جَزَري. صدقني ستجد قصتك طريقها إلى رواية مواربة ولن يشعر أحد بأنك صاحب القصة.

– هذا ما أبحث عنه بالضبط. لقد تعبت من حمل هذا الجبل على ظهري. لقد حان الوقت لأرتاح من ثقله. يظن الجميع أنني مصروع.

شربت أيضاً جرعة ماء كبيرة. كدت أنهي الزجاجة كلها. نظرت إلى الرجل الذي يحمل على ظهره جبلاً بتعبيره وتذكرت الإله الإغريقي أطلس الذي يحمل قبة السماء على ظهره ثم قلت له جملة تتكرر في الأمثال الكردية: ''أن تبوح لي بسرك كأنك تبوح به لحذائك''.

اطمأن وَيْسْ إلى حديثي. شرب ما تبقى في الزجاجة من ماء وقال بصوت حزين: ”كانوا عشرات من الجن. جن مرعبون بشوارب كثة سوداء“.

الجمعة 4 أيلول 2015

اليوم مساءً تم الإعلان رسمياً حظرَ التجول التام في الجزيرة.

سرت إشاعات قبل أيام أن الدولة تسعى إلى فرض الحظر في الجزيرة وبعض المدن الأخرى لمنع النشاطات المسلحة. كنا بين مصدق ومكذب. بعض الناس هرعوا إلى المحلات واشتروا ما يمكن أن يخزنوه في ثلاجات بيوتهم وأقبيتها. أنا خرجت أمس واشتريت مواد يمكن تخزينها دون حاجة إلى ثلاجات. اشتريت المكسرات وبعض النبيذ والفواكه المجففة ومعلبات الأطعمة المطبوخة الجاهزة والكعك الحلو الذي يمكن أن يبقى أشهراً عدة دون أن يفسُد.

لا ندري كم سيطول الحظر لكنه شامل. ممنوع التجول، ممنوع الخروج من باب الدار لأي سبب كان. الناس صاروا سجناء بيوتهم. الجزيرة سجن كبير داخل سجن أكبر يسمى الوطن.

بالنسبة إلي، حظرت التجول على نفسي بنفسي منذ أكثر من أسبوعين. هربت من عاصفة الغبار الجديدة. لقد أنزلوا الحرب من الجبال إلى الشوارع. خطة جهنمية ستكون لها آثار سلبية كبيرة. لكن لا أحد يريد أن يسمع هذه الحقيقة. كان لا بد أن أهرب من هذا الذهان المشترك الذي بدأت أعراضه تظهر واضحة بعد معركة كوباني الشهيرة. كذلك هربت من أوهام النصر، العصاب الجماعي، هيستيريا الحشود التي تقودها الشعارات وتستبد بها نزعة شمشمونية تدفعها إلى تدمير المعبد على رؤوسها ورؤوس الآخرين. صحيح أن هذه الحالة ليست جديدة، وصحيح أن الاضطرابات النفسية المجتمعية بدأت منذ سنة الغبار وقبلها أيضاً، وصحيح أننا جيل عانى كثيراً من القلق والهذيان الجمعي والسباحة في مستنقع الأوهام، لكنني لم أشعر في سابق حياتي كما بدأت أشعر خلال الأسابيع الماضية بضيق شديد وتوتر نفسي حاد دفعني إلى اتخاذ قرار الانزواء عن الخلق.

لا يمكن تشخيص مجتمعك وأنت تعيش بينه. لا بد من مسافة تكفي لرؤية المجتمع بوضوح، تماماً كما في حالة الفحص المجهري، أو النظر إلى الأجرام السماوية عبر التلسكوب إذ لا بد من ضبط العدسات واتخاذ مسافة دقيقة تسمح برؤية التفاصيل وتحديد درجات التباين.

هذا هو السبب الذي دفع كثيرين إلى الاختلاء بالنفس للوصول إلى درجات سامية من الصفاء الذهني ثم الكشف الذي يسميه المتصوفة التجلي. لا يمكن الوصول إلى النيرفانا وأنت تمشي في السوق وتخالط الناس الذين يبلبلون الأفكار ويشوشون الذهن.

في هذه المدرسة وبالقرب من ضريح الجزري ثلاث معتكفات يسمونها جلخانه، أي بيت الأربعين. كان بعض النساك يقضون في هذه المعتكفات أربعين يوماً يتفرغون للتأمل والتطهر الروحي بالابتعاد عن الناس في تجربة مماثلة لتجربة النبي موسى الذي انزوى بعد اجتياز البحر عن شعب بني إسرائيل أربعين ليلة حصل خلالها على الألواح المكتوبة بيد الرب.

"كلما خالطت الناس، زادت أدران روحك"، قالها لي مجاور الضريح قبل أن يغادر إلى بلده ويسلمني مفاتيح الحجرات في هذه المدرسة العريقة. لقد تسممت الأجواء، ولا يمكن للمرء أن يفصح عن تفكير حرّ أو رأي مخالف لرأي الحشود الهائجة وإلا فختم الاتهام بالخيانة جاهز في يد الجميع يدمغون به مؤخرة كل مخالف. لذلك كله قررت أن أحتمي بهذا الضريح وألا أغادره ولا أبالي بما يحدث خارجه بعد أن خزنت من الطعام المعلب ما يكفي مدة لا بأس بها.

أتاني الفتى حلمي، صلة وصلي بالعالم الخارجي، صباح اليوم بحقيبة صغيرة قال إنها هدية أرسلها صديقي الشاعر جمشيد قوسَري في ماردين مع أحد أقاربه. كان فيها ثلاث زجاجات من خمر ماردين الطيب.

- هذه ثلاثة كتب هدية من ماموستا[5] جمشيد، أتت بها أخته إلى بيتنا أمس.

5 Mamosta تعني أستاذ.

كان شيء ما يصدر رنيناً. صوت زجاج يتأوه. قلت متصنعاً بعض الدهشة وأنا أعلم بما في الحقيبة: ”كتب؟“

– نعم كتب. كتب حمراء سائلة مطبوعة على هيئة زجاجات.

قال حلمي بخبث ثم ولى ضاحكاً وهو يقول: ”إلى اللقاء قريباً يا أستاذ أحمد. لا تقرأ كثيراً من الصفحات. اليوم مساءً سيبدأ حظر التجول في الجزيرة. عليك أن تحتاط للأمر مثل الجميع“.

***

على مدى ساعة كاملة سرد وَيْسْ الشِرناخي قصته الغريبة على مسامعي. لم يبدأ بما حدث في بينارجك التي أرعبه مجرد ذكر اسمها، بل من كرور، قريته الصغيرة التي ”كان عواء الذئاب يؤرقها“ بتعبيره.

”أنا في الأصل من قرية أورتاباغ. هل سمعت بها؟ نسميها نحن گرُور. هي قرية صغيرة تحف بها الجبال ككل القرى هناك قرب الحدود مع العراق. ومثل سكان كل القرى جاء دورنا لندفع الضريبة“.

سألت بحلق جاف: ”ضريبة؟ ضريبة ماذا؟“

– دعني أتكلم ولا تقاطعني يا أستاذ. أنا لست روائياً مثلك ولا أستطيع ضبط مخيلتي على إيقاع أسئلتك. إن لم أسترسل في حكايتي، فسأضيع في متاهة التفاصيل العصية على الاستحضار والتذكر. دع النهر يختار مجراه بمشيئته.

أعجبتُ ببلاغته، سكتُّ فواصلَ يسرد.

”كل القرى دفعت الضريبة. إنها الحرب والحياد فيها انتحار. وعليك أن تدفع ضريبة موقفك لهذا أو لذاك. كل من في يده قطعة سلاح هو جابي ضرائب في الحروب وأنت بين خيارين: أن توالي هذا الفريق أو ذاك، أو في أحسن الأحوال تترك قريتك وراءك وتنزح إلى المتروبولات التركية حيث الضياع بكل ما يحمله الضياع من معنى. كان حظ قريتنا أنها اختارت جانب الحكومة وحملت سلاحها. هكذا قال المسنون ومختار القرية: الحكومة قوية، ونحن لا طاقة لنا بمواجهتها. إن استلمنا سلاح الدولة، فسنستطيع به الدفاع عن أنفسنا ضد

مقاتلي الحزب. أما إذا رفضنا سلاح الدولة، فهذا يعني أننا موالون للحزب آلياً، أي سنكون هدفاً لجيش الدولة القوي الذي سيجرد الحملة تلو الأخرى حتى يبيدنا عن آخرنا".

"برزت أصوات معارضة أيضاً. أتذكر جيداً النقاشَ الحامي الذي شهدته مضافةُ المختار من بيت ياقوت بعد رأس السنة بأسبوع. كنت أجلب الحطب كلما همد الكانون واستطعت أن ألتقط من أحاديث الرجال نبرة الخوف من المجهول القادم:

– لن نحمل سلاح الدولة. هذا عار. عار سيلطخ سمعة القرية حتى الأبد.

– ومن سيحمينا إذن؟ الدولة هي الطرف الأقوى. ونحن يهمنا أرواح أهل القرية لا شعارات هؤلاء المقاتلين المغامرين.

– إنهم ليسوا مغامرين. ولو كانت هذه الدولة تعترف بأننا شعب مثل الشعب التركي، ما حملوا السلاح.

– أفضل الحلول هو النزوح عن القرية كما فعل كثيرون.

– ننزح عن قريتنا؟ نترك أملاكنا وأراضينا وبيوتنا وقبور آبائنا وأجدادنا هنا؟ يا للعار! وإلى أين نذهب؟ نحن رعاة أغنام ومزارعون. لن يكون لنا موطئ قدم في إسطنبول أو أنقرة. ولا حتى في ديار بكر.

– لكن كثيرين ذهبوا.

– أتعرف ما مصير الذين ذهبوا؟ أصبحوا عبيداً لأصحاب المعامل. عتالين وماسحي أحذية ومنظفي مراحيض عامة، وحتى متسولين على أبواب المساجد. أيرضيكم هذا المصير يا قوم؟

– بالتأكيد لا.

ارتفعت أصوات الرفض كأنها جوقة موسيقية".

"طوال النقاش كان المختار يحشو غليونه البني الكبير، ثم يشعل تبغه بهدوء. يسحب الدخان إلى رئتيه بعمق وبعد ذلك ينفثه في السقف الواطئ بصمت. أما المجتمعون وبينهم أبي، فكانوا يناقشون الموضوع بصخب وعصبية كأنهم نسوا وجود المختار أو نسوا أنهم في مضافته".

”بعد ثوانٍ من صمت ثقيل سمعت صوت أبي: لم نسمع صوتك يا مختار أفندي؟

ضحك المختار. وضع غليونه على حافة المنفضة ثم قال وسحابة من الدخان تكاد تحجبه:

لقد عرضتم آراء كثيرة. واستمعت لكم باهتمام. ولكن الأمر قد قضي وانتهى الموضوع. سنستلم الأسلحة بعد أسبوع. اتفقت مع قائد الجندرمة في أولودَرَه على استلام خمسين قطعة سلاح: ثلاثين بندقية آلية مع ذخائرها وعشرين قنبلة يدوية. كل رجل في القرية سيحمل بندقية آلية ونوزع القنابل على من يريد. أنا أعرف أن هنا في المجلس من يمكن أن يوصل الموضوع إلى مسلحي الحزب. لكن ليكن في علمه وعلم الحزب أننا سنقتل كل من يقترب ويأتي صوب قريتنا. نحن لا نقدر على مجابهة الدولة. وليست لنا مصلحة في مجابهتها أصلاً. وأعتقد أن الحكمة تقتضي أن نواجه المغامرين القادمين من وراء الحدود“.

”همهم المجتمعون بكلمات مبهمة. أما نار مدفأة الحطب، فبدت أكثر إبهاماً. قلت لأبي: هل آتيكم ببعض الحطب؟

رد أبي: لا يا بني. سنترك المختار يرتاح. طابت ليلتك يا مختار أفندي“.

”ثم نهض فنهض المجتمعون معه. قال المختار وهو ينهض أيضاً لتوديع ضيوفه: لا تنسوا أن عرس ابني بعد أسبوعين. ولا تخافوا. لقد درست الموضوع من جوانبه كافة. نستطيع أن ندافع عن أنفسنا ضد أي خطر. هذا العرس سيكون جواباً لمن تسول له نفسه الاعتداء على قريتنا“.

”انفض المجلس. وفي الطريق إلى البيت أمسكت بيد أبي بينما أمسك الخوف بيدي الأخرى. تردد طوال الطريق صدى عواء الذئاب في الوادي. كانت تحمله الريح فيمتزج بصفيرها ويصبح المزيج ما يشبع صوت العفاريت.

الذئاب أشرس ما تكون في الشتاء، قال أبي فسألته: ولماذا يا أبي؟

– لأنها تجوع يا بني. حين يجوع الذئب يغير على القرى ويقتنص الخراف.

اقتربنا من البيت. كان قلبي يدق بعنف. لم يتوقف عواء الذئاب. طرحت سؤالاً على أبي: هل صحيح أن مسلحي الحزب إرهابيون يقتلون المدنيين؟

– ومن قال ذلك؟

– لا أحد. لكنني أسأل لأن أهل بعض القرى يستلمون أسلحة الدولة ويقولون إنهم بذلك يدافعون عن أنفسهم ضد الإرهابيين وها نحن في هذه القرية سنفعل كما قال المختار.

– الموضوع أعقد من ذلك يا بني. ربما لن تستوعب إن شرحت لك".

"وصلنا إلى البيت. خلع أبي معطفه الثقيل ووضعه بجانب المدفأة. كانت أمي وأخواتي نائمات.

أشعل أبي السراج فغمر النورُ الشحيحُ تجاعيدَ وجهه النحيل.

اسمع يا بني، قال بصوت خافت وهو يضطجع على سرير بجانب سريري ثم واصل حديثه: نحن لسنا ضد الحزب. لقد عشنا سنوات طويلة في الذل. وهذه الدولة الظالمة تستحق ألف ثورة عليها. لقد ثار آباؤنا وأجدادنا وسنثور أيضاً. صحيح أننا سنحمل سلاح الدولة وننضم إلى فصائل حماة القرى مع بقية القرويين ونتظاهر بأننا معهم. لكننا لن نقاتل شباب الحزب. إنهم أهلنا وإخوتنا ويقاتلون في سبيل حريتنا. ولكن إياك ثم إياك أن تبوح بحرف مما سمعته مني الآن. هل فهمت؟

لم أجب عن سؤال أبي. تظاهرت بأنني أنام. لكنني لم أنم. بقيت أصغي إلى عواء الذئاب التي خلت أنها باتت تحوم حول بيتنا المكفن بالظلام".

***

بدا وَيْسْ الشرناخي كاتباً يستطيع سرد الأحداث من ذاكرته بترتيب منطقي وبلاغة يفتقر إليها معظم كتابنا. شككت في أمره. قلت في سري: هو كاتب متنكر. ورغم أنه نبهني إلى ألا أقاطع حديثه كي لا أمنع تدفق أفكاره، قلت له: "هل صادفت ذئباً في القرية؟"

– الحياة ذئب يا رجل. ذئب بأنياب تمزقك دون أن تشعر.

صمت قليلاً ثم قال وهو يتنهد: "رأيت ذئباً يفترسُ تيسَنا المحبوب عَفْدالْ ذات مرة. لم يبقَ منه في نهاية الأمر سوى قرنيه وأظلافه الأربعة. بكت أمي كثيراً من أجله. كانت تضع ما تبقى منه أمامها وترثيه بمرارة الثكلى. لكن لم يكن مصيرنا أفضل من مصير التيس".

قلت له: ’’لنترك حديث التيس عفدال الآن. أخبرني عما جرى لكم في ما بعد؟ هل بقيتم في القرية؟‘‘

– نعم بقينا. ولكن ليتنا هجرناها قبل أن يحصل ما حصل.

– وماذا حصل؟

أخرج وَيْسْ علبة التبغ من جيب سترته. لف لنفسه سيجارة ثم مد العلبة إلي وقال مبتسماً: ’’لقد أثقلت عليك بحكايتي. خذ. لفَّ لنفسك سيجارة من هذا التبغ الطيب‘‘.

– شكراً أنا لا أدخن.

قلت له ثم كررت سؤالي: ’’وماذا حصل لكم بعد ذلك؟‘‘

نفخ سحابة من دخان أبيض صوب السماء البلهاء ثم خفض بصره وقال دون أن ينظر إلي: ’’في يوم الخميس الثاني والعشرين من كانون الثاني قبل ثمانية وعشرين عاماً، ارتدت التلالُ القريبة فستاناً ثلجياً، بينما عزفت الذئاب عواءها المخيف على امتداد العراء الناصع في الجهات الأربع. وفي الطريق إلى العرس أمسك الخوف بيدي مرة أخرى. كان أبي يمشي بموازاتي يحاول ضبط إيقاع خطواته الكبيرة على إيقاع خطواتي الوَجِلة المتقاصرة. قال لي بعد أن مشينا قدراً لا بأس به من الخطوات المتناقضة صوب بيت المختار: أتعرف يا بني لماذا حملنا سلاح الدولة؟ قلت: لا يا أبي. لماذا؟ قال: لأن الدولة ظالمة بما لا يُقاس. ولو رفضنا سلاحها، فستقوم بقتلنا أو في أفضل الأحوال تشردنا من القرية. أما الرفاق فإنهم يكافحون من أجلنا. إنهم ضد هذه الدولة التي حرمتنا كل شيء. يقدمون أرواحهم رخيصة في سبيل استقلالنا. لقد قرأت بعض منشوراتهم حينما سافرت ذات مرة إلى الجزيرة. هؤلاء قاوموا فاشية إيفرين وجلاديه في سجون ديار بكر مقاومة لا تليق إلا بالصخور البازلتية التي تقاوم الرياح بكل جبروت. هل رأيت صخور البازلت؟‘‘

’’مشينا بضع خطوات دون كلام. فكرت في كلمة البازلت. لم أكن قد سمعتها قبل ذلك. قلت له بعد موجة تفكير خاطفة: لا يا أبي. ما هو البازلت؟

لاح لنا بيت المختار مضاء مثل لؤلؤة. سمعنا أصوات الطرب والغناء وصيحات الحاضرين‘‘.

"قال أبي: البازلت صخر صلب وقاسٍ وأسود اللون. هذه الصخور قاومت ملايين السنين وبقيت كما هي. الشباب الذين أحدثك عنهم من طينة هذا البازلت. قاوموا كل أساليب التعذيب وصمدوا. ماتوا ولم يعترفوا بشيء أو يتنازلوا عن شيء. لا تصدق يا بني إعلام الدولة. إنهم يرون هؤلاء الشباب الذين يضحون بأرواحهم من أجلنا إرهابيين ويريدون تقسيم البلاد. يسمون استقلالنا ببلادنا تقسيماً لبلادهم".

اتسعت حدقتا وَيْسْ الشرناخي ورأيت فيهما أضواء نهار كئيب. لمحت يوماً مغبراً وسماء كالحة وحزناً وقهراً وحيرة ورغبة في الانتقام. رأيت شراً يلمع مثل الشرر حين واصل حكايته: "عدت من العرس وحيداً إلى البيت".

لمعت عينا ويس. لم تكن دموعاً بل غضباً سال من عينيه وحفر كالسكين أخدودين على وجنتيه. ثم رأيته يجهش ويرتجف ويغمض عينيه على ما فيهما من قهر وغضب ليواصل الحكاية.

"تصاعدت أصداء الموسيقا ورقص الحاضرون على أنغام أغنية لم تغادر ألحانُها أذني إلى الآن. رأيت الألحان مثل فراشات تتراقص حول مصابيح النيون. كانت ألحاناً تشبه غمامات ملونة. وكان أبي سعيداً يضحك ويوزع الابتسامات على من حوله من أهل العريس. لم يكن هناك خلق كثير، فالقرية صغيرة والناس يخافون من التجمعات الكبيرة. فجأة سمعنا صوت فرقعة هائلة. كان آخر ما رأيته كتلة من اللهب كالغولة تلتهم الراقصين. وكان آخر ما سمعته من كلام أبي صرخته المدوية وهو يناديني مرعوباً: اهرب، يا ويس".

"دخن يا صاحبي. ألا تدخن؟ سأدخن أنا. ألا أزعجك بثرثرتي ودخاني؟ يبدو عليك أنك تشرب كثيراً من النبيذ. هيه. من عينيك أعرف ذلك. أرى فيهما كروماً وعناقيد سوداء"، قال وَيْسْ مقاطعاً سرده بنفسه، ثم استمر يدخن بشراهة حتى ملأ الأجواء بالدخان وصار يلاحق حلقاته بعينيه المغرورقتين بالغضب. لمحت على وجهه شعراً كثيفاً لم ألاحظه من قبل. لم أعر ذلك اهتماماً. كنت متشوقاً لسماع بقية حكايته.

"هربت. هربت صوب البيت كالمجنون. لا أعرف إلى الآن كيف اهتديت إلى البيت في ذلك الظلام. مررت في طريقي بوديان عميقة أسمع منها عزيف الجن. وعلى رؤوس

الهضاب رأيت غيلاناً ترقص. الثلج. الثلج. أواه كم كان قاسياً ثلج تلك الليلة! عدت وحدي. ذهبت مع أبي إلى العرس وعدت وحدي تائهاً مرعوباً. اكتشفت في البيت أن عضوي الذكري قد سقط مني خلال الانفجار. سرقت المجزرة القحبة أيري. انتبه إلى أيرك يا عزيزي. هذا وطنٌ يسرق الأيور. وطنٌ لصٌّ. هل تفهمني؟ لماذا لا تدخن؟''

الإثنين 7 أيلول 2015

اشتدت الاشتباكات بعد الظهر حتى ظننت أن القتال اندلع في صحن المدرسة. منذ بدء الحظر أسمع أصوات طلقات واشتباكات متفرقة خفيفة لكن اليوم كان مختلفاً. لا أعرف ما الذي يحدث. من الواضح أن معركة شرسة نشبت حتى المساء في حي الجودي القريب مني. على بعد شارع واحد، يقع هذا الحي الكبير الذي نشأ بعد نزوح الناس من قراهم الآمنة عقب سنة الغبار. يقطنه النازحون والفقراء وهم مؤيدون للحزب بطبيعة الحال.

تخلل الرشقات المتقطعة من الرصاص عويل النسوة، عويل مرعب جعلني ملتصقاً بالضريح أخشى مغادرته حتى إلى الباحة. امتلأ الهواء الحار بالعويل والرعب ورائحة الموت. أثقل اليأس كاهل الهواء المرهق فبدا كأنه توقف عن الحركة بعد الرشقة الأخيرة.

''قتلوها. قتلوها. قتلوا جميلة. قتلوا جميلتي. قتلوا طفلتي يا نااااس''، ارتفع صوت امرأة من بعيد يهشم زجاج الهواء الساكن.

ترى من هذه المرأة المنكوبة التي تصرخ كذبيحة؟ ومن جميلة؟ وأي أسى عميق حملته تلك العبارة النادبة! قتلوا جميلة؟ كانت لي تلميذة لطيفة وخجولة اسمها جميلة. ربما تكون هي! من يدري؟ فالرصاص لا يميز. لا يتحاشى الجميلات ولا يأبه للتلميذات. الحرب تقتل الجمال أول ما تقتل. الحرب بشعة قبيحة. فيروس يقضي على كل بهجة. والكتابة ضد الحرب هي رد اعتبار للجمال. الكتابة ضد الحرب وعنها استعادة للبهجة الموءودة ومع ذلك رصاصة واحدة تؤثر أكثر من رواية. رصاصة مفردة تخترق قلبَ بريء أو بريئة تمحو أثر سنوات من

الحب والحياة والطموح. رصاصة تافهة لا تزن أكثر من سبعة غرامات بطول سنتيمترين توقف إلى الأبد قلباً كان يضج بالحياة والأمل.

ليس الوجه الحقيقي لتاريخ الإنسان سوى سيرة أزلية للقتل.

مات هابيل قتلاً بحجر هشم رأسه ولم يبقَ على وجه الأرض سوى نسل قابيل مخترع القتل ومدشن الخراب.

***

لن أكتب حرفاً آخر هذا اليوم بعد أن غلفني التشاؤم وحولني إلى شرنقة يأس هذا المساء. لن أحتسي النبيذ أيضاً. سأربط فرس الذاكرة بأوتاد الصحو، سأمنعها من مغادرة حظيرة العقل إلى براري الخيال. سألجأ إلى الشعر، ملاذي الأثير كلما ضاقت نفسي وضجرت من الحياة. سأقرأ ديوان الجزري لعل طيفه يتراءى لي. سأقرأ قصيدته الرائعة: "نأى بي الدهر عن محبوبتي"، وأترنم بها كما ترنم بها أحد المنشدين بإيقاعات بالغة الروعة ولحن انسيابي مؤثر ذات أمسية في الربيع الماضي حضرتها مع صديقي الشاعر جمشيد قوسَري في بيت رجل يهيم بشعر المتصوفة. سأمحو الحزن الذي يعتريني منذ ظهيرة هذا اليوم بالشعر فجمال الشعر وحده يخفف من قبح الحرب.

سأقرأ شعر الملا وأطرز رداء الليل بحروفه النورانية. أعرف أن ذلك لن يعيد الرصاصة التي قتلت جميلة بعد أن غادرت فوهة البندقية. ما من رصاصة تعود أدراجها في منتصف الطريق. ما من رصاصة تندم.

الخميس 10 أيلول 2015

أسبوع كامل مر على بدء الحظر الكلي. سبعة أيام قضيتها بين تأمل في النفس وأوضاع البلاد، ومطالعة بعض الكتب، ومراجعة ما كتبته من فصول

الرواية، وكذلك مراجعة فقرات من سيرتي الذاتية. لم تكن في نيتي أصلاً كتابة سيرتي فالوقت مبكر على ذلك. أردت فقط أن أكتب يومياتي في هذا المعتكف، وأردت أن أصبح شاهداً على ما يجري في هذا المفترق الحاسم من تاريخ المدينة والبلاد المغبرة برمتها. أردت أن أرسم لوحة صادقة للأوضاع ليس من باب التأريخ فأنا لست مؤرخاً لكن على سبيل التوثيق وتسجيل ملاحظات مهمة قد تكون مادة خاماً لكتابة رواية قادمة. لم يخطر على بالي أبداً وأنا أنقل مكتبة صغيرة وجهاز الكمبيوتر المحمول وألجأ إلى حمى هذا الضريح المقدس أن أعود إلى ماضٍ قاسٍ وحزين ومفعم بالأمل الخادع لكن الوحدة اللذيذة نشطت ذاكرتي كثيراً. أغراني ذلك باستعادة شريط الأحداث التي مرت عليّ والأيام السالفة التي وضعت أساس البنيان المائل ولم تكن سوى مقدمة لهذه الأيام الصعبة التي نعيشها في الحصار والقلق والمجهول الذي زجَّتنا به قيادة الحزب.

انتصف الليل وطمر السكونُ المدينةَ من جديد. وكل سكون صخبٌ مؤجل. ليس سوى خداع سمعي، طبقة رقيقة من الرماد تخفي تحتها جمراً متوقداً، ماء عميق تخفيه طبقة من التبن كما في المثل الدارج. أنا لا أعرف ما الذي يجري خارج صومعتي. ما من معلومات تتسرب عبر جدار العزلة إلا أخبار شحيحة متضاربة مما أقرأه في الإنترنت. صعب جداً أن نسحب شعرة الحقيقة من عجين الصحافة والإشاعات. يتجاذب المرء في هذه المعمعة مغناطيسان بقوة هائلة، ففي هذا الطرف خطاب مهترئ يطرح كالعادة آمالاً عراضاً وشعارات كبيرة تلهب حتى حماسة الموتى وعلى الطرف المقابل خطاب السلطة المقيت البالي نفسه: مجموعة من الإرهابيين تحاول زعزعة أمن واستقرار البلاد! لا الدولة تجدد خطابها الفاشي المتعجرف وتحاول البحث عن علاج دائم بعيداً عن المسكنات التي فقدت مفعولها ولا الحزب يجدد خطابه الثابت الذي لم يعد يقنع كثيراً. إنه صراع بين خطابات متضادة قبل أن تكون معركة حق وباطل. ما يجري الآن ليس سوى تجليات دموية لتصادم

بين خطابين: خطاب سلطة فاشية المنشأ لا منطق فيه ولا يعترف بالحقيقة التاريخية، وخطاب حزب شمولي يعتمد على بيع الوهم ويعيش على نشر ثقافة الموت.

***

قرأت قبل قليل تفاصيل عن عائلة فقدت طفلتها الصغيرة في الحصار. الآن فهمت سِرَّ تلك الصرخة المرعبة قبل ثلاثة أيام. إنها جميلة إذن، جميلة التي مزقت صرخة أمها هواء الجزيرة حين قتلت ابنتها بطلقة طائشة أو طلقة قناص خلال الاشتباكات بين المقاتلين وجنود الدولة. لم يكن هناك مجال للدفن وخشيت العائلة من تفسخ الجثة في حرارة أيلول فدفنتها في ثلاجة كبيرة.

مشهد مرعب فعلاً. كيف تعيش عائلة مع طفلة قتيلة في ثلاجة تحولت إلى قبر؟

صحافة الدولة والمواقع التركية الرسمية والشعبية كلها تشكك في الموضوع. تقول عن الصورة المنشورة في تويتر ومنصات التواصل الاجتماعي الأخرى إنها فبركات. يقول موقع إنترنيتي قريب من الدولة: الصورة من غزة الفلسطينية. لقد تعرفت إلى الصورة. إنها تلميذتي. تلميذتي الخجول والبهية جميلة.

تلميذة صغيرة تقتل أثناء الاشتباكات يضطر أهلها بسبب الحصار الخانق وحظر التجول إلى دفنها في ثلاجة منزلية! لا يحدث هذا إلا في إسرائيل. هكذا تريد الصحافة أن تقول حين تشكك في الموضوع. الصحافيون لم يأتوا ليتأكدوا كما هي العادة في التقارير الصحافية الميدانية فكيف عرفوا أن الحادثة وقعت في غزة وليست في جزيرة بوطان؟ الصحافة المهرجة في هذا البلد تزيد البلبلة وإثارة الغبار لإخفاء الحقيقة.

الليلة أيضاً ليست عندي شهية للكتابة. سأكتفي بقسط من المطالعة في انتظار الصباح.

هل هي قفلة الكاتب التي تعتريني أثناء كتابة رواياتي مرتين على الأقل؟ هل هو الحدث العظيم الذي لا بد أن يعقبه سكون عظيم يشاكله؟

السبت 12 أيلول 2015

استيقظنا صباح الجمعة في الثاني عشر من أيلول 1980 على صوت الراديو يذيع مارشات عسكرية من الإذاعة في أنقرة.

قال أبي المهندس وهو يصغي بانتباه وقلق إلى جهاز الترانزستور الصغير: ”انقلاب عسكري“.

سألته: ”ماذا يعني انقلاب عسكري يا أبي؟“

فقال بامتعاض شديد: ”يعني أننا سنأكل من الخراء نفسه الذي أكلناه قبل تسعة أعوام وأيضاً قبل عشرين عاماً حين انقلب العسكر لإيقاف المد اليساري“.

حدث ذلك الانقلاب العسكري الذي اشتهر في ما بعد بانقلاب أيلول، بعد أشهر من رحيل الشاه الإيراني عن حكم عرش السلطنة في إيران. لم أفهم كثيراً سبب نفور أبي من الانقلاب. لكن ما حدث بعد ذلك كان كفيلاً أن أستوعب كل شيء.

***

استيقظنا، واصل وَيْسْ الشرناخي حكايته، صباح يوم الجمعة في الثاني عشر من أيلول عام 1980 على صوت الراديو يذيع مارشات عسكرية.

قال أبي وهو يستعد للذهاب إلى المضافة:

”انقلاب عسكري“.

سألته: ”ماذا يعني انقلاب يا أبي؟“

فرد حانقاً: ”يعني أن بقية العجول سوف يتم إخصاؤها“.

”كنت طفلاً صغيراً أرتاد مدرسة القرية. لم أفهم ما يقصده أبي الحانق من استعارته البليغة تلك. إخصاء العجول؟ بقيت ساهماً. كان عندنا عجل يثب بسعادة هنا وهناك فتتراقص خصيتاه ذات اليمين وذات الشمال مثل الجرس المعلق بعنق المرياع الذي يقود القطيع. لم أفهم ماذا يعني إخصاء عجل. لكنني فهمت ذلك في عرس ابن المختار بعد سبع سنوات“.

”بعد أيام من مقتل والدي في ذلك العرس المشؤوم الذي تبين أن الذين قاموا بإلقاء القنابل فيه هم رفاق الحزب الذي كان يؤيده والدي دون غيره من رجال القرية عرفت أنني مخصي. كلمة المخصي ربما لا تفيد المعنى كثيراً، لأن خصيتيَّ بقيتا في محلهما. لكن لم يعد يحدث

معي انتصاب منذ ذلك الوقت إلى الآن. أما ثورنا الذي كان عجلاً أيام الانقلاب، فلم يعد يهتم بالوثوب على البقرات. ما عاد يشغله من أمر سوى الرعي في الحقول القريبة واجترار ما رعاه ثم طرح الروث وراءه بسخاء كبير".

سكت وَيْسْ الشرناخي قليلاً بعد أن سرد واقعة انقلاب أيلول التي قادها الجنرال كنعان إيفرين وعشت أهوالها بنفسي ثم أشعل لفافة جديدة من لفافته القديمة المشتعلة. رمى عقب السيجارة الأولى. سحقها برأس حذائه بتوتر ووضع الجديدة بين شفتيه ثم قال: "هجرنا القرية جماعة. اتجهت وأمي وبقية العائلة صوب الجزيرة. لم نكن نعرف أين يجب أن نستقر. قالت أمي: أقاربنا في ماردين سنذهب إليهم. سيساعدوننا بلا شك. هناك، أي في ماردين، لم أجد عملاً سوى رعي الأغنام في الصيف. وعملت أمي في ورشة محلية للخياطة لتصرف على البيت وعلى دراستي".

***

"لم تكن شواربي قد نبتت بعد. كنت سعيداً بنجاحي في المدرسة وأمني نفسي بدراسة الليسيه (البكالوريا) في السنة التالية وبعدها دراسة اللغة الفرنسية في جامعة دجلة".

"كان صيفاً حاراً مغبراً لا تكاد تظهر فيه السماء بسبب كثافة الغبار".

"رأيتهم بعيني هاتين. كنت على حدود القرية. وكنت قد ابتعدت عن قطيعي قليلاً. تيسٌ صغير مشاكس انفصل عن القطيع وذهب باتجاه القرية. أبعدته مرات عدة وأعدته إلى القطيع لكنه صار يعود في كل مرة ويتوجه صوب القرية. قلت لنفسي: في الموضوع حكمة خافية علي. هذا التيس يريد أن يقول شيئاً. بعد غروب الشمس بنحو ساعة ونصف فوجئت بحركة غريبة. نظرت إلى النجوم فرأيتها ترتجف. شهب كثيرة لمعت في السماء".

"التيس المشاكس ظل على حاله: يهرب فأركض وراءه وأعيده إلى القطيع. حتى رأيت الجن ينزلون من السماء بحبال غليظة. كانوا كثيرين. حاولت أن أحصيهم لكن الخوف نصب خيمته السوداء فوقي ومنعني من إمكانية العد".

"امتلأ الجو بالجن، هبطوا على الأرض كطيور خرافية بمناقير بشعة ملطخة بالدم وأشلاء من لحم الفريسة ثم رأيتهم يحاصرون القرية من ثلاث جهات. كانوا هم أنفسهم الذين دهموا قريتنا أورتاباغ ليلة العرس الدامية. كانوا هم أنفسهم الذين رموا القنابل عبر المدخنة فانفجرت بنا في أورتاباغ وقتلت أبي وبضعة رجال ونساء آخرين".

"كنت قريباً جداً منهم. خبأت نفسي وراء صخرة ورحت أرقب بفضول الخائف ما سيحدث لاحقاً".

"تقدمهم قائدهم إلى القرية. كانت شواربه تتدلى من فوق شفته العليا لتصل إلى ركبتيه كغصنين من شجر الصفصاف الحزين. لم أجد في حياتي شوارب ثخينة ولا طويلة كتلك. كان يمكن أن أربط بها تيسي المشاكس دون أن أخشى عليه من الضياع".

"سارت عربة الشمس الذهبية ببطء على إسفلت السماء الأزرق حتى مالت ظلال الشجرة التي كنا، أنا وذلك الرجل، نجلس تحتها".

"لم أصدق ما تراه عيناي. كانت الظلال تتمدد مثل مناديل أو بسط حمراء. نظرت إلى ثيابي فوجدتها رطبة مبقعة باللون الأحمر. لمستها فشعرت ببلل على أصابعي. وحين أمعنت النظر رأيت رؤوس أصابعي حمراء كأنني غطستها في الدم أو صبغتها بالحناء. كانت الشجرة ترمي ظلالاً دامية على التراب الذي يتأوه من الحر".

"ظلال من دم!" قلت بصوت مسموع. لم يكترث صاحبي لما أقول. وضع زجاجة الماء في يده، وقلبها مرات عدة وواصل الحكاية.

"كانوا يصيحون وهم يتقدمون صوب القرية. سمعت ما يقولون. رأيت أصواتهم. نعم. لا تستغرب يا ابن العم. رأيت أصواتهم فهناك أصوات يمكن رؤيتها تماماً كما أن هناك ألواناً يمكن سماع صوتها".

تراءى لي أن الرجل الذي أمامي مصاب بلوثة عقلية ما، ومع ذلك سألته: "أصوات تُرى وألوانٌ تُسمع؟"

"دعني أكمل قصتي واحكم بنفسك"، قال الرجل واثقاً فاضطررت لسماعه وقلت بنبرة اعتذار: "أنا لا أكذبك. لكنني أستغرب. فأنا لم أسمع في حياتي بشيء من هذا القبيل".

– اسمعني الآن إذن. ما زلت تحيا يا رفيق. أقول لك لكيلا تعيد هذا الكلام السخيف أنك لم تسمع. اسمع واحكم.

"رأيت الشعارات تنطلق من أفواههم مثل رذاذ دموي. رأيت أصواتهم تتطاير في الهواء الثقيل ذلك المساء الدبق. وصلوا بعد قليل إلى حافة القرية الغارقة في الصمت. أعرف أبناء بينارجك واحداً واحداً. كانوا كل مرة حين أسرح بالغنم في محيط القرية يدعونني إلى شرب الشاي المهرَّب من القامشلي على الجهة الأخرى من الحدود. أحياناً كان أحد القرويين يرسل إلي مع طفله زوادة من خبز التنور والجبن وبعض الخيار في سلة قش صغيرة. كان ذلك الطفل الصغير، واسمه عَبْدين، يحدثني عن أمانيه الكثيرة، وعن مدرسته التي يكرهها، وعن دجاجته الشقراء التي تبيض بيضاً أكبر من رأس أخته الرضيعة كما يقول. كان أهل القرية ناساً بسيطين يعقدون في الليل مجالس سمر يغنون فيها بالكردية والتركية ويتبادلون النكات والقصص عن القرى المجاورة. كانوا ناساً شبه أميين ولم يكن لهم ذنب سوى أن الأقدار رمتهم كحجر نردٍ في بقعة ساخنة كأنها فوهة بركان. أجبرتهم الدولة كما أجبرت كثيرين من قرى أخرى على حمل السلاح. أتعرف ما معنى أن تجبرك الدولة على شيء؟ بالتأكيد تعرف فأنت لست غريباً عن هذه الدولة التي تغتصبنا من الخلف وقياماً وقعوداً وعلى جنوبنا منذ شنقوا الشيخ سعيد عند باب الجبل في ديار بكر".

لم أكن بحاجة إلى أن يحدثني أحد عن تلك السنوات السوداء. فأنا الشاهد على ما جرى وأنا ضحية ما جرى. أنا ممن ساهموا في تسطيح العقول وانجررت خلف القطيع. تلك كانت أوقاتاً مظلمة غارقة في وحشية استثنائية. لم يكن أمام سكان القرى الكردية سوى أحد سبيلين: إما أن يحملوا سلاح الدولة ويصبحوا قوات رديفة للحكومة التي سمتهم حماة القرى، وإما أن يهجروا قراهم ويبحثوا عن ملاذ آمن في المتروبولات التركية في الغرب. لم يكن الحياد ممكناً. لا حياد في الحروب. إما مع هذا الفريق وإما مع ذاك. لا أحد يقبل منك الحياد. الحياد جريمة يعاقبك عليها طرفا معادلة الحرب البشعة. نزح الملايين إلى إزمير وإسطنبول وأنقرة وغيرها من مدن تركيا الغربية التي كانت تنعم بالسلام بعكس الشرق الملتهب. لم يرحم الحزب أولئك الناس الذين فضلوا البقاء أو لم يجدوا سبيلاً إلى النزوح فأجبرتهم الدولة على

حمل سلاحها. أرهبهم الحزب أيما إرهاب. أغار مسلحوه على القرى القصية في الشعاب والوديان الوعرة وصاروا يقتلون ويحرقون القرى بدعوى خيانة أهلها مثل الثورة وقيمها. هاجموا المدارس بدعوى أنها مراكز للصهر القومي والتتريك. قتل بعض المعلمين وهرب كثيرون وانقطعت الدراسة.

– يريدون تفشي الجهل ليسهل لهم السيطرة على العقول وتجنيد أكبر عدد من المقاتلين.

– لكن ما يقولونه صحيح يا أبي. هذه المدارس بنظام التعليم الأتاتوركي فيها تخنق هويتنا المختلفة.

"لكن يا بني هل جاؤوا ببديل عن هذه المدارس؟ هل رأيتهم أنشؤوا مدارس سرية لتعليم اللغة الكردية؟ هل لديهم منهاج مدرسي بالكردية؟ هل لهم خطة بديلة أم أن الثورات تلزم المجتمعات بالجهل؟" قال أبي في أحد نقاشاتنا التي لم تكن لتنتهي أبداً. أعتقد أنني رددت عليه وقتذاك بما تم تلقيننا به في اجتماعاتنا السرية: "الحرية على الأبواب. وعندما تستقل بلادنا سيأتي كل شيء". وقع الناس بين فكي وحش مفترش أنيابه العلوية جنود الجيش التركي، وأنيابه السفلية مسلحو الحزب الكردي. قتل الآلاف سواء في المعارك أو في تصفيات باسم فاعل مجهول في أزقة المدن المنكوبة. هرب الملايين واعتقل المئات ومات كثيرون تحت التعذيب. في الجبال، كان الحزب يذبح الخراف القادمة حديثاً على مذبح الحرية بسكين الثورة في حرب صامتة لم يسلط عليها الضوءَ أحد.

آه لو كانت للجبال ألسنة! آه لو نطقت الجبال! لروت آلاف الحكايات المرعبة.

***

لاحظت بعد صمت قصير أن شعراً كثيفاً يغطي وجه وَيْسْ ورقبته وذراعيه. لم أرَ هذا الشعر حين بدأ حديثه. هززت رأسي يميناً ويساراً كأنني أحرر نفسي من سكرة لعينة. لكن الشعر النابت على جسم محدثي كان حقيقياً. ما الذي يجري هنا يا رب! هل كان الرجل مشعراً إلى هذا الحد حين بدأ الحديث، أم أن النبيذ السرياني المعتق الذي جلبت معي أربع زجاجات منه، وشربت مع صديقي الشاعر جمشيد قوسَري قبل أن

أستقل الحافلة ثلاثة أقداح مترعة في مقهى بماردين يطل على السهل الجنوبي الفسيح، هو الذي جعلني أتوهم أشياء لا تحدث في الواقع؟

"فجأة دوت أصوات الطلقات. رأيت الأزيز فوق القرية. نعم. رأيت أزيز الرصاص بعيني ولم أسمعه فقط. كان أزيزاً يشبه سرب جراد مخيماً على القرية المسكينة، بل كان يشبه زوبعة غبار عملاقة مرعبة تلف وتدور بسرعة هائلة. رأيت الأزيز الكثيف يحجب نور الشمس عن القرية. كذلك رأيت من مكمني وأنا أحبس أنفاسي صديقي الطفل عَبْدين، ذلك المسكين الذي كان يأتيني بالخبز والجبن أحياناً، رأيته يحاول الهرب وبيده سلة القش الصغيرة لكن رصاصة سريعة صرعته. وقع عَبْدين على وجهه، ثم أصابته طلقة أخرى فانتفض قليلاً وهمد بعدها. رأيت دماءه ترسم هالة حمراء فوق جثته. سمعت عواء تلك الهالة كأن ذئباً جريحاً يعوي في برية ثلجية. رأيت عويل النساء. كان يشبه دهاناً أسود، قطراناً يندلق على عراء ثلجي".

توقف وَيْسْ المشعر. سمعت لهاثه قادماً من أعماق رئتيه. ثم مد إليَّ علبة تبغ وتابع: "أرجو أن تلف لي سيجارة. يداي تصلبتا".

كانت ذراعه مغطاة بغابة من الشعر، شعر أسود غليظ لم أشاهده حين اختطف مني قنينة الماء في بداية الحديث. دفنت رعبي في تربة شجاعتي الهشة ولففت السيجارة ببطء بينما واصل وَيْسْ حكايته بإيقاع أكثر تسارعاً.

"حين رأيت صديقي الطفل عَبْدين يخر صريعاً وسلة القش تتدحرج بعيداً عنه خفت وأردت الهرب. نظرت إلى قطيعي فرأيته يرعى بهدوء. بين فينة وأخرى كان أحد التيوس يرفع رأسه ويحدق صوب القرية لكنه سرعان ما ينحني على الكلأ يرعاه بصمت وحبور. لم أرفع بصري عن الفتى المسكين عَبْدين. رأيته يتحول إلى عُقاب. شاهدته يقف على قائمتيه وينظر إلى السماء ثم يصفق بجناحيه ويطير. استمر إطلاق الرصاص ثلاثاً وثلاثين دقيقة. طار خلالها ثلاثة وثلاثون عقاباً صوب السماء المغطاة بأسراب جراد أصفر. قتل كل من كان في القرية. حتى الأبقار والكلاب والقطط والدجاجات والأرانب والفئران. ثم ارتفعت

أعمدة الدخان ملتوية تتراقص بمجون فوق البيوت. رأيت أولئك الجن يعودون بشوارب تقطر دماً. بدوا سعيدين بنصرهم الكبير".

انتهيت في هذه الأثناء من لف السيجارة وقدمتها إلى الرجل العجيب وّيْسْ. حين مد يده والتقطها جفلت من الرعب. غابت أصابع يديه. ورأيت في نهاية كل ذراع بدل الكف المنتهية بخمسة أصابع ظلفاً أسودَ مشقوقاً في منتصفه. نفضت رأسي مرة أخرى لعلي أصحو مما أنا فيه. وحين نظرت إلى قدميه رأيت أيضاً ظلفين مشقوقين لا قدمين آدميتين. لم ينفعني نفض رأسي الحائرة في تبديد غرابة المشهد.

***

بالتأكيد ليس لما رأيته من أمر وَيْسْ الشرناخي في تلك الظهيرة اللعينة علاقة بأقداح النبيذ السرياني المعتق التي احتسيتها مع صديقي الشاعر الصعلوك في الحانة الماردينية. أنا أسكر حتى يتعتعني السكر بل كنا، أنا وصديقي، نتبارى من يشرب أكثر حتى الصباح ونحن نرقص. أنا مهما سكرت، أرى الناس ناساً عاديين. تبقى حاسة البصر قوية عندي لا يؤثر فيها السكر بعكس حاسة الشم التي أفقدها تماماً. لا يتحول الإنسان أمامي إلى قرد مثلاً حين أشرب بإفراط. ربما تفعل حبوب الهلوسة بالإنسان مثل هذه الأمور. لكن ويساً تحول أمامي إلى كائن مشعر في الحقيقة. لم أكن أتخيل أبداً. أنا أميز بين الخيال والواقع حتى في أشد لحظات سُكْري. رأيت كيف أن وجهه بدأ يستطيل حتى انتهى بلحية مدببة مقرفة ثم رأيت أذنيه تمتدان على جانبي رأسه تحت قرنين ممتدين إلى الخلف كخنجرين معقوفين والشعر يغطي كل جسمه. تحولت أطرافه إلى قوائم أربع منتهية بأظلاف مشقوقة وفجأة انتصب أمامي تيس أسود الشعر وصار يحملق نحوي بنظرات مخيفة. لم يكن أمامي من مجال سوى الهرب. إنه كابوس. قلت لنفسي أخفف وقع ما أراه. لكنه لم يكن كابوساً. كان تيساً حقيقياً يلاحقني وينظر إلي بعينين

شريرتين. يخفض رأسه ويتوقف ثانية متراجعاً إلى الوراء كأنه يريد أن ينطحني ثم يواصل ملاحقتي حتى وصلت إلى الطريق العام. رأيت هناك حافلة قادمة من جهة ماردين. ركضت صوبها حتى وقفت وسط الطريق ورفعت يدي لها. فرمل السائق بقوة فتوقفت الحافلة مثيرة غمامة من الغبار ابتلعتني للحظات. فتح أحدُ الركاب بابَ الحافلة فرميت نفسي فيها على عجل وأغلقت الباب خلفي وأنا أكاد أموت من الرعب.

***

التقطت أنفاسي بعد أن جلست على المقعد الخلفي الفارغ بجانب النافذة. سمعت صوت أغنية قديمة أعرفها من أيام الجامعة في تسعينيات القرن الماضي. كان السائق المتجهم يهز رأسه على وقع أنغامها الحزينة بينما الآخرون لا يأبهون لشيء. كانوا ثلاثة شباب وفتاة وكل واحد منهم ينظر من خلال الزجاج القذر الشاحب إلى جانبي الطريق بملل واضح. استطعت أن أميز بسهولة صوت المطرب التركي فردي طيفور يغني بصوته الكريستالي الباكي الشجي أغنية "الحب مثل الوردة"[6]. كانت تلك أغنية أثيرة لدى أبناء جيلي قبل ثلاثين عاماً تقريباً، أغنية ربما نسيها الجيل الحالي وتنتمي إلى أغنيات الأرابسك التي اشتهر بها العديد من المطربين الأتراك في تلك المرحلة.

6 Sevgiler Cicek Gibi.

سرعان ما استوعبت ملامح الفضاء الضيق الذي وجدتُني محشوراً فيه: حافلة قديمة بمقاعد جلدية قاتمة اللون يعلوها الغبار وذكرتني بالحافلات التي كانت تقلنا من الجزيرة إلى ديار بكر في أيام المرحلة الجامعية حين كنا نقضي الساعات الطويلة في الطريق مروراً بحواجز الجيش التركي المخيفة. كل شيء أعادني إلى 1987 حين كنت أدرس الأدب التركي في جامعة دجلة بديار بكر.

انتهت الأغنية القديمة فصدح صوت المذيع التركي يعلن موعد موجز الأخبار من أنقرة.

''هنا أنقرة. إليكم موجز الأنباء. اجتمع رئيس الجمهورية السيد كنعان إيفرين مع وفد من الصناعيين. وقد ضم اللقاء كلاً من رئيس الوزراء السيد تورغوت أوزال ووزير الصناعة والتجارة السيد حسين جاهد آرال وبحث المجتمعون سبل تطوير الصناعة التركية وإيجاد أسواق خارجية للصناعات المحلية''.

مضت ثوانٍ قليلة ظننت خلالها أن أذني أخطأتا السمع لكن المذيع استمر في تقديم الموجز وهو يتحدث عن الرئيس إيفرين ولقاءاته وعن أخبار مضى عليها نحو ثلاثين عاماً. والرئيس الذي جاء بانقلاب دموي مات قبل أيام عن عمر قارب المئة عام فهل جُنَّ المذيع؟ ثم إن إيفرين ترك الرئاسة عام 1989 فأي أخبار أسمعها الآن في هذه الظهيرة المجنونة؟ ألجمتني الدهشة. ومما زاد دهشتي أنني لم أشاهد علامات الاستغراب على ملامح ركاب الحافلة الصغيرة التي كانت تسير بسرعة متوسطة يحفها الغبار الكثيف من الجانبين.

سأستفسر من السائق، قلت في نفسي لكنني سرعان ما ألغيت الفكرة وطرحت سؤالي على شاب يجلس في المقعد الذي أمامي مشغولاً بالنظر عبر النافذة إلى الغبار الذي يحجب رؤية الأفق: ''عفواً يا أخي. أريد أن أسألك عن خبر الإذاعة الذي سمعناه الآن. ألم يمت كنعان إيفرين قبل أيام؟''

التفت إليّ الشاب وقبل أن يلفظ جملته المعلقة بحلقه صرختُ مرعوباً: ''غير معقول!''

– وما هو غير المعقول يا عم؟

– أنت علي. علي الشطرنجي. رفيقي في السجن. ألم تعرفني؟ لقد انتحرت بعد زواجك.

– أي سجن يا عم؟ لم أتزوج ولم أدخل سجناً في حياتي. وأي انتحار؟ لو كنت انتحرت، فهل كنت ستلتقي بي وتكلمني؟ أي هلوسة هذه؟ إن اسمي علي نعم. لكنني لست شطرنجياً. من أنت يا عم؟ ربما شبهتني بأحد؟

– قبل ثمانية وعشرين عاماً كنا معاً في السجن. لا يمكن أن أخطئ. لكنك ما زلت شاباً. كأن الزمن نسيك.

– قبل ثمانية وعشرين عاماً؟ يا عمي عمري تسعة عشر عاماً. أنا طالب في جامعة دجلة قسم الأدب التركي. ألا تلاحظ فارق العمر بيني وبينك؟

انتبهت إلى فارق العمر. صحيح بيننا أعوام كثيرة. لكنه هو، علي الشطرنجي بشامته الكبيرة المميزة بين حاجبيه.

''علامة اللعنة''، كان يقول مازحاً وهو يضع إصبع السبابة على شامته في مرآة الحمام في السكن الطلابي الذي جمعنا قبل أكثر من ربع قرن.

إنه هو. إنه رفيقي عليّ الذي قضينا معاً شهوراً مديدة في السجن. لكن كيف بقي شاباً؟ حيّرني هذا اللغز. ''ربما هو ابنه. من يدري. ربما تزوج بعد السنوات المريرة التي قضاها في سجن ديار بكر فأنجب ولداً يشبهه. الأبناء يكررون آباءهم أصلاً''. لكنني استبعدت هذا الاحتمال. ''لقد قضوا على ذكورة كل السجناء في دورتنا. تم إخصاؤنا جميعاً، فكيف سينجب؟ بل لماذا سيتزوج؟'' ولكي أبدد حيرتي وأنعش ذاكرته قلت: ''أنا آمد يا علي. أنا آمد آيدن. من جزيرة بوطان. كيف لا تعرفني؟''

– آمد؟

صححت وقلت: ''أقصد أحمد. أحمد رضا آيدن. ألا تتذكر يوم اختار كل واحد منا لنفسه اسماً كردياً؟ كان ذلك في منزل زميلنا في كلية الهندسة مراد. أنت اخترت اسم آلان''.

ألقت شجرة الحيرة ظلالاً كثيفة على وجهه الصغير. بقي يحدق في عيني مستغرباً ما أقول صامتاً كأنه تمثال شمع. لم يجبني. انتظرت أن تنحسر الظلال. لكنه استدار بعد قليل ونكز رفيقه ثم وشوش في أذنه قليلاً. أخرج من محفظة جيب البنطلون شيئاً ثم عاد والتفت إليّ ورفع بطاقة في وجهي وقال: ''انظر يا عم. هذه بطاقتي الجامعية''.

– لكنها قديمة. هذه بطاقة تعود إلى عام 1987.

– طبعاً لأننا نحن في 1987.

– ماذا تقول؟ نحن الآن في صيف 2015. السنة التي تحررت فيها كوباني.

– كوباني؟

– نعم. ألم تسمع؟ أين تعيش؟ غزا ''داعش'' هذه البلدة ثم جرت فيها معركة ضارية انتهت باندحار ''داعش''. لقد أصبحت كوباني أيقونة المقاومة في العالم كله.

هذه المرة رأيت الحيرة تمطر من غيم عينيه. استدار مرة أخرى وصار يوشوش لرفيقه من جديد ثم أشار بإصبعه إلى صدغه إشارة فهمت منها أنه يشك في قدراتي العقلية.

التفت الشاب الآخر وصار ينظر إلي بريبة.

يا إلهي! إنه نظمي. نظمي ذو العينين الخضراوين والشعر الذهبي الذي سماه رفاق الجامعة بسبب ذلك بالأوروبي.

"نظمي. نظمي الأوروبي!" قلت مستغرباً فلمعت عيناه ببريق غامض يشبه أضواء الغروب.

– نعم أنا نظمي. لكن بحق الشيطان فسر لنا لغز فارق العمر بيننا وبينك؟ مستحيل أن تكون زميلنا أحمد رضا آيدن. نحن أصلاً ذاهبون لزيارته.

– لقد جئتم لزيارتي وانتهى الأمر. حدث ذلك في أواخر تموز 1987. جئتموني بالعدد 66 من صحيفة سرخوبون، العدد الذي أثار زوبعة من السجالات بيننا بسبب مجزرة قرية بينارجك.

كأنهم اتفقوا على ذلك. التفت الباقون أيضاً صوبي. حتى السائق ذو الشاربين الكثين، الذي لم تغادر السيجارة فمه طوال الطريق، التفت نحوي بعد أن ركن الحافلة إلى حافة الطريق الإسفلتية.

عرفتهم كلهم: الرفيق زَيْنَلْ الذي انهار أثناء التحقيق في سجن ديار بكر ووشى بمن يعرفهم من الرفاق، الرفيقة زيلان التي عادت بعد اثنتي عشرة سنة من القتال في الجبل وصارت تحكي للجميع عما قاسته ورأته خلال حياتها مقاتلة ثم قتلت في ظروف غامضة على يد مجهولين، والخال حامد، كما كنا نناديه، ذلك السائق الطيب من الجزيرة الذي وضع حافلته الصغيرة تحت تصرف الرفاق ثم اعتقل ومات تحت التعذيب.

أي متاهة دخلت فيها يا رب؟

***

بعد توقف لم يدم سوى ثوانٍ معدودات ولم أفهم مغزاه انطلقت الحافلة من جديد على الطريق التي تذوب تحت قدمي الشمس اللاهبة.

ناديتهم واحداً واحداً بأسمائهم الحقيقة والحركية. حتى أنني ذكرت الاسم الحقيقي للرفيقة زيلان: توركان. توركان التي طالما عيرناها بسبب اسمها التركي بأنها ثمرة الانصهار القومي والكوسموبوليتية البغيضة وأن أهلها لم يجربوا المقاومة الفولكلورية والثقافية، تلك المقاومة التي كنا نعني بها مقاومة خطط الدولة بأساليب بسيطة غير عنيفة مثل الابتعاد عن الأسماء ذات الدلالة على القومية المهيمنة، وحفظ الأغاني والأمثال الشعبية باللغة القومية إلى آخر هذه الوسائل التي لا تحتاج حتى إلى نصف رصاصة أو قطرة دم.

لم أعرف كيف أقنعهم أنني أحمد رضا أو آمد رفيقهم وزميلهم الجامعي الذي جمعتنا أيام النضال والجامعة والسجن. يئست فلذت بالصمت ورحت أتأمل القرى التي تتثاءب ضجراً في تلك الظهيرة. صار الركاب يضحكون ويتهامسون وينظرون إلي بارتياب دون أن أهتم بأمرهم حتى اقتربنا من بلدة نصيبين فصاحت زيلان بهلع: ”حاجز! حاجز للجيش التركي!“

رأيت حالة الارتباك التي وقع فيها باقي الشباب من ركاب الحافلة. وصلتني عدوى ارتباكهم فرفعت رأسي أنظر إلى جانبي الطريق من فوق رؤوس الركاب. لم يبقَ هناك وقت كثير للوصول إلى الحاجز فتوجه زَيْنَلْ ذو الشارين الرفيعين إليَّ وعيناه تطفحان بالتوسل: ”يا عم. نرجوك أن تساعدنا. لا نريد منك سوى إخفاء هذه الصحيفة معك. إن اكتشفوها، فقل لهم شاهدتها على الأرض في الكراج واحتفظت بها من أجل مسح النوافذ“.

قبل أن أجيب زَيْنَلْ المرعوب خفف الخال حامد سرعته كثيراً وصار ينظر إليّ من خلال المرآة. رأيت في عينيه بريقاً غامضاً يغمر حزمة من الأسئلة تنهمر منهما. صرفت النظر عنه وعن مراقبته وانشغلت بإخفاء الصحيفة تحت قميصي الذي بلله العرق.

رفعت رأسي مرة أخرى لأنظر إلى الطريق وأعاين الحاجز العسكري. لم أرَ شيئاً. كانت الطريق خالية إلا من كشك حقير على الجانب الأيمن، كان أكياس خيش مسنودة على عصي على شكل خيمة تظلل كومة من البطيخ الديار بكري الأحمر يقف أمامها كهل بطاقية مائلة.

قلت بثقة: ”هذا بطيخ أحمر. من بطيخ ديار بكر الشهير. فأين الجيش التركي؟“

مرت لحظة من الصمت الثقيل ثم انفجرت القهقهات وتشابكت حتى خِفْتُ أن تنقلب الحافلة بنا: ”الرفيقة زيلان تخاف البطيخ الأحمر“.

قال الخال حامد ثم نفخ سحابة كثيفة ساقتها إلى رئتيه من سيجارته التي بلغت في تلك اللحظة أرذل العمر.

قهقه الرفاق مرة ثانية بينما انهمكت في تصفح الصحيفة الرسمية للحزب التي يتصدرها شعار باللغة الكردية تخلى عنه الحزب بعد اعتقال الزعيم لكنه بقي مكانه في الصحيفة لا يتزحزح.

رمى الخال حامد عقب سيجارته من النافذة المفتوحة. صمت الآخرون فغصتُ في الذاكرة وتذكرت نقاشاتنا الحامية حين تداولنا الصحيفة عينها في سنة المجزرة.

الإثنين 14 أيلول 2015

رُفِع حظر التجول أمس وعادت الحياة إلى طبيعتها. لم أفهم الهدف من هذا الإجراء الغريب. حظر كلي جعلنا مقيدين إلى أماكن سكنانا. كل عائلة أصبحت سجينة دارها. حتى الموتى بقوا محصورين في ثلاجات المستشفيات ومنعوا من الدفن والتشييع خلال أيام الحظر.

الجو ما زال حاراً خانقاً مغبراً في الخارج. لكنني محظوظ بصومعتي. الرطوبة التي تتمتع بها جدران الضريح وسقفه المقبب ورائحة الزمان الخالدة تنعش النفس. ولكن ما أنعش نفسي في الأيام الماضية لم تكن رطوبة معتكَفي هذا بل الوحدة التي أتاحت لي إنجاز الكثير.

كان الحظر، رغم آثاره الوخيمة على سكان الجزيرة كما تبين لاحقاً، تجربةً فريدة جعلتني أفهم المكان على نحو أعمق وأستكشفه أكثر. لم يعد أحد يأتي إلى الضريح، لا سياح ولا أصحاب الحاجات من المرضى والعشاق وغيرهم. لأول مرة منذ اعتكافي هنا شعرت بأنني صاحب المكان، أو على الأقل أنا الموكل أمر حماية أرواح الموتى الذين أعيش بينهم بأمان تام. شعرت بزوال الحجب بيني وبين المدفون هنا الشاعر الرائع أحمد الجزري. فأنا الميت وهو الحي في شعره، وكما تبادلنا الأدوار نتبادل الأحاديث في بعض الليالي كصديقين حميمين.

هنا اكتشفت لماذا يؤثر المتصوفةُ العزلةَ على مخالطة الناس. هنا اكتشفت لماذا تُروى قصص أشبه بالأساطير عن الأطوار الغريبة التي يتصف بها العباقرة، وخاصة نفورهم من الناس. الانزواء في ركن بعيد والاختلاء بالنفس يوفران للمرء فرصة لا تعوض من صفاء الذهن والقدرة على التركيز في أمور مهمة لم يسمح ضجيج الخلق في الانتباه إليها أصلاً.

تجربة شبيهة بالنيرفانا خُضْتُها في الأيام التسعة الماضية. النيرفانا تعني في البوذية الانطفاء فما الذي انطفأ فيَّ وحولي بعد هذه الأيام الصعبة؟ ما الذي انطفأ وسط اشتعال الحرائق في حقول الذكريات؟ إن النيرفانا، التي انتقلت إلى التصوف الإسلامي عبر مصطلح الموت الذي يعني في معاجم التصوف قمعَ هوى النفس وشهواتها، لا تتحقق وفق المعتقدات البوذية إلا بالتخلص من آثار سموم ثلاثة تسبب الآلام والمعاناة للإنسان هي الجهل والجشع والكراهية.

هنا في سيري على الدروب الوعرة في جبل الجلجثة حاملاً صليب القهر على ظهري فهمت أبيات هذا الشاعر التي يتبرم فيها من الناس ويبدي سخطه على أهل زمانه، حتى أنه يصفهم بالحمير والثيران ويقول إنهم ليسوا سوى حطب للحرق. صحيح أن إعجابه بنفسه ونرجسيته المفرطة بلغت حداً كبيراً مبالغاً فيه لكنه كان على حق حين اعتزل الخلق وعاش في منفاه الوجودي اغتراباً روحياً عن مجتمعه وزمانه.

تسعة أيام فقط قضيتها من الحظر المطلق في عزلة تامة أتاحت لي قراءة كتاب إيريك هوفر للمرة الثالثة منذ اشتريته قبل خمسة أعوام من معرض الكتاب في إسطنبول.

في هذا الكتاب عبارة مهمة لفتت نظري ودونتها على هامش ورقة قبل ساعات ورددتها حتى حفظتها. عبارة هوفر هذه تلخص سلوك الجماهير ونزعتها الاتكالية وقدريتها واستلابها أمام القائد الفرد. يفسر هوفر الموضوع انطلاقاً من تحليل دقيق يعيد استلابية الجمهور إلى حالة الإحباط التي يعيشها الأفراد فيقول: ''المحبَطون على استعداد للتخلي عن استقلالهم وتسليم قيادهم للزعيم مقابل التخلص من أعباء اتخاذ القرارات وتحمل الفشل المؤكد. إنهم يسلمون زمام حياتهم لقادة ينوبون عنهم في إصدار الأوامر وتحمل المسؤوليات''.

السر في مشاعر الإحباط إذن! وشعبنا يعيش منذ قرن كامل هذه المشاعر. منذ سراب اتفاقية سيفر والوعد الموءود الذي نتج منها أصبحت حياة هذا الشعب نكبة تتلوها نكبة وإحباطاً يعقبه إحباط. منذ اتفاقية لوزان التي قضت على حلم الحرية يعيش الناس إحباطاً عاماً. ألم يصف أحد المؤرخين الغربيين بلادنا ببلاد الألف ثورة؟ إنها بالتالي بلاد الإحباطات الألف التي بلبلت الوعي الجمعي ودفعت الجماهير إلى تصديق وعود الحزب الخلبية.

***

صباح أمس، شممت رائحة الغضب تعبق من سماء الجزيرة وترابها وجدران بيوتها وأزقتها المغبرة. شعرت بالرائحة تعبر فوق المدرسة الحمراء مثل أسراب من طيور الكوابيس. ثم سمعت من جهة الشمال جلبة حشود كبيرة من الناس. عرفت أنه سيكون يوماً مشهوداً من أيام الجزيرة فعمدت إلى كتبي وأوراقي ورتبتها ثم وضعتها مع نسخ **القرآن** الموجودة بجانب قبر الجزري لئلا تلفت أنظار الفضوليين الذين قد يزور أحدهم الضريح في أي وقت. أخيراً دسست كمبيوتري المحمول في حقيبتي الجلدية على عجل وخرجت أعاين مشهد الجماهير الحانقة وأشاركها في تشييع ضحايا غدر الدولة وتهور الحزب.

سرت على طول شارع الصناعة باتجاه الشمال حتى وصلت بعد ربع ساعة تقريباً إلى رأس جسر الجزيرة في شارع يافث. كان هناك عشرات الألوف من الناس متجمهرين على طرفي الشارع في انتظار الجثامين.

بعد لحظات رأيت سيارات الإسعاف تعبر الجسر قادمة من مستشفى شرناخ. حين وصلت إلى شارع يافث أنزل بعض موظفي الصحة التوابيت الخشبية تابوتاً وراء تابوت. كانوا ستة عشر شهيداً قتلوا أو أصيبوا بجراح في اشتباكات الأيام الماضية ثم قضوا نحبهم في مستشفى شرناخ. هرع الناس يستلمونها ويغطونها بالأعلام الملونة بينما شقت زغاريد النساء طريقها إلى السماء المغبرة مختلطة بهتافات الرجال وتصفيقهم مع كل شهيد ينزل.

من هناك توجه حملة النعوش جنوباً فرافقهم المشيعون الحزينون وهم يطلقون شعارات غاضبة مدوية ضد الحكومة. مشيت أيضاً في ركاب الجماهير وبدأت أشعر بذوبان جليد الأنا في نيران نحن. تذكرت أفكار غوستاف لوبون في هذا المجال. يقول لوبون إن من الخصائص النفسية للجماهير تلاشي الشخصية الواعية. ولا يعود الفرد المنخرط في الجمهور هو نفسه بل يصبح مسلوب الإرادة مندفعاً وراء التحريض الذي يصوغ طريقة تعامله مع الأفكار في إطار جديد مختلف كلياً عن الأطر السابقة.

شعرت بنشوة غامضة. ارتفع الأدرينالين في دمي وأصابتني قشعريرة لذيذة. بدأت الحماسة تسري في أوصالي رويداً رويداً حتى انتبهت إلى أنني أرفع قبضتي مضمومة بقوة في الهواء دون إرادتي. أصابتني عدوى هتافات الشباب وغضبهم وشعاراتهم ولم تمضِ دقائق حتى وجدت نفسي أردد معهم شعار ”الشهداء خالدون“ بصوت مرتفع. سرتُ مع الحشود بنفس جياشة ومشاعر ملتهبة وجدتها غريبة عني كلياً. لأكثر من خمسة عشر عاماً حاولت النأي بنفسي عن الانخراط في التجمعات الجماهيرية. عرفت أنني لست محصناً ضد التأثيرات العاطفية فجعلت بيني وبينها مسافة أمان كبيرة. لكنني وجدت نفسي فجأة في موقف طارئ تلاشى فيه الفرد أحمد رضا الروائي والجامعي في أتون الجماعة الهائجة. تماهت القطرة في البحر، وأصبحت العاطفة في تلك اللحظة ثقباً أسود يبتلع مجرة العقل الواعي. ذبتُ في الجماهير وأصبحت موجة صغيرة في خضمها.

صرخت بأعلى ما في حنجرتي من صوت ورددت الهتافات وأنا ألوح بقبضتي المرفوعة دون أن أفكر في محتواها. وجدت لترديد أي شعار لذة عظيمة كأنني أنجز أمراً بالغ الأهمية والخطورة. لم يكن الهتاف هو المهم لكن نشوة التحدي هي التي جعلتني أستمر مع الجماهير في مسيرتها الصاخبة حتى اكتشفت أننا وصلنا إلى قصر محمد آغا سور التاريخي شرقي المدرسة الحمراء مباشرة.

في هذه اللحظة ارتج هاتفي الجوال في جيبي. خرجت من بين الحشود وتنحيت جانباً حتى وجدت نفسي عند باب القصر في شارع باير آغا.

دققت في شاشة الهاتف وقرأت: ”صعلوك ماردين يتصل“.

إنه صديقي الشاعر جَمْشيد قوسَري.

ذات يوم سهرنا في بيته بماردين قريباً من القلعة. كنا مجموعة من الأصدقاء نقرأ الشعر وندخن ونتبادل النخاب، ونتسلى بالنميمة ونسخر من خصومنا الأدبيين الدائرين في فلك الحزب والمنتفعين من المؤسسات التي يشرف عليها من وراء الكواليس. في تلك السهرة الصاخبة طلبت منه أن يوافيني برقمه الجديد (كان يغير رقم هاتفه كل شهر) فاختطف الهاتف من يدي وسجل اسمه في قائمة الاتصال بذلك الشكل وهو يقول ساخطاً: ''جمشيد اسم فخم. اسم يدل على الأبهة التي لا تليق بشاعر صعلوك مثلي''.

أسندت ظهري إلى جدار بيت المغنين الشعبيين Mala Dengbêjan في قصر محمد آغا، ووضعت إصبع الإبهام من اليد اليسرى في أذني لأسمع جيداً وانشغلت بالمكالمة وسط صخب الجماهير السائرة باتجاه المقبرة.

– ألو. جمشيد؟

– نعم أنا جمشيد الصعلوك. ومن غيره يتصل بك أيها الروائي المنبوذ؟ أين تختبئ هذه الأيام آمَدو؟ هل ما زلت عند مولانا الجزري؟

– لا. خرجت هذا الصباح. أنا مع موكب الجنازات.

– تمزح!

– لا والله. لا وقت للمزاح في الحروب. الآن أنا بجانب قصر محمد آغا والموكب في طريقه إلى المقبرة.

– طيب لا تغادر مكانك. أنا لست بعيداً. سآتي إليك. ربع ساعة وأكون عندك.

– أين أنت؟

– في محطة الحافلات.

– إذن تعال إلى مزار مم وزين. سأتوجه أيضاً إليه فهو في منتصف الطريق بيننا. سأضع اللاب توب في صومعتي عند ضريح الجزري وألقاك هناك. تمام؟

– تمام.

كان وزن اللاب توب المحمول على ظهري يزداد ثقلاً مع مرور الوقت. لا أعرف لماذا أخذته معي حين خرجت صباحاً؟ ربما حرصاً على مخطوط روايتي "مجنون سلمى". ينتابني دائماً، حين تقترب إحدى رواياتي من نهايتها، هاجس ضياع المخطوط أو تلفه أو أي مكروه آخر يصيبه. يزداد قلقي وتوتري ولا ينتهي خوفي على المخطوط إلا بعد أن أرسله بالإيميل إلى الناشر.

أسرعت إلى الضريح ووضعت اللاب توب مع الكتب وأغراضي الأخرى ثم خرجت بعد أن قفلت باب الضريح وذهبت للقاء صديقي الشاعر. مشيت في شارع نصيبين منحدراً إلى الجنوب وسط صخب موكب الجنازة الذي لم ينقطع ثانية واحدة. بعد دقائق قليلة وصلت إلى تقاطع جادة الأمير عَبْدَالْ مع شارع نصيبين حيث قبر العاشقين الجزريين. من بعيد رآني صديقي الشاعر فاندفع نحوي مبتهجاً وهو يصيح: "آمدووووو! أي غيوم أخفتك يا قمر!"

– ليست غيوماً. هي لحيتي. أطلقت سراحها ترعى كما تريد.

– حتى لو تنكرت في زي حمار، لعرفتك. المهم يا آمد، جئتك بخمرة يسكرك مجرد النظر إليها، خمرة تجعلك تتوهج مثل شمس صيفية وتسطع رغم الغيوم الداكنة.

تعانقنا بحرارة. بقينا في مكاننا بضع دقائق للسؤال عن الأحوال ثم انطلقنا صوب المقبرة عبر شارع الأمير عبدال. كان جمشيد ممتلئاً بطاقة إيجابية هائلة سرعان ما انتقلت عدواها إلى روحي ومحت آثار تسعة أيام من الحظر التام.

– قل لي يا آمد. هل أنهيت الرواية؟

– ليس بعد. فأنا مشغول هذه الأيام بكتابة نتف من السيرة الذاتية في ضوء ما يحصل في البلد.

– سيرة ذاتية؟ ههههه. هل أصبحت غاندي؟ أعرف أنك معجب به. لكن قل لي ما المثير في سيرتك حتى تدون فصولها وتؤجل الرواية؟

– لا شيء يا جمشيد.

– ولماذا تقول ذلك بنبرة حزن؟ اترك الكآبة يا آمد. نحن أبناء هذه الحقبة التاريخية اللعينة لن نستطيع تغيير شيء. لسنا إلا حطباً لمواقد الآخرين كما يقول مولانا الجزري. فلنحترق

بصمت. اللذة الكبرى في الاحتراق بصمت مثل الفراشة.

– دعنا من الشعر يا صديقي.

– نحن أمة شاعرة. يولد وليدنا وهو يلقي قصيدة أو يمسك بذيل قافية. إن تركنا الشعر فهو لن يتركنا.

– لذلك ننهزم. لن ننتصر ولن نتغير إلا إذا تركنا خيالنا الرومانسي، إلا إذا تركنا بلاغتنا الهشة، هذه البهرجة التي تشبه تمثال شمع.

– وهل فعلت ذلك؟

– نعم ولا.

– كيف ذلك؟

– تركت الشعر واتجهت إلى الرواية كما تعلم. ثم إنني أكتب الآن عن الأحداث التي تجري هذه الأيام مقارناً بينها وبين أيامنا حين كنا شباباً.

– لا أنصحك بذلك. أقصد أنه يمكنك كتابة ملاحظات وأفكار قد تصبح أساساً لبناء رواية عن هذه الأيام الغريبة التي نعيشها. لكن ليس بشكل يوميات.

– هذا هدفي أصلاً. وأنت؟ ماذا فعلت بديوانك الجديد؟

– ألم تقل الآن إن بلاغتنا الهشة سبب انهزامنا؟ لففت ديواني المليء بتلك الهشاشة وجعلته على شكل أسطوانة دسستها في مؤخرة الناشر السخيف.

– هههههه. هل ما زلت تحقد عليه؟ لماذا لا تغيره وتتجه إلى ناشر آخر؟

– ناشر آخر؟ كلهم سواء مثل بيض الدجاج بفارق أن البعض فاسد ولا تعرف نتنه إلا إذا كسرته.

– كم زجاجة أحضرتها هذه المرة؟

– ثلاث زجاجات. ثلاثة أعاجيب من الخمر البكر. نبيذ سرياني معتق. سنفتض بكارة أولاهن هذه الليلة.

– لم تغادرك اللغة الذكورية.

– الشعر ذكر.

– واللغة أنثى!

– هل سمعت قصة الفتاة جميلة؟

– نعم. أقسم أنني سمعت أيضاً صوت الطلقة التي أصابت قلبها. سمعت كذلك عويل أمها لحظة قنص المسكينة. حدث الاشتباك بالقرب من ضريح الجزري في المدرسة الحمراء. كانت جميلة...

– قصة جميلة تملأ صفحات الإنترنت. قصة مؤلمة حقاً.

– المؤلم أكثر أن الثوريين في العالم يخفون مثل هذه المصائب لمصلحة قصص البطولة والإقدام.

– فعل الحزب ذلك عند وقوع مجزرة كوباني الرهيبة بعد تحريرها بخمسة أشهر. هل تتذكر؟

– نعم. قتل مئات المدنيين في المدينة المحررة.

– هل تعلم لماذا أهمل إعلام الحزب أخبار تلك المجزرة؟

– نعم. لكيلا يشوه الصورة التي صنعتها الصحافة العالمية عن البطولات الخارقة للمقاتلين في المعركة ضد "داعش".

– يقولون لا أخلاق في السياسة.

– هذا صحيح. لكنهم ينسون أن يضيفوا: لا أخلاق في الثورات أيضاً.

***

ما إن أنهينا حوارنا القصير حتى وجدنا نفسينا وسط المشيعين عند المقبرة.

اصطف هناك ستة عشر نعشاً ملفوفاً بالأعلام الملونة بينها نعش طفل رضيع يحمله شاب ويحار أين يضعه. تقطع قلبي لمنظر امرأة تبكي بحرقة شديدة وتشد شعرها وتضرب على صدرها. سألت صديقي جمشيد: "هل هذه المرأة أم الشهيد أم أرملته؟"

– وماذا يهمك من أمرها آمَدو؟ هل تنوي الزواج بها؟

كتمت ضحكتي. همست في أذنه: ”لا تفضحنا يا رفيق، نحن في جنازة“. ضغط على يدي بقوة ثم قال بخفوت: ”ومتى غابت الجنازات عن حياتنا يا رفيق؟ هذه البلاد مقبرة وما نحن إلا موتى أو مشيعون في أفضل الأحوال“.

كنا قريبين من النعوش لدرجة أنني رأيت على بعد خطوات مني فتاة صغيرة تضع خدها على أحد النعوش صامتة. كانت عيناها جافتين حزينتين مذهولتين. رأيتها تمسح على النعش بحب.

رأيت كذلك والدة الفتاة جميلة التي ركز عليها الإعلام في الأيام الماضية. كانت قصتها أليمة فعلاً. قرأت مقابلة أجريت معها وتحدثت فيه عن اللحظات التي تلت قنص ابنتها وكيف أنها قضت الليل تحضن الجثة الصغيرة بعد أن عجزت سيارة الإسعاف عن القدوم إلى الحي بسبب الحظر. بعد خطابات حماسية قصيرة، وهتافات غاضبة وتصفيق وزغاريد من النسوة كلما ذكروا اسم شهيد، أقيمت صلاة الجنازة.

”إنها مجزرة“، سمعت رجلاً بجانبي يقول لجار له بقهر. رد عليه الآخر: ”ثلاثون عاماً ونحن نعيش وسط المجازر يا رفيق. الناجون من مجزرة اليوم ضحايا مجزرة الغد“.

أوشكت أن أقول لهما: الناجون من مجزرة هؤلاء ضحايا مجزرة أولئك لكن الإمام رفع صوته بالتكبير فغرق الحشد في سكون يشبه اللحظة التي سبقت الانفجار العظيم.

***

حين انتهت صلاة الجنازة عدنا، أنا وجمشيد، عبر شارع الأمير عبدال ثم انحرفنا عند المدرسة العبدالية شمالاً إلى شارع شَنْ فوصلنا بعد دقائق إلى المدرسة الحمراء. حملت اللاب توب من جديد وانطلقنا إلى منزلي. وضعنا حقائبنا هناك وذهبنا إلى مطعم قريب من ضفة النهر. بعد الغداء تمشينا على ضفة النهر وانخرطنا في حديث متشعب.

”من لا يعرفك لن يفرق بينك وبين خدم الأضرحة. لقد أتقنت الدور. لماذا لا تمتهن التمثيل آمَدو؟“ قال جمشيد مازحاً وهو يلقي حجراً صوب النهر.

أجبته: ”لا أرغب في ممارسة التمثيل. ولهذه اللحية ضرورة أمنية. لقد أفادتني في عزلتي كثيراً. أعفتني على الأقل من مساءلة الشرطة وفضول الناس. يظنني الجميع خادماً للضريح“.

صمت جمشيد لحظة قصيرة. ثم فاجأني: ”إلى أين تمضي البلاد يا آمدو؟“

أجبته دون تفكير: ”إلى الهدف الذي تتجه إليه منذ ثلاثين عاماً“.

– وهو؟

– لا أعرف كيف أصف الأمر يا صديقي. أشعر أننا بدأنا نعود إلى النقطة التي انطلقنا منها. أو لأقل إننا ندور حول أنفسنا مثل دراويش قونية. ثلاثون عاماً حتى تحققت بعض المكاسب.

– والآن كل شيء سيضيع. قلت لي هذا الأمر حين كنا في الجنازة. ما الجديد؟

– دعني أركز قليلاً لأوضح الأمر. أنت تشوشني.

– من يسمعك يظن أنك أصفى الناس ذهناً وأنا جئت لأبلبل أفكارك. هات يا عبقري. وضح الأمر مع أنه لا شيء في هذا البلاد يحتاج إلى توضيح.

– أريد القول صحيح أننا في خصام أيديولوجي مع الحزب، لكن الدماء التي أريقت عن طريقه أجبرت الدولة على بعض التنازلات.

– خطاب جديد ومختلف تماماً من مثقف متمرد. لا يعجبني هذا التبدل طبعاً.

– لا تستعجل بالحكم علي. لم أتبدل مطلقاً. أنا آمد الذي تعرفه.

– لكنك مأخوذ بالشعارات التي أطلقتها الجماهير خلال التشييع هذا اليوم. تأثير المخدر يدوم بعض الوقت. بالمناسبة جئتك بكتاب حول متلازمة ستوكهولم.

– هل تتهمني بموالاة الحزب؟

– لا يا آمدو. أعرفك. لكن في الأوقات العصيبة يمكن أن تضيع البوصلة. التجييش العاطفي يلعب دوره في حرف المسار وهذا لا علاقة له بمستواك الثقافي.

– نحن متفقون على أن الحزب اقترف كثيراً من الأخطاء وأنه ارتكب بعض المجازر. لكن ألسنا متفقين أيضاً على أن الدولة التي لا تتنازل حتى الآن في الاعتراف الدستوري بوجودك

تستحق أن تحاربها بالوسائل شتى. الدولة هي التي سدَّت الآفاق أمام الحل السلمي.

– صحيح. لكن الحزب مستمر في منح المبررات للفاشية. لم يكن الآن وقت الحرب.

– نحن متفقون على هذا أيضاً. لكن أي عملية سلام بحاجة إلى طرفين لهما رغبة أكيدة في السلام. الدولة لا تسعى إلى ذلك. ألم تسمع تصريح رئيس الجمهورية القائل: عملية السلام صارت في الثلاجة؟ تزامن تصريحه هذا مع حادثة قتل الفتاة جميلة ووضعها في الثلاجة ثلاثة أيام خوفاً من تفسخ الجثة.

– نعم سمعت هذا التصريح. وسمعت تصريح وزير الداخلية أيضاً الذي ادعى فيه أن القتلى ليسوا مدنيين. كذب صريح.

– إذن؟

– لا شيء. خطاب الدولة متعفن. ما زالت تحتكم إلى منطق القوة لكن رغم كل شيء فإن نقل القتال إلى المدن خطأ إستراتيجي فظيع ارتكبه رفاقك.

– لا تسخر يا رجل. هم ليسوا رفاقي. أنت تعرف موقفي منهم. وأنا ضد نقل القتال إلى المدن. لكن ما يجري الآن لا يترك للمرء أي هامش للمناورة. إما مع هذا وإما مع ذاك. هل تعرف ما معنى أن تقف على الحياد في هذه المعمعة؟ الحياد يعني موالاة الدولة.

– سأنتظر إلى المساء. إلى بداية سهرتنا. وإذا بقيت على موقفك فهذا يعني أن المخدر الذي استنشقته قوي جداً ولا بد من صدمة تعيد إليك وعيك.

خفت أن يدفعنا النقاش إلى دروب شائكة ومنحدرات خطيرة، أنا وضيفي الذي أحبه، بغنى عنها فلم أجب. مشينا بضع خطوات دون أن نتكلم ثم انفجرت قهقهة مدوية من جمشيد.

– خير صديقي؟ أضحكني معك.

– كان المفروض أن نتبادل الأدوار الآن، يعني أن أنحاز إلى طرف الحزب بدلاً من أن تنحاز بنفسك. فأنا شاعر وأنت روائي. لكن يبدو أن الشاعر الذي فيك لم يمت بعد. أخبرني آمَدو بماذا تسقي شجرة الشعر في قلبك؟

– بالحب يا رفيق. بقليل من الألم وكثير من الحب.

أخيراً عدنا، أنا وصديقي، أدراجنا بعد تلك الجولة الصاخبة على ضفة النهر. لم يكن هناك سوى طيور تائهة تعبر سماء النهر بالاتجاهين.

كان النهر وحيداً.

وحيداً مثل وطن لفظته الخرائط.

***

الساعة الآن الخامسة فجراً. نهر دجلة في وحدته يجري بهدوء كأنه يشارك أهل الجزيرة أحزانهم. أسمع نحيبه الخافت من النافذة الشرقية.

شربنا منذ بداية المساء حتى انتصف الليل فنام جمشيد من الإرهاق والتفتت إلى كتابتي. شخيره يشبه قصائده المتمردة، إيقاعات صاخبة حرة بلا قافية. لغة وحشية مباشرة وصارمة ومؤثرة جداً جعلته محط حسد شعراء ماردين وديار بكر كلهم.

لأول مرة منذ أيام طويلة أنام في بيتي. لولا قدوم جمشيد وواجب المشاركة في الجنازة الجماعية، لظللت في صومعتي بعيداً عن الدنيا. لكنني بلا شك سأعود إليها. سأترك بيتي إلى خلوتي مع ملك الشعر حين يغادر صديقي. صعب أن أخالط الناس في هذه الأيام. كلهم قنابل موقوتة على وشك الانفجار. وأنا عاطفي أتأثر بأدنى تحريض. إن بقيت بين الجماهير فسأصبح فحمة في موقدها تشتعل باشتعال بقية القطع. لقد نبهني صديقي جمشيد وكان محقاً في تنبيهه. الجميع يدعو إلى الحرب بدءاً من رئيس الجمهورية إلى وزير داخليته الذي ينكر سقوط ضحايا من المدنيين إلى شبابنا المتحمسين للقتال. لا صوت يعلو فوق صوت الدعوة إلى الموت كأن الأمر يتعلق بشخصين نزلا إلى الحلبة والباقي نظارة ومتفرجون. لا أحد يفكر في العواقب ولا أحد يضع خطة بديلة عن الحرب أو يتحدث عما سيحصل عشية الانتهاء من هذه الأجواء الخانقة! النازحون، الضحايا المدنيون، الأبنية المدمرة أو التي سيتم تدميرها، كل هذه الأمور لا يهتم بها من يرى الحرب حلاً وحيداً بل غاية بحد ذاتها. غير معقولة هذه الحماسة العمياء للحرب إلى هذه الدرجة. إنها هيستيريا جماعية. ”عملية السلام وضعت في الثلاجة“، قالها رئيس الجمهورية. ”لا حل إلا عبر فوهة البندقية“، قال كادر متقدم من الحزب متحصن في منطقة السور بديار بكر لوكالة أنباء ألمانية.

سأغادر بيتي مرة أخرى لأحتمي بظلال الشعر الخالد هرباً من حر الدعوة للحرب. هناك يعمُّ هدوء قدسي يتيح لي التأمل بعمق وإنهاء روايتي بينما ينشغل الآخرون بالتحضير لمعاركهم المقبلة.

الجمعة 25 أيلول 2015

اليوم صباحاً عدت من ماردين.

بقيت فيها خمسة أيام بعد أن أصر جمشيد على أن أصحبه.

– تعال معي قبل أن يجرفك تيار الشعبوية.

– سآتي بشرط.

– سأقبل شرطك بشرط.

ضحكنا معاً. جهزت حقيبتي. ألقيت فيها اللاب توب وثياب النوم وبعض الحاجات الشخصية ثم خرجنا وتوجهنا بالحافلة إلى المدينة العريقة التي تستلقي على ربوة شامخة تطل من كل الاتجاهات على سهول ميزوبوتاميا الخصبة والقرى والمدن المتناثرة مثل حبات عقد انقطع سلكه.

قضينا معظم الأوقات نتنزه في المدينة التاريخية ذات الاسم التاريخي العتيق، ماردين، بوتقة الهويات التي تناحرت حيناً وتآخت أحياناً مديدة دون أن تذوب أيٌّ منها. في هذه المدينة التي ترقب الجهات وتحولات التاريخ، جاورت الكنيسةُ الجامعَ وامتزج هديل المآذن بطنين النواقيس، ونالت هي وسكانها نصيبها من المجازر التي ارتكبها العثمانيون بحق المسيحيين. ماردين منديل بديع مطرز بأبهى النقوش تتجاذبه هويات متناحرة. لو اتفقت بينها، لطار المنديل في الهواء الطلق مثل حمامة نوح تبشر بالحياة والسلام.

***

في ماردين الجميلة زرنا: كنيسة الأربعين، كنيسة الربان هرمز الكلداني، المتحف الأثري، المسجد الكبير، مسجد الشهيدية، المدرسة القاسمية،

حمام الأمير... وغير ذلك من الآثار حتى أننا اقتربنا من أسوار القلعة الملقبة خشم الأسد التي اتخذها "الناتو" محطة مراقبة منذ بداية ستينيات القرن السالف وأنشأ فيها راداراً متطوراً يراه المرء من بعيد على شكل كرة قدم عملاقة. ورغم المناشدات والمطالبات بفتح القلعة أمام السواح، فإن الدولة ترفض ذلك.

كل مساء كنت أرتاد المقاهي والصالات الثقافية مع جمشيد. خضنا نقاشات حامية مع الكتاب والشعراء الدائرين في فلك الحزب. لاحظت أن النخبة المثقفة هناك أيضاً منقسمة بين رأي يؤيد الاستمرار في معركة الخنادق ونقل القتال إلى المدن، وبين رأي يرفض ذلك.

– العدو يترنح. لا بد من انتهاز الفرصة. ثقتنا بثوارنا ومقاتلينا كبيرة. ولا بد أن القيادة درست الموضوع جيداً.

– أدري.

– درست أم لم تدرس، هذه مغامرة غير محسوبة العواقب. لن يجني منها الشعب سوى المزيد من الدمار والقتل.

ضجرت من تلك الأجواء. قلت لجمشيد في آخر أمسية: "يكفي أرجوك. لا أريد أن أناقش في البدهيات التي لا يقتنع بها الذين لا يتزحزحون عن عقائدهم الجامدة. لن أذهب الليلة إلى أي مقهى. لا طاقة لي برؤية هذه المستحاثات الحزبية. سأغادر إلى صومعتي غداً في الصباح الباكر".

– لقد نجحت خطتي إذن.

– أي خطة؟

– رأيت أن إيمانك قد أصبح هشاً وتكاد تميل صوب الحزب. جئت بك إلى هنا وأشركتك في نقاشات الشياطين الخُرس حتى تعود إلى موقعك كمناضل صلب ضد فاشيتين: فاشية الدولة وفاشية الحزب.

– كان هدفي هو...

– دعك من الأهداف. تعال نذهب هذا المساء في جولة خاصة. سنزور مقهى لا يرتاده الشياطين الخرس. مقهى في جنوب القلعة يطل على برية ماردين الجنوبية وما فيها من بلدات وراء الحدود.

أمس مساءً ذهبنا إلى المقهى الذي حدثني عنه جمشيد. كان هادئاً قليل الرواد ويطل على سهل فسيح يمتد جنوباً. بعد أن شربنا الشاي وتحدثنا في الأدب والسياسة ساعة من الزمن نهضنا. قال جمشيد: "تعال أريك منظراً بديعا لن تراه في جزيرتك".

– لا تزدري جزيرتي يا رفيق. صحيح أنها في وهدة من الأرض لكنها بشموخ الجبال الشماء. العبرة ليست بالسمو عن سطح البحر.

– صحيح. أوافقك الرأي. ودليل كلامك أمامنا، هناك في الأسفل. انظر.

كانت أضواء بعيدة تلمع خلتها نجوماً تستريح على الأرض.

– هذه عامودا يا آمد. هناك ارتكب الرفاق مجزرة قبل عامين بحق أهلها المسالمين أثناء مظاهرة لشبابها. قتل الرفاقُ المسلحون ستة من أهل عامودا. هل رأيت التناقض والتخبط الذي يعيشه الحزب؟ من يناضل من أجل الحرية هنا لا يقتل الأحرار هناك.

– أوافقك. سمعت بالمجزرة. لم يقم أحد بإدانتها.

– بعكس مجزرة روبوسكي التي جرت قبل مجزرة عامودا بسنة ونصف.

– أقاموا الدنيا بسبب تلك المجزرة.

– ليس لأنهم حريصون على دم الإنسان. لا. أبداً. لقد استغلوا مجزرة روبوسكي سياسياً إلى أقصى حد. روبوسكي ارتكبتها قوات الدولة وهي لهذا فقط تستحق الإدانة في نظرهم وليس لأن دماً بريئاً أريق على ثلوج الجبال. أما عامودا، فارتكبها الرفاق الأشاوس ولهذا ينبغي التكتم عليها وعدم الحديث عنها في منابر الحزب الإعلامية. المؤسف أن مثقفي الحزب انخرطوا في اللعبة وتحاشوا إدانة مجزرة عامودا كما تحاشوا من قبل إدانة المجازر التي ارتكبها الحزب في هذه القرى المغلوبة على أمرها. السياسي يفعل ذلك وهذا أمر مفهوم. إنه يستغل أي حدث لإنهاك خصمه وكسب النقاط ضده في المعركة الانتخابية مثلاً. لكن معيار المثقف مختلف. المثقف يكيل بمكيال الأخلاق وليس عنده مكيالٌ ثانٍ. لا يخوض

المثقف معركة انتخابية حتى يلجأ إلى الأكاذيب والمناورات البلاغية. إنه ضمير أمّته. إنه ملح الأرض فإذا فسد، فلن يصلحه أحد. إن الذي لا يدين مجزرة عامودا ليس صادقاً في إدانته مجزرة روبوسكي. هذا هو القانون أين ما كان. هل رأيت مجموعة مثقفين وقعوا بيان إدانة بخصوص مجزرة عامودا؟ هل سمعت من أحد الكتاب القريبين من دائرة الحزب كلمة يتأسف فيها على الشباب الذين قتلهم مسلحو الحزب؟

– لا. ربما لم يسمعوا بها أصلاً. حتى نحن لم نتخذ موقفاً صارماً.

– بل حتى موقفاً هشاً وخجولاً لم نتخذه.

– لماذا في رأيك؟

– لأننا جبناء وعشائريون وما زالت المثل الإقطاعية تحكمنا. المثقف الذي يرى نفسه يسارياً ثورياً ليس سوى إقطاعي عشائري ملتزم تقاليد العشيرة ويخضع لقانون العيب. مثقفون بقشور براقة ملفوفة على لب من الروث. مثقفون عَدَسيون.

– عدسيون؟

– نعم عدسيون. هذا اصطلاح جديد اخترعته للتو. المثقف العدسي هو الذي لا موقف له. إنه مثل حبة العدس لا تعرف وجهها من قفاها.

– للأسف الشخصية الكردية تعرضت للتشويه. تشوهت والعوامل كثيرة. أولها قمع الدولة...

– لا تكمل. الدولة عامل خارجي. وتأثير العوامل الخارجية ليس فعالاً مثل تأثير العوامل الداخلية. لم يشوه الشخصية الكردية سوى الحزب. هو يدعي أنه يحارب الشخصية المستلبة والتقليدية وهذا كذب. الحزب رسخ تلك الشخصية، وعزز انهزامية المثقف وجبنه، وأبعده عن دوره الأساسي وهو أن يكون ضمير شعبه. الحزب يريد مريدين صادقين كما يسميهم إيريك فروم. وقد أنشأ تكايا عدة في الوطن والشتات لهذا الغرض. أطلق على هذه التكايا أسماء مختلفة مثل المعهد والأكاديمية والصحيفة والجمعية إلى آخر هذه الكيانات التي لا وظيفة لها سوى الدعاية الحزبية. الحزب أنتج وعياً مشوهاً لدى المثقف وزاد الإنسان العادي

جهلاً على جهل حين سلب منه إرادته الحرة وفطرته السليمة وجعله مجرد نملة في مستعمرته مترامية الأطراف.

لم يكن النقاش لينتهي. كنت مقتنعاً بما يطرحه صديقي جمشيد قوسري لكنه كان يصر على إعادة الأفكار متأثراً بمهنته في التعليم المدرسي. كنت متعباً ومتوتراً كعادتي حين أزمع على سفر. لم يكن لدي استعداد أن أستمر في سماع أفكار أؤمن بها أصلاً. لذلك بعد إلحاحي على جمشيد عدنا بحدود منتصف الليل.

أنعشنا هواء البرية الصافي القادم من الغرب. نمت فوراً حتى دون أن أكمل كأسي. في الصباح الباكر، مع شروق الشمس أخذني جمشيد بسيارته الصغيرة العتيقة إلى محطة الحافلات غربي المدينة بالقرب من جامعة ماردين، وبعد ربع ساعة ودعته بحرارة ثم خرجت حافلتنا لتصل بعد ساعتين ونصف إلى الجزيرة.

الأحد 11 تشرين الأول 2015

هواء بارد يهب من جهة الشمال الشرقي حيث ينتصب جبل الجودي الذي رست عليه سفينة نوح كما ورد في حكاية الطوفان.

تجولت عند الغروب في باحة الضريح. رأيت حمامة زرقاء تهدل على السطح بحبور. كانت وحيدة مثلي. قلت في نفسي إنها بلا شك من نسل حمامة نوح التي بشَّرته بانحسار مياه الطوفان. فأل خير إذن. ربما تهدأ الأوضاع وترسو سفينة السلام ويعود الناس إلى ديارهم. يرمي المقاتلون السلاح وتعود نِشتيمان إليَّ لنعود معاً إلى بيتي وأوراقي ورواياتي.

قبر نوح قريب مني. قبر عظيم طويل يليق بالأب الثاني للبشرية. يقع القبر على بعد ثلاثين متراً تقريباً. إنها مصادفة جميلة تلك التي جمعت ضريح نوح الشعر الذي قاد سفينة اللغة الكردية إلى قبر نوح البشرية الذي أنقذ الإنسان من الانقراض وأنا بينهما نوحٌ صغير يحاول إنقاذ روحه الغريقة بالكتابة. يقول الكُرد إن نوحاً كان رجلاً كُردياً وإن اسمه في الأصل نُوْ وهو في الكردية يعني الجديد لأنه كان رسول الحياة الجديدة ومهندسها بعد الطوفان. كما أنهم يفسرون اسم جبل الجودي المطل على الجزيرة من جهة الشرق أنه من الفعل جي دِي بمعنى

وَجَدَ المكانَ وفق لفظ أهل الجزيرة للواو التي تسبقها الضمة. أي وجدت السفينة لها مكاناً هناك في قمة الجبل ورست فيه. وكذلك يرون قرية هشتانين، بمعنى ثمانين، الواقعة في أطراف الجزيرة القريةَ التي نزل فيها نوح مع الثمانين شخصاً الذين آمنوا به ونجوا معه بعد أن رافقوه في السفينة فاستعمروا الأرض وتناسلوا فبدأت البشرية بهم وبنسلهم عهداً جديداً.

الآن يتحول مهد البشرية المفترض هذا إلى قبور تبتلع المهود ومن فيها.

يتحدثون عن حظر مقبل جديد. تجربة مرة أخرى تنتظرنا وننتظرها. في هذه البلاد نقضي العمر كله نتقلب على شوك الانتظار وجمره.

***

في صيف 1987، وتحديداً في تموز، وبمناسبة اقتراب ما سمي آنذاك الذكرى الثالثة لوثبة 15 آب، وزع الرفاق المكلفون الدعاية الحزبية العدد 66 من صحيفة الحزب المركزية التي كانت الصفحة الأولى منها تبشر بقرب تحرير جزء من تراب الوطن. اتجهت الأنظار وقتها إلى مدينتي جزيرة بوطان وما حولها وتم اعتبارها في أدبيات دعاية الحزب "إيالةً على وشك التحرر". انصبت دعاية الحزب وقتذاك على موضوع قرب تحرير جزء من تراب الوطن. وأصبح شعار "كل شيء من أجل تحرير جزء من تراب الوطن" من الأوراد التي على المريدين، وأنا منهم، أن يرددوها مغمضي الأعين ليثبتوا تبعيتهم لشيخهم وخضوعهم لمشيئته المقدسة. علقنا الحزبُ كخرق بالية على مسامير الانتظار. كانت قلوبنا تخفق فرحاً بقرب تحقق الوعد الكبير: الحرية على الأبواب ونحن على مرمى حجر من الاستقلال المنشود.

هكذا حملت الصفحة الأولى من سَرْخوبون، صحيفة الحزب المركزية الصادرة بالتركية، مانشيتاً مدوياً يقول: "في سبيل تحرير جزء من تراب الوطن، سوف تتحول وثبة الصيف إلى حرب شاملة".

كنتُ غارقاً في مستنقع تبعية الحزب. كنت ذرة رمل من شاطئ الأتباع أستقبل تيارات الدعاية القوية وأمواجها العاتية مستسلماً لسطوتها بحبور تام. كنت مثل كُرْكيٍّ في سرب الكراكي أسير كيف ما سار السرب، نملة أمشي في الطابور وراء جماعة النمل التي لا حصر لها. لم أكن استثناءً في ذلك الزمن بل كنت القاعدة. كنت القاعدة الخطأ المبنية على أكذوبة. القاعدة الواهية التي لا منطق لها سوى القطيعية العمياء. لم يكن بمستطاعي مقاومة التيار. وهل تمتلك حصاة حقيرة القدرة على الوقوف في وجه نهر هادر؟ إن الذي يمتلك الإيمان الكافي لمقاومة تيار الجمهور هو على الأغلب استثناءٌ ولن يكون موضع إعجاب إلا بعد قرون، في حين سيسخر المعاصرون منه. هكذا كتب عالم النفس إيريك فروم. وكلامه هذا صحيح بلا شك. فأن تصبح استثناءً يعني أن تتحمل عوامل النحت والتعرية بعزيمة البازلت وتتخذ شكلك الذي تريده، تماماً مثل صخرة قذفها البركان بعيداً وسط الصحراء.

حين سمعنا أخبار المجزرة وشاهدنا صورها في إعلام الحكومة حدث هرج ومرج كبير بين الطلاب من رفاق الحزب ومؤيديه. في البداية أنكر بعض الرفاق والمؤيدين أن يكون الرفاق وراء المجزرة.

– رفاقنا لا يقومون بهذا العمل الغادر الجبان.

– إنه عمل مشين قامت به مِيت[7].

7 MIT: جهاز الاستخبارات التركي.

– هذا جزء من الحرب الخاصة التي تشنها الدولة التركية ضد الحزب. ستظهر الحقيقة قريباً.

ثم ظهرت الحقيقة.

تبين أن الحزب هو الذي قام بذلك ونشر في الصحيفة الرسمية تبنيه العملية. انقسمت الآراء بين مؤيد ومعارض واحتدمت النقاشات في ذلك الوقت بخصوص ما جرى في قرية بينارجك التابعة لمدينة عُمَرْلي من ولاية ماردين من وقائع مرعبة استفاد منها إعلام الدولة كثيراً.

– هذه مجزرة. مجزرة حقيقية فكيف نراها انتصاراً على الاستعمار التركي؟

– في سبيل النصر لا بد من بعض القسوة.

– الخوف هو أن تصبح هذه القسوة منهجاً ثورياً. الخوف هو أن ينفَضَّ الناس عن حزب يناضل من أجلهم.

– حتى لو أصبحت هذه القسوة منهاجاً، فليس بالأمر الغلط. هل رأيتم ثورة ناعمة؟ هل رأيتم ثواراً بقفازات حريرية؟ كل الثورات لها أنياب حادة. قتل الخونة بطولة وواجب ثوري أصلاً.

– لا. هذا غير صحيح. فأن تقتل طفلاً أو امرأة أو رجلاً مدنياً أعزل ليس بطولة. إن هذا العمل اللاأخلاقي غير مبرر إطلاقاً ويتجاوز حدود القسوة ليصبح جريمة موصوفة. ترويع المدنيين الآمنين الذين هم حاضنة الثوار ليس من أخلاق الاشتراكية.

– لا أخلاق في الحروب يا رفيق. نحن في ثورة من أجل الحرية. بعبارة أخرى: نحن نخوض حرباً ضد العدو. ومن يقف إلى جانب المستعمر عدو لنا. الحرب جبهتان: جبهة معك وجبهة ضدك. إنها لا تحتمل جبهة ثالثة تدعى الحياد.

– صحيح. لا حياد في حربنا ضد الفاشيست. الحياد خيانة.

– لكن الضحايا مدنيون. ضحايا قرية بينارجيك مدنيون وبينهم أطفال رضع. ألم تشاهدوا نشرات الأخبار! قبل أشهر حدثت مجزرة في آجيكيول في نصيبين. قتل الأطفال والنساء أيضاً هناك. وتم تبريرها بحجة أنهم من حماة القرى. ألم تشاهدوا نشرات الأخبار؟ ألم تشاهدوا صور النساء والأطفال القتلى.

– بلى، شاهدنا. وماذا عن مجازر جنود العدو في قرانا؟ لماذا لا يتحدث إعلامه عنها وعن الفظائع التي يرتكبها الجلادون في السجون بحق رفاقنا؟

– ولماذا يجب أن ننتظر من العدو ذلك؟ بل لماذا علينا أن نتشبه به في قسوته وظلمه وجرائمه؟ ألسنا نناضل في سبيل هذا الشعب؟ كيف إذن نقتل أبناءه؟

– الرفاق لا يقتلون سوى الخونة.

– الخونة؟ وهل الأطفال الرضع خونة؟

– أولئك الأطفال أبناء الأفاعي يا رفيق. لا يخلو نسل الأفعى من السم. ولذلك قتلهم واجب وطني.

– ولكنهم لم يرتكبوا جرماً. من الظلم محاسبة أبرياء بجريرة ما فعله آباؤهم.

– كانوا سيكبرون ويصبحون خونة مثل آبائهم. لا تلد الحية إلا حية.

– إن كنا لا نجرؤ على إدانة المجزرة، فعلينا أن نتوقف عن تبريرها على الأقل!

– هكذا نتماهى مع إعلام العدو يا رفيق.

لم تسفر نقاشاتنا عن شيء. تيار التبرير كان أقوى بما لا يقاس من التيار الذي يحاول الإدانة وإقناع الآخرين بأن ما حصل مجزرة وعنف ثوري مبالغ فيه وغير مبرر إطلاقاً.

***

حين جاءني الرفاق بالصحيفة تلقيت أمراً بالذهاب إلى شرناخ لإيصال نسخ مصورة منها إلى بعض الرفاق الذين سينسخونها بأعداد كبيرة ويوصلونها بطريقتهم إلى المقاتلين في جبال كابار وجودي. كنت سعيداً بالمهمة التي ألقاها الرفاق على عاتقي. لم آبه لاعتراضات أبي المستمرة وطلبه مني الابتعاد عن السياسة.

ناقشت حيثيات ما حدث في قرة بينارجك مع رفاقي الذي جاؤوا من ماردين بالصحيفة المركزية. أقنعوني بوجهة نظرهم المتمثلة في أن الخونة يجب أن يتم ردعهم وإلا فإن الثورة لن تنجح.

قال لي الرفيق زَيْنَلْ وقتها: "كل ثوراتنا السابقة فشلت بسبب التراخي في ردع الخونة. لا بد من شل حركة هذه الميكروبات المضرة وإلا فإن الجسم كله سيصاب بالوهن".

عرض الإعلام الرسمي صور الضحايا على شاشات التلفزيون أياماً عدة. الغريب أن الرفاق في أوروبا أيضاً كانوا يبررون المجزرة. حتى أن مسؤولاً كبيراً من الحزب في السويد كان يشتغل آنذاك في المحاماة ثم انشق عن الحزب في ما بعد وقف يدافع عن قتل أطفال بينارجك بالحجج نفسها التي كان يتشدق بها الكادر الحزبي القروي البسيط الساذج. ثم حدثت مجازر أخرى عدة تم فيها قتل مئات المدنيين الكُرد ممن حملوا سلاح الدولة في القرى النائية كُرهاً أو طوعاً. وفي المقابل، قتلت الدولة أيضاً المئات من الكُرد ممن رفضوا حمل

السلاح والانضمام إلى ما سمي تشكيلات حماة القرى. لم يكن هناك من حل سوى القتل. ترفض سلاح الدولة تُقتل، وتحمله تُقتل. قتل في الحالتين، بل في جميع الأحوال.

وليت الأمر وقف على القتل فقط، بل أحرقت القرى بعد تهجير سكانها عمداً. تم تجفيف منابع الإرهاب كما ادعت الدولة. وتم القضاء على بذرة الخيانة كما ردد الرفاق مع كل مجزرة. لكن الذين تضرروا كانوا سكان القرى البسطاء ممن لم يستوعبوا ما يجري حولهم من مفارقات مدمرة إذ أصرت الدولة على اعتبارهم حاضنة الإرهاب تماماً مثلما أصر الحزب على اعتبار سكان بعض القرى الأخرى عملاء وخونة.

لم يبقَ للناس من مجال سوى الهرب. نزح الملايين غرباً. توجهوا من قراهم المحترقة ومدنهم الكئيبة الغارقة في العنف والخوف والغبار الثقيل وصمت الوحشة إلى المدن الكردية الأكثر هدوءاً وإلى المتروبولات التركية البعيدة عن كل ذلك الصخب الثوري والعنف المقدس. تم إفراغ القرى تماماً مثلما تُفرغ فلاشة كمبيوتر من ملفات غير مرغوب فيها. تغير في نهاية الأمر وجه الريف الكردي الذي استطاع في ما مضى أن يقاوم العواصف ويحافظ على سماته الخاصة قروناً طويلة، لكنه عجز تماماً عن الوقوف في وجه عاصفة الغبار الثورية الفاقعة في عنفها وفاجأت الجميع.

في ما بعد خفتت الأصوات القليلة التي نددت بالمجزرة الرهيبة التي جرت في حزيران 1987، الضربة التي أوجعت الاستعمار التركي وفق صحافة الحزب آنذاك. سكت المحتجون على القتل. وعلى هذا راهن الحزب. فالجماهير المؤدلجة تنسى بسرعة وتتعود الخضوع بلا نقاش. إنها مستعدة لتقبل تبريرات الحزب وتفسيراته دون اللجوء إلى منطقها الخاص. قد تحدث بلبلة في البداية حتى بين صفوف المؤيدين والحاضنة الشعبية للحزب، لكن الشعارات الثورية أقوى من كل احتجاج. "الوطن في ثورة ولا بد من دماء تُراق على مذبح الحرية"، كان هذا شعار المرحلة. والشعار برق يخطف الأبصار ويعمي البصائر. وهكذا استمر مذبح الحرية يستقبل سواقي الدم النازف من شرايين القرابين المذبوحة دون أن يرتوي. تحولت البلاد إلى مسلخ كبير وكثر القصابون وارتكبت المجازر دون أن يعيرها الناس اهتماماً جبناً أو خنوعاً. عاشت قرى كثيرة ما عاشته آجيكيول وبينارجك وأورتاباغ من قتل وسفك للدماء.

غالبية المثقفين بقوا صامتين. خبؤوا ألسنتهم في كهوف أفواههم ولم يصدر من أي واحد منهم أدنى صوت احتجاج. أنا أيضاً التزمت الصمت. ابتلعت لساني ولم يصدر عني حتى حرف تنديد واحد سوى الهمهمة التي صدرت منا على استحياء بداية الأمر. بعد ذلك اقتنعت مثل كثيرين غيري بما أورده رفاق الحزب من حجج اكتشفتُ متأخراً أنها واهية ومضحكة جداً. كنت فرداً أتحرك بموجب الغرائز القطيعية لدى الجماهير. العقل في إجازة والمنطق يغط في النوم والحس الإنساني شمعة أطفأتها عاصفة الغبار الثوري. متأخراً جداً قرأنا أن أحد أعضاء اللجنة المركزية اعترض على هذا الأسلوب الدموي. إنه محمد شنر. نهض شنر أثناء مشاركته في فعاليات المؤتمر الرابع في معسكرات الحزب في منطقة البقاع بلبنان وطالب الحزب بفتح تحقيق بخصوص المجازر. بعد أشهر قام الحزب بتصفية شنر في مدينة القامشلي شمال سوريا.

كانت مفاضلة رهيبة وقعنا بين براثنها وصرنا ضحاياها. إما الدولة وإما الحزب. الدولة تغلف إنكارها وجودنا بما تسميه محاربة الإرهاب. لا ترسم أفقاً لحل عادل وتضع الجميع في خانة واحدة. تطرح معادلة وتطلب من الجميع قبولها: الكردي إرهابي.

أما الحزب، فخاض منذ تأسيسه وقبل إعلان الكفاح المسلح بسنوات حرباً شعواء ضد خصومه من الأحزاب والتنظيمات الكردية الأخرى. لم يترك صوتاً يرتفع غير صوته. لم يتح مجالاً لفصيل آخر حتى بمشاركته في النضال ضد الدولة. احتكر الحزب الفضاء السياسي واستحوذ على الأرضية الشعبية. هرب المنتسبون إلى التنظيمات الأخرى وقتل منهم كثيرون. ولم يبقَ في النهاية سواه في الميدان يصوغ للكرد قدرهم وينحت لهم مصيرهم كيف ما شاء.

***

مضت الحافلة بإيقاعها السابق فيما صرت أتأمل الصحيفة مستذكراً أيام الجامعة وما أثارته مجزرة بينارجك من سجالات في ذلك الوقت. كان رفاقي غارقين في همهماتهم يستمعون لأغاني الإذاعة التركية.

بعد أن مرت دقائق معدودات رفعت رأسي عن الصحيفة وقلت: ''هل تعرفون أن شبراً من الأرض لم يتحرر حتى الآن؟''

– المانشيت لا يقول إن الأرض تحررت. المانشيت واضح يا عمي. في صيغة المضارع: تتحول وثبة الصيف إلى حرب شاملة من أجل تحرير جزء من تراب الوطن. تتحول dönüşüyor، وليس تحولت dönüştü. ألم تقرأ في المدرسة الفرق بين الماضي والمضارع؟

– بلى. أعرف الفرق بين الزمنين. لقد درست الأدب التركي في جامعة دجلة وأعرف قواعد التركية جيداً. وأنا الآن أعيش في زمن هو لي ماضٍ ولكم مستقبل. أنا مستقبلكم أيها الرفاق. هل تعرفون أن ثلاثين سنة مرت ولم يتحقق هذا الوعد الذي حملته هذه الصحيفة؟ سقط الآلاف في سبيل تحقيق هذا الشعار الذي كنا نظن أنه على وشك التحقق. لم يعتذر الحزب عن فشله بل أصبح ماكينة ينتج الشعارات باستمرار من أجل أن تنسى الجماهير ما سبقها من شعارات. تعيش الجماهير وهي تردد الشعارات كالببغاء دون أن تسأل في نهاية كل كارثة: لماذا لم تفوا بوعودكم؟ هل تعرفون أن القائد يعيش في السجن منذ أكثر من خمسة عشر عاماً؟

ضجت الحافلة من جديد بالضحكات. رأيت الخال حامد يمسح دموعاً طفرت من عينيه بسبب الضحك. ثم سمعت رفاقي يتهامسون بالتركية. وتناهى إلى سمعي صوت الرفيقة زيلان وهي تقول: ''لقد جُنَّ عمي الحجي. لا تؤاخذوه على ما يتفوه به''. لكن زَيْنَلْ عارضها وقال: ''من يدري لعله مخبر يتظاهر بالجنون''. ضحكت بدوري وقلت: ''يا زَيْنَلْ هل تعرف أنك وشيت بالرفاق؟ قصدي هل تعلم أنك ستكون السبب في كل العذاب الذي ذقناه في السجن، أنا والباقون بسبب وشاياتك؟ كنا نظنك وطنياً مخلصاً لكنك كنت مدسوساً بيننا. أخبرت عن نشاطاتنا التي تكتمنا عليها ونحن نتعرض لأبشع أنواع التعذيب دون أن نتفوه بحرف. مع أول عصا انهارت قواك. أنت تخرجت في الجامعة وامتهنت المحاماة وتزوجت امرأة تركية وانتقلت إلى إزمير لتعيش حياتك بعيداً عن كل ما له علاقة بمشكلتك القومية. والآن تتهمني بالعمالة؟ لا أعرف هل أستخدم زمن المستقبل في حديثي عنك أم الماضي؟ هل أتحدث عنك

انطلاقاً من زمنك الذي تعيشه الآن أم من زمني الذي عشته من بعدك؟ أنا لا أتنبأ بما سيحدث. بل أحكي عما حدث بالفعل. وهذا ما لا يمكن لكم أن تستوعبوه. ولا أكاد أستوعبه أنا أيضاً". ضحكت زيلان مرة أخرى وقالت بثقة: "قلت لكم إنه مجنون".

هيمن السكون مرة أخرى على الحافلة ثم التفت نظمي الأوروبي الذي كان اسمه الحركي في أيام الجامعة حمزة، وقال كمعلم يمتحن تلميذه: "أنت تقول إنك آمد آيدن. ونحن متوجهون أصلاً إلى بيته. هل ستدلنا عليه؟"

– صدقوني أنا هو. أنا آمد يا رفاق. أنا آمد الجزيري. أنا آمد آيدن. سأدلكم على البيت في حارة نهر اليهود. سترون كيف سأدخل وأستقبلكم. ها هو المفتاح.

وأخرجت لهم من جيب البنطلون مفتاح بيتي.

الجمعة 16 تشرين الأول 2015

حين دخلت مجموعة من الناس المدرسة الحمراء كانت شمس دافئة تملأ الباحة بضوء أنيس وكنت جالساً أتصفح رواية موضوعها متلازمة ستوكهولم جاءني بها صديقي جمشيد قوسري خلال زيارته الأخيرة قبل أربعين يوماً. لي ملاحظات على هذا الموضوع. ليس شرطاً أن تتعرض الضحية إلى هوس مرضي يجذبها إلى الجلاد ويجعلها تتعلق به. كل جيلي الذي خَبر تجربة السجن الرهيبة أصبح ناقماً على الدولة لدرجة فيها كثير من التطرف أحياناً. ربما هناك حالة شاذة أو بضع حالات تعزز هذه النظرية لكنها ليس عامة شاملة ويمكن أن تصبح ظاهرة واسعة. ربما في حالات الانتهاك الجنسي تتعلق الضحية بمن ينتهكها وهذا نوع من الدفاع عن النفس. الجنس مقابل الحياة. بمعنى آخر: الضحية تحافظ على حياتها وتتحاشى خطر قتلها على يد الجلاد الذي ينتهكها بمنحه المتعة الجنسية. إنها غريزة البقاء ويمكن فهمها في أطر ضيقة. ربما أيضاً يتملق السجين لسجانه في سبيل بعض المكاسب الضرورية، لكن لا

أعتقد أن ضحية واحدة نجت من براثن الفاشية ثم أصبحت حرة تبقى متعلقة بها. مستحيل!

من بين الجمع الذي دخل المدرسة صباح هذا اليوم لفت انتباهي ثلاثة أشخاص كانت وجوههم تنطق بالحزن. رجل وامرأة ومعهما فتى عرفت بعد أنه ابنهما.

"هذه زوجتي. وهذا ابني. أنا والد الفتاة جميلة التي استشهدت خلال الحظر قبل أربعين يوماً"، قال الرجل الذي منحته التجاعيد المتعددة في وجهه عمراً إضافياً. رأيت في عينيه بريقاً غريباً أقرب إلى أفق غابت عنه الشمس بينما صمتت زوجته الأربعينية كأنها شمعة مطفأة. كانت المرأة صامتة لكن عينيها تكلمتا بفصاحة شديدة. إنها عيون الأمهات؛ فيها بلاغة تفوق بلاغة الأنبياء. أما الفتى، فنظر إلي بعينين باسمتين فيهما حكايات حزن كثيرة وقال: "غداً أربعينية جميلة. إنها أختي".

"رحمها الله. لقد حزن أهل الجزيرة كلهم عليها"، قلت وابتسمت له فاندفع الفتى إلى الأمام بحماسة وقال: "كل وكالات الأنباء تحدثت عن جميلة. رأيت صورها في قنوات كثيرة".

– لكن كيف استشهدت؟ هل كانت في البيت أم في الشارع؟ ومن أطلق عليها الرصاص؟ اعذروني فأنا أطرح أسئلة كثيرة. ربما ليس من حقي طرحها.

مدت الأم الثكلى يدها إلى المنديل الأسود الذي يغطي شعرها، وجلست على طرف المصطبة الحجرية وسط الباحة والمصممة على شكل صليب. زفرت بعمق ثم قالت: "سأسرد لك القصة كاملة. لقد سردتها للجميع وأنا مستعدة لأحكيها ألف مرة. لقد أحرقوا أكبادنا يا أخي. أي ذنب ارتكبته ابنتي؟ هل هي إرهابية كما تدعي صحافتهم؟ مختصر القصة يا أخي أننا كنا جالسين على الكراسي أمام باب الدار. قلت لجميلة اذهبي إلى البيت. لكنها رفضت. كانت تريد أن تبقى معنا. فجأة سمعنا صوت إطلاق النار. حين أردنا أن نهرب إلى الداخل رأيت جميلة على أحد الكراسي بلا حراك. قلت لها قومي يا جميلتي. فلم تجبني. كررت طلبي بأن تقوم لكنها بقيت على الكرسي صامتة. في المرة الثالثة صرخت فيها وقلت: لماذا لا تقومين؟ علينا أن نهرب إلى داخل الدار. نَدَّتْ منها صرخة مكتومة وقالت: آه يا أمي. وسرعان ما هربنا وسحبناها معنا إلى الداخل. اتصلنا بالحكومة. طلبنا الإسعاف. لم يأتِ أحد.

حرنا ماذا نفعل بالجثمان؟ الحرارة شديدة والجثمان سيتفسخ بسرعة؟ أتينا بمجمدة شقيق زوجي''.

قاطع الرجل زوجته: ''أنا وابني ذهبنا على عجل إلى بيت أخي. قلت له جميلة ماتت. أصابتها طلقة. ونريد أن ندفنها في الثلاجة ريثما يأتي الإسعاف''.

برز الابن مرة أخرى وأضاف على سرد أبيه: ''كانت الثلاجة ثقيلة جداً حتى بعد أن أفرغها عمي من الخبز واللحوم وغير ذلك. اجتمعنا، أبي وأنا وعمي وأحد أبنائه، لنحمل الثلاجة وننقلها إلى بيتنا''.

– الحمد لله أننا كنا جيراناً. في غضون دقيقتين كانت الثلاجة في غرفة الاستقبال.

نظرت المرأة الثكلى إليّ كأنها تستأذنني في إكمال حديثها. قلت: ''تفضلي يا أختي. أكملي. ماذا فعلتم بعد ذلك؟''

– ماذا فعلنا بعد ذلك؟ وماذا كان في وسعنا أن نفعله؟ غسلت حبيبتي جميلة كما تفرض الشريعة وكفَّنتُها بيدي. رششت عليها العطر. صبغت يديها بالحناء ووضعت في كفيها زهوراً قطفتها من الدار. عانقتها وقبلتها ثم وضعتها بيدي في الثلاجة كأنني أضعها في مهدها. كانت صغيرة يا أخي. لم تعرف غير اللعب.

''الثلاجة كانت صغيرة. لم تتسع لأختي. لذلك ظهرت في الصور كأنها تستند بظهرها إلى جدار الثلاجة''، أضاف الفتى تلك العبارة فيما ابتعد الأب عن مجلسنا بصمت وراح يدخن. بدا أنه لا يريد استعادة الألم. أما الأم، فكانت هي وابنها متحمسين لسرد المزيد. قالت: ''كان الحر شديداً. كان شديداً لدرجة أنك لو ألقيت بيضة في الهواء لسقطت مسلوقة على الأرض''.

عاد الزوج وبين أصابعه نصف سيجارة مشتعلة. تابعت الزوجة: ''قبل أربعين يوماً كان الجو جحيماً. أبقينا غطاء الثلاجة مفتوحاً. لازمتُ الثلاجة في الأيام الثلاثة التي بقيت فيها ابنتي مدفونة هناك. وفي اليوم الرابع جاءت سيارة الإسعاف ونقلتها إلى مستشفى شرناخ. لم يسمحوا بالدفن ولذلك أخذتها سيارة الإسعاف إلى شرناخ. بعد أيام طلبوا منا أن نذهب لنستلم جثمانها من جديد''.

تدخل الزوج مضيفاً: ''لم نكن وحدنا. خمس عشرة جنازة بالإضافة إلى جنازة جميلة خرجت من مستشفى شرناخ. كان يوم الدفن مثل يوم الحشر''.

أجبته بحزن: ''كنت هناك. حضرت الدفن وشيعت الشهداء مع صديق لي. لكن قولوا لي كيف يمكن أن أخدمكم؟''

ردت الأم المفجوعة: ''وكيف ستخدمنا؟ هذا قدرنا يا أخي. قبل ثلاثة وعشرين عاماً كنا آمنين في قريتنا بشرناخ. خلال معركة بين الرفاق وجيش الدولة سقطت قذيفة وسط بيتنا. قذيفة أو قنبلة أطلقتها مدافع الدولة. ابني الأكبر أصيب في ساقه. وقتل شقيق زوجي. وجرح أربعة آخرون من عائلتنا. لم تعد القرى آمنة فقلنا ننحدر إلى المدن كالآخرين. نزحنا إلى الجزيرة. وها هي الجزيرة تصبح ميداناً للحرب. ألن تنتهي؟''

كان هناك كيس على الأرض، حمله الرجل ووضعه بجانبه. وقال: ''غداً أربعينية ابنتنا. ونحن نوزع على الأضرحة بعض السكاكر لتوزيعها على الأطفال. نرجو أن توزع ما في هذا الكيس صدقة عن روح جميلة. سنذهب الآن إلى مسجد النبي نوح أيضاً. مررنا على مساجد عدة هذا الصباح''.

قاطعه ابنه: ''بقي عندنا القليل من السكاكر. والمساجد كثيرة''.

– لا بأس يا ولدي. فلتنكسر أيدي الظالمين.

''آمين. آمين''، بصوت واحد أمَّنا أنا ووالدة جميلة على دعوة زوجها.

نهض الرجل فنهضت زوجته وابنهما. مد الابن يده للمصافحة. ابتسمت في وجهه وصافحته. تبعه والده وصافحني بحرارة مودعاً. قالت الأم بنبرة رجاء أحزنتني: ''أرجو أن تدعو لجميلتي يا مولانا''.

حبست دمعتي. لم تكن تلك الثكلى تعلم أنني مدرس من مدرسي اللغة التركية وأن جميلة الهادئة كانت تلميذتي. حاولت أن أتذكر جميلة في اللحظات واللقطات التي حفظتها ذاكرتي فلم أظفر بشيء كثير. لم تكن جميلة من التلاميذ المشاغبين الذين يحفرون صورهم في الذاكرة، ولا من الطلبة الأذكياء جداً الذين يلفتون أنظار المعلمين فيتذكرونهم لسنوات طويلة. لم أرد أن أفصح للأم عن هذا السر. خفت أن يزيدها ذلك وجعاً فوق أوجاعها. لزمت الصمت

لحظة قصيرة ثم قلت لها متنهداً كخادم ضريح حقيقي: ’’هي شهيدة يا أختي. جميلة شهيدة. ستصبح من طيور الجنة وسيأجركم الله على صبركم‘‘.

مضى الثلاثة صوب بوابة المدرسة الحمراء. هرولت نظراتي خلفهم. رأيت سحب غبار صغيرة كأحلام الأطفال تثور في أثر خطواتهم الحزينة حتى غادروا البوابة.

الأربعاء 11 تشرين الثاني 2015

المطر ينقر أرض الباحة الرطبة خارج الضريح. نقرٌ أنيس يبدد رهبة السكون المعتم ويهشم زجاجه الهش.

غربت الشمس قبل قليل وارتفع صدى أذان المغرب من مآذن المدينة كلها.

أنا الآن بجانب الضريح. مسحت وأنا أسمع صدى الأذان العذب ما تراكم عليه من غبار الأيام الماضية. نفضته عن البساط الأخضر الموشى بآية الكرسي والملقى على قبر الجزري وكذلك عن البسط الملقاة على الأضرحة الأخرى.

اليوم عند الظهر أخبرتني نِشتيمان باتصال هاتفي أنها قادمة. تركت الضريح وذهبت لاستقبالها في محطة الباصات وأنا لا أكاد أصدق نفسي. مشينا تحت المطر ورفعت فوق رأسها مظلتي الشفافة الكبيرة لأقيها شر البلل.

– مظلتك كلاسيكية.

– ماذا يعني؟ وظيفتها أن تحميني من البلل وهذا يكفيني. لن أتزوجها على كل حال.

– مقتنيات المرء تعكس روحه.

– يعني أنا كلاسيكي؟

– انسَ الموضوع يا آمد. مجرد مزحة. كيف حال الإبداع؟ هل من جديد؟

لم أجبها. مشينا أكثر من مئة متر صامتين نستمتع بقطرات المطر تعابث سطح مظلتي الكلاسيكية المنصوبة فوقنا كقبة من زجاج.

كانت نِشتيمان قد قصت شعرها الجميل بشكل جعلها تبدو أقرب إلى الشباب.

"أأنت نِشتيمان حقاً؟" قلت بنبرة طفل فاجأته أمه المتنكرة. ردت ببرود وهي تقبض معي على المظلة: "الرفيقة نِشتيمان لو سمحت. منذ الآن أنا مقاتلة".

حاولت أن أستوعب موضوع قص الشعر، فقلت مازحاً: "قصدك الرفيق نِشتيمان!"

ردت بضربة قوية من كوعها على خصري: "إلى متى ستنظر إلى المرأة على أنها أنثى فقط؟ كنت أظنك أكثر تحرراً من مفاهيم المجتمعات الذكورية. أنا نِشتيمان سواء كان شعري طويلاً أم قصيراً".

كانت قد تغيرت جذرياً وقررت الانضمام إلى وحدات الحماية المدنية. وإلى جانب شعرها القصير الذي كان أول ما لفت انتباهي، لمحت في عينيها تحديات كثيرة، وفي حركتها توتراً واضطراباً هائلين. كما لمست في نبرتها ثقة بالنفس لم أعهدها قبل ذلك.

بقينا معاً في منزلنا يومين عصيبين. كل محاولاتي بالانتصاب باءت بالخجل. فكانت نِشتيمان تصدني كل مرة ولا تدعني أنزع عنها ثيابها رغم توسلاتي. كنت أظن أن التعري سيفيد في الإثارة وصولاً إلى انتصاب كافٍ. لكنها اكتفت بالقبل وبعض الملامسات. لاحظت عليها نفوراً كبيراً من موضوع الجسد. صارحتني أنها تبحث عن الأمان وهدوء النفس وليس الجنس. كانت كما فهمت من حديثها تريد تعويض أبوة مفقودة لا تريد الإفصاح عن حيثياتها. لم يحدث معي انتصاب رغم كل شيء. كنت أقذف وأنا ملتصق بها دون أن ينتصب عضوي. قذف بلا طعم ولا لذة لم أستفد منه سوى بلل مقرف لوث السروال الداخلي. لعنت السجن الذي أفقدني ذكورتي. لعنت الغبار والدولة والقدر الذي أنبتني كشجرة عقيمة في هذه البلاد الملوثة بالكوارث. أنا مخصي. أنا عنين أيها العالم الحقير. قامت الدولة بإخصائي فقط لأنني أردت منها أن تعترف بي، بوجودي على أرضي، بانتماءاتي المغايرة لانتماءات الحاكم. أنا مخصي لأن حزباً استثمر اندفاعي وحبي قضيتي ونزوعي إلى حرية شعبي لمصلحة أهدافه المتغيرة كفصول السنة. أنا مخصي لأنني لست من قومية الجلاد. أنا مخصي لأنني ولدت بالمصادفة المحض في شرق هذه الدولة لأبوين ولدا هنا وورثا الجغرافيا واللغة والهواء ولعنة الاختلاف أباً عن جد.

لم أشأ أن أبدو غاضباً أمام نِشتيمان. هي أصلاً لم تكن تهتم بالموضوع. خجلتُ من نفسي كثيراً. كانت نِشتيمان تركز على موضوع السياسة والقتال والحزب هرباً من إلحاحي عليها بالخوض في الحب. في مشاويرنا القليلة إلى ضفة دجلة على طول شارع النهر حتى تقاطع شارع غوناي الموازي للنهر الجميل تناقشنا في مواضيع الحب والثورة والأدب دون كلل. عبثاً حاولت ثنيها عن الالتحاق بالمقاتلين على الخنادق. قلت لها إن نضالاً هادئاً بالعقل يؤثر أكثر من حماسة الشباب. قلت إن قلماً قد يؤثر أكثر من ألف بندقية. لكنها كانت تردد الجمل نفسها التي كنت في ما مضى أرددها وأكررها على مسامع من يطلب مني أن أخفف من حماستي الثورية حين كنت في مقتبل الشباب طالباً في الجامعة، وصاحب خيال ثوري واسع وطموح لا ينتهي. كنا نرد بعصبية على كل من يخالفنا الرأي ونقول إنها ثورة ويجب أن تُنجز الحرية في أقرب وقت.

في البداية قرأنا كتباً عن الحرب الطويلة الأمد لإعداد الناس وتهيئتهم نفسياً لحرب قد تمتد على مدى حياة أجيال متعاقبة. ثم بدأت الوعود بالنصر القريب تتسارع وتنتشر لأنها كانت أكثر تأثيراً في الجماهير. كان لسان حال الحزب يقول: الثمرة نضجت وما علينا إلا أن نمد أيدينا لنقطفها. نعم هذا هو قانون كل حزب جماهيري دوغمائي: أطلق وعوداً جميلة، وإذا لم تنجزها أطلق وعوداً أجمل تُنسي الجماهير وعودك السابقة وهكذا إلى أن يفنى الجيل الذي وعدته أول مرة. اربط الجماهير بحبل الوعود. بل علقهم على مشنقتها وهم سعيدون يحلمون. كانت الكلمة التي يرددها النصير أو الناشط الحزبي أمام مجموعة من الشباب تصبح ترنيمة يرددها الجميع. الجملة نفسها تقولها في هذه القرية وترددها في تلك. من قرية إلى أخرى كان يجري تلقين الشباب وغالبهم من المراهقين جملاً محددة سريعة التأثير، جملاً كأنها صنارات صغيرة بطُعم قليل تجذب أسماكاً كبيرة، جملاً تشبه أعواد ثقاب أو شرارات صغيرة تستطيع أن تشعل سهولاً شاسعة بتعبير ماو تسي تونغ. وكان الناس مستعدين لتصديق ما يقال لهم، ويدفعهم إلى ذلك ظلمُ الدولة وحرمانهُم المزمن كل الحقوق حتى حق التكلم باللغة الأم والتصريح بحقيقة الانتماء القومي الذي رأته الدولة على مدى عمرها جريمة تحاكم عليها

قوانين الجمهورية التي ولدت من رحم إمبراطورية آل عثمان. دفع العطشُ إلى الحرية الناسَ دفعاً إلى اتباع السراب. مات كثيرون ظامئين في الطريق.

حاولت أن أغري نِشتيمان بالبقاء. قلت لنفسي إن قرار الحظر سيصدر وبذلك ستضطر نِشتيمان إلى البقاء عندي أطول مدة ممكنة قد أتمكن خلالها من إقناعها بالعدول عن فكرة الانضمام للقتال.

"ابقي هنا يا نِشتيمان يومين آخرين على الأقل"، رجوتها بنبرة تذلل.

رفضت بقوة: "سألبي نداء الوطن يا آمد. كيف لا تسمعه؟ الحرية قريبة هذه المرة. قريبة جداً".

أجبتها يائساً: "إنها متاجرة بالحلم يا عزيزتي. الجماهير تحلم بالحرية. وهذا حق. والحرية مطلب مقدس. لكن الحزب اختطف الحلم منذ سنوات لكنه لم يحققه. سار الناس خلفه بأمل أن يتحقق الحلم. لكنه حول الحلم إلى كابوس. اختلطت الأوراق وتعددت الولاءات وأصبحت التبعية للأنظمة المستبدة وبالاً على نهج الحزب. لم يعد لديه، بعد أن بدد الحلم، سوى إطلاق الوعود. إنها مجرد بروق خلبية لا تمطر يا نِشتيمان. وعود لا غير. وعود لا هدف لها تخدير الجماهير يا فراشة حقلي. عماد الحزب هو الوعود. وقد أخلف قادة الحزب في كل الوعود لأنهم أمِنوا المساءلة. قبل أن تولدي وعدوا بتحرير إيالة بوطان. قالوا الجزيرة ستكون عاصمة المنطقة المحررة. كانوا يقولون كما ترددين الآن: الحرية على الأبواب. رفعوا شعار: كل شيء من أجل تحرير جزء من تراب الوطن. وعدوا الجماهير بتحرير الجزيرة قريباً. شيدوا حكومات وبنوا جمهوريات وهمية في الوديان والشعاب. أوقعوا بمئات الشباب في مصيدة هذه الشعارات. ثم مضت ولم يتحقق أيٌّ منها. انضم الناس إلى الحزب جماعات جماعات تصديقاً لوعوده، ثم انشقوا فرادى بعد أن اكتشفوا الزيف. مسيرة هذا الحزب مراحل متتابعة الواحدة منها تغطي على الأخرى. إنها مسيرة سريعة الإيقاع لا مجال فيها لاستعمال العقل. صدى الشعارات المدوية لا يسمح لأحد بأن يستمع لوشوشة العقل. لكل مرحلة شعار براق يجذب الأفئدة. لكل مرحلة مغناطيس قوي ينزع مسامير العقل. ابقي هنا وليجرفنا الحب إلى حيث يشاء".

ردت: ״الحب الحقيقي هو الذي تمنحه لوطنك المحتل. إنه حب خالد وسيبقى إلى الأبد. الحب الذي تمنحه لجسد يفنى بعد مضي قليل من السنوات ليس حباً، بل شهوة عابرة. الجسد مستنقع قذر״.

قلت بتشنج: ״الموت في سبيل الوطن! الموت الموت الموت! هذا هو الشعار الذي دمر مجتمعنا أكثر من بقية الشعارات. لماذا لا نرفع شعار الحياة من أجل الوطن؟ حتى لو كان الجسد مستنقعاً قذراً فهل يجب تقديمه قرباناً؟ الوطن ليس قصاباً بيده سكين يقف على باب مسلخ يا نِشتيمان״.

أجابت بهدوء وهي تحتضن دميتها: ״هو ليس قصاباً بالتأكيد. لكنه بلا شك معبد مقدس تراق على أعتابه دماء القرابين وأنا قررت الانضمام إلى قافلة المضحين بأرواحهم״

قلت بنبرة رجاء بعد لحظة صمت قصيرة: ״لماذا لا نبحث عن سبل أخرى لتحرير الأوطان؟ لماذا لا ننتهج مبدأ اللاعنف الذي نادى به غاندي؟ لماذا يجب أن نفرش الطريق إلى الحرية بالدماء؟״

قالت: ״غاندي! وماذا جرَّ لا عنفه على الهنود المساكين؟ قتل الإنجليزُ الآلافَ من المدنيين الهنود كأنهم جنود يقاتلون في حرب. لو كان أولئك القتلى مدججين بالسلاح، لكان عدد القتلى منهم أقل، ولذاق الإنكليز من الموت الذي أذاقوه للهنود. لغة السلم لا تفيد مع عدو فاشي لا يعرف غير العنف. هل تظن نفسك في السويد تتظاهر من أجل حقوقك فتحميك شرطة البلاد؟״

قلت: ״لقد جربنا القتال يا نِشتيمان. ثلاثون عاماً والدم يراق. ما النتيجة؟״

قالت: ״انتهت حرب الجبال. الرفاق قرروا نقلها إلى المدن. أليس هذا بسبيل آخر لتحرير الوطن؟ لم نجرب حرب الشوارع قبل الآن. وأنا كلي إيمان بالنصر. أصلاً كان من المتوقع أن تتقدمني إلى الجبهة. على الأقل تنتقم لما فعله العدو بك في السجن!״

رددت متبرماً: ״أنا أقرأ الواقع من منظور آخر. لم أعد مأخوذاً بالشعارات ولا مغرماً بشيء اسمه القتال״.

قالت: ״ما الذي يخيفك من القتال؟״

قلت: ”لا أخاف القتال. لقيت من أهوال التعذيب ما يذيب الصخر. أصابني جراءه ما يهون الموت في عيني. لكن القتال سيدمر المدن ويشرد الناس“.

قالت: ”ألم تتدمر كوباني أيضاً؟ ما الذي تدمر منها: بيوت من طين وحجارة؟ ما قيمة كل ذلك لو قارناه بالكرامة. بقيت روح المقاومة في كوباني عصية على الدمار. بل أصبحت منارة لكل شرفاء العالم. إنها الآن أيقونة عالمية“.

قلت: ”أنت لا ترين سوى وجه واحد للحرب. للحرب وجه آخر قبيح جداً. والثوريون المتحمسون عادة ما يخفون ذلك الوجه عن الجماهير لكيلا يجف ينبوع الشباب المنضمين للقتال. الكل يصيح إلى الموت، إلى الموت“.

قالت بسخرية بعد أن وضعت الدمية البنية وراء ظهرها: ”تريد وطنك حراً بعريضة تقدمها للمحتلين؟ ببضعة نواب يثرثرون في البرلمان؟ برواية تكتبها؟ لكل شيء ثمن يا رفيق آمد والحرية تستحق بذل الأرواح. كيف تفوتك هذه الأشياء؟ أنت تكبرني بسنوات طويلة، واختبرت ظلم هذه الدولة وذقت مرارته. كنت أتوقع أن تنضم إلى الرفاق وتحمل السلاح أو تبارك خطوتي على الأقل لا أن تعتبر دفاعنا عن وطننا نشراً لثقافة الموت“.

قلت بيأس: ”لم أقصد هذا. قلت لنخفف من نشر ثقافة الموت. الناس تعبوا. لنبحث عن لغة غير العنف، غير القتل والدماء. ثلاثون عاماً من الموت. ألا يكفي؟ لنعش منذ الآن من أجل الوطن بدلاً من أن نموت في سبيله. لنغير اللغة“.

قالت متحدية: ”قلت لك العدو لا يفهم إلا هذه اللغة“.

أجبت: ”طيب دعيني أضرب لك مثلاً. هل تعرفين روزا باركس، الناشطة الأميركية السوداء؟“

– لا. من هي؟

– أنت لا تعرفين سوى غيفارا وأمثاله.

– أرجو ألا تسخر مني ولا من رجل عظيم بحجم غيفارا.

– أنا لا أسخر. أنا أسوق لك مثالاً عن قوة اللاعنف وتأثيره في تغيير المجتمعات والقوانين التي تحكمها. روزا باركس يا سيدتي كانت امرأة سوداء استطاعت بتصرف بسيط تغيير

قوانين مجحفة بحق السود في أميركا.

رويت لها بالتفصيل قصة روزا باركس. حكيت لها عن حركة مارتن لوثر كينغ التي استطاعت أن تهدم جدران العنصرية في أميركا عبر حركة احتجاجية سلمية. حكيت لها كثيراً لكن دون جدوى.

– نِشتيمان! صدقيني القتال لن يجر على بلادنا سوى مزيد من التهميش والدمار وحتى انكسار الروح القومية. لنؤسس لحركة سلمية بعيدة عن التطرف والدماء وهذه الدعوة المستمرة إلى الموت. هذا لن يجلب لنا إلا الخراب.

– سترى.

خطفتْ دميتَها البنية. احتضنتها ثم نهضت إلى النافذة الواطئة تحدق في شجرة التين التي لم يبقَ على أغصانها الملتوية الصاعدة إلى السماء سوى ورقة عنيدة واحدة ربما نسيتها ريح الخريف.

***

لم تكن نِشتيمان تعرف حتى استعمال الرشاش. كيف يقبلونها مقاتلة تخوض حرب شوارع ضد جيش لا يرحم؟ لماذا لا يجربون مظاهرات سلمية في ديار بكر وبدليس ووان والجزيرة وفي المدن التركية الكبرى مثل أنقرة وإسطنبول وإزمير ولهم فيها وفي غيرها أنصار كثيرون؟ لماذا "لا ينقلون المعركة إلى ساحة العدو" وفق التعبير العسكري؟ كانت هذه مطالب كثير من شباب جيلي أيضاً في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات حين اشتدت وتيرة القتال وأثقلت كاهلَ الناس الأكلافُ الباهظة للحرب التي شبَّتْ نيرانها بين ظهرانيهم. لقد دمرت الحربُ الأريافَ الكردية ووصلت النار حتى إلى قبائل الرحل الذين يتنقلون بقطعان مواشيهم في الجبال فتوقف الرعي ومنيت الثروة الحيوانية بخسائر ضخمة في مجتمع يعتمد بدرجة كبيرة على الرعي منذ آلاف السنين. جنَّد الحزب كثيراً من القاصرين فتيان تلك القبائل بالإكراه. لم يكونوا ينضمون إلى الحزب رغم

الدعاية القوية. كان همهم التنقل بخيامهم من وادٍ إلى آخر، فيسرحون بقطعانهم، وينتجعون ويصطافون ويشتون ويمارسون تقاليدهم المعروفة منذ الأزل. لكن الحرب قضت على تلك التقاليد وأصر الحزب على وضع هذه القبائل أيضاً في دورة الموت.

روى لي أحد المقاتلين قصة أليمة أضحكته وأبكتني بخصوص حملة التجنيد الإجباري التي أعلنها الحزب نهاية 1987.

قال وهو يضحك: ”ذات صباح ذهبت مجموعة من الرفاق إلى عشيرة كانت تصطاف في جبال كابار وأراد قائد المجموعة أن يجند بضعة فتيان صغار من العشيرة. جاء الدور على فتى صغير لم يتجاوز الخامسة عشر من العمر. كان راعياً وسيماً بعينين شهلاوين جريئتين. شده قائد المجموعة من يده اليمنى وقال له: ستأتي معنا أيها الراعي الصغير. هناك ما هو أهم من حلب النعاج والركض وراء الخراف والجداء المشاكسة. كردستان الموحدة المستقلة تنتظرنا. سنحارب من أجلها“.

”قفزت امرأة في نحو الخمسين من العمر من مكان بعيد قليلاً وجاءت لتشد بدورها يد الفتى الصغير اليسرى وصاحت: هذا زوجي. كيف ستأخذونه إلى الحرب؟

– زوجك؟

– نعم إنه زوجي وسَنَدي. أرجوكم لا تأخذوه إلى الحرب سترملونني ولن يبقى لي أحد في هذه الدنيا.

بقي الفتي مشدوداً من معصميه للحظات قليلة. المرأة الخمسينية تشده ومشاعر الهلع تغطي وجهها الذي لوحته الشمس وقائد مجموعتنا القتالية ذو الشاربين الكثين والعينين القاسيتين يشده من جهته“.

”حين سمع قائد المجموعة ما قالته المرأة ترك يد الولد وسط دهشتنا جميعاً. لم يكن الحزب يأخذ المتزوجين ولا ندري كيف فطن أولئك الرحل إلى قرارات الحزب بخصوص المتزوجين واستثنائهم من قانون العسكرية الذي تم إعلانه بعد ثلاث سنوات من انطلاق الحركة المسلحة في آب“.

"كان ما جرى في ذلك الصباح الجبلي خدعة من المرأة الخمسينية. عرفنا في ما بعد أنها أم الراعي الفتى وليست زوجته. لم يكن أمامها سوى الكذب الذي تخجل منه أجرأ امرأة في العالم لتنقذ ابنها الصغير من قانون التجنيد".

"لم ينتبه الرفاق إلى تلك الخدعة إلا بعد تكرار حالات مشابهة لحالة المرأة الخمسينية وابنها اليافع. كلما أراد الرفاق سوق قاصر إلى الحرب، انبرت امرأة تدعي أنه زوجها! ومع ذلك تم خلال عام واحد تجنيد المئات من شباب الرحل الذين استشهد منهم العشرات. وهكذا تم ربط تلك القبائل بالحزب وأصبحوا مؤيدين له".

***

تذكرت هذه القصة التي ذكرتني حين سمعتها بمسرحية **دائرة الطباشير القوقازية** للكاتب برتولد بريخت وأنا أنظر إلى نِشتيمان تتكئ على حافة النافذة المطلة على باحة الدار حيث تنتصب شجرة التين الكئيبة بورقتها الوحيدة.

قمت إليها. وقفت بجانبها وصرت أداعب ظهرها وأنا أحدق مثلها في باحة الدار الغارقة في قيلولتها.

– أنت صغيرة يا نِشتيمان. صغيرة على خوض حرب.

– ولماذا لست صغيرة على خوض الحب؟ تكبرني بأكثر من ربع قرن يا آمد. أنت تريدني هنا من أجل شهواتك. لأنني كما تقول أعدت إليك رجولتك التي سلبها الجلادون في السجن. تريدني لتستعيد عافيتك الجنسية. أنت ذكر، محض ذكر ولا تريدني من أجلي. كنت أتوقع أن تصبح لي أباً أكثر من أن تصبح حبيباً.

شعرت بما يشبه لكمة مرتدة من ملاكم خبير. كان في كلامها بعض الحقيقة. نِشتيمان ذكية. ورغم صغر سنها وأنها تعاني من جرح تحاول إخفاءه وسر تتكتم عليه، فقد كانت قادرة على أن تختار أجوبتها المنطقية كامرأة لها تجربة كبيرة في الحياة. "التهمت عشرات الكتب وهضمتها جيداً"، قالت لي ذات مرة. بعد قليل من الترنح بتأثر اللكمة المرتدة عدت إلى حالة

الهجوم وقلت بنبرة يشوبها بعض الغضب المصطنع: ''ما هذا الكلام يا نِشتيمان؟ أحبك كحبيب. لكنني انطلاقاً من مشاعر الأبوة أشفق عليك من الحرب''.

سددتْ إلي لكمة أقوى من السابقة: ''تشفق علي؟ هذا ليس بسبب مشاعرك الأبوية. إنك تشفق علي لتمتلكني جسداً. كلنا تلوثت أرواحنا. أريد أن أتطهر يا آمد. أنا روح ملوثة. جسد قذر بحاجة إلى نار لتتطهر. دمي الذي سيسيل على تراب الوطن فقط يقدر على غسل روحي من القذارة التي علقت بها''.

– روح ملوثة، جسد قذر؟ من يسمعك يظن أنك كنت عاهرة قضت حياتها في بيوت الدعارة.

– صعب أن تستوعب ما أقوله. لأنك لم تعش ما عشته.

– اعذريني على ما تفوهت به سابقاً. لكنك ما زلت في مقتبل العمر. فما الذي ارتكبتِه حتى تقولي عن نفسك ملوثة وقذرة؟ هناك شيء تكتمينه عني. صدقيني سيتخفف بالبوح. لكن مهما كان، فليست الحرب قراراً صائباً. صدقيني أنت روح جميلة نقية. ابقي معي. سنعيش حياة جميلة. أنا كنت كائناً محطماً قبل أن ألتقيك. أنت منقذتي. ولن أدعك تتركينني.

– ألم أقل لك؟ أنت أناني. تريدني لنفسك. إنك لا تشفق علي بل ترغب في جسدي. تشتهيني وحسب.

– لا يا نِشتيمان. ليس الجسد كل شيء. للجسد علينا حق لكنه ليس كل شيء. أنت تعرفينني وتعرفين أفكاري. وتعرفين أنني سجنت في سبيل القضية وتعرضت لتعذيب وحشي.

– انتهى الأمر يا آمد.

– إن كان السبب فارق العمر الكبير بيننا، أو أنك متعلقة بشخص آخر، فسنناقش الموضوع بهدوء وسنصل بلا شك إلى نتيجة. المهم تعالي معي ولنبتعد عن هذه النار. سأكون لك أباً حنوناً وصديقاً حميماً إن عجزت أن أكون حبيباً وزوجاً.

''أقول لك انتهى الأمر يا آمد''، ردت علي بقليل من القسوة.

كنت قد فتحت اليوتيوب على أغنية لارا فابيان الشهيرة Je Suis Malade التي تعشقها نِشتيمان كثيراً.

"الرائعة لارا تتكلم بلساني. أنا مريضة ولن أشفى"، قالت نِشتيمان بحزن قبل أن يحتدم النقاش بيننا.

أما أنا، فشعرت وأنا أصغي إلى الكلمات الحزينة أن نِشتيمان حفنة ماء تتسرب من بين أصابعي فأخذتها في حضني وصرت أقبلها بجنون.

طُرِق الباب.

قالت بقلق: "لقد جاء الرفاق يا أمد. يجب أن تغادر للأسف إلا إذا شئت القتال معنا".

لم أكترث لما قالته بل مضيت أقبلها بحرارة وأداعبها باشتهاء. جررتها وأنا أطوق خصرها ثم ألقيتها على السرير وارتميت فوقها وأنا ألهث شبقاً. الماء يتسرب من بين أصابعي وأنا لم أرتوِ بعد.

لم يتوقف الطرق على الباب.

"أحبك يا نِشتيمان. أرجوك. ابقي معي. أنا لا شيء من دونك. لقد أعدت صياغتي كإنسان سوي. لقد أعدت إليّ رجولتي. لقد جعلتني أهزم الجلادين. بفضلك نسيت مرارة السجن".

ثم قبلتها في شفتيها، وعينيها، ورقبتها، وحلمتي أذنيها. حاولت أن أفك أزرار قميصها الساتان الأزرق لكنها صدتني. دفعتني عنها بعنف لبوة ثم نهضت وصارت تزرر قميصها المهتوك وتهمس بعصبية: "كفى يا آمد. أنت تبرهن الآن نظرتي فيك. أنت ذكر. ذكر مثل بقية الذكور. لا ترى المرأة إلا موضوعاً للجنس وبمجرد أن خفتَ من غيابي أسرعت إلى جسدي".

لم أتوقف. جذبتها من خصرها فضربت على يدي بشراسة وزأرت: "هل تريد أن تغتصبني؟ ذكور. ذكور شبقون. كلكم تبحثون عن اللذة. صدقني لو تماديت سأخبر الرفاق. هم عند الباب ولا تعرف ماذا ستكون النتيجة".

وخرجت مسرعة لتفتح الباب.

لم ينتصب عضوي رغم كل تلك المداعبات.

"عضو أثري. مومياء محنطة. ينبغي أن يضعوك في متحف الحضارة السومرية يا عضواً من شمع"، قلت بصوت مرتفع ساخراً.

ثم تبعت نِشتيمان في الخروج فرأيتها تهرول صوب باب الدار. في هذه الأثناء سمعت خشخشة أنيسة أعقبها صمتٌ يليق بظهيرة خريفية.

سقطت الورقة الأخيرة من شجرة التين.

تهاوت الورقة. تراقصت قليلاً في الفراغ الفاصل بين غصنها الأم وبين الأرض التي ستصير مقبرتها ومقرها النهائي ثم ما لبثت أن همدت على الأرض اليابسة الباردة وهي تمد أذرعها الخمس من التعب.

في تلك اللحظة، أي حين استقرت ورقة التين الوحيدة أسفل الشجرة العارية، فتحت نِشتيمان البابَ فظهرت فتاة ثلاثينية تلف على عنقها منديلاً ملوناً ويلوح على وجهها شبح ابتسامة شاحبة.

"أهلاً جَيْلان"، رحبت نِشتيمان بالرفيقة القادمة التي بدت مستعجلة كساعي بريد يريد تسليم رسالة ليذهب ويواصل عمله. وشوشتا قليلاً. حاولت التنصت لكنني لم أسمع شيئاً من حديثهما الخافت. ثم التفتت نِشتيمان إلى الوراء فرأيت في عينيها قلقاً ظاهراً ورجاء.

ذهبت إليها. رأيتها غارقة في الحزن المشوب بقليل من البهجة. اقتربت منها حتى رأيت في عينيها بريق مشاعر متناقضة. قالت بهدوء وابتسامة ساخرة لكنها حلوة: "يجب أن تغادر بيتك بأمر الحزب وقوات حماية المدنيين يا رفيق آمد. حين ينتهي القتال ونهزم الفاشيست ستعود لنحتفل. إن لم تجدني على قيد الحياة، فستجدني على قيد الكتابة. سأترك لك في الغرفة دفترين صغيرين. إنهما دفترا مذكرات أخفيتهما في حقيبتي البنية الصغيرة ووضعتهما في درج مكتبتك. أحدهما بخط يدي. لا يجوز أن تفتحهما إلا إذا سمعت خبر استشهادي. لن تفهمني إلا إذا قرأتهما".

– سأعود لأراك على قيد الحب يا نِشتيمان. أما الدفتران، فأنا أعدك ألا أفتحهما ما دمتِ تتنفسين. سنقرأ فصولهما معاً.

عدت إلى غرفتي. حملت بعض الكتب والأوراق ثم خرجت وودعتها بحزن. عانقتها وسط نظرات قاسية من الرفيقة جيلان. لم تقل نِشتيمان شيئاً. كانت متلهفة لخوض القتال. خرجت من حضنها بمشاعر المهزوم وأنا أقرأ في عينيها بريق النصر.

عدت إلى صومعتي الهادئة عند ضريح الشاعر الجزري.

كانت الجزيرة تمور في تلك الأيام. كثرت الإشاعات وتناقضت. كل يوم تظهر إشاعة جديدة تدحض سابقتها لتظهر واحدة أخرى تنسف الجديدة وهكذا. الخوف والقلق من المجهول دفعا الناس إلى أن يغادروا الحارات التي اتخذها المقاتلون خنادق ومتاريس لهم. بعض المدنيين بقوا مع المقاتلين لكن الغالبية نزحت. كأنهم شموا رائحة الدمار القادم من الشعارات الضخمة التي كانت تدب الحماسة حتى في الحجارة. كأنهم أحسوا بقرب ثورة البركان أو حدوث الزلزال فهربوا على نحو غريزي.

لكن رغم سيل الشعارات ووعود النصر والثوران العاطفي، رفض سكان بعض الحارات محاولات المقاتلين اتخاذها نقاطاً عسكرية لهم. رفضوا ذلك بشدة بلغت حد التهديد بقتالهم إن هم أصروا على إقامة المتاريس والخنادق في أزقتهم.

– أي عاقل يجعل بيت المدني خندق مواجهة؟ عندنا أطفال ومرضى ونساء حوامل. أبعدوا نيرانكم عنا.

– سنقاتل العدو وهذا واجبنا المقدس. العدو في مرحلة ضعف. إنه مشتت ومعزول إقليمياً. العنف وحده سيجبر العدو على احترام هويتنا. العنف يقتلع الجزر كما يقول المثل.

– العنف غول حين تغذيه يلتهمك. ثلاثون عاماً من العنف فكم جزرة اقتلعناها؟ ألم يكفِ أن الملايين اقتلعوا من قراهم وبلداتهم ونزحوا إلى المتروبولات التركية؟

– سنهزم العدو هذه المرة. سنقتلعه من أرضنا وننشئ إدارتنا الذاتية بإرادة الشعب.

– نحن الشعب وإرادتنا ترفض حرباً داخل بيوتنا. عليكم احترام إرادتنا وليس فرض إرادتكم علينا. أي شيطان وسوس لكم وزيَّن لكم هذه المغامرة؟ لمصلحة من ستنخرطون في قتال لا تعرفون عواقبه؟ إن لم تغادرونا بالحسنى، فسنضطر إلى القوة.

هكذا رفض بعض السكان سعي الحزب إلى جعل الحارات خنادق للتحصن والقتال. أهالي حي الطور في الجزيرة القديمة بأزقتها الضيقة جداً، والبرج الأبلق التاريخي، مقر الإمارة البوطانية لقرون عدة، وأهالي حي دجلة حيث سكان العشائر البوطانية الأصيلة، وكذلك أهالي حي القلعة كلهم اجتمعوا على رفض إنشاء المتاريس وحفر الخنادق بجانب بيوتهم.

السبت 28 تشرين الثاني 2015

قتلوا طاهر ألجي.

حمل غراب الليل قبل قليل هذا الخبر الأشد حلكة منه وألقاه على روحي بمنقار الإنترنت.

طاهر ألجي ابن مدينتي الوديع المسالم، المحامي الذي دافع عن قضايا المختفين الذين اغتيلوا برصاص "فاعل مجهول"، المحامي الذي حاول أن يزرع بذرة السلام في أرض تسقيها الكراهية. هو لم يحمل بندقية بل حمل لافتة صغيرة تدعو إلى احترام التراث الإنساني حتى في زمن الحروب. كان مشروعه يخيف طرفي النزاع. السلام يعني إلغاء امتيازات جنرالات الحرب وغياب مبرر الشعارات الرنانة التي يعج بها إعلام الحزب التعبوي. الحزب يعلم أن وجوده مرتبط باستمرار القتال وأن أي هدنة تعني عودة الوعي وفتح الدفاتر القديمة. في خضم الحروب تغيب المساءلات. في ضجيج المعارك يغيب صوت العقل الذي ينادي بالتحقيق في مجزرة وقعت هنا وأخرى هناك، وجريمة اغتيال ضد هذا وأخرى ضد ذاك، وحماية هذا الصرح الحضاري أو ذاك. كان ابن مدينتي الطيب هذا ينبذ العنف ويدعو إلى تعزيز مسيرة السلام والتمسك بالقليل من الأمل. قتل هذا الجزري الجميل وهو يحاول حماية منارة مسجد الشيخ مطر في منطقة السور من طلقات فريقي القتال.

المئذنة الفريدة المرتفعة عن الأرض بأربعة قوائم أسطوانية من معالم مدينة ديار بكر ومنطقة السور التاريخية. إنها مئذنة عمرها أكثر من خمسمئة عام. تضررت قوائمها بسبب القتال فأصر رئيس نقابة المحامين طاهر ألجي أن يعقد مؤتمره الصحافي بجانبها لكي يلفت الأنظار إلى ضرورة حماية هذا التراث الإنساني الذي توشك اليونسكو أن تضمه إلى قائمتها.

التقيت الأستاذ طاهر مرات عدة خلال زياراته النادرة إلى الجزيرة. في آخر زيارة قبل أن تتدهور الأمور دار بيننا حديث قصير أتذكر حرفياً كل جملة تبادلناها فيه.

– ما رأيك أستاذ طاهر في حالة اللاسلم واللاحرب التي غاصت في وحولها عجلات عربة التاريخ عندنا؟

– إنها حالة عابرة. لن يدوم الوضع هكذا.

– وكيف سيتطور الأمر؟ هل هناك أمل في الانفراج؟

– إما دفع من الخلف من قبل رجال أقوياء البدن، وإما خيول قوية تجر العربة. وإلا فالعربة ستبقى عالقة في الوحل.

– يعني؟

– يعني الحل في حراك سلمي شامل، نضال بديل ينخرط فيه الشباب بدلاً من الاستمرار في هذه الحرب. النضال المسلح استنفد كل طاقاتنا. من مصلحة الدولة استمرار الكفاح المسلح حتى تثبت نظريتها في أن الموضوع إرهاب فقط.

– والحزب أيضاً يريد استمرار الحرب أستاذ.

– ما يفعله الحزب هو رد فعل. لا أبرر ما يقوم به، لكن ألا تلاحظ أن مبادرات السلام تأتي من طرف واحد؟ ألا ترى أن زعيم الحزب هو الذي يطرح المبادرة تلو الأخرى؟

– هذا صحيح لكن الحزب يحتكر الحراك السياسي. إنه لا يريد...

قطع حديثنا القصير صوتُ سيارة فورد بيضاء رأيتها من خلال الواجهة الزجاجية الكبيرة لمكتب المحامي الذي كنا في ضيافته قريباً من متحف أبي العز الجزري. كان معي في تلك الجلسة صديقي الدائم الشاعر جمشيد قوسري. وكان صامتاً خلال الحديث القصير على غير عادته. بعد أن غادر المحامي طاهر ألجي بدقائق خرجنا من مكتب المحاماة نحن أيضاً.

"أريد زيارة المتحف"، قال جمشيد قوسري متجهماً.

– سنزوره. لكن لماذا كنت صامتاً؟ هل انزعجت من مشروع الأستاذ طاهر؟

– لا بالعكس. كنت أفكر في مشروعه. يستطيع هذا الرجل أن يكون غاندي الكُرد لكن...

– ماذا؟

– لن يسمحوا له. سيقتلونه إن استمر في الدعوة إلى السلام. السلام خطر يا صديقي.

– السلام خطر.

– نعم. خطر على الذين يريدون ثورة مستمرة لا تنتهي حتى لو انتهى الشعب كله. وهو خطر أيضاً على جنرالات الحرب في دولة فاشية حتى العظم. طاهر ألجي لن يجد آذاناً تصغي إليه. لا هنا ولا هناك.

في هذه الأثناء وصلنا إلى المبنى الكئيب ذي الطابقين بأقواسه الجميلة وجدرانه الحجرية وشرفته التي تعلو البوابة: متحف أبي العز الجزري.

"ما الذي يغريك في هذا المتحف يا صديقي؟" قلت متبرماً مستهجناً. ضحك جمشيد. قبض على حقيبته الجلدية المعلقة على كتفه وقال: "القريبون من المعالم الأثرية لا يعرفون قيمتها. تماماً مثل ذلك الأهبل الذي له زوجة جميلة قد يتمناها نصف رجال الكرة الأرضية لكنه يضربها كل ليلة".

ضحكت. تمثلت بشطر بيت من قصيدة شهيرة للجزري: "من أين للحمير أن تعرف قيمة الورد؟"

أكمل جمشيد البيت بصوت ملأ الشارع: "إنها مغرمة بالكَرْبَشْ".

ملأ ضجيجُ السيارات الأجواءَ واخترق حوارنا القصير. لكن الضجيج الذي ملأ رأسي في تلك اللحظات طغى على ضجيج الشارع. ازدحمت مخيلتي بصور المثقفين الذين سالت دماؤهم على هذه الأرض. تذكرت موسى عنتر، وداد آيدن، الأرمني هرانت دينك... تذكرت هرب السينمائي يلماز غوني، المغني أحمد كايا وكثيرين آخرين ضاقت البلاد بحناجرهم وألحانهم وسطورهم وأفكارهم وقبل كل شيء بهويتهم المختلفة.

***

لقد قتلوه.

تحققت نبوءة صديقي الشاعر المارديني جمشيد إذن! رأيت فيديو قصيراً على اليوتيوب يصور لحظة القتل. كان يصرح للصحافة مطالباً بإبعاد القتال عن تلك المنطقة. المنارة الجريحة الملفوفة بشريط أبيض وأزرق إلى يمينه. فتيات وشباب يقفون حوله يحملون لافتات كتبوها على لسان المنارة الأثرية الجريحة: "لقد أصابوني في أقدامي". "أنا من التراث الإنساني". "شاهدت حروباً وكوارث لكنني لم أشاهد خيانة كهذه". كان هو أيضاً يحمل لافتة صغيرة لم تستطع أن تحجب أناقته ذلك الصباح. قميص مخطط لطيف الألوان. ربطة عنق خضراء داكنة وسترة فاتحة اللون. كانت أناقته استثنائية كأنه قصد أن يواجه الموت بأجمل ما عنده من ثياب. منارة شامخة. منارة من لحم ودم تحمي منارة من بازلت أسود.

فجأة حدث هرج ومرج بعد سماع أصوات طلقات قريبة. ظهر التوتر على وجهه. ظهر شخصان يحملان في أيديهما مسدسات سوداء. كأنه فيلم. فيلم بوليسي تلاحق فيه الشرطة فارين من سجن. ركض شخصان آخران على طول الشارع الفرعي الذي تنتصب فيه المنارة، قيل أنهما قتلا قبل لحظات شرطيين تركيين في الشارع الرئيسي، ومرا من أمام طاهر ألجي والمسلحين. سدد المسلحان اللذان ظهرا في الفيديو مسدسيهما إلى الجهة التي ركض صوبها الشخصان القادمان من الشارع الرئيسي. إطلاق نار. طاخ طاخ طاخ. طاخ طاخ. رعب وفوضى. الكاميرا تدور إلى اليمين. ويظهر طاهر ألجي على الأرض دون حراك.

لقد سقطت منارة السلام.

***

حزين أنا. طائر وحيد أنوح على غصن هذا الليل البارد. حزين أنا على هذا الإنسان الرائع. ابن مدينتي، ابن هذه الجزيرة التي تتآكل قهراً، ابن هذا النهر الذي يجري هائماً على موجه صوب القفار الجنوبية. حزين أنا كأم ثكلى تقف على قبر ابنها أو أرملة تنتظر جثمان زوجها يعود من المعركة.

لا رغبة لدي في الكتابة هذه الليلة. ولا مزاج عندي لأبدأ كما أفعل كل ليلة رحلةَ المعراج على البراق السرياني كما يصف صديقي جمشيد قوسري نبيذ مَعاصِر برية ماردين. سألوذ بكتاب من الكتب التي أحضرتها معي. المطالعة خندقي الأخير ومخبئي الحصين حين تضجرني الكتابة أو مشاغل الحياة أو تخرسني حادثة.

الخميس 17 كانون الأول 2015

عدت هذه الليلة إلى الكتابة بعد أن تحسن مزاجي قليلاً. منذ نحو ثلاثة أسابيع لم أدوّن حرفاً واحداً لا من روايتي ولا من يومياتي ومذكراتي التي وضعت لها عنواناً مؤقتاً هو "سيرة الغبار". حاولت أن أغير عادات الكتابة

بناء على نصيحة أحد الروائيين قرأتها ذات مرة في حوار عميق معه. لم أعد أتذكر لا اسم الروائي ولا اسم الصحيفة التي نشرت الحوار. لكن النصيحة بقيت طازجة في خيالي.

قلت لنفسي إن الصباح هو التوقيت الأنسب لكتابة الرواية. حاولت أياماً عدة دون أن أفلح. صحيح أن الذهن أصفى ما يكون في الصباح، لكنّ الليل ذا رهبة خاصة تجعله مملكة الخيال الأرحب وفضاء الإلهام الأنقى. لم أفلح في تغيير عاداتي تماماً مثلما لم أفلح في ترويض نِشتيمان.

هي تتحاشى موضوع الحب كثيراً. أشعر أنها بحاجة إلى حنان وحب كبيرين، وأكدت لي مراراً أنها وجدت عندي ما يجذبها إليّ بعكس الرجال الآخرين الذين تنفر منهم ولا تطيق الجلوس إليهم. لكنها لا تتصل بي. ترد على مكالماتي باختصار وتزعم أنها مشغولة حين يصل الحديث إلى محطة الحب. إنه حب مستحيل. ليس فقط حباً من طرف واحد بل حباً بين شخصين يحملان ندوباً كبيرة في روحيهما وتصدعات عميقة من أثر زلازل سابقة. أما روحي، فأعرفها وأعرف ماذا جرى لها. لكن روح نِشتيمان؟

إنها لا تحبني. أو لأقل هي تكتفي باحترامي. يرعبني فكرة أنها تعرف قصتي. يرعبني هذا الموضوع. وأخشى دائماً أن أحداً ما يشك في أمري نقل إليها تفاصيل ما أعانيه. أصدقاء كثيرون وزوجاتهم يلحون عليّ أن أتزوج لكنني أرفض. أتذرع كل مرة بكذبة أختلقها كأن أقول مثلاً خطبت إحدى قريباتي في ديرسم، أو إن لي صديقة في إسطنبول. حتى إنني أقول أحياناً على سبيل النكتة والتخلص من الإحراج أنا لن أتزوج حتى يتحرر شعبي. لكنني لا أعتقد أن الناس أغبياء لدرجة تصديقي وقبول هذه الذرائع الواهية خاصة أن ظاهرة الاستنكاف عن الزواج متفشية بين من عاش تجربة السجن المريرة في بداية الانقلاب الفاشي. والناس يتداولون بينهم أن من سجنوا بعد الانقلاب فقدوا فحولتهم. قبل سنوات نشر صديق لي من الكتاب رواية قصيرة بعنوان "المخصي". خلال زيارتي إلى إسطنبول للعلاج التقيته في مكتبته الصغيرة فأهداني نسخة منها. الرواية القصيرة هذه تتحدث عن هذا الموضوع المسكوت عنه بأسلوب أدبي مؤثر. رفعت هذه النوفيلا الغطاء عن قضية إنسانية

مؤلمة أصبحت في مجتمعنا التقليدي المحافظ نوعاً من التابو. لكن بفضلها بات الناس يعرفون تفاصيل ما نعانيه.

في تلك الزيارة إلى إسطنبول عرجت على طبيبي الخاص فأحالني إلى طبيب أعصاب شهير. بعد فحوصات عدة أكد الطبيب أن أعصاب القضيب تالفة.

– ماذا يعني هذا؟

– هذا يعني شللاً في القضيب. كما أن كسر العمود الفقري وتضرر النخاع الشوكي يسبب شلل القدمين، فإن تضرر أعصاب القضيب يسبب عجزاً عن الانتصاب.

أشار الطبيب إلى لوحة فوق طاولة المعاينة كانت رسماً تخطيطياً للقضيب والخصيتين وما يتعلق بهما من أعصاب وعضلات وقال: "هذه هي أعصاب القضيب. إنها تنتهي هنا. وهي تنقل الإشارة الكهربية من الدماغ وتقوم بإفراز أكسيد النيتريك الذي يهيج العضلات. في حالتك الأعصاب تالفة تماماً. لا يحدث أي إفراز لأكسيد النيتريك الذي يوسع الأوعية الدموية فيساهم في تمدد عضلات القضيب. هذا ما يشير إليه التحليل المخبري لديك".

– يعني؟

– من عادتنا نحن الأطباء ألا نقطع الأمل. لكننا بكل تأكيد لا نبيع الوهم أيضاً.

– لستم رجال سياسة إذن؟

ضحك الطبيب. استحسن جملتي وقال مبتهجاً: "بالضبط يا سيد آيدن. نحن لسنا رجال سياسة. يؤسفني أن أقول لك إن حالتك صعبة جداً جداً. ونسبة نجاح عملية جراحة عصبية دقيقة معدومة تقريباً".

– ماذا تعني بتقريباً؟

– آسف يا سيد آيدن. يجب أن أصارحك أكثر: لا أمل.

– وماذا عن عصا السعادة؟

ابتسم الطبيب.

– تقصد البدلة القضيبية. في حالتك هذه مستحيل. الأعصاب ميتة. لن تحيا إلا بمعجزة.

***

هل يعقل أن نِشتيمان تشك في الأمر؟ هل قرأت نوفيلا المخصي لصديقي الكاتب؟ هي أصلاً تكره الجنس كما استنتجت خلال حواراتنا العدة عن العلاقة المتشابكة المعقدة بين الذكور والإناث. لقد قالت ذات مرة إن ذكورية المجتمع هي العائق الأكبر أمام التحرر. قالت لي حرفياً: ”لو زال التفكير بالجنس عند الذكور، لتحررنا في زمن قياسي. الذكور يفكرون في الليبيدو أكثر من تفكيرهم في قضايا الحرية“.

***

الرطوبة زادت بعد المطر الأخير أمس. الجدران مبللة تماماً. والسقف يَكِفُ بإيقاع بطيء أنيس لكنه نذير خطر محدق بهذا الأثر التاريخي.

السبت 9 كانون الثاني 2016

سكون منتهك وليل مغتصَب وأنا أنتظر طيف الشاعر مثل نبي ودَّعه رَبُّه وقلاه. السقف إطلاق نار غزير استمر نصف ساعة وتوقف قبل قليل ليفسح المجال للقناصين ولقطرات الماء التي يجود بها سقف الضريح المقعر. الرطوبة شديدة هنا. الجدران رطبة كأن أحداً رشها بالماء. قبل الحرب وقعنا على عريضة تطالب البلدية بالتحرك من أجل إنقاذ المدرسة الحمراء وضمنها ضريح الجزري من الرطوبة التي تهدد جدران هذا الصرح التاريخي بالانهيار في أي لحظة. أحياناً أقول ما الذي كان سيحصل لو أن المقاتلين تحصنوا في الأزقة المحيطة بالمدرسة؟

كل دقيقة أو دقيقتين أسمع صوت رصاصة تبحث عن قلب دافئ تستقر فيه.

إنه يوم السبت. التاسع من كانون الثاني. لم أكن لأعرف هذا التاريخ لولا أن ذكرتني به نِشتيمان هذا الصباح. إنه يوم ميلادي.

***

ودعتُ نِشتيمان قبل إعلان الحظر بيومين. حظي التعيس خانني مرة أخرى. غادرت البيت في حارة يافث وتركتها ورفاقها الذين بسطوا سيطرتهم على الحارة. تركتني نِشتيمان أواجه عِنَّتي وحدي بعد أن بتنا معاً ليلتين دون أن تسمح لي بالاقتراب منها. حاولت إقناعها بالعدول عن الالتحاق بالقتال ففشلت. حاولت الوصول إلى انتصاب يشعرني بذكورتي ففشلت أيضاً. كنت أريد استعادة لحظة العرس التي لم تتكرر بعد ذلك حتى صرت أشك أن مساء العرس لم يكن سوى حلم جميل. كانت نِشتيمان تريد مني الأبوة التي فقدتْها. أما أنا، فكنت أطمع في أنوثة تحييني. أنوثة طاغية ربما لها القدرة على بعث ذكورتي من رقادها الطويل. هي كانت تريد مني حناناً أكثر من رغبتها في الحب. أما الجنس، فكانت تزدريه وتزدري حتى الحديث عنه. حتى أنها أوشكت أن تتقيأ حين قبلتها من فمها قبلة حميمة بعد مطاردات بوليسية قامت بها شفتاي. كانت كائناً مزيجاً من تناقضات عجيبة. ذهبت ولم تبح لي بسرها الذي جعلها كما تقول نصف مجنونة.

"سري في الدفترين. ولكن لا يجوز الاطلاع عليهما إلا حين تتأكد من نبأ استشهادي. عدني بذلك"، مرات عدة طلبت مني أن أعدها بعدم لمس الدفترين إلا إذا ماتت.

شعرت أنها متعلقة بي. لكنني لم أشعر أنها تحبني الحب الذي أبحث عنه. أشتهيها بينما هي تحترمني وتقدر "إبداعي الراقي".

– أنت الإبداع يا نِشتيمان.

– وأنت رومانسي أكثر من اللزوم يا رفيق.

لم تكتب لي منذ مغادرتها سوى مرة واحدة. والمرة الثانية كانت صباح اليوم. لا وقت لديها كما جاء في رسالتها الصباحية. بعد التهنئة بعيد ميلادي، أرفقت صورة من الجبهة، صورة سيلفي بوجه صارم ووراءها بضعة فتيان وفتيات مسلحين ببنادق أوتوماتيكية يرفعون

أصابعهم بإشارة النصر. سرعان ما مسحت الصورة خوفاً من وقوع هاتفي النقال في يد الشرطة.

– سنحتفل بالنصر قريباً يا ماموستا آمد (مع إيموجي يعبر عن الثقة والحماسة).

– عبارتكِ هذه سمعتها حرفياً لمرات متكررة قبل أن تولدي بأكثر من عقد كامل يا نِشتيمان (مع إيموجي بعينين تذرفان دمعاً أزرق).

– تختلف هذه المرة عن كل ما سبق. أنا أثق بكلام الرفاق. هؤلاء لا ينهزمون. نحن ممتلئون بالأمل.

وأتبعتْ جملتها الأخيرة بصورة سيلفي وخلفها الرفاق بالبنادق وإشارات النصر.

لم يكن عندها مجال لأناقشها في موضوع الأمل. أردت أن أقول لها: صحيح إنه شعور إيجابي يبث في النفوس حافزاً للاستمرار في العمل والنضال لكن بشرط أن يكون مرتكزاً على قواعد صحيحة وأسس منطقية. هذا الأمل ضروري لخلق توازن حياتي لدى الفرد والجماعة في كل المجتمعات. لكن ما جرى ويجري عندنا منذ عقود لا يمكن تسميته بالأمل. الأمل مفهوم مختلف كثيراً عن الأوهام التي هي جرعات مخدر تستعمله بعض الأحزاب الثورية التائهة لجر الجماهير إلى حظيرة القطيعية. الوهم الذي تبيعه هذه الأحزاب للجماهير وتعممه على أنصارها ليس أملاً وإنما هو قيدٌ ثقيل يُلقى في أقدام الأتباع لسلبهم حرية التفكير، وحجاب يُلقى على العيون لتحجبها عن رؤية الحقيقة

– الفرق بين الأمل والوهم، كالفرق بين الواحة والسراب لظامئ يسير في فلاة. هناك خيط رفيع بينهما يصعب تمييزه.

– الحزب يفرق بينهما والقيادة بلا شك تميز بين الأوهام والآمال.

حواري معها كان طاحونة تجرش الريح.

كانت نِشتيمان واقعة تحت تأثير سلطة الشعار. وللشعارات البراقة الخاطفة سلطة المقدس.

في الأعوام التي تلت عاصفة الغبار وبعد إعلان الكفاح المسلح، وعد الحزب جماهيره، وكنت أحد الناشطين بينهم، بتحرير إيالة الجزيرة. كتب مانشيتات عريضة في ذلك وعمل دعاية كبرى لهذا الوعد. لم يسأل أحد كيف سيتحقق ذلك؟ بأي وسيلة؟ وما الآلية التي سيتبعها

الرفاق المسلحون في تحرير منطقة شاسعة بتلك البساطة! نظرياً كان الأمر بسيطاً. كنا نقرأ في تجارب الثورات السابقة فنجد التحرير سهلاً. نقيس حركتنا المسلحة على حركة تحرير فيتنام ونعتقد أننا سنستنسخها في بلادنا وستنجح هنا كما نجحت هناك. وبالفعل قام الحزب باستنساخ تجربة فيتنام بحرفيتها دون أن يهتم باختلاف الزمان والجغرافيا والمزاج الدولي وغياب الداعمين وكثير من الأمور التي لم تشأ القيادة أخذها بالاعتبار. حتى الأعلام الثورية وأسماء التنظيمات وتوقيت إعلان الكفاح المسلح وحتى لقب قائد الحزب.

كنت متحمساً للفكرة. صدقت الوعد وآمنت بأننا على وشك نيل الحرية وإعلان استقلالنا لو على بقعة من الأرض.

ذات مرة قال أبي بعد جلسة نقاش حاد: "يا بني ألم تسمع المثل؟ من يريد ضرب خصمه لا يحمل حجارة كبيرة. الحجر الكبير يعيقك في القتال".

– لكننا في كفاحنا لا نعتمد على الأمثال الشعبية يا أبي. نحن نعتمد على فكر الحزب وأقوال القائد وعلى تجربة الشعوب الحرة. والقائد يقول إن جماعة من النمل يمكن أن تسحب وراءها ثعباناً.

– أليس هذا أيضاً مثلاً شعبياً؟ نعم بالتأكيد؟ هيه؟

"نعم. صحيح. هو مثل من أمثال الفيتناميين. الفيتناميون قدوتنا"، قلت لوالدي بلهجة فيها ثقة كبيرة. فرد بقليل من النبرة الحادة: "يا ابني العنيد. يا ولدي يا أحمد رضا. كيف تقارن نفسك بالفيتناميين؟ هل تعرف الظروف التي أحاطت بالحرب في فيتنام؟"

– الذي أعرفه أن الفيت كونغ قاتلوا حتى النهاية يعني حتى النصر. ضحوا بالكثير حتى هزموا الأميركيين كما هزموا الفرنسيين قبلهم. قبل عقد اضطر الأميركيون إلى الخروج من فيتنام بعد خسارة ستين ألف جندي. هذا ما أعرفه وهذا يكفي".

– أنت تشاهد فقط الوجه المشرق للقمر. هناك وجه آخر يا ولدي. وجه آخر لا تراه إلا بعقلك.

– لا يهم يا أبي. الوجه المُشرق في هذا الموضوع هو أن شعب فيتنام هزم أميركا الإمبريالية.

– نعم نعم هذا صحيح. لم تكن وقتها قد بلغتَ العاشرة من العمر يا ولدي. لكنني أتذكر سنوات الحرب الفيتنامية جيداً. حتى أيام الفرنسيين ومعركة ديان بيان فو الشهيرة. كنت فتى جامعياً مثلك منجذباً إلى اليسار التركي حين ضجت الدنيا بالانتصار الكبير الذي حققه الجنرال فو نغوين جياب وكنا نظن أن الفيتناميين شعب أعزل منعزل ويحقق تلك الانتصارات المدوية بقواه الذاتية. في ما بعد تبين أن بنادق الفيت كونغ لم تكن وحدها وراء الانتصارات الكبيرة التي حققوها.

– ولكن يا أبي...

– دعني أكمل يا بني. دعني أوضح لك الفكرة. العاطفة وحدها لا تبني وطناً ولا تحرر أرضاً.

– صحيح. لكن...

"يا ولدي دع لكناتك هذه الآن واسمعني للنهاية"، قال أبي أخيراً بصوت مرتفع كانت نبرة الزجر فيه واضحة فاقعة فاضطررت إلى سماعه هذه المرة دون أن أقاطعه.

واصل أبي: "نعم كانت للفيتناميين إرادة قوية، وكانوا أصحاب عناد وإصرار على طرد المحتلين وهزموا الإمبريالية الأميركية وهذا أيضاً صحيح، لكن الظروف العامة ساعدتهم. لا أقول الحظ لكن المناخ العالمي العام ساعدهم في نيل الحرية. فبالإضافة إلى الدعم الذي تلقاه المقاتلون الفيتناميون من الاتحاد السوفياتي والصين وكمبوديا عارض الشعب الأميركي الحربَ وخرج طلاب الجامعات بعشرات الألوف يحتجون. قتل بعض الطلاب في المظاهرات وانشق جنود كثيرون. أكثر من نصف مليون أميركي رفضوا الالتحاق بالخدمة العسكرية. المزاج الشعبي الأميركي كان رافضاً للحرب وشكل ضغطاً كبيراً على القيادة الأميركية لإيقافها. هل هناك شيء من هذا القبيل عندنا؟ هل سمعت عن مظاهرة وحيدة قام بها أبناء الشعب التركي في أنقرة أو إسطنبول أو غيرهما تنديداً بالحرب؟ هل انشق ضابط تركي واحد أو حتى جندي عن الجيش بسبب الجرائم التي ترتكبها القوات التركية ضد شعبنا؟ دعك من الجنود والضباط الأتراك، هل انشق الجنود الكرد في صفوف الجيش التركي؟ إلى الآن يلتحق كثيرون من أبناء شعبنا طوعاً بالجيش التركي".

– إنهم خونة.

– سمهم كما تشاء. هذا لا يغير من واقع الحال شيئاً. المهم أن تفهم الفكرة التي أطرحها.

كان أبي مهندساً مدنياً مرموقاً يدير شركة خاصة في الإنشاءات في ديار بكر. وكان إلى جانب ولعه بالبناء قارئاً نهماً. فتحتُ عيني على مكتبته التي تضم مئات الكتب. هو الذي دفع سفينتي إلى عالم الأدب. وهو الذي ربطني بعوالم الكلمة وسحر الحروف والأشعار وعلم أصابعي كيف تمسك بالقلم. كان يناقشني وأنا طالب في الثانوية في قضايا أدبية مهمة ويراجع معي الكتب التي يدلني إليها ويختارها لي للمطالعة. وهو الذي نبهني إلى ضرورة التكلم والكتابة باللغة الأم: لغتك هويتك ووعاء شخصيتك. إن اللغاتِ أطرٌ والشعوب لوحات. اللغة روح أي شعب ولذلك أول ما يستهدفه العدو هو اللغة. لم تكن هناك سوى كتب قليلة جداً بالكردية. وكان أبي يحرص على حفظها في مكان أمين حتى لا يهتدي إليها البوليس. ذات مرة أوائل الربيع، وكنت في الثانية عشرة من عمري، أراد أن يطلعني على كتاب **الجرح الأسود** للكاتب موسى عنتر وهو مسرحية قصيرة وكان من الكتب النادرة المكتوبة بالكردية في ذلك الزمان. ذهبت معه إلى حديقة الدار بعد أن مازحني قائلاً سآخذك إلى رحلة بحث قصيرة عن كنز مدفون في الدار. في زاوية قريبة من عريشة العنب حفر قليلاً في التراب ثم أخرج شيئاً ملفوفاً كأنه رضيع مقمط أو مومياء مصرية. صار ينزع اللفافات حتى ظهرت كتب ملتصقة بعضها بعض. كانت الرطوبة قد أثرت في الكتب بشكل محزن. أتذكر أن أبي حاول أن يفصل الكتب مرات عدة لكنه فشل. ذهبنا إلى الصالون حيث المكتبة الكبيرة التي تضم مئات الكتب المكتوبة بالتركية والإنكليزية. راقبت أبي بصمت. دندن بلحن أغنية كردية حزينة. ضغط على أسنانه وهو يحاول بكل هدوء فصل الورقات الملتصقة.

– لماذا يا أبي هذه الكتب مدفونة تحت الأرض وليست هنا في المكتبة مثل غيرها؟

"لأنها بالكردية"، كان الجواب بسيطاً وصاعقاً. "فقط لأنها بالكردية؟" سألت أبي، فرد بنبرة حزينة وساخرة: "نعم. ألا تعرف أن لغتنا قنبلة؟"

لم أشأ أن أستمر بطرح أسئلتي البلهاء في حضرة تلك الصدمة العنيفة. كانت تلك أول مرة أكتشف فيها أن اللغة الكردية ممنوعة من التداول على أرض الجمهورية التركية من حدودها

مع إيران والعراق وحتى حدودها مع بلغاريا واليونان غرباً وعلى طول الحدود التي تتقاسمها مع سوريا جنوباً. أينما يرفرف العلم التركي يجب أن تختبئ اللغة الكردية، تنكمش على نفسها وتنسحب من المشهد مثل مصارع مهزوم. حقائق علمتني معنى أن أكون كردياً في بلد لا يعترف بشيء اسمه كردي.

بعد جهدٍ أضنى أبي، نزع كتيباً صغيراً من بين كتابين مهترئين ووضعهما على الطاولة برفق: ‘‘حظك جيد يا أحمد رضا يا ولدي. من بين كل المجموعة سلم هذا الكتاب. لقد عطف عليه كتابان آخران فضماه واحتضناه درءاً له من عبث الرطوبة’’.

كان ذلك السِّفر الصغير المحبوس بين كتابين ضخمين من لفافة أبي مسرحية Birîna Reş أي الجرح الأسود. على الغلاف لمحت صورة امرأة كردية بائسة تحتضن طفلاً صغيراً. وتحت العنوان الكردي العريض للكتاب ظهر العنوان التركي بخط صغير Kara Yara. فوراً لفت نظري أن العنوان التركي، والذي هو ترجمة للعنوان الأصلي، يبدو صغيراً، منسحباً وخجولاً مقارنة بالعنوان الكردي ووضوحه وحجمه الأكبر. تغلغلت صورة الغلاف عميقاً في طبقات الوعي. فازدادت ثقتي بلغتي وبإمكانية أن تصبح يوماً ما لغة دولة ومؤسسات وجامعات. انزاحت فوراً كل طبقات الركام التي رمتها الدولة بعقليتها الإقصائية أمام عربة لغتنا الكردية. كانت الدولة قد نجحت خلال أكثر من ستين سنة من التهميش في إقناع الكرد بهشاشة لغتهم وعدم صلاحيتها للكتابة أو لتدوين المعارف. بالمقابل صرفت المبالغ الطائلة في سبيل تلميع صورة اللغة التركية التي هي منبع اللغات وأمها كما روجت لذلك أدبيات النازية التركية ومنظروها من غلاة القوميين. ليست اللغة التركية فقط هي التي سادت المشهد، بل دأبت الدولة منذ تأسيسها على إبراز أن العرق التركي هو الوحيد الذي يدعو المنتمين إليه إلى الفخر والتباهي. امتلأت الساحات والجدران والمقاهي وقواعد التماثيل المنتصبة في كل ركن بعبارات تمجد العرق التركي مستندة إلى كلمات مؤسس الجمهورية ومنها جملة: كم سعيد من يقول إنني تركي التي أصبحت شعاراً يردده التلاميذ والجنود وحتى نزلاء السجون. أينما التفت المرء كانت عبارات تمجيد العرق التركي واللغة التركية والإنسان التركي تبرز في وجهه. حتى يظن أن هناك هجوماً عالمياً على الترك وأنهم في

حالة دفاع عن النفس وأن الهوية التركية في خطر ولذلك فإن الدولة تحشد الطاقات وترفع المعنويات وتدفع بالشعب التركي إلى التمسك بلغته والمحافظة عليها من خطر الاندثار.

غير أبي مكان كنزه بعد سنتين. ارتفعت في حينا بعض البنايات وصارت تطل على باحة دارنا. "لم يعد هناك أمان. ربما يسكن بعض المخبرين في طابق عالٍ من بناية مقابلة".

لم أتابع الموضوع أو ربما نسيته ولم يعد أبي إلى الخوض فيه. بعد أن حصلت على شهادة الثانوية العامة أخذني معه إلى القبو ليدلني في طقس احتفالي مليء بالرهبة والتشويق على مكان كنزه الجديد.

***

قرأت مسرحية الجرح الأسود للكاتب موسى عنتر بشغف كبير. كان ذلك أول كتاب يُنشر باللغة الكردية منذ تأسيس الجمهورية. وهو أول كتاب كردي قرأته. كانت متعتي عظيمة ولا يمكن وصفها.

"كتاب بالكردية أقرأه وأفهمه دون أي صعوبة؟ لم أستعمل القاموس لفهم مفرداته يا أبي" .نقلت انبهاري بالكتاب ولغته السلسة إلى أبي فقال:

– الكاتب ألف هذه المسرحية وهو في السجن. لقد سجنوه بسبب نشاطه الثقافي والسياسي.

– والآن؟

– خرج من السجن ويعيش في قريته بمنطقة ماردين.

***

كان أبي ديمقراطياً في تعامله معي. لا أتذكر أنه ضربني أو عنفني أو عاملني بقسوة بعكس ما كنت أسمعه من زملائي ورفاقي. يناقشني كأنني ندٌّ له ويحاول إقناعي بصوابية رأيه بالمنطق. كنت ألمس من حديثه حزناً دفيناً وأرى في عينيه انكسارات كبيرة. كان اهتمامه منصباً على عمله ويكرر على مسامعي أن أعظم شيء يقدمه المرء لشعبه هو أن يتسلح بالمعرفة ويترقى في مداركه.

– المعرفة سلاح أكثر مضاء من البندقية.

– كيف يا أبي؟

– مثال بسيط: الذي وصل إلى القمر لم يستخدم بندقية ليصل إلى هناك. استعمل عقله الخلاق، استخدم مركبة أبوللو.

– لكن الأوطان لا تتحرر بمركبة أبوللو يا أبي.

ضحك أبي كثيراً حين قلت له ذلك ذات نقاش حتى دمعت عيناه.

– هذا صحيح يا بني. لكن العلم يحرر العقل من أوهامه. أما السلاح فيمكن أن يكون في يد أجهل الجهلة يدمر ويقتل به ما شاء. استعمال البندقية مكلف جداً يا ولدي. جمل أي سلاح لا يحتاج إلى عقل. النضال السلمي يوفر على الأقل فائض الدم.

– فائض الدم؟

– نعم. ألم تقرأ مبادئ الماركسية؟ لقد رأيتك تطالع قبل أسابيع كتاب روزا لوكسمبورغ **(ما هو الاقتصاد)**.

– بلى قرأت المبادئ الأساسية. لكن هناك مصطلح فائض القيمة الشهير. وليس فائض الدم.

عاود أبي ضحكته اللذيذة الخفيفة وقال بهدوء:

فائض الدم يشبه فائض القيمة. من المؤكد أنك استوعبت موضوع فائض القيمة. أليس كذلك؟

هو الشكل النقدي لجزء من إنتاج الكادح يتخلى عنه دون مقابل لرب العمل. أي لمالك وسائل الإنتاج.

بالضبط. تعريف صحيح. وفي حالة فائض الدم يمكننا تعريف المصطلح هكذا: فائض الدم هو التجلي العنيف في الثورات والحركات المسلحة التي لا تعطي قيمة للأرواح والدماء البشرية ولا تنظر إليها سوى من زاوية كونها ثمناً وحيداً للحرية. والمؤسف في الموضوع أن هناك ثورات مبذرة تسرف في صرف الدم. إنها تظن أن الدماء وحدها وقود محركات الثورة. لذلك تريد أن يكون في كل بيت شهيد. وهذا ما لاحظته على ما يقوم به الحزب يا

ولدي. إنه يكرس ثقافة الموت بدل ثقافة الحياة. الحزب أصبح دراكولا. يعتبر الشعب بنكاً للدماء. لا يأخذ في الحسبان أن البنوك الكبرى أيضاً تتعرض للإفلاس.

– لكننا يا أبي نواجه عدواً شرساً. دراكولا اعتادت على مص عروقنا حتى آخر نقطة دم.

– هذا يريد دماً وذاك يريده. من أين سيأتي الناس بينبوع دم لا يجف؟

– إنه لا يعترف حتى بوجودنا. ولكي نثبت له أننا موجودون يجب أن نحاربه. الحزب لا يحارب لأنه من هواة الحرب.

– نحارب نعم. ولكن كيف؟ هذا ما يجب أن نفكر فيه ملياً ولا نرتجل. الثورة ليست ارتجالاً. والسعي إلى الحرية لا يكون بأحلام ثورية طوباوية.

– الرفاق ليسوا ثواراً حالمين يا أبي. لو كان هناك سبيل آخر إلى الحرية لسلكوه.

– النضال السلمي يا ولدي. النضال السلمي. لماذا ندخل فوراً في ثورة دموية؟ لماذا لا ننهج نهج اللاعنف الذي قام به الهنود بقيادة المهاتما غاندي؟

– اللاعنف؟ وماذا جرّ لا عنف الهنود على الهنود سوى سفك المزيد من دمائهم؟ مجزرة أمرستار الشهيرة شر دليل على فشل هذه السياسة السلبية.

– هل شاهدت فيلم غاندي؟

– نعم. حضرته مع بعض الزملاء في الجامعة. وكدنا نبكي قهراً حين وصل الفيلم إلى مشهد يمثل مجزرة أمرستار.

– وما رأيك؟

– بلا شك غاندي رجل عظيم. وقد اختار لشعبه طريقاً خاصاً يحررهم به. ربما يناسب ذلك النهج روح الهنود وروح ديانتهم البوذية. لكننا لا نعترف بهذه الروح السلبية الصوفية. ثورتنا قائمة على مبادئ الماركسية اللينينية. والعنف الثوري أهم مرتكزاتها. قدوتنا غيفارا وغيره من الثوار المحاربين وليس غاندي. لا يمكن مقاتلة الوحوش بالأدعية والصلوات. لا بد من حراب تبقر بطونها وسهام ترديها صريعة... على الأقل ليتذوق العدو بعض ما نتذوقه من مرارات.

– لا يا ولدي. لا تُقاس الأمور هكذا. أنت الطرف الأضعف في المعادلة الآن. إن قمت بحرب، فإنك لا تستطيع تحمل نفقاتها الباهظة. نحن الآن في البداية ولا يبدو أن هناك أفقاً للحل. الأفضل هو النضال السلمي. العالم كله سيقف إلى جانبك.

رغم نقاشاتنا الكثيرة، لم يستطع أحدنا التأثير في الآخر. كانت الحماسة تدفع عربة أفكاري التي تقودها العاطفة دفعاً قوياً فلا تقدر على إيقافها مكابحُ العقل التي كان والدي المهندس يزودني بها. شارك والدي اجتماعاتي مع الرفاق الشباب المتحمسين أكثر مني. كنت أظن أن مواقف أبي نابعة من الخوف الذي زرعه العدو في النفوس. كانت خطابات قائد الحزب التي نتداول فيديواتها على نطاق ضيق جداً وبسرية مطلقة تركز على مسألة الشخصية. في الحقيقة كان ذلك لنا كشفاً فلسفياً وسبراً في أعماق الشخصية الكردية المهزومة التي باتت بسبب الدعاية المعادية تتقبل الخنوع والاستسلام وترى في ذلك أفضل الوسائل لعبور النفق. كنت أنظر إلى أبي كنموذج للشخصية التي يتحدث عنها قائد الحزب كثيراً، الشخصية التي تشربت بروح المستعمر التركي حتى العظم. حدثني أبي مرات عدة عن طفولته القاسية وروى لي نتفاً صغيرة من سيرته الغامضة التي شعرت أنه يتعمد إخفاءها عني. وقتذاك كان عمره سبعة وخمسين عاماً وكانت مشكلاته القلبية قد بدأت لكنه لم يشأ أن يخبرنا. أصلاً لم نكن نراه إلا في الأعياد والعطل أو في نهاية الأسبوع حين يأتي من ديار بكر ليقضي ليلتين ثم يعود إلى عمله.

ذات مرة قلت له: "نحن بدأنا من الصفر يا أبي. سنهزم أولاً الشخصية الانهزامية. سنبني شخصية ثورية جديدة صلبة بإمكانها خوض نضال شرس ضد تاريخ من العبودية. لم يفعل آباؤنا وأجدادنا شيئاً".

– بدأتم من الصفر؟ أنت لا تعرف أننا كنا تحت الصفر يا أحمد رضا، ولا تعرف أن هناك من ناضل ليصل جيلكم إلى مستوى الصفر.

تنهد قليلاً. وضع يده اليمنى على الجهة اليسرى من صدره وصار يضغط. حدق في عيني وبقي كذلك ثواني معدودات ثم قال كمن تذكر أمراً مهماً: "المناقشات القصيرة والسريعة لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة. سأكتب تجربتي في الحياة في صفحات عدة. ستقرؤها وربما

تفهمني أكثر. العمل قليل هذه الأشهر وسأتسلى في مكتبي بديار بكر بكتابة نبذة مختصرة عن أهم مراحل حياتي".

الأحد 10 كانون الثاني 2016

الصمت في هذه الساعات ثقيل كبرميل رصاص. إنه وحش أخرس ينهش جثة المدينة. تمثال بازلت يربض على صدر هذا الليل الذي يعربد في الخارج حيث السكون يعزف أنغامه. نعم، إنه سكون ثقيل أكاد أسمع صدى لهاثه ووقع أقدامه. مرعب هذا السكون الذي يخفي تحت عباءته قيامة مرتقبة. وأنا المستجير بالضريح طائر وحيد أتدثر بخوفي وأحتسي قدح النبيذ الرابع الذي يتوهج أمامي الآن مثل ياقوتة في الضوء الشحيح للشمعة المحتضرة.

أسأل نفسي لأزيح ستائر السكون قليلاً وأبدد رهبة الوحدة في هذا الليل الكردي: "إلى متى ستدوم هذه الحال؟ وهل سينفعني تنكري واحتمائي بهذا الضريح العابق برائحة الشعر وشذى الحب؟"

قبل أقل من شهر من الآن، وبعد أن التحقت نِشتيمان بالمقاتلين داخل المدينة، أعلن والي شرناخ علي إحسان سُو حظر تجول هو الثالث في الجزيرة منذ أوائل أيلول. طال الحظر هذه المرة ولا نعرف متى سينتهي. لا أحد يخرج من البيت. ممنوع أن يوجد أحد في الشوارع. لقد سجنوا الجميع داخل بيوتهم. ليس هناك سوى أصوات الحرب. إطلاقات نار ودوي مدافع طوال النهار. لا أخبار موثوقة من الجبهات. قلبي على نِشتيمان. هذه المغامرة العنيدة. لقد وعدتها ألا أفتح دفتريها ما دامت حية ترزق. يدفعني الفضول لمعرفة ما فيهما. لكنني ملتزم الوفاء بوعدي. أعرف أن هناك من يموت الآن على الخنادق ووراء المتاريس التي نصبها المقاتلون في شوارع هذه المدينة. أحزن من أجلهم. غاياتهم نبيلة، وقياداتهم طائشة. إنه انتحار جماعي. إنها مغامرة معروفة النتائج.

عندي من المؤونة والخمر ما يكفي مدة لا بأس بها. كان الفتى حلمي يأتيني بكثير من الزوادة كعكاً ومعلبات ومازة وكل ما يمكن تخزينه كالبندق والزبيب والبَني والباستيق[8] وغير ذلك مما يصنعه الأهالي من بركات البساتين والغابات. ولأنني لا أستطيع أن أغادر مكاني بدأت أتقشف في استهلاك ما عندي من طعام وشراب. لا أحد يستطيع أن يزورني. حتى العصافير غابت ولم تعد تحط في الباحة خارج الضريح لتلتقط ما كان ينثره الزوار من حبوب وفتات خبز السمسم. وحدها الأخبار السيئة تهطل مثل شظايا زجاج مكسور وتجرح روحي العارية الكئيبة.

8 Benî–Bastêq من أشهر ما يصنعه الكرد من العنب والجوز ويتم تخزينه لاستهلاكه في الشتاء.

قبل إعلان حظر التجول الأخير أحضر إليّ حلمي خمراً كثيراً على دفعات. قال لي وهو يضع آخر ثلاث زجاجات: "صديقك الشاعر شحن لك هذه الكتب، ويقول لك: لا تستعجل في قراءتها، فقد يطول الأمر هذه المرة".

– شكراً له ولك يا حلمي. لا تخاطر بنفسك، ولا تغامر بالمجيء إلى هنا. سيقنصونك كما قنصوا أطفالاً كثيرين.

– سألتحق بالرفاق ماموستا آمد. هذه آخر زيارة لي إلى الضريح.

لمعت عيناه الواسعتان الجميلتان. لمحت فيهما نور العزيمة والإصرار. حاولت أن أثنيه عن عزمه على المشاركة في القتل. إنه صغير. فتى ما زال صوته رقيقاً، لم يبلغ الحلم بعد.

– أنت صغير يا حلمي.

– لكن حبي لوطني كبير يا ماموستا.

أحزنني جوابه. أخجلني ووضعني عارياً أمام مرآة نفسي الحائرة.

غاب الفتى حلمي ولم يعد حتى الآن.

يحزنني كثيراً غيابه. لقد غادرني بنظرات فيها أكثر من معنى: التحدي والإصرار والثقة بالنفس والشفقة. نعم، بدا لي حتى من ملامح وجهه اللطيف أنه يشفق عليّ لأنه يتركني وحيداً.

إنها الحروب، تذهب العقل عن الرجال فتجعلهم أكثر طيشاً بينما تجعل الأطفال أكثر حكمة وأعظم جرأة.

***

انتصف الليل ولم يظهر لي طيف الشاعر بعد. إذن سأستمر في الكتابة وأسرد عجائب رحلة الحافلة التي نسي فيها الزمن أن يسير.

الاشتباكات ازدادت حدة في حي النور حيث حفر الشباب أولى الخنادق. أسمع من الراديو أن المئات من المقاتلين الشباب المتحصنين في حارات الجزيرة قتلوا برصاص الجيش. إنها حرب حقيقية تقطع الأنفاس. لم يسبق أن بلغت المواجهات هذا المستوى منذ هبت عاصفة الغبار قبل نحو ثلاثين عاماً. في السابق احتضنت الجبال والقرى النائية في الوديان السحيقة وقائع الحرب واعتاد الناس إيقاعها وصارت خبزهم اليومي. كانت الحرب خلال ثلاثين عاماً وحشاً مثل سكون هذا الليل يلتهم فريسته ببطء وهدوء فلم يلاحظ كثيرون ممن يزورون المدن والأرياف الكردية أن هناك حرباً تطحن العظام. الآن نزلت الحرب من الجبل بكل قسوتها وبشاعتها. تمدنت الحرب وباتت تتجول متبخترة في الأزقة والحارات، وتتدثر بالشعارات وتتزين بمجوهرات الأحلام. لكنها بقيت على حالها كما كانت في الجبال توزع الموت هنا وهناك وتلطخ الجدران بالدماء وأشلاء اللحم البشري. استقرت الحرب في المدن وليس أبشع من الحرب حين تترك الجبهات النائية والشعاب والوديان العميقة وتأتي لتظهر قسوتها وسوأتها القبيحة على مرأى من الجميع.

صوت طلقة قناص.

رصاصة مفردة لا ثاني لها. أتخيلها رصاصة ذهبية صغيرة جميلة ورشيقة مثل قافية موفقة في قصيدة جيدة السبك. لكنها وحشية وقاتلة. رصاصة واحدة صغيرة بحجم نحلة دأبت على صنع العسل لكنها كافية لتنهي حياة إنسان ممتلئ بالحب والأحلام. أكاد أقول إن أزيزها كان عذباً كنغمة وَتَرٍ لامَسَتْه ريشةُ عازفٍ ولهان.

من أطلق هذه الرصاصة اليتيمة كنجمة الراعي لحظة الغروب؟ أي إصبع ضغط على الزناد؟ هل أطلقتها فتاة أو فتى من المنضوين تحت لواء وحدات الدفاع المدني من الذين

حفروا الخنادق وبنوا المتاريس وتحصنوا في حارات المدينة وأزقتها؟ هل أطلقتها نِشتيمان باتجاه الجنود أم أطلقها جندي من جنود الجيش التركي الذي يحاصر المتحصنين هناك؟ ربما استقرت هذه الطلقة في صدر أحدهم أو رأسه. سيكون طعم الموت واحداً بلا شك سواء في هذا الطرف أو ذاك. ستبرد الطلقة الحامية حين تختلط بالدم واللحم وستنتهي معها أحلام كثيرة دون أن يخطر على بال الطلقة أن تستفسر عن هوية القتيل.

قبل لحظات، قبل أن يخترق أزيز تلك الرصاصة لحم هذا الليل الأخرس، تلقيت رسالة مقتضبة على هاتفي: "أنا بخير. لا تقلق".

كانت تلك كلمات نِشتيمان مذيلة بإيموجي وجه ضاحك بعينين على هيئة قلبين أحمرين.

أجبت رسالتها القصيرة بإرسال قلوب حمراء عدة ثم أغلقت الهاتف توفيراً للشحن وجلست منكمشاً على نفسي أفكر.

لاح لي طيف الشاعر بعد الكأس الخامسة.

بدا حزيناً قلقاً متوتراً.

– ما الأمر مولاي؟ أأقلقتك بوجودي؟

– لا يا آمد. لا. بل هذه الطلقة الوحيدة. هذه اللعينة أيقظتني من رقدتي.

– أجواء هذه البلاد لم تخلُ من أزيز الرصاص منذ ثلاثين عاماً يا سيدي. ما من حدث غريب.

– هذه البندقة استقرت في قلب عاشقة. ألم تسمع نحيب القلب الذي ثقبته؟ ألم تجد نجوماً تتهاوى في السماء؟ كلما مات عاشق على الأرض، هوت في السماء نجوم كثيرة.

– كثير من العشاق يتحصنون وراء المتاريس الآن. كثير منهم قضوا نحبهم في أزقة الجزيرة ولم يجدوا من يرفع جثثهم من الأرض. كثير منهم صعدوا ببنادقهم إلى الجبال ولم يعودوا. قتل عاشقون ومعشوقات كثر في هذه البلاد. إنها بلاد تنحر الحب يا مولاي. بلاد هَوَتْ من سمائها النجوم أيها الشاعر.

– ماذا؟

– أتكلم على شبابنا الذي دُفِعوا إلى هذه المجزرة، على طلبة الجامعات والفتيان الصغار الذين رماهم إلى هذه التهلكة وما قبلها من يبنون أمجادهم على دماء الآخرين.

– أنت تحكي مُعَمَّيَاتٍ وألغازاً يا ولدي. أي مجزرة وأي دماء؟ ارفع الغطاء عن المخبوء تحت لسانك. أزح الستارة عن نافذة الحقيقة ودعني أرى ما هناك.

– منذ ثلاثين عاماً يا مولاي هبت عاصفة من الغبار هذه البلاد فحجبت الرؤية عن كل شيء. غبار لم تذكر التواريخ مثيلاً له في بلاد الكُرد. غبار أشبه بسراب خادع جرفت عاصفته آلافاً من شبابنا وبناتنا ثم رمتهم في الوديان والشعاب ودفنتهم هناك. الآلاف من شبابنا بلا قبور يا مولاي. لا أحد يهدي تربتهم باقة ورد ولا أحد يصلي من أجل سكينة أرواحهم ولا أم تزور قبر ولدها فتذرف من الدمع ما يبرد حَرَّ قلبها. جبالنا مقابر يا مولاي. جبالنا مقابر.

كنت خلال حديثي أسترق النظر بين الجملة وأختها لأحدق في السماء الصامتة من الكوة العالية في الجهة الجنوبية. كانت سوداء صافية تطرز صمتَها الثقيلَ نجومٌ متوهجة كبيرة مثل دموع أمي التي كانت تلمع في ضوء المصباح الشحيح حين تبكي على الشباب الذين تأتينا أخبار استشهادهم في الجبال. لكنني تخيلتها نجوماً عديمة الإحساس ولا تبالي بالعشرات من شبابنا الذين ألقى بهم الحزب في هذا المعمعان ينزفون حتى الموت يومياً مثل نجوم تنزف نورها إلى أن تختفي مع شروق الشمس في كل يوم.

غمرتني رغبة كبيرة في البكاء.

كنت منذ صغري كلما نظرت إلى النجوم بكيت. لا أدري ما الذي كان يدفعني إلى أن أنخرط في موج البكاء أو أغرق في لجج الكآبة على الأقل. كانت أمي تعتبر كل نجم في السماء شهيداً أو فقيداً عزيزاً لها تذكره بالاسم. أمي كانت وعاء يفيض بأحزان لا تنتهي.

"يغادروننا ليصبحوا نجوماً هناك. نجوماً بعيدة لا نطالها إلا إذا متنا مثلهم"، قالت لي ذات أمسية صيف حزينة وقد وردتنا أخبار عن استشهاد خمسة من معارفنا.

في خضم هذه الأفكار، شعرت بألم يعصر قلبي. انقباض غير مألوف اعتراني. ويبدو أن ذلك ظهر على ملامح وجهي إذ سألني الطيف: "أراك تتألم. هلا أخبرتني بما أصابك؟ هلا

فسرت لي تلك الألغاز التي سردتها؟“

لم أجد بداً من أن أحكي له قصة هذه البلاد من أولها. لم أجد بداً من سرد تاريخ الغبار في وطننا المختنق بذراته. رويت له سيرة الغبار الذي حجب الشمس والآفاق وملأ الأنوف والأحداق حتى اعتاده الناس. حكيت له عن السجون الرهيبة التي لا يخرج منها الإنسان إلا على نعش فاقداً روحه أو فاقداً ذكورته أو عقله. حكيت له قصصاً كثيرة عن هرب مئات ألوف الناس من قراهم صوب مدن الغرب التركية نجاة بأرواحهم التائهة وبحثاً عن ليالٍ لا يمزق أزيزُ الرصاص ستائرَ سكونها، ولا يخرق زعيق العسكر هدوء أحلام النائمين فيها. قصصت عليه حكايات عن بشر هائمين في تيه الشعارات البراقة كالسراب لا تروي عطشاً وعن مدن لا تكون للبنادق فيها سلطة الإله وجبروته.

”وهل احتل جنود آل عثمان جزيرتنا؟“ سألني بجزع ظاهر فأجبته: ”انحسر ظل آل عثمان منذ تسعين عاماً عن هذه البلاد، لكن أحفادهم الترك يحكموننا الآن“.

– في أي زمن نعيش؟ من السلطان الذي يحكم عرش الأستانة؟

– لا سلطنة منذ عقود يا مولاي. نحن في القرن الخامس عشر الهجري.

– غير معقول! من يحكم الجزيرة الآن إذن؟ أليس أحد الأمراء من نسل الأمير شرف؟

– لا يحكم الجزيرة الآن سوى الحرب. أحياء النور وجودي ويافث وغيرها باتت مرتعاً لحرب شوارع. شبابنا تحصنوا هناك وراء المتاريس وحفروا الخنادق وأعلنوا إدارة مستقلة. ولا نعرف من أوحى لهم بذلك. بل نعرف يا سيدي. نعلم تماماً من هم. إنهم دهاقنة الغبار المحتمون بكهوف في جبال بعيدة. ولقد أقام الشباب في مدن نصيبين وشرناخ وضاحية السور في ديار بكر وغيرها أيضاً المتاريس وحفروا الخنادق وحملوا البنادق. الجيش التركي يحاصرهم ويدك الأزقة والحارات التي تحصنوا بها بنيران مدافعه. لا أحد يستطيع الوصول إلى هناك حيث تتهدم البيوت على المقاتلين فتحطم عظامهم الهشة كالمزهريات.

– أريد أن أذهب إلى هناك. أريد أن أعاين البرج الأبلق وحديقة الأمراء. سأتجول قليلاً عند سور القلعة.

– لا يجوز يا سيدي. غير مسموح لنا الخروج بأمر الدولة. من يخرج يعرض نفسه لخطر الرصاص.

– أي هراء أسمعه؟ دولة؟ أي دولة يا هذا؟ كيف يمنعون ابن الجزيرة من التجوال في جزيرته وبأي حق؟ أنا شاعر الجزيرة ووردة رياضها وشعلة لياليها الداجية. سأخرج الآن ولن يمنعني أحد. سأبحث عن القلب الذي خرقته تلك الرصاصة اللعينة قبل قليل.

تهادى طيف الشاعر وتماوج في الظلام مثل غمامة نور باهت وسرعان ما غاب عن أنظاري. بقيت أحدق في السماء التي حجبت نجومَها غيومٌ ظهرت فجأة. لم تمضِ دقائق حتى سمعت صوت رشاش الإم سكستين المرعب. كان الصوت قريباً جداً. قريباً لدرجة أنني ظننت أن هناك من اقتحم الضريح وصار يطلق النار علي. تبع ذلك أنينٌ رهيب مثل أنين مذبوح فاجأت السكينُ حنجرتَه الغافلة ثم عربدَ صمتٌ أثقلُ من الذي بدأت به ليلتي تلك.

حين نهضت لأملأ الكأس مما تبقى في الزجاجة أخرسني الهلع وتسمرت في مكاني.

كان خيط من الدم القاني يسيل على شاهدة القبر الرخامية.

قتلوا الشاعر وبتروا قافيته.

الإثنين 11 كانون الثاني 2016

البرد يزداد.

الماء الذي يتسرب من شقوق صغيرة في الجدران الرطبة يزيد من البرد.

لا شيء أتدفأ به سوى مدفأة كهربائية شحيحة الحرارة وبطانية مهترئة وهذا الخمر الذي لم ينقطع عني. مدحلة الليل تسير ببطء على إسفلت روحي الممتدة عبر أزمنة مختلفة. ثقيل وطأ هذا السواد المرعب.

ما أشبه الزمن الذي أعيشه هذه الأيام بزمن ما أكتبه من مذكرات وكذلك زمن الرواية التي أكتبها عن حب الشاعر الجزري للأميرة سلمى. أزمان متداخلة كخيوط حرير التف بعضها على بعض فما عاد من الممكن تمييزها. أشعر بأنني أعيش كل الأزمان في اللحظة نفسها. أنا ابن هذا الليل، وابن الغبار الذي عشت تفاصيل عاصفته، وأنا الجزيرة التي شهدت أجمل

إمارة كردية في هذه الأصقاع. تتجاذبني الأزمنة. تقتسمني وتفترسني. أحاول ضبط إيقاع الذاكرة والخيال. أزاوج بينهما وفي خضم ذلك أفقد التمييز بين الأحداث فلا أعرف أي حدث ينتمي إلى الخيال وأي حدث ينتمي إلى الذاكرة! العلاقة بين الذاكرة والخيال علاقة ترابطية متشابكة وغريبة. الذاكرة ليست سوى وعاء عميق الغور تخزن فيه معلومات عن أحداث وقعت في الماضي. أحداث ستبقى طي النسيان إلى الأبد لو لم يتكفل الخيال الخلاق استعادتها. تستعيدها كما هي أو تضيف إليها وتحذف منها على هواها. هذا هو الخيال. إنه مبدع لا يلتزم حرفية الذكريات.

الخيال مغرفة الذاكرة. وها هو خيالي يغرف من أوعية كثيرة في لحظة واحدة.

وليتني كنت أستطيع العيش في أمكنة مختلفة أيضاً كما أعيش في أزمنة مختلفة! وبجانب عيشي هنا بجانب هذا الضريح لاخترت العيش مع نِشتيمان وحِلْمي ورفاقهما على الجبهات، أولئك الذين يرتعدون الآن من البرد ولا يجدون ناراً يصطلونها سوى قلوبهم العامرة بحب الوطن والرغبة في الاستشهاد من أجل الحرية.

إنهم أبرياء، جميلون، متفانون، صادقون، أوفياء لمبادئهم. لكنهم ضحايا سياسة خاطئة متهورة ارتجالية تقود البلاد إلى الكوارث.

***

أخيراً وصلت الحافلة إلى الجزيرة. قبل أن تدخل المدينة انعطفت عند مفترق طريق دائري يساراً فخرجت من طريق شرناخ ماردين لتسير على طريق نصيبين الصاعد شمالاً. سألني نظمي الأوروبي قبل أن نصل إلى محاذاة المستشفى الحكومي: إن كنت آمد حقيقةً، فستدلنا إلى بيتك. في أي شارع وأي حارة؟ هل يمكنك أن تخبر الخال حامد إلى أين يجب أن يقود الحافلة؟

رأيت في عينيه اللامعتين وميضاً وحشياً يذكِّر بعيني فهد جائع باغت ظبية شاردة. رأيت فيهما سخرية خبيثة وشعوراً بالانتصار. نظمي الذي ترك النضال وتفرغ لحياته الخاصة وهرب إلى أوروبا يسخر مني الآن! الآن يسخر مني نظمي الذي قطع كل صلة له بأهله في

مدينة سيرت وتنكر لانتمائه إليهم ثم هجرهم إلى بلاد بعيدة يشكك في هويتي، أنا الذي غطيت على كثير من تحركاته أيام حياتنا الطلابية الثورية الصاخبة!

لم آبه لسخريته. بلعت ريقي وكبست على الجرح الذي سببته الإهانة وقلت للخال حامد بثقة تامة: ''توجه حتى ضريح مم وزين. من هناك انعطف يميناً إلى شارع الأمير عبدال ثم اتجه إلى جامع وَسْطاني. بيتنا ملاصق للمسجد من جهة الشرق باتجاه دجلة''.

صمت الجميع.

وضعت الصحيفة المركزية للحزب في حقيبة الظهر وصرت أنظر إلى وجوه رفاقي أترقب ردود أفعالهم. كانوا مرعوبين ينظرون إلى جانبي الطريق وهم يقبضون بتوتر شديد على مساند مقاعدهم كأنها خشبات إنقاذ. أوشكت ضحكتي أن تنفجر لكنني حبستها احتراماً لخوفهم. لقد عشت هذا المشهد نفسه مرات عدة أيام حراكنا الثوري في الثمانينيات. كنا ناشطين لا نهدأ، وكانت أحلامنا كبيرة، أكبر من أن تتحملها شعوب يصادر قراراتها ثلة من الأوغاد. كانت أحلامنا صخرة هائلة نظن أننا قادرون على أن نصعد بها إلى قمة الجبل وينتهي الأمر كما كان ينتهي في أسطورة سيزيف مرة إثر مرة.

''هنا''، قلت للخال حامد وطلبت منه أن يركن حافلته بجانب البيت، ''الأفضل أن تركنها في الجانب الشرقي لتقي حافلتك حَرَّ الشمس. دع حافلتك تواجه جبل الجودي العظيم''.

نظر إليّ الخال حامد وابتسامة ناعمة تتراقص على شفتيه الذابلتين. لأول مرة رأيت في ملامحه حزناً خفياً مشوباً بالخوف. لم يكن الخال حامد يخاف. كان ينقل الرفاق بحافلته الصغيرة إلى المدن والقرى دون مقابل ويردد كلامه الذي حفظناه عن ظهر قلب: ''مستعد أن أحملكم على ظهري وأذهب بكم مشياً إلى مقاصدكم. المهم أن نتحرر من يد هؤلاء. كفانا ذلاً''.

تقدمت الرفاق الحائرين صوب باب المنزل حتى وقفنا على جانبيه. تبادلوا النظرات لحظة قصيرة ثم نظروا إلي وبدوا كأنهم أعضاء لجنة تمتحن متدرباً.

أخرجت المفتاح بهدوء وفتحت الباب.

كانت شجرة التين غارقة في تأملاتها، تستحم في ضوء الشمس وتدرب ثمارها الخضراء الفجة على النضج لاستقبال مناقير العصافير في آب المقبل.

"تفضلوا. تفضلوا"، قلت بنبرة من يستضيف أصدقاءه الأعزاء ورحبت بهم. وضعت يدي على كتف الخال حامد فكان أول من دخل ثم تبعته الرفيقة زيلان والآخرون.

دخلوا صامتين واتجهوا إلى غرفة صغيرة في شمال الحوش الذي زينته شجيرات سامقة من عباد الشمس كانت تتجه صوب ماردين في تلك الساعة قبل المغيب.

خرج من الغرفة الصغيرة شاب في مثل عمرهم وصاح فرحاً بنبرة صوتي نفسها: "تفضلوا تفضلوا!"

ثم استدرك مندهشاً: "هل كان الباب مفتوحاً؟"

التفت الجميع صوبي ثم التفتوا إلى الشاب الذي خرج يستقبلهم عند باب الغرفة الشمالية كأنهم يخبرونه عني. شعرت أنهم بدؤوا يشكون في الأمر وهم يقارنون بيني وبينه ويفحصون نبرتي صوتينا التوأمتين. ارتفع في تلك اللحظة صوت المؤذن صاحب البحة المحببة يدعو لصلاة العصر من مئذنة مسجد وَسْطاني البيضاء الرشيقة بينما حط سرب حمام على سطح غرفتي الشمالية التي دخلها الرفاق للتو. كنت لا أزال عند الباب بعد أن علقت المفتاح كعادتي بمسمار على يمين الباب الحديدي.

لا أدري ما الذي جرى لي وأنا أعلق المفتاح على المسمار! شعرت بأن هناك من شدني من ذاكرتي وأعادني أكثر من ربع قرن إلى الوراء. اختلط لدي الزمان وانتابتني أحاسيس غريبة رافقها دوار خفيف.

لقد عشت هذا الحدث بحذافيره في الماضي: الظهيرة القائظة، سرب الحمام الذي حط على سطح الغرفة الشمالية، صوت المؤذن المبحوح، تعليقي المفتاح على المسمار في يمين الباب، الضيوف الذين استقبلتهم. كل ذلك تكرر بصورة مخيفة. حتى النسمات التي هبت لحظة دخولي إلى البيت كانت هي نفسها القادمة من جبل الجودي وداعبت بأناملها الناعمة أوراق شجرة التين المغبرة وهزت عباد الشمس.

بعد موجة من الحيرة، استدرت ومشيت بضع خطوات وفتحتُ باب الدار. نظرت في الشارع وتأكدت من خلوه ممن يلاحقنا، ثم سحبت رأسي إلى الداخل وأغلقت الباب بهدوء، وذهبت لألتحق بالرفاق المجتمعين. كانت حركاتي تلك مطابقة تماماً لما فعلت حين زارني الرفاق قبل ثمانية وعشرين عاماً.

الأحد 17 كانون الثاني 2016

الظلام قاسٍ كنصل خنجر وكثيفٌ كصمغ أسود. الصمت الداعر الذي ينفثه الليل العفريت من حولي يزيد شعوري بالبرد. ترقب القادم المجهول في هذه الصومعة الآمنة يطحن روحي. منذ أسبوع تقريباً لم تكتب نِشتيمان حرفاً واحداً. بعد سماعي صوتَ تلك الطلقة المفردة، طلقة القناص التي اغتصبت ليلتي، غابت عني كلمات نِشتيمان الدافئة المتفائلة. أنا قلق عليها وعلى كل من معها على خط النار. أعرف كم هم متحمسون. أعرف كم هم مخلصون وأوفياء لمبادئهم وهذا بالذات ما يستغله الحزب في جيل الشباب منذ تأسيسه. ينثر الشعارات الجميلة حول فخاخه حبوباً شهية فتأتي الطيور البريئة تلتقط الحب لتقع أخيراً بين مخالب الفخاخ.

والخنادق فخاخ غادرة، فخاخ على طول البلاد وعرضها. والدولة شريكة قذرة في نصبها في كل حارة ومدينة. سمعنا أن كثيراً من مقاتلي الجبال نزلوا إلى المدن لقيادة معارك الخنادق. قيل أنها خطة الدولة أصلاً. فهي لم تتمكن من القضاء على مقاتلي الجبل بحربها العقيمة ولذلك استدرجتهم إلى المدن. وإلا فمن أين وكيف حصل هؤلاء الشباب على كل تلك الأسلحة؟ نظرية مؤامرة يقتنع بها كثيرون وتبدو معقولة جداً ومنطقية. إذ كيف يمكن أن تظهر بالفعل كل هذه البنادق والرشاشات في مدن تسيطر قوات الدولة على كل مفاصلها وتتحكم في معابرها ومخارجها والطرق المؤدية إليها! قبل ذلك تكرر الأمر في معركة كوباني. عبر مئات من قوات الأنصار قادمين من الجبل مع كثير من المتطوعين الحدود مع روجافا وقاتلوا هناك. لم يعد منهم أحد. لم يعد سوى عدد محدود جداً. وقتذاك قيل أن الدولة

سهلت للمقاتلين والمتطوعين سبل اجتياز الحدود. أرادت أن تلقي بهم في المحرقة دون أن تطلق رصاصة واحدة.

***

كتبت لنِشتيمان منذ ساعة. لم أتلقَّ إلى الآن أي رد. لا يظهر الواتساب أنها استلمت رسالتي.

طيف الشاعر غاب أيضاً منذ ذلك اليوم. طال انتظاري له. لم تعد كؤوس الخمر تنفع في استحضاره.

متدثراً بخيبتي ومتدفئاً بكانون القصائد فتحت قبل قليل زجاجة نبيذ جديدة وصببت لنفسي كأساً على أمل أن تمنحني مزيداً من الدفء وتطلق سراح خيالي لينطلق حراً في دروب الذاكرة.

لم تبقَ عندي سوى بضع زجاجات من النبيذ السرياني المشهور الذي يصنع في طور عابدين، المنطقة التي تمتد من مدينة ماردين غرباً حتى ضفاف نهر دجلة من جهة الغرب. وهي صقع واسع يغص بالأديرة المسيحية منذ القديم وكان موطناً لصناعة النبيذ حتى في زمن الآشوريين. وتذكر التواريخ القديمة أن خمور العراق القديم لم يكن ينافسها في الجودة سوى خمور طور عابدين. حتى أن حكاية تقول إنه كانت هناك في زمن الملوك الحضريين بحدود القرن الميلادي الثاني معصرة في طور عابدين كانت تصب خمورها في ساقية من الرصاص تمتد مسافة أميال كثيرة تحت الأرض حتى تصل إلى مدينة الحَضَر غربي الموصل.

تذكرت، وأنا أصب النبيذ السرياني المعتق في كأسي، هذه المقتطفات من التاريخ، التي سردها لي بائع الخمور الذي اشتريت منه زجاجتين قبل أن تشتعل حرب الخنادق بأسابيع.

قال وهو يضعهما أمامي بعد أن انتهى من سرد قصصه الخمرية: ‘‘خمرة معتقة. ربما عصَر المطرانُ الشهيدُ أدّي شير عناقيدَ عنبها بقدميه أو يديه المباركتين في ديره بمدينة سيرت قبل قرن من الزمان‘‘.

ثم أردف بحزن: "لقد قطعوا رأس المطران في صيف مثل هذا الصيف قبل مئة عام بالضبط. غدر الوالي العثماني به بعد أن أمنه على حياته واستلم منه ذهباً كثيراً فديةً عنه وعن رعيته المسيحية".

– أعرف قصته الأليمة. وأعرف أن بعض النبلاء الكرد حاولوا حمايته ففشلوا. إنه فرد من مئات ألوف من البشر ذبحتهم الكراهية. لم يتوقف الذبح للأسف لأن الكراهية ما زالت قائمة تتجدد. وما زلنا ندفع ثمن حماقة تلك الأعوام.

رددت على بائع الخمور الحزين وسددت ثمن الزجاجتين التوأمتين ثم وضعتهما في حقيبتي الصغيرة بجانب زجاجتين أخريين أهداني إياهما صديقي جَمْشيد قوسَري الشاعر. أخيراً ودعته وخرجت من عنده بأفكار تدور في رأسي كما يدور حول أنفسهم دراويشٌ أسكرتهم خمرة الجذبة الإلهية.

الآن، في هذه الليلة التي أدون فيها نتفاً مما يحدث حولي، أثارت الخمرة الطيبة في ذهني أسئلة كثيرة. تماماً كما تثير ريح مجنونة غباراً كثيفاً ذات نهار صيفي. فكرت بعدما احتسيت رشفات عدة في كل ما جرى ويجري لنا في هذه الجغرافيا الكارثية الملعونة. لماذا لا نستطيع العيش بسلام؟ كيف لهذه الأحقاد أن تنتفخ مثل عجينة تتخمر في بيئة دافئة؟ ولماذا يجب أن يكون لكل أمة أو دولة أعداء يجب القضاء عليهم؟ لماذا يحتكر قضيتنَا حزبٌ شمولي ارتهن لأنظمة متعددة في المنطقة ولماذا صارت الدولة لا تنظر إلينا إلا من هذا الحزب الذي لذعتنا ناره قبل غيرنا؟ لماذا تحولت جبالنا إلى مدافن تضم قبوراً بلا أسماء؟ لماذا ولماذا ولماذا... أسئلة ظلت وستظل تبحث بلا جدوى عن أجوبة مناسبة.

تغير كل شيء في هذه البلاد لكن النبيذ السرياني وحده بقي كما هو ثابتاً دون أن يتغير. انحسرت ظلال الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف وتحولت إلى جمهورية صغيرة قاسية. تناوب العسكر الانقلابيون على الحكم. ذهب اليسار وجاء اليمين ثم وصل الإسلاميون بينما بقي النبيذ على عادته المأثورة يمنح متعة السكر بعد الكأس الثالثة دون أن يسأل عن دين الشارب أو عن قوميته أو عن اتجاهه الأيديولوجي السياسي وهل هو يساري أم يميني، علماني أم ديني!

لقد بلغت مرامي من نبيذ الزجاجة التي فتحتها قبل ساعتين. بدأت أسكر مع الكأس الثالثة كالعادة. ولكن ليس لأن النبيذ سرياني، بل لأنه نبيذ. هوية النبيذ ليست قومية صانعه بل هي قدرته على منح متعة السكر لمحتسيه وإضافة جناحين هائلين للخيال يطير بهما بين الماضي والحاضر ويقتحم بوابات المستقبل كما يفعل بي الآن.

***

سمعت أن الشباب في حي النور قاموا أمس بحفر خنادق في الشوارع لمنع الشرطة من دخول الحي. وفوراً ذهبت قوات من الشرطة إلى الحي بالسيارات المدرعة والمجارف لإغلاق الخنادق المحفورة في الشوارع. وحدثت مناوشات بين المتحصنين وراء المتاريس وعناصر الشرطة الذين أطلقوا قنابل الغاز بكثافة.

شممت وأنا هنا رائحة الغاز المسيل للدموع والبارود المتفجر. شممت رائحة مصير قاتم يتربص بهذه المدينة. ضاقت نفسي كثيراً. تمشيت في الباحة بعض الوقت ثم عدت لأجلس إلى الضريح وأنا أردد بيت شعر لصاحبه:

طاحت بي الأقدار بعيداً عن محبوبي
ولا أدري إلى أين سترمي بي!

الوضع يتجه إلى التصعيد أكثر فأكثر، لحظة بعد أخرى. لم يعد هناك مجال للرجوع. الشباب المسلحون متحصنون بمتاريسهم وأحلامهم وجيش الدولة مستعد أن يحرق الغابة كلها في سبيل أن يصيد عصفورين. كان صعباً على هذا الجيش أن يقضي على المقاتلين المتحصنين في الجبال المنيعة. أمضى سنوات طويلة وهو يقصف الجبال ويحرق الغابات ويجرد الحملة تلو الحملة حتى وراء الحدود دون تأثير كبير.

الآن سنحت الفرصة لتصفيتهم بسهولة. إنهم هناك، في الحارات والأزقة الضيقة. محاصرون مطوقون. مقطوعون من خطوط إسناد ودعم لوجستي. إن لم يستشهدوا بسلاح الجيش، فسيموتون من الجوع. إنهم مراقبون من السماء بالأباتشي والرادارات ترصد كل

حركة. إنهم في مرمى القناصة الموزعين على مداخل الحارات. الدبابات توجه سبطاناتها حيث يتحصن المقاتلون. قذيفة واحدة منها تهدم منزلاً كاملاً. ظهر المقاتلين مكشوف لجنود الجيش كما لم يكن كذلك في أي يوم من الأيام.

***

الرفيق نظمي الأوروبي، والرفيق زَيْنَلْ، وزميلي في الجامعة الرفيق عليّ الشطرنجي، والرفيقة تُركان ومعهم بالطبع السائق الطيب الخال حامد.

كل هؤلاء الرفاق الذين كنت أنتظرهم بقلق شديد بعد ظهيرة ذلك النهار الجهنمي وصلوا إلى الجزيرة واستقبلتهم في بيتنا الملاصق لمسجد وَسْطاني ذي المنارة الرشيقة ناصعة البياض والمدببة مثل قلمٍ مبري من الرخام.

لم أهدأ ذلك اليوم من التوتر. رِجلٌ في البيت ورِجلٌ في الشارع. أقف لحظاتٍ تحت شجرة التين المليئة بالثمار الشهية ثم أذهب مسرعاً إلى غرفتي في الجهة الشمالية للدار. كنت قلقاً أكثر من عصفور يأتي لينقر تينة ناضجة ثم يطير، ثم يعود لينقر ويطير بعدها. كنت أمشي قليلاً ثم أقف دون أن أعرف ما الخطوة التالية.

أصغي بانتباه إلى كل حركة في الشارع. أعتبر كل هدير صادراً عن حافلة الخال حامد. كل طَرْقٍ على الباب أحسبه طرق البوليس أو طرق الرفاق أو حتى طرق أبي العائد من ديار بكر حيث يعمل مهندس إنشاءات في شركته الصغيرة.

تداولنا، خلال شرب الشاي، موضوع المجزرة التي حدثت في بينارجك. اعتبرناها ضربة موجعة لتيار الخيانة وموالاة الدولة.

قال علي الشطرنجي: "لولا ذلك، ستمتلئ القرى والمدن بالخونة والمخبرين. ستنتهي الثورة".

قال نظمي الأوروبي: "نعم. هذه أصلاً خطة العدو، أن يثير عدم الثقة بين الجماهير".

قال زَيْنَلْ: "سيتم القضاء على تاريخ الخيانة بمزيد من الهجمات على أوكار حماة القرى".

قالت تُركان: "الجبناء الخونة. يحتمون بالأطفال والنساء. أوغاد!"

قلت: "هذه هي طبيعة كل ثورة. لا بد من ظهور قسم من الناس يختارون جبهة الخيانة".

رشف الخال حامد آخر رشفة من كأسه. اعتدل في جلسته، وأخرج من عُب قميصه المجعد لفافة طويلة وفرشها أمامه وقال: "تصفية الخونة أمر لا بد منه. ليس هناك حل لإزالة خطر الأعشاب الضارة في الحقل سوى قلعها. فقط لو كان بالإمكان إبعاد الأطفال على الأقل. رأيتم كيف استغل إعلام الدولة مشاهد الأطفال القتلى وظل يعرضها على شاشة التلفزيون حتى الآن".

بعد صمت قصير جداً إذ لا يمكن اعتباره صمتاً اختطف زَيْنَلْ الصحيفة، صحيفة الحزب المركزية المفروشة أمام الخال حامد وصار يقلب في صفحاتها وهو يقول: "الأطفال الأطفال الأطفال. لا أحد يهوى قتل الأطفال. لكن المثل يقول: الأفاعي لا تلد إلا أفاعي سامة مثلها".

قلت وأنا أصب الكأس الأخيرة من الإبريق المعدني الساخن: "صحيح. لكن العدو يستغل هذا لمصلحته. ويشن بسبب ذلك حرباً نفسية على شعبنا. يعتبر المقاتلين إرهابيين. ويصور للعالم كله جيش التحرير الشعبي الكردستاني مجرد سفاحين وقتلة وليس لنا قضية".

– قلنا لك يا رفيق آمد لا تستمع لكلام أبيك. حكينا لك مرات عدة عن شخصية آبائنا الانهزامية المنكسرة والهشة. ذلك الجيل لم يفعل شيئاً وليس في نيته أن يفعل شيئاً.

– ليس بالضرورة أن يكون هذا رأي أبي. إنه رأيي وأنا أقوله باقتناع.

قهقه زَيْنَلْ. طوى الصحيفة. قلب كأس الشاي على الطبق الصغير كعادته حين ينتهي من الشرب، أطفأ سيجارته في قعر المنفضة بعنف وقال ساخراً: "أفسدك الشعر يا رفيق. الشعر يرقق الإنسان ويجعله هشاً. على الثوري أن يكون قاسياً كالفولاذ، عنيداً مثل خنزير بري. هيا يا رفاق".

– ومایاكوفسكي؟ شاعر الثورة البلشفية؟ هل أفسده الشعر؟

– نعم. لم يفسده سوى الشعر. الأدب في أصله من تمظهرات البرجوازية. لقد تهشم مایاكوفسكي بسبب رقته الزائدة. الأصح أنه هشم نفسه بنفسه. هل هناك ثائر ينتحر؟ الثورة لا تحتاج إلى شعراء. تحتاج إلى بنادق.

– القصيدة الثورية بندقية يا رفيق. والكلمات رصاص.

”ألف قصيدة ثورية لا تقتل ذبابة. مللنا من الكلام. الوقت وقت الأفعال لا الأقوال يا رفيق آمد“، أجاب زَيْنَلْ وهو يهز رأسه كأنما يريد أن يزيد من تأثير عبارته. أردت أن أرد عليه لكنه نهض فنهض معه الرفاق كلهم وانشغلنا بالتوديعات. قال الخال حامد وهو يخرج: ”تهيأ للسفر غداً. سنذهب، أنا وأنت، إلى شِرناخ. المهم أن تنسخ اليوم عدة نسخ من الصحيفة. الرفاق سيبقون في الجزيرة ريث ما نعود“.

خرج الرفاق على عجل. رافقتهم إلى باب الدار ثم عدت فحملت كؤوس الشاي والإبريق الذي أفرغه الرفاق حتى لم تعد فيه قطرة شاي واحدة، وكذلك رفعت منافض السجائر وأخذتها إلى المطبخ كمن يريد إزالة آثار جريمة.

كنت أنتظر أبي وأمي ذلك اليوم. كانا يأتيان كل يوم جمعة لقضاء عطلة الأسبوع ثم يعودان مساء الأحد.

كنا، أبي وأنا، نتناقش كثيراً في الفسحات التي يتيحها لنا الوقت البخيل. وكانت نقاشاتنا منقوصة مبتورة تقطعها مكالمات الشغل التي يجب أن يرد عليها أبي أو زيارات رفاقي في جبهة تحرير شعب كردستان وكذلك زملائي في الجامعة وأنا في سنتي الأولى.

بعد دقائق من مغادرة الرفاق سمعت همهمة قادمة من باحة الدار. خرجت أستطلع الأمر فرأيت مشهداً أرعبني.

كانت ظلال الرفاق لا تزال في الباحة ترسمها الشمس بفرشاتها الذهبية. استطعت أن أميز كل الظلال. كانت تتحرك كأنها تتحادث. بقيت لحظة أحدق فيها وأستمع لهمهماتها مرعوباً ثم سمعت صوت سيارة توقفت عند الباب فتراجعت الظلال وانحسرت. زال خوفي قليلاً. إنها سيارة أبي. أعرفها من هدير المحرك. سيارة مراد 124 التي كانت تُعرف بلقب سَرْچه[9]. رمادية اللون. اشتراها أبي بعد ولادتي مباشرة. قضيت معها طفولتي ومراهقتي ونشأت بيني وبينها علاقة روحية. عاملتها ككائن حي. لقد كنت أتخيلها دائماً تتكلم وتعبر عن مشاعرها. أعرفها حين تتألم ويوجعها السفر الطويل. أحياناً يكون لصوت منبهها نكهة غضب وأحياناً نبرة عتاب. أميز هدير محركها حين يصيبها العطش فأنبه أبي إلى أن العصفورة تريد أن

تشرب. وحين يقل منسوب البنزين في خزانها الصغير أقول لأبي: ''العصفورة لا تقدر على مزيد من الطيران. أو: بطن العصفورة يوجعها، إنها جائعة''.

9 Serçe العصفور بالتركية. وهذا النوع من السيارات التركية راج في سبعينيات القرن العشرين وامتيازها من شركة FIAT الإيطالية.

سمعت أبي ذات سفر وهو يضحك. يقول لأمي الجالسة بجانبه تحدق في المناظر البديعة للقرى والسهول والحقول والهضاب على جانبي الطريق من ديار بكر إلى الجزيرة: ''سيكون لابنك شأن كبير لأنه يملك خيالاً خلاقاً. سيصبح مهندساً كبيراً أو أديباً شهيراً''.

سألته أمي دون أن تكف عن التحديق في المناظر التي تمر بها عصفورتنا: ''أصبحت مهندساً لأنك صاحب خيال خلاق؟''

أجاب أبي بعد أن نفث دخان لفافته من النافذة نصف المفتوحة صوب الخارج: ''نعم. ولولا اشتغالي بالهندسة، لصرت أديباً''.

بعد صمت خرقه هدير السيارة الرتيب أردف أبي بانبساط وهو يلتفت إلى أمي: ''أتعرفين يا جانان أن الأدب والهندسة متشابهان في العمق مختلفان في السطح؟''

ردت أمي بنبرة ضجر: ''إن عرفت ما هو العمق وما هو السطح، لعرفت الفرق بين الأدب والهندسة''.

قهقه أبي. مد يده إلى مقبس ولاعة السجائر. ضغطه ثم انتظر بضع ثوانٍ ثم سحب الولاعة من المقبس وألصقها بالسيجارة المستقرة بين شفتيها حتى اشتعلت. نفخ دخاناً كثيفاً من أعلى النافذة إلى الخارج ثم قال: ''أقصد بالعمق المضمونَ وبالسطح الشكلَ. الهندسة بناء. والأدب كذلك. يسبق بناء المنشآت خيال خصب يتصور الشكل، وكذلك في الأدب يسبق الخيال شكلَ المادة المكتوبة. الأدب هندسة حجارتها المفردات وأساسها الخيال. وابننا يملك الخيال والحجارة معاً''.

ثم نظر إلي من المرآة التي كانت تعلو رأسه وابتسم لي.

كانت هي الابتسامة نفسها التي دخل بها البيت في تلك الظهيرة. وكانت أمي تبتسم أيضاً.

الأربعاء 20 كانون الثاني 2016

صوت قنبلة من بعيد مزق بكارة هذه الليلة قبل لحظات.

تردد بعده صدى رشقة رصاص طرزت حاشية الصمت بنقوش صاخبة. ثم أزيز رصاصة وحيدة. مفردة لا ثاني لها. رصاصة تخيلتها ذهبية صغيرة جميلة ورشيقة مثل قافية موفقة في قصيدة جيدة السبك. يولج الصخب قضيبه المتوتر في فرج السكون ويلهث منتشياً. الليل منتهك ومنهوك. مغتصب من زناة كثيرين. والنجوم في استراحة. لقد ضجرت من متابعة الحرب، فاختبأت وراء الغيوم. الريح تنسج عباءة لهذه المدينة المنكوبة بجراح متقيحة لا تلتئم. لا أدري من أين تأتي المدن بكل هذا الموت؟ لا أدري من أين يأتي الموت بكل هذا الشبق؟ من أين يأتي بهذه الشهوة العارمة يحصد بواسطتها الأرواح دون أن يرف له نصل؟ والحياة؟ أليس لها شهوة الخلق نفسها عند نقيضها الموت؟ إنه الوجود الشبق اللاهث خلف العدم. أرحام تلفظ مواليد جدداً كل جزء من الثانية. بشر شبقون يتناسلون كالأرانب. يهيئون لغول الموت مائدته العامرة. هكذا شبه الشاعر أحمد خاني قصة البشرية على هذه الأرض: حنطة تسقط أبداً في فم الرحى فيطحنها الزمن. الكون طاحونة لا تهدأ. دائمة الدوران لا تترك حبة قمح دون أن تطحنها. هذه هي الثنائية الوحيدة الحقة في الوجود: الحياة والموت، وما سواها باطل وقبض الريح.

ترى ماذا تفعل نِشتيمان الآن؟

لا أخبار من الخنادق.

لا أخبار من تلك الجبهات العبثية التي نعلم سلفاً أنها ليست سوى مناجل تحصد مزيداً من السنابل. مناجل عمياء تردي الأخضر قبل اليابس. لا أخبار من تلك الجبهات لكننا نستطيع أن نخمن ما الذي يجري. يخبرنا الليل الأخرس، وتخبرنا الريح إذ تنقل إلينا صوت الانفجارات والرصاص كل لحظة. ويخبرني هذا السكون الذي ترتديه المدينة مثل عباءة يمزقها ضجيج الحرب أن شباباً ومراهقين حالمين بالحرية يتساقطون كالفراشات على لهيب الحلم. لا وقت لدفنهم، ولا قبور تضمهم ولا سجلات توثق مقتلهم الفجائعي.

ونِشتيمان؟ يؤرقني مصيرها بعد انقطاع الأخبار. الواتساب مراقب. الإنترنت كله تحت سمع وبصر الحكومة والاتصالات مقطوعة مع شباب الخنادق.

ترى ماذا تفعل الآن ولماذا لا تتصل بي؟ كتبت لي في المرة الأخيرة أنها تستخدم هاتف قائد وحدتها، وأنها كانت ترجوه للسماح لها بالاتصال بدعوى الاطمئنان إلى والدتها. ماذا جرى لهاتفها الذي لم يعد يستقبل مكالماتي؟ لم يعد يظهر أن رسائلي تصلها. كأنني ألقي رسائلي في بئر بلا قاع. ماذا جرى لهاتفك يا نِشتيمان؟ آه أيتها الحمامة الهاربة التائهة في سماء هذا الوطن المغبر.

بدأت أندم لأنني لم أستطع فهم نِشتيمان. بدأت أندم لأنني أغرمت فقط بجسدها ورأيت فيه خشبة تنقذني من أمواج العِنَّة. لم أنتبه إلى روحها المهشمة كآنية رقيقة. بلى فقد انتبهت ولاحظت شظايا روحها لكنني لم أعر ذلك اهتمامي. حبي لها كان أنانية وشهوانية واستعادة لرجولة موءودة. لم أنظر إليها كشابة في مقتبل العمر تعاني ألماً داخلياً لا تفصح عنه وترقد على بيضة سرها مثل دجاجة رؤوم. لقد كانت بحاجة إلى إنسان يستدرجها إلى فخاخ البوح بما يثقل على روحها لتتخفف منه. كانت نِشتيمان بحاجة إلى أذن تسمع قصتها لا إلى شهوة ومضاجعات. أما أنا، فكنت بحاجة إلى يد تنتشلني من هذه الهاوية التي سقطتُ فيها منذ اعتقالي وزَجِّي في سجن ديار بكر. لم أكن أريد أن أحكي قصتي الأليمة لأحد. كان البوح سيؤلمني أكثر. كان البوح سيشعرني بعاري أكثر. كان البوح سيزيدني عنة على عنة. لكنني سأبوح.

***

الكأس الرابعة من النبيذ شارفت على الانتهاء. لم يبقَ في قعرها سوى رشفة. وعربة الليل تمضي غرباً يدفعها الفجر من الشرق. لم يبقَ من الليل سوى أنفاس قليلة حتى يخر صريعاً في قعر الضياء. أكاد أسمع صوت حشرجته.

صوت عندليب ينقر السكون بشدوه الخافت. ربما حط على شجرة قريبة منتصبة في دار بجانب الضريح. أتخيله يلح على الشمس كي تسرع بالشروق. وأنا أتسول على باب الذاكرة آلاماً عريقة.

يتراءى لي شبح الشاعر الجزري مرة أخرى. حزيناً ساهماً واقفاً لدى الباب يهطل المطر من غيم عباءته الطويلة. ينظر إلي. يحدق في الأوراق المتناثرة حولي وفي الشمعة الصغيرة. عيناه حزينتان. ”تفضل يا مولاي الشاعر. لقد اشتقت إليك“.

يدخل الجزري بخطوات بطيئة حذرة: ”لقد قتلوني. أصابوني هنا. في القلب. انظر“.

أنظر في صدره حيث يشير. ثقب صغير ينزف سائلاً أسود.

– دمك أسود يا مولاي.

– إنه الحبر، دم الشعراء.

أتذكر روايتي التي أمطرت فيها السماء حبراً يوم وفاة أحد الشعراء.

أحاول أن أمد إليه منديلاً ينظف به جرحه. يمتنع: ”دع الحبر يسيل يا رجل. دع دمي يخط قصيدتي الأخيرة“.

يتقدم قليلاً ثم يجلس قرب الضريح ويده اليمنى على الثقب النازف في صدره. بعد لحظات من الجلوس صامتاً أراه يرفع بيده اليسرى الستارة الخضراء المسدلة على ضريحه ويختفي تحتها.

أناديه: ”مولاي الشاعر. ابقَ معي قليلاً“.

يتردد صوته كقافية حزينة آتية من الغيب: ”شعري ينوب عني. ما أنا إلا فانٍ وابن فانٍ. ستلتقي بي في كل حرف حين تقرؤني. في كل قصيدة من قصائدي جزء من أناي الخالدة“.

– سؤال واحد فقط يا مولاي. سؤال يؤرقني مذ وعيت هذا الوجود. أخبرني فقط. أجبني يا سيدي ما الحياة؟

– عن الحياة تسألني! وأنا أجيبك: هي صخب بين صمتين.

– والموت؟

– عودة إلى أول صمت. عودة إلى الصمت الذي سبق شهقتك الأولى في مسيرة الصخب العبثية.

– وهل من صخب بعده؟

– ...

يبقى سؤالي معلقاً في الهواء مثل عنقود عنب نسيه الخريف على غصن دالية عارية في كرم مهجور. ما من جواب سوى الصمت تتردد أنفاسُه بين الضريح وبيني.

أصب لنفسي كأسي الخامسة. أملؤها حتى المنتصف. تضيء الخمرة في الكأس، وتلوح الذكريات صافية مشعة كنجوم في عمق الظلام.

***

استيقظت من النوم فرأيت الحافلة البيضاء تدخل بلدة الجزيرة. كنت أتصبب عرقاً وتخدرت ذراعاي اللتان أسندتهما على الكرسي الذي أمامي مثل وسادة وضعت رأسي عليهما. حدقت في وجوه الركاب المتجهمين وعرفت أن ما مضى كان كابوساً. لقد استدرجني النوم إلى فخاخه وذهب بي بعيداً إلى الماضي الذي لا يمكن نسيانه. لقد حلمت برفاقي الذين كنت أناضل معهم في سبيل حرية واستقلال وطني. جاؤوا من الذاكرة وزاروني. استعدت خلال نومي في الحافلة أحداثاً حقيقية وأخرى لا أعرف إن جرت في السابق أم لا. نظرت في هاتفي لعلي أرى رسالة جديدة من نِشتيمان. لم تكن ثمة إشعارات على تطبيق الواتساب.

"مرحبا نِشتيمان. أنا وصلت إلى الجزيرة. هل أنت بخير؟ سنلتقي أليس كذلك؟" كتبت رسالتي وحدقت مرة أخرى في وجوه الركاب. لم يكن أحد منهم يشبه رفاقي الذين زاروني في حلمي سوى السائق الذي كان شديد الشبه بالخال حامد.

وصلت أخيراً إلى البيت متعباً أفكر في كل ما جرى لي من أحداث غريبة طوال اليوم. العرس الجميل، ونِشتيمان والرقصة التي أعادت إليّ ذكورتي المستلبة. أحداث الحلم التي كانت لا تزال غضة طرية تتراءى لي بكل تفاصيلها. تمازج الحلم مع الذكريات. تذكرت ذلك اليوم الذي زارني فيه الرفاق. هو اليوم نفسه الذي جاء فيه أبواي من ديار بكر. وهو كذلك اليوم نفسه الذي تم اعتقالي فيه على الطريق بين ديار بكر وشرناخ.

***

في ذلك اليوم القائظ، قبل اعتقالي بساعات، وحين توقف هدير محرك سيارة أبي، العصفورة، كنت مشغولاً بكنس ظلال الرفاق. التصقت الظلال بالأرض وأبت أن تلحق بشخوصها. أردت ألا يراها أبي الذي يعنفني كل مرة حين أستقبل الرفاق أو أتناقش معهم.

سمعت صوت المفتاح يديره أبي في القفل مترافقاً مع رنة الجرس. بلا شك أمي هي التي ضغطت على الزر. كانت هذه عادتها حين تأتي مع أبي إلى البيت. تريد أن تنبهني إلى حضورهما دائماً بعكس أبي الذي كان يقتحم عليّ خلواتي ويأتي دوماً على غير ميعاد.

انحسرت ظلال الرفاق أخيراً. رأيتها تتلاشى بمجرد أن ظهر والداي ووطئا عتبة البيت. استقبلت أبي وأمي المتعبين وحملت عنهما الحقائب وتقدمتهما ماشياً باتجاه غرفتهما عبر ممر إسمنتي يتوسط حقلي زهور شمخت فيها نبتات عباد الشمس.

– ما أخبارك يا ولدي؟

– جيدة يا أبي.

– هل من جديد؟

– لا جديد. سوى أنني ذاهب اليوم للقاء بعض أصحابي. ربما أبيت عندهم.

– مرة أخرى أصحابك؟ اعتبرنا أيضاً أصحابك يا ولد.

ابتسمت ولم أتكلم. وضعت حقائبهما بجانب خزانة ثيابهما ثم قلت: "لا شك أنكما جائعان! سآتيكما بطعام جاهز من السوق. كباب شهي".

– لا لا. لقد تناولنا الغداء في مديات، كبداً مشوياً لا نظير له في الجزيرة كلها. لكن لن نقول لا لكأس من الشاي.

***

بعد نحو ساعة على مجيء والدَيَّ خرجت مودعاً إياهما وفي جيبي صحيفة سرخوبون. طويتها مرات عدة حتى صارت كورقة من فئة العشر ليرات.

– سأبيت الليلة عند أصدقائي. لا تقلقا.

"الأفضل أن تبقى في البيت يا بني"، قالت أمي متوسلة. ذهبت إليها وقبلت يدها ووضعتها على رأسي.

– سأعود غداً يا أمي. ونقضي بقية العطلة معاً. لقد اشتقت إليكما.

– تشتاق إلينا وتهرب منا! واضح جداً مقدار شوقك. على كل حال كتبت لك رسالة مطولة تنوب عن نقاشنا في مواضيع كثيرة. فيها بعض سيرة حياتي وبعض ما أود أن أفضي به إليك ولكن لا أجد وقتاً. بل لا تجد أنت وقتاً. سأضع الرسالة بين كتبي الجامعية. بضع ورقات غلافها جلد أصفر.

– سأقرؤها يا أبي، وقبل ذلك سأجد في هذا الصيف فائضاً من الوقت للجلوس إليك.

– قلبي يوسوس لي بأن شراً سيقع.

– قلبك وسوس كثيراً ولم يقع شيء يا أمي. لا تخافي.

– أخاف عليك يا ولدي.

– اتركي الولد يذهب يا جانان. إنه ليس صغيراً. وأنت يا بني عد غداً فلنا حديث طويل.

غادرت أبويَّ تواكبني نظراتُ أمي الحزينة وتمتماتها المعتادة وهي تدعو لي بسفر ميمون وعودة غانمة.

أغلقت باب الدار ورائي ونظرت شمالاً ويميناً أستطلع الأجواء ثم قصدت مكتبة في زاوية منعزلة عند مدخل السوق. كنا نتعامل معها من أجل نسخ المنشورات الحزبية وكان صاحبها من مؤيدي جبهة تحرير شعب كردستان.

سلمته الصحيفة الأصلية وقلت له مئة نسخة ثم خرجت من المكتبة ووقفت على ناصية الشارع أراقب الطريق كالعادة.

كانت الأزقة في تلك الظهيرة شبه خالية من المارة. أصوات الباعة فقط ترتفع هنا وهناك. وبين لحظة وأخرى تهدر محركات سيارات تسير في الشوارع القريبة. تعلو فجأة أصوات مكابح وأبواق ودواليب تنهب الإسفلت الحامي وتبدو كخوار ثيران تتعارك في حلبة مصارعة. جلبة وهمهمات كحلم غامض تأتي من جهة السوق بينما تهب لفحات من ريح ساخنة من الجنوب.

بعد نحو نصف ساعة من الحراسة والترقب والانتظار عدت إلى المكتبة. كانت النسخ المئة جاهزة وموضوعة داخل أسطوانة طويلة من الورق المقوى. كنا نحصل من باعة الأقمشة على أنابيب هي في الأصل مخصصة للف القماش عليها وعرضه في المحلات. وكانت بسبب طولها مثالية جداً لإخفاء ما نريد تهريبه من صحف الحزب وصور الشهداء والأعلام المختلفة.

***

بعد خروجنا من الجزيرة بنحو نصف ساعة، اعترضتنا دورية للجيش التركي. قال الخال حامد: "انتبه جيداً رفيق آمد. لا ترتبك. الارتباك يثير رائحة الشك. وهؤلاء الكلاب مدربون على شم هذه الرائحة. تنفس بعمق".

– لقد ارتكبنا هذه المرة غلطة قد تودي بنا وتوقعنا في قبضة هؤلاء الزبانية؟

– أي غلطة؟

– الأسطوانة. أتيت بها دون أن أسد طرفيها. ستثير الشكوك.

– لا لا. لن يلفت نظرهم شيء مما تتخيله. المهم أنها ملفوفة بأمتار من القماش.

أشار أحد الجنود على الخال حامد بالتوقف فقاد حافلته إلى جانب الطريق وركنها هناك.

صار قلبي يخفق مثل طبل في عرس.

كرر الخال حامد دعوته لي بعدم الارتباك: "اثبت ولا ترتبك. رائحة الارتباك تفوح كما تفوح رائحة الجثث".

وقف الجندي مسدداً سبطانة بندقيته الأميركية إم سكستين صوب اللاتعيين وقال بلهجة آمرة: "الهويات".

ناوله الخال حامد هويتي وهويته. لم يكن في الحافلة سوانا. "انزلا وأنزلا ما معكما من الحوائج. هيا".

ارتجفت. لم أستطع أن أخفي ارتباكي. لم يكن سهلاً أن أتظاهر بالثبات وجندي مسلح يقف على حاجز سيدقق في هويتي ويفتشني وأنا أعرف أن ما معي سيسبب لي بلاء كبيراً. في تلك

اللحظة فكرت في أبي وأمي.

تخيلتهما جالسين عند العريشة يشربان الشاي ويتحدثان عن زواجي. من أين سيعرفان أنني الآن في محنة كبيرة؟

مرات كثيرة قالت أمي إنها شعرت بأوجاعي أو مرضي أو أي من منغصات العيش رغم بعدي عنها.

أحاسيس الأمهات وحي رباني. كانت أمي تكرر على مسامعي هذه الجملة حين أوافقها على أن إحساسها كان في محله. هذا صحيح، فالرب الذي أوحى إلى أم موسى يوحي إلى أمهات أخريات بلا شك. ترى أتشعر أمي بي الآن؟ هل هبط عليها الوحي لينذرها أنني على وشك الوقوع في مشكلة كبيرة؟ وهل ستخبر أبي؟ وهل سيصدقها أبي إن هي أخبرتْه؟ وهل سأنجو من هذه الورطة اللعينة؟ هل وهل... أسئلة كثيرة مرت ببالي في تلك اللحظة المرعبة مثل نصل سكين.

الخميس 21 كانون الثاني 2016

الحياة رواية.

هذا الصباح راجعت بعض ما كتبته فرأيت أنني أكتب ما يشبه رواية. أحداث متسلسلة، ويوميات لا يجمعها موضوع معين بل تسرد سيرة شخص ساخط على كل شيء، على الحزب والدولة والكتاب الصامتين، الشياطين الخُرس الذين يلهثون وراء امتيازات تعيسة يمنحها الحزب لهم في المؤسسات الثقافية المرتبطة به التي تحاول عبثاً أن تبرهن أنها مستقلة. هذه المؤسسات ليست سوى أماكن لتزجية الوقت الفائض عند الشعراء الدجالين وكذلك هي مراكز لجذب المزيد من الشباب الذين يتحولون بعد غسيل دماغ منهجي إلى حطب يرميه الحزب في أتون معاركه وراء الحدود وعلى الجبهات المتناثرة على امتداد هذه الجغرافيا المنكوبة بفكر مدمر وممارسات متقلبة. لقد صادر الحزب الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية وفرض لوناً واحداً ديكتاتوري الطابع على مجتمعنا. قبل مدة قدمت رواية قصيرة عن مجزرة بينارجيك الشهيرة إلى دار نشر معروفة سبق أن نشرت لي بعض

الروايات. رفضها الناشر. قال إنها لا تتوافق مع سياسة النشر عنده. سياسة النشر! أضحكني التعبير المبتذل المتهافت. فأنا أعرف أنه ينشر الغث والسمين، وأن سياسته في النشر هي عدم وجود سياسة محددة. أغلب الناشرين هنا جهلة وطماعون مخادعون. يخلفون وعودهم ويماطلون في دفع الحقوق حتى يجعلوا الكاتب يخجل من تكرار المطالبة بها. يعاملون الكتاب كأنهم أجراء عندهم.

تجادلت مع الناشر بشأن الرواية. غضبت وقلت له: ''مهما يكن فهذا جزء من تاريخنا. وتاريخنا ليس بالضرورة ناصعاً على الدوام''. أفصح لي أن ما أنشره من انتقادات بحق الحزب يؤثر في مبيعات رواياتي. قال بالحرف: ''نحن دار نشر ويهمنا بالدرجة الأولى أن نبيع''.

هكذا إذن! أن نبيع!

رأس المال جبان. هذه مقولة ماركسية دارجة وصحيحة. لكن الأعم منها أن التاجر جبان والكسب عنده فوق كل شيء. لا يهم التجار شيء مثل ما تهمهم مصالحهم. والناشر حين يغدو مجرد تاجر سيصبح رقيباً على الأعمال الأدبية التي قد تهدد نسبة مبيعاته. لن يغامر بنشر عمل يسبب له المضايقات وربما الخسارة المادية.

***

إن ما أكتبه الآن يشبه رواية حقيقية. نعم، هي رواية حكي وأحداث بغض النظر عن ترابطها وعن التقنيات المبتكرة التي تركز على شكل الكتابة بعيداً عن مضمونها مما يروج له نقاد ما بعد الحداثة من الذين أنتجتهم الثقافة الرأسمالية الحديثة بعد ثورة التكنولوجيا.

كان الأدب وسيبقى ناباً حاداً من أنياب الشعوب تقاتل به من يحاول افتراسها. مصباح يضيء في الظلمة دروباً حتى لو صغيرة، وتنتهي بواحات من الجمال والنور. والسلطة أينما كانت وباعتبارها نسقاً نقيضاً للثقافة الحرة تريد خلع أنياب الشعوب أو على الأقل ترويض الكتاب وتدجينهم بتشجيعهم على إنتاج هراء وسخف في قالب أدبي لا تليق به أي صفة. روايات وأفلام وقصص وكتب لا حصر لها تدور في هذا الفلك. أما الأيديولوجيات التي

ابتليت بها منطقتنا وفرخت أحزاباً هي نسخة من السلطات المستبدة في دول المنطقة، فهي تريد أدباً يسبح بحمد الزعماء ويمتهن التطبيل في الأعراس الحزبية. إنها تسعى إلى تسطيح عقول الجماهير عبر إنتاج أدب مبتذل تافه وفن هابط وتمجيد ثقافة الموت والتشجيع عليه.

لقد غاب عن هؤلاء أن أحد أوجه الأدب وأهمها إطلاقاً هو السعي لمواجهة بشاعة الحياة، بشاعة الأنظمة والمستبدين والأفكار عبر تصوير تلك البشاعة بدقة وتحليلها وبسطها أمام الجمهور. غاب عنهم أن الأدب الذي هو نشاط جمالي بحت لا يمكن أن يتخلى عن دوره الكاشف مهما كانت الضغوطات عظيمة والإغراءات هائلة. الأدب مسبار يكتشف جغرافيا النفس البشرية، ويسبر أغوار المجتمع، ويتجول في مسالك التاريخ الوعرة وعبر أكوان متعددة لا نهاية لها. الأدب مبضع جِرَّاح وبلسم جِرَاح. إنه ليس طبلاً فارغاً تقرعه يد من لا يحسن ضبط الإيقاع.

لكن مافيا الأدب الخفية تلعب دورها الموجه لصناعة أدب هلامي لا لون ولا رائحة ولا طعم له. في البداية يقوم بعض النقاد المتواطئين بالترويج لنصوص خالية من الدسم في المنصات الإعلامية، فيتحدثون بإعجاب بالغ عن نصوص وكتابات هي أقرب إلى الخواء واللاشيء ويبرزونها عبر خلق هالة حولها فيقبل القراء عليها ويرددون بدورهم ما يقوله النقاد الأنذال. أخيراً يأتي دور الجوائز لتكريس ذلك الخواء وهكذا يصيب العفن شريحة واسعة من الطبقة المثقفة نقاداً وقراءً وكتاباً ويفقد الأدب مخالبه وأنيابه الضرورية لمواجهة كل ما هو قبيح.

***

لهذا الليل الذي يفرش مائدته الآن نكهة الفلفل الأسود. نعم أستطيع تذوق الليل وشم رائحته، وكذلك أشم رائحة النهار. تختلف الرائحتان. رائحة النهار أقرب إلى رائحة نهر يعج بالأسماك، بينما الليل، ليل هذه الجزيرة، يعبق بشذى القرنفل. النهار لا طعم له هنا. له طعم الموت الذي تذوقته أثناء سجني قبل نحو ربع قرن مراراً عدة. له طعم الخوف الذي أصاب ركاب سفينة نوح التي رست قريباً منا على جبل الجودي قبل آلاف

السنين كما تروي كتب الله.

أما هذه الخمرة السريانية، فلها طعم المجازر. كل زجاجة تحكي عن مجزرة. كل كأس تسرد قصة روح أزهقتها الكراهية. ليست عناقيد العنب هي التي عصروها لتسيل هذه الخمرة ياقوتاً يشع، بل كانت أرواحاً حصدتها مناجل الاختلاف في الدين والعرق وداستها أقدام الوحش الهوياتي. أكاد أشم مع كل رشفة رائحة الخوف التي شمتها الضحايا ساعة نحرها، وأكاد أسمع حشرجة الحناجر التي ذبحتها سيوف الله وسكاكينه الكثيرة. مع كل رشفة أتجرع ما يدفع عربة خيالي إلى حافة الذكرى ويقلبها صوب هاوية الجنون.

أربعة كؤوس كبيرة أفرغتها في جوفي والليل لم ينتصف بعد. يقولون إن من يريد السكر لا يعد الأقداح. ليس السكر غايتي من وراء الشرب، بل أريد الصحوَ نقيضَه أو ربما توأمَه. أريد أن أصحو أكثر، وأن أدعو الخراف الضالة من قطيع الذاكرة إلى حظيرة هذه السيرة التي أدون فصولها. إن السكر وجه آخر من وجوه الصحو.

– بل هو الصحو في أشد حالاته شفافية وكشفاً.

– مولاي الشاعر!

– هل أفزعتك؟ لم أشأ أن أتركك وحيداً في هذا الليل الذي تشم رائحته وتتذوق طعمه.

– أنا...

– أما أنا، فألمسه. لليل ملمس يختلف من ليلة إلى أخرى. ما عليك إلا أن تمد يدك في الظلمة حتى تتعرف أصابعك إلى ملمس الليل. ليلتك هذه خشنة كأنها جلد قنفذ. ثمة ليل ناعم كالحرير: حين يشرق الليل بالحب ويضيء القلوب.

– الظلمة بنت الليل.

– رب ليلة أكثر نوراً من ألف نهار. حين تختلي بالحبيب وتتعانقان في الظلام.

– الحب فخ. عتمة تُعمي الأقدام.

– لا خير في أقدام لم تتعثر بفخاخ الحب.

– الحب قد يهدم القلوب يا مولاي. يحولها إلى أطلال.

– ليس القلب قلباً إن لم يزلزله الحب ويقلب عاليه سافله ويتركه طللاً.

– وهل ينبغي أن يكون الحب عذاباً محضاً؟ أهو نوع من العقاب؟

– الحب من التجليات. مثل تجلي الرب للجبل في قصة الكليم موسى. وويل لقلب لم يتجلَّ الحب له ويجعله دكّاً.

– الحب ألم إذن؟

– إنه عذاب عذب.

– لكنه ألم. يشعر به المحبون كوخز الشوك في قلوبهم.

– ألم الحب مجازٌ. لكن حقيقته يقين. الحب يقين.

الحب يقين... تردد صدى الجملة حول الضريح حتى كدت أظن أن جوقة كاملة تنشده بإيقاع صوفي كالذي كانت تنشده فرقة الابتهالات في جامع ديار بكر الكبير خلال رمضان والأعياد الدينية.

بعد قليل نهضت وصرت أدور حول نفسي مردداً "الحب يقين" وأنا أحدق في الضوء المنعكس على الكأس التي في يدي.

نعم الحب يقين.

ولا ينهيه حتى ذلك اليقين الذي يماثله في القوة: الموت.

الحب يقين، واليقين آخر أحوال التصوف ولا شيء بعده إلا الخلود في أنواره.

***

غاب الشاعر. والشعراء أطياف قلقة ترتعش أرواحهم كالنجوم.

غاب الشاعر وأنا أبحث عن طيفه في كل الزوايا. أريد أن أريه جرحي الذي أغطيه منذ ربع قرن وحرصت كثيراً لكيلا يلمحه أحد. لا شيء سوى بياض الورق أفشي له سراً أخفيته عن الجميع.

أسترق السمع وأصغي بانتباه شديد فلا أسمع سوى نبض قلبي. أهو نبض قلبي أم نبض هذه المدينة المنكوبة؟ أنظر من النافذة فلا أرى سوى الليل يعانق الصمت الأسود المثقوب بطلقات معارك النهار. صمت ثقيل يشبه الصمت الذي هبط على الدنيا حين طلب الجندي هوياتنا أنا والخال حامد وأمرنا بالنزول ظهيرة ذلك اليوم البعيد من صيف 1987.

نزلت قبل الخال حامد ولم أنتبه بسبب ارتباكي أنني أحمل معي أسطوانة القماش إلا حين زمجر الجندي: ”أعد القماش إلى السيارة يا بغل“.

أعدت القماش وأنا لا أفهم ما يجري.

فتش الجنود حقائبنا وجيوبنا وكل مكان في السيارة. كنت خائفاً من افتضاح أمرنا وبقيت على أعصابي حتى صرخ الجندي في وجهينا: ”انقلعا“.

حين انطلقنا من جديد دوت ضحكة الخال حامد مجلجلة: ”ما أروع منظرك وأنت تنزل أسطوانة القماش! ظننت أنك ستقول للجندي: الصحف مخبأة هنا“.

لم أعلق. استغربت كيف نجونا. وضع الخال حامد شريطاً للمطرب فردي طيفور وارتفعت صوت أغنية ”عندي إحساس“ المقتبسة من فيلم بالعنوان نفسه[10]. ”أرأيت؟ الارتباك أخطر على المناضل من المخبرين. تمالك أعصابك في المرة المقبلة“.

10 İçimde Bir His Var.

على وقع الأغنية الحزينة الرتيبة اقتربنا من شرناخ. قال الخال حامد وهو ينفث غيمة كبيرة من الدخان: ”بعد عشر دقائق نصل إلى البلدة“.

– هل بقيت هناك حواجز؟

– لا أظن.

بعد نحو كيلومترين لاحت نقطة تفتيش جديدة. مدرعات وجنود مسلحون على جانبي الطريق يوقفون السيارات ذهاباً وإياباً.

”غريب“، قال الخال حامد وخفض صوت المسجلة. سألته بفزع: ”ما الغريب؟“

– هذا الحاجز. لم أره من قبل.

لأول مرة لمست نبرة الخوف في صوت الخال حامد. قلت وأنا أقلده: ”لا ترتبك. الارتباك يثير رائحة الشك. تنفس بعمق“.

لم يرد الخال حامد على مزحتي الفجة وبقي صامتاً. خفف سرعة السيارة ثم مال بها إلى جانب الطريق وركنها حيث أشار الجندي المتجهم.

– إلى أين؟

– إلى شرناخ.

– ماذا تحملون؟

– لا شيء سوى حقائبنا الشخصية.

– انزلا وأنزلا معكما كل شيء.

قال الجندي وهو يتفحصنا بعينيه الصغيرتين. تخيلته وهو يدير رأسه في الاتجاهات كافة كلباً يتشمم الهواء المحبوس في الحافلة. كان الهواء الذي خالط رائحة العرق ودخان سجائر الخال حامد والمازوت والجلد الذي ضربته الشمس طوال الطريق ثقيلاً بما فيه الكفاية. قلت لنفسي وأنا أنزل من الحافلة إن هذه الرائحة ستغطي على رائحة الارتباك والخوف التي تفوح منا بالتأكيد.

وقف كل واحد منا بجانب حقيبته.

كنت أقل ارتباكاً من المرة السابقة لكن الخال حامد بدا متوتراً وهو يشعل سيجارة ثانية ويدخن بشراهة نفساً وراء نفس.

"لمن أسطوانة القماش هذه؟" صرخ الجندي وهو لا يزال يتشمم الهواء الحبيس في الحافلة. بصوت واحد قلت والخال حامد: "لي".

"ليحضرها أحدكما"، صرخ الجندي. هوى قلبي. شعرت به يتدحرج مثل صخرة دفعها أحدهم صوب هاوية. بخطى ثقيلة سرت صوب الحافلة كأنني أخوض لجة من القار. ثم عدت وأسطوانة القماش في يدي. لم أشعر بأن قدماي تلمسان الأرض. لم أشعر أيضاً أنهما ترتفعان حين أخطو. لم أشعر أنني صاحب قدمين أصلاً.

الإثنين 1 شباط 2016

نباح كلب من بعيد يهز ستارة الليل.

كلب وحيد يبدو من نباحه أنه ضجر وحزين. هل تقطعت به السبل؟ هل هو كلب شارد مثل تلك الكلاب التي كان نباحها عزاءنا الوحيد في ليالي السجن الطويلة في ديار بكر؟ هل هو كلب بوليسي مثل الكلاب التي كانت بمعية الجلادين وتقطع قلوبنا رعباً بنباحها؟ هل هو كلب

محاصر مع المقاتلين أم هو من كلاب الجيش الذي يحاصر حارات الجزيرة؟ هويته تؤرقني. تماماً كما تؤرقني هذه القفلة التي تلاحقني منذ عشرة أيام فلم أكتب حرفاً واحداً.

أعتقد أن للحدث الذي أريد تدوينه علاقة بالموضوع. إنها ليست قفلة الكاتب بل تهرباً لا إرادياً من تسجيل تفاصيل ما جرى لي منذ لحظة اعتقالي حتى خروجي من السجن بعاهتي السرية: العجز الجنسي اللعين.

حاولت مرات عدة أن أكتب. فشلت في كل مرة. عجزت رغم لجوئي إلى النبيذ كمحفز للكتابة. عادة ما ينطلق حصان خيالي ليعربد في دروب الإبداع وساحاته بعد الكأس الرابعة لكنني عجزت في الأيام الماضية عن كتابة سطر واحد. بقي خيالي المسكين يحمحم في مكانه، ويثب ويتوقف على قائمتيه الخلفيتين دون أن يتقدم خطوة واحدة.

أأكتب عن تلك اللحظات الأليمة وأعيدها رغم أنني أحاول نسيانها إلى الأبد؟ من ذلك العاقل الذي يريد استعادة تفاصيل محنته؟ لست مازوشياً لأستمتع بآلامي التي ذقتها خلال حبسي. لم تتلقفنا أي مؤسسة بعد إطلاق سراحنا. لم يهتم أحد بنا ولم يحاول أحد مداواة جراحنا الخفية العميقة التي أصيبت بها أرواحنا. كل من خرج من السجن حمل عاهة، ندبة كبيرة في النفس ليعيش معها بقية حياته. وليت الأمر وقف عند هذا الحد. لقد طلب منا الحزب أن ننتقد أنفسنا وسلوكاتنا خلال شهور السجن الطويلة. طلبوا منا بصفاقة لا حدود لها أن نجلد ذواتنا المهشمة. قالوا إن النقد الذاتي كفيل أن يصحح مساراتنا ويعيدنا إلى نهج القيادة. لقد جاؤوا بذلك المصطلح الستاليني الماوي البغيض لكي نطعن ذواتنا المتقرحة أصلاً. بعض الرفاق انساقوا وراء هذه الرغبة السادية من الحزب. اخترعوا لأنفسهم عيوباً ليست موجودة فيهم أصلاً فصاروا مهرجين في سيرك لعين ومضحك. لقد كانت اجتماعات النقد والنقد الذاتي أشبه بحفلات التعري التي تخلع فيها راقصة الستريبتيز ثيابها قطعة قطعة. كانوا يرددون على مسامعنا مقولة الزعيم: ”إن من يقوم بعملية النقد الذاتي هو إنسان قوي وجبار وليس واهناً“، ويطلبون منا أن نعترف بأخطائنا التي ارتكبناها والتي لم نرتكبها خلال اعتقالنا دون أن يعيروا أدنى اهتمام بما يتركه السجن من آثار نفسية وبدنية عميقة في السجين.

***

وساوس كثيرة انتابتني لحظة أوقفتنا دورية الجيش التركي. عدت إلى التفكير في أبي وأمي والمصير الذي ينتظرني وكيف سيتلقون خبر اعتقالي. لكن صوت الجندي الخشن ونبرته الآمرة جرّاني من بحيرة التفكير جراً: "أين لفة القماش؟"

– في السيارة.

– هيا أحضرها. لا تترك شيئاً هناك.

الفاصل الزمني القصير بين ذهابي إلى السيارة وعودتي بعد إحضار لفة القماش اللعينة دام أقل من دقيقة. كانت تلك أطول دقيقة في حياتي كلها. كانت دقيقة آينشتاينية طالت أكثر حتى من لحظات التعذيب الفظيعة التي شهدتها في بداية سجني أثناء مرحلة الاستجواب. شعرت بالزمن نهراً من صقيع ولم أعد أسمع سوى قرع الطبول في قلبي.

بدأ الجندي يفتش حقائبنا، فيما كنا أنا والخال حامد نفتش عن معجزة تنتشلنا مما نحن فيه. كانت عيني على لفة القماش المركونة إلى حقيبتي.

"نظرت إلى لفة القماش المركونة إلى حقيبتك حين حملها الجندي ذو العينين الصغيرتين. رأيتها تتحول بين يديه إلى أفعى عملاقة هربنا منها وظلت تلاحقنا حتى ديار بكر"، قال لي الخالد حامد في حلم تكرر كثيراً أثناء أيام التعذيب.

– لمن لفة القماش هذه؟

"لي"، بصوت واحد رددنا على استفسار الجندي صاحب العينين الضيقتين مثل حبتي مسبحة أرضرومية.

– لك أم له؟

"لي"، مرة أخرى أجبنا بصوت واحد.

وضع الجندي أحد طرفي لفة القماش على عينه اليمنى ورفعها صوب السماء ونظر فيها كأنها تلسكوب.

”لقد كشفنا هذا الخنزير. إنها وشاية من أحد الخونة“، قال لي الخال حامد في الحلم نفسه الذي تكرر كثيراً أثناء أيام التعذيب.

نفض الجندي لفة القماش نفضات عدة فتكومت على الأرض صفحات صحيفة سرخوبون.

***

وقعنا.

لم يكن هناك مجال للإنكار. تعرضنا، قبل أن يدفعونا إلى سيارة الجيب العسكرية، إلى ركلات عنيفة وسباب وضرب بأخمص البندقية الأميركية على ظهورنا. حين صرنا في السيارة أردت أن أهمس بشيء للخال حامد. كانت عيناي معصوبتين بإحكام سبب آلاماً فظيعة حتى شعرت بأنهما ستنفجران. لم أعرف من أين جاءتني لكمة قوية على فمي قبل أن أتفوه. شعرت بطعم الدم على لساني. لكمة أخرى سمعت صوتها. خمنت أنها أصابت وجه الخال حامد.

”ستشهدون حفلات العمر في ديار بكر“، سمعنا صوت جندي يبدو أنه كان جالساً بجانب السائق. كانت نبرته ساخرة بوضوح.

بعد ثلاثة أيام وصلنا إلى سجن ديار بكر. بتنا أول ليلتين رهن التحقيق والتعذيب في مقر عسكري بمدينة ماردين ثم أخذونا فجراً مكبلين معصوبي الأعين صوب السجن الرهيب.

الحديث أو الكتابة عن شهور السجن الطويلة أمر يصيبني بالكآبة والتوتر ويجعل مزاجي مغموساً بالسم. لقد كتبت في رواياتي فصولاً مما شهدته في السجن. لكن الكتابة شيء وما شهدته حقاً شيء آخر مختلف. لا يمكن لأي روائي خصب الخيال وصف لحظات التعذيب بجمل من كلام البشر. إن التعبير بدقة عن تلك الساعات الرهيبة أمر مستحيل. لا يمكن تخيل الجحيم اليومي الذي عشت فيه خلال التحقيق الذي استمر أكثر من شهرين. لا يمكن لمن لم يذق ما ذقناه أن يتصور أن الإنسان قد ينزل إلى الدرك الأسفل من الوحشية المجنونة، ولا يمكن تخيل أن هناك ساديين يستطيعون الاستمتاع بعذاب الآخرين بتلك الدرجة التي تذهب العقل. نعم، بثثت مشاهد مرعبة من حياتي في السجن على صفحات بعض رواياتي لكنني

كنت أتحاشى دوماً الكتابة عن حادثة معينة دمرتني من الداخل وقلبت حياتي جحيماً وها قد آن أوانها.

كل أنواع الضرب تحملتها. حتى التعليق من رجل واحدة بالسقف العاري. حتى الإهانات وكل الشتائم المقذعة التي كانت تنهال علي خلال الضرب. إجبارنا على حفظ الأناشيد العسكرية التركية ومقولات أتاتورك التي تمجد العنصر التركي وغير ذلك من سلب للشخصية وتدمير لها لم يكن شيئاً أمام ما جرى لي ليلة الجحيم حيث طلب مني الجلاد كالعادة أن أخلع ثيابي. هي لم تكن ثياباً. بل كانت بيجامة حائلة اللون مهترئة ممزقة نتنة وأكبر من مقاسي بشكل يثير الضحك أكثر مما يثير الشفقة. نزعتها فوراً ودون تردد ظناً مني أنه سيجلدني أو يضربني بالعصا كالعادة. كان أشد ما يؤلمني هو الضرب على عضوي وخصيتيَّ. حينئذ كنت أشعر بجحيم يستعر في منطقتي الحساسة وكنت أتخيل أن صرخاتي لا بد أنها تشق الجدران الصامتة وتصل إلى كل بيت في ديار بكر. لكن الليل والجدران الصماء كانت تبتلع كل صرخة، وتمتصها مثل بئر عميقة رهيبة وتحيلها إلى صمت يشبه صمت السماء.

وقفت عارياً كما ولدتني أمي. كان التعري قد أصبح شيئاً طبيعياً بعد المرة الأولى. صرنا بعد ذلك نخلع ثيابنا بشكل آلي حين نذهب إلى حفلات التعذيب. في المرة الأولى وضعت يدي بشكل لا إرادي على عضوي. كانت تلك أول مرة أتعرى فيها أمام شخص آخر. نالني خجل كبير من وقوفي عارياً. قهقه الجلاد بشكل هستيري وصرخ: "هيا أرنا هذا العضو الأسطوري. هيا أيها الكردي المتوحش. لستم سوى فيروسات تتكاثر وتؤذي". ثم ضربني ضربة قوية جداً على قفا يدي التي كانت تغطي عضوي. سحبت يدي فوراً من شدة الألم فازدادت قهقهة الجلاد.

في ليلة الجحيم طلب مني الجلاد أن أواجه الجدار الإسمنتي العاري وأقرأ الجملتين المكتوبتين هناك بصوت مرتفع:

– adalet mülkün temelidi[11]

[11] العدل أساس الملك.

– önce Vatan[12]

12 الوطن أولاً.

قرأت كما طلب مني وكررت القراءة بصوت أعلى وأعلى حتى أوقفني وصرخ: "أرأيت يا عديم الشرف! أرأيت أيها الخائن الحقير يا ابن القحبة الكردية! العدل أساس الملك. والوطن أولاً. لكنكم خنتم الوطن. ومن يخون الوطن يستحق الجزاء العادل. والآن سترى كيف تكون العدالة".

فجأة هجم علي جلادان مرافقان. أجبراني على الركوع ولم أشعر إلا بالجلاد الثالث يغتصبني وهو يزعق: "الوطن أولاً أيها الكلب. الوطن أولاً أيها الخائن".

استمر يلهث مثل كلب ويشتم وهو يغتصبني. صرت أستغيث وأصرخ، وكانت الجدران الملوثة بالشعارات إسفنجة تمتص كل صرخة. ارتفع نباح الكلاب البوليسية من ردهات السجن بتناغم عجيب مع صرخاتي التي صارت أقرب إلى النباح. شعرت بأنني أهوي في بئر مظلمة عميقة وأنا أنبح. ثم لم أعد أشعر بشيء.

غبت عن الوعي وغابت عصا الجلاد في مؤخرتي.

***

حين استعدت وعيي رأيت نفسي مرمياً في الزنزانة الانفرادية مغتصباً منهوكاً غير قادر على استيعاب ما جرى. أحدق في الجدران أستنطقها بنظراتي.

حاولت أن أستعيد تفاصيل الواقعة. كان عقلي عاجزاً عن التفكير وذاكرتي معطوبة. تخيلت أن ما جرى معي مجرد كابوس من الكوابيس التي عانيت منها طوال مدة السجن السابقة. اختلطت لدي الأخيلة والأزمنة والوقائع. هل أنا معتقل حقاً؟ أين الخال حامد؟ ماذا فعلوا به؟ ولماذا يعذبوننا إلى هذه الدرجة دون أن يحاولوا انتزاع الاعترافات؟ إنهم يمارسون فنون تعذيب لم تخطر على بال أحد لمجرد التلذذ. لا هدف لهم سوى كسر إرادتنا وتحطيم شخصياتنا بالتعذيب القاسي. هل جرى اغتصابي فعلاً؟ أي عار سيتلبسني إذا انتشر الخبر

بين السجناء ثم بين معارفنا خارج السجن؟ كيف سأرتبط بامرأة؟ كيف سأبقى قادراً على الحب وممارسة الجنس وإنجاب الأطفال؟ كيف سأنظر إلى أبي وأمي وبقية أصدقائي؟

قررت مثل الرفاق الذين سبقونا إضراباً عن الطعام حتى الموت. الموت أهون. الموت سيغسل هذا العار الأسود. لا أستطيع الانتحار داخل زنزانتي لانعدام الوسائل. ليس أمامي سوى طريقة وحيدة هي الصيام حتى الموت.

تعددت هواجسي. صرت مثل بالون منفوخ تتقاذفه أمواج صاخبة في يوم عاصف. موجة تسلمني لأخرى ولا أجد شاطئاً أرسو فيه. شعرت بآلام رهيبة في شرجي. لم يكتف الجلاد باغتصابي بل أولج فيَّ عصا غليظة إلى أن كادت روحي تطلع ثم أغمي عليَّ. تحدث كثيرون من الرفاق عن موضوع العصا. لكن لم يتحدث أحد أنه اغتصب على يد جلاديه. عرفت في ما بعد أن أحد الجلادين كان يجبر كل مرة سجيناً على نيك سجين آخر. ثم يأمرهما بتبادل الأدوار وسط قهقهات هستيرية من الجلادين. أما الرفيقات فتم اغتصاب كثير منهن أمام أعين أزواجهن وإخوتهن.

– قل أنا تركي.

– ...

– قل أنا تركي وسأدع زوجتك تمضي بسلام إلى زنزانتها.

– ...

– قل أنا تركي وإلا سلمت زوجتك ليستمتع بها أحد جنودي. هيا قل أنا تركي.

– ...

– إذن خذ هذه الغنيمة لك. استمتع بها أيها الجندي.

– أنا..تر...كي... أنا تر...كي

– بصوت أعلى يا خراء.

– أنا تركي.

– أرأيت؟ لم يكلفك ذلك شيئاً أيها القحب. بل نفعك ونفع زوجتك. هيا اغربا عن وجهي.

كان هذا حواراً في مشهد من فيلم يتناول التعذيب في سجن ديار بكر في عهد الضابط الفاشي أسعد أوكتاي يلدران الذي اغتيل عام 1988 في إسطنبول.

لم يكن ذلك الحوار من بنات أفكار المخرج أو كاتب السيناريو. لم يكن مبالغة درامية يقصد بها صاحب العمل التأثير في جمهوره ومشاهدي الفيلم الذي يسبب الكآبة العميقة رغم أنه لا ينقل ربع الحقيقة. مع ذلك كان ذلك الحوار العابر تجسيداً واقعياً واستعادة لما جرى بالفعل في السجن من فظائع وكنت شاهداً على كثير من فصولها الرهيبة. فالانتهاكات الجنسية كانت جزءاً أساسياً في منظومة التعذيب التي اتبعها الفاشيون معنا. الإخصاء للرجال والاغتصاب للنساء. وبما أن الرجال لم يتحدثوا عن موضوع اغتصابهم ليست هناك سوى معلومات شحيحة عن عدد الحالات التي تم فيها اغتصاب الشباب الذكور.

إن الحالة الوحيدة التي أستطيع البوح بها في هذه الليلة التي يحاصرني نباح كلابها هي حالة اغتصابي التي دمرت روحي لشهور طويلة. كان الجلادون لا يتوخون تحطيم معنوياتنا فقط من وراء تعريض أعضائنا التناسلية للضرب المبرح وحتى ربطها بالحبال وشدها من سجناء آخرين، بل حمل أحدنا الآخر ورفعه إلى الأعلى عبر الإمساك بعضوه الذكري بقوة وشده، بل كان الهدف هو تعزيز ثنائية السيد والعبد التي عاملت بها الحكومات التركية الشعوب الرازحة تحت حكمها وخاصة الكرد. ليس هناك في هذه الدولة سوى عرق واحد يحق له أن يحكم وهو العرق الطوراني. أما من رفض ذلك، وأما من أنكر أنه تركي ولم يردد مقولة مؤسس الجمهورية: كم سعيد من يقول أنا تركي! فلا يحق له سوى خدمة السيد. ومن شروط الخدمة أن يكون الخادم مخصياً منزوع الذكورة. حتى أن اللغة التركية تستخدم كلمة ”خادم“ العربية بدلاً من الكلمات الأخرى للدلالة على المخصي. نحن خدم في هذه الجمهورية ولسنا مواطنين فيها. ولكي تكتمل شروط كوننا خدماً لا بد من نزع الذكورة عنا، ولا بد من إخصائنا واغتصابنا. لن نصبح مواطنين صالحين إلا إذا أنكرنا هويتنا التي ورثناها لنعلن بعد ذلك انتماءنا إلى العرق التركي. ليس في هذه الدولة سوى طبقتين: طبقة السادة الأتراك وطبقة العبيد المخصيين. يجب أن يكون ما يميزنا عن التركي افتقارنا إلى الذكورة، افتقارنا إلى ذكر ينتصب وبإمكانه زرع نطاف في الأرحام واستنساخ بشر آخرين

قد يتمردون على الدولة وقوانينها. الحل في الإخصاء. لا حل إلا بشل هذه الأيور حتى ينقطع نسل الوحوش الجبلية، كما كرروا على مسامعنا كثيراً. لا بد من نزع القدرة على الإخصاب والتناسل.

غالبية الذين خرجوا من سجن ديار بكر في تلك المرحلة لم يتزوجوا. والذين كانوا متزوجين سابقاً لم يعودوا قادرين على الإنجاب. لقد قامت الدولة بإخصائنا لأنها تعرف أن كل عاهاتنا التي حصلنا عليها في السجن قد تشفى إلا العجز الجنسي سيلازمنا إلى القبر بعد تدميرنا من الداخل. الدمار من الداخل لا يراه أحد لكنه الأعمق أثراً والأقسى لأن ما ورثناه من مجتمعنا الذكوري أصلاً يعتبر الفحولة مبرر بقاء الرجل على قيد الحياة. وفي الكردية لفظة Nemêr التي تدل على العنين تعني حرفياً لا رجل أو ليس رجلاً. فالرجل ليس بالشعر النابت في وجهه وصدره وباقي أنحاء جسده، وليس بالقوة العضلية ولا بالصوت الخشن. الرجل ليس بكل مقوماته التي تفرقه عن المرأة لكنه رجل حين يمتلك قضيباً قادراً على الانتصاب. وفي أحسن الأحوال يُطلق على العنين لفظة Nêremê وهي تركيب من لفظين متناقضين أي ذكر–أنثى، فالعنين نصفه رجل أي من ناحية الشكل، ونصفه أنثى من ناحية العجز عن استعمال قضيبه في الجنس.

لا أشعر الآن بأنني وضعت كل الحمل الثقيل عن ظهري. صعب جداً أن أتخفف من أعباء هذا الإرث الرهيب بكتابة ما جرى وتلخيصه في صفحة أو صفحتين أو حتى رواية كاملة. كل ذلك القهر، كل ذلك الانكسار الروحي والشعور بالهزيمة والدونية المفرطة، لا يمكن أن أقضي عليها بجمل أكتبها في يومياتي.

حين سمعت خبر اغتيال الضابط الفاشي أسعد أوكتاي يلدران بعد خروجي من السجن لم أفرح كثيراً. ما نفع مقتله بعد أن دمر أرواحاً كثيرة وارتكب جرائم لا يمحوها قتله؟ المهم هو إزالة هذه المنظومة الفاشية. المهم هو القضاء على النزعة الاستعلائية القومية الحاكمة في هذه البلاد. المهم هو حصول هذا الشعب على حقوقه التي ناضل في سبيلها وضحى من أجلها. المهم هو السعي السلمي من أجل الاستقلال عن هذه الدولة أو إعادة بناء هذه الجمهورية على أسس ديموقراطية غير عنصرية وغير مبنية على تمجيد العرق الطوراني

وإنكار وجود بقية الأعراق الأصيلة على هذه الأرض. دون ذلك لا نفع لتصفيات فردية ولا حتى لمحاكمة من تسببوا في الأذى لناس أبرياء ولا حتى لكفاح مسلح يمكن أن يرتهن قادته لأجندات خارجية وتكثر فيه الأصابع التي توجهه على هواها. الفاشية ليست فرداً. إنها منظومة فكرية قائمة على العنف المفرط وتصفية الآخر. إنها فلسفة سوداء وشريرة يجب القضاء عليها في المهد وقطع الطرق أمامها في المجتمعين المدني والعسكري. الفاشية نبتة خبيثة تجعل الأوطان أضيق من حذاء ولذلك يجب قطع الماء والهواء عنها حتى لا تنمو وتسمم الأجواء. لا تنتهي الفاشية بموت الفاشي بل بالقضاء على الفكر المؤسس لها وتغيير ذهنية المجتمع الذي يكون بيئة صالحة لنمو الفاشية وحاضنة دافئة لبيضها العفن.

قبل نحو تسعة أشهر مات قائد الانقلاب العسكري الجنرال الفاشي كنعان إيفرين. مات ميتة طبيعية معززاً مكرماً عن مئة عام تقريباً بعد أن حكمت عليه محكمة مضحكة بالسجن مدى الحياة. ذلك الحكم الذي لم يُنفذ بسبب شيخوخة الجلاد الأكبر المفرطة. مات ذلك الوحش بعد أن امتص أرواح المئات في السجون ويبدو أنه سرق أعمار ضحاياه حتى استطاع أن يعيش كل هذه السنوات.

الآن يتناهى إلى مسامعي صدى نباح كلاب عدة بعيدة، كلاب أتخيلها تلاحق أشباح الفجر الهائمة في شوارع هذه المدينة المغتصبة الخائفة والغارقة في وحل الصمت. أكاد أسمع نباح الفجر نفسه وهو يلاحق كلبة الليل لاهثاً وراءها. لقد اتسعت حلقة الكلاب التي تنبح بعد أن افتتح حفلة النباح الليلي كلب وحيد شريد قبل خمس ساعات.

الثلاثاء 2 شباط 2016

بعد خروجي من السجن ألححت على أمي أن تسرد لي قصة موت أبي. طلبت منها ذلك مرات عدة وكانت تأبى أن تحكي لي وتتحجج في كل مرة بحجة أوهى من السابقة. قلت لها أخيراً: "يا أمي أنا الآن بحاجة إلى معرفة حقيقة موت والدي التي سأسردها على الجميع ليتعرفوا إلى الظلم الذي تعرضنا له. أنا ابنه الوحيد ومن حقي أن أعرف كيف مات".

أجابت أمي وهي تصطاد بمنديلها لؤلؤتين كبيرتين رسمتا على وجنتيها الذابلتين دربين مبللين يلمعان في ضوء المغيب: "مات أبوك على باب السجن".

– أعرف هذا يا أمي. لقد عرفت هذا حين كنت في السجن. أريد معرفة التفاصيل. كيف مات أبي؟ لماذا؟ ما الذي حدث عند باب السجن؟ ماذا قال لكما البواب؟ ما آخر الكلمات التي لفظها أبي قبل أن يُغمى عليه ثم يموت؟ أريد التفاصيل مهما كانت صغيرة.

– وما نفع ذلك يا ولدي؟ ما نفع التفاصيل وقد رحل أبوك وأخذ معه حلم اللقاء بك إلى القبر؟

– وما نفع الصمت يا أمي؟ قولي لي بحق الإله والشياطين ما نفع الصمت؟

– هل نسيت يا أحمد؟ هل نسيت حين تكلمت في إحدى الزيارات التي قمت بها لأقابلك وأنت سجين؟ هل نسيت كيف جرجروني من ثيابي وهم يشتمون وأنا أبكي لأنني قلت لك: كيف حالك؟

***

لا لم أنسَ ذلك يا أمي.

ربما أنسى كل أنواع التعذيب الذي مارسوه بحقي لكنني لن أنسى ذلك المشهد حين انقض وحشان شرسان عليك وطرحاك أرضاً وأنا واقف أنظر إليك بذهول وقهر مكتوم وعجز مطلق.

حدث ذلك بعد أن مرت سنة على سجني. وكانت تلك أول مرة ألتقي فيها بك يا أمي وجهاً لوجه من وراء الحاجز الشبكي. كانت الإجراءات رهيبة مذلة. طلبوا من كل سجين أن يولي ظهره للزائر. وطلبوا من الزائر الشيء نفسه. بقينا هكذا نحو دقيقتين ثم جاءت الأوامر بأن يستدير كل واحد منا ليقابل من جاء لزيارته. كنت أعرف قوانين الزيارة وأهمها الصمت وعدم إجراء محادثة لو من كلمة واحدة بين السجين وزائره. علينا الاكتفاء فقط بالنظر دون التفوه بحرف واحد. نترك العيون تتخاطب والقلوب تتواصل. لكنني حين استدرت وشاهدتك هاجت نفسي وأوشكت على أن يغمى علي. كان وجهك ذابلاً شاحباً وشعرت أنك أصبحت

عجوزاً من كثرة ما ظهر على وجهك من حزن وأخاديد. أردت أن أبكي وأقول لك لقد اشتقت إليك وإلى أبي. كيف حالكما؟ كنت أود أن أقول: لقد اغتصبوني يا أماه وأنا رجل. لقد مرغوا كرامتي في الوحل. قولي للناس إن ما يجري في هذا السجن بعيد عن خيال أعظم مخرج لأفلام الرعب. قولي لهم إن ما يجري في السجن نسخة طبق الأصل عما يجري في طبقات الجحيم. لكن ما تلقيته من تعذيب وإذلال منهجي في جلسات التحقيق وتشديد على الصمت أثناء المقابلة أجبرني على التزام الصمت والاكتفاء بالنظر إليك والقهر يأكلني من الداخل.

لكنك يا أمي لم تلتزمي قوانين السجن وبروتوكولات زيارات السجين. قلب الأم لا يعرف القوانين. قلب الأم هو القانون الذي يجب أن تحترمه البشرية كلها. دموع الأمهات مقدسة مثل الوصايا العشر التي خطها الإله بيده على الألواح التي منحها للنبي موسى على طور سيناء. في ذلك اليوم، لم تكتفِ يا أمي المسكينة بالنظر إليّ صامتة كأنك خرساء بعد سنة من حرقة قلبك وشوقك إلى ابنك الوحيد.

حين التفتّ ورائي رأيتك تلتفتين أيضاً. رأيت وجهك الذابل وقد رسمت الدهشة ملامحه بفرشاته الخشنة. وحين وقعت عيناك المبللتان بالدمع علي قلت لي بنبرة فيها كثير من الانكسار والشوق والحنان والحنين والخوف واللهفة: ?Tu çawayî berxê min كيف حالك يا خروفي؟''

لم تكن جملتك تلك سوى عقد من أربع لآلئ لامعة، أربع كلمات بالكردية. ''كيف حالك يا خروفي'' جملة بسيطة ليست سوى سماء تضيئها أربعة نجوم ترتجف نوراً. لكن أن تقولي ''كيف حالك يا خروفي'' بالكردية يعني أنك تخرقين قوانين الدولة وأنظمة السجن. أن تتكلمي الكردية يعني أنك عدو لهذه الدولة التي قوامها عنصر نقي لا غبار عليه.

لم أرد عليك خوفاً من أن يهينك السجانون الفاشيست آلهة الانتقام الفظيع. نظرت إلى عينيك الطافحتين باللهفة والدموع وبلعت ريقي كمن يبتلع موسى حادة.

وقبل أن أستوعب ما جرى أمامي يا أمي، قبل أن أتمكن من ترجمة وفهم ما جاء في تحيتك المقتضبة الجميلة كقصيدة هايكو أو أرد عليها لو بإيماءة من رأسي، شاهدت جنديين مدججين

بالهراوات الغليظة ينقضان عليك. أمسك كل واحد منهما بإحدى يديك وطرحاك أرضاً ثم جرجراك خارج غرفة الزيارة وأنت تولولين وتستغيثين.

***

كان ما جرى ذلك اليوم أبشع أنواع التعذيب الذي مورس بحقي. لم أشعر بنفسي ذليلاً عاجزاً في أي يوم من أيام التعذيب كما شعرت في تلك اللحظة حين شاهدت أمي مطروحة على الأرض والجنديان يجرانها إلى الخارج.

وقفت عاجزاً عن فعل أي شيء، وعن قول أي شيء. كنت عاجزاً عن كل شيء، عاجزاً تماماً مثل قضيبي الذي أفقدوه القدرة على الانتصاب.

***

كان الوقت صيفاً. تحملنا الانتظار أربع ساعات تحت الشمس الحارقة ننتظر دورنا. كانوا يتعمدون إذلالنا وفي مرات كثيرة يعيدوننا دون السماح بالزيارة. لو سردت عليك يا ولدي القصص التي سمعتها من الأمهات على باب السجن، لألفت كتاباً لا تنتهي صفحاته. لقد ذقنا الويل يا ولدي وصرف والدك أموالاً طائلة رشى لإدارة السجن وحراسه في سبيل الوصول إليك والاطمئنان إليك.

في زيارتي الأولى إلى السجن، تلك الزيارة التي رافقت فيها والدك، سمحت إدارة السجن بدخول شخص واحد فقط من كل عائلة لمقابلة السجين. لم تطل المناقشة بيننا. قال والدك: اذهبي يا جانان أنا سأبقى هنا أنتظرك. سلمي على أحمد وقولي له سنفعل كل ما بوسعنا لإخراجه من هذا الجحيم. وكَّلنا له أفضل المحامين ولن تطول عليه مدة السجن. كنت أعرف أنه يقدر مدى حزني عليك وتلهفي لرؤيتك. كنت أتفهم كمية القهر التي يتجرعها أبوك من أجلك.

لكنه لم يقل لي: يا جانان ممنوع عليك أن تتحدثي الكردية. لم ينبهني إلى أن هذه اللغة قنبلة وعليّ التحرز من حملها معي. لم يقل لي شيئاً بل بقي ينتظرني عند البوابة ودخلت وحدي بأمل اللقاء بك والتحدث إليك لو لثانيتين. كان مجرد سؤالي عن صحتك باللغة الكردية جريمة عاقبني عليها زبانية السجن. جرجروني مثل جثة كلبة جربانة ثم رموني خارج السجن عند البوابة حيث ينتظرني والدك وهم يشتمونني بأقذع العبارات.

***

ألححت عليك يا أمي كثيراً أن تقصي عليّ حكاية موت أبي. كنت تتهربين من الإجابة دائماً. تختصرين الإجابة بعبارات قصيرة مبهمة مثل: الأوغاد تسببوا في موته قهراً. مات مقهوراً ولم يتحمل قلبه إهانات العسكر. مات ولم يسعفوه. تأخرت سيارة الإسعاف كثيراً ولم تصل إلا وقد أسلم والدك الروح. عرفت أنك لا ترغبين في استعادة تلك اللحظات الأليمة. كنت تسردين عليّ قصة شتم الحراس لك وإهانتك لأنك تكلمت مع ابنك بالكردية. كنت تحكين لي وقائع كثيرة بطلاتها أمهات مثلك كن يصررن على اللقاء بأولادهن ويتحملن كل أنواع الإذلال والإهانة في سبيل دقيقة صامتة ينظرن فيها من وراء الشباك إلى أبنائهن السجناء. كنت تؤجلين الحديث المسهب عن موت أبي. ربما لأنك لم تكوني تصدقين موته. بل ربما لم تكوني ترغبين في أن تستعيدي جراحك القديمة الأليمة وقد غطتها قشرة الزمن.

نتيجة لإلحاحي المتواصل قلت لي: ״أنت لو ألححت على الغيمة لأجبرتها على أن تمطر״. ضحكت وقلت: ״لا أريد مطراً من السماء. أريد فقط أن تمطر سماء ذاكرتك حقيقة فجيعة موت والدي״. ابتسمت بحزن. أدركت من ملامح وجهك أنك على وشك الاستسلام أمام إلحاحي المستمر ولجاجتي. قلت لي وابتسامتك الحزينة مستمرة في الإشراق: ״أنت أوقح من الدجاجة التي تنهرها ربة البيت ألف مرة وتبعدها لكنها تعود أكثر شراسة״.

***

سأقص عليك ما جرى لنا يوم مات والدك. أمري لله. سأقص عليك الواقعة كما حدثت فتفاصيلها محفورة في ذاكرتي ولن يمحوها الزمن أبداً.

كان قد مضى على سجنك أربعمئة وستة وخمسون يوماً. كنا في الخريف وكان نهاراً بارداً. وكانت السماء غائمة قليلاً. استيقظنا، أنا وأبوك، قبل أن تشرق الشمس. كان متلهفاً لتلك الزيارة.

– هذه المرة سنلتقي بولدنا نحن الاثنين ونتكلم معه نصف ساعة. دفعت رشوة كبيرة. ستتكلمين مع ابنك ولن يهينك العسكر مرة أخرى.

– بالكردية؟

– بالتركية يا جانان بالتركية. بالكردية لا يمكن حتى لو كان كنعان إيفرين نفسه واسطتي. هل تظنين نفسك في السويد؟

تناولنا فطورنا على عجل وانطلقنا عند شروق الشمس. كان أبوك قد اشترى لك بيجامة شتوية وشبشباً وبعض الفواكه المجففة والموالح. في المرات السابقة، رموا كل ما أتينا به من أجلك. هذه المرة، قال أبوك: ''سيسمحون لنا ليس فقط بلقاء ابننا بل بتسليمه ما اشتريناه له. الرشوة تجعل الحجر طرياً كالجبن''. قال هذا وهو يفرك السبابة بإبهامه كمن يعد نقوداً.

كنت أفكر فيك طوال الطريق من الجزيرة إلى ديار بكر. أفكر في الجمل التي سأخاطبك بها. أعيدها في قلبي وأكررها حتى لا يفوتني شيء. أعرف التركية جيداً لكنني لم أتعود أن أتحدث معك بهذه اللغة. أشعر بالغربة حين أتحدث بالتركية معك أو مع أبيك. لا أعرف كيف أصف هذا الشعور لكنه غريب يا ولدي. أحس بأنك لست ابني وأن أباك ليس زوجي حين أتحدث معكما بالتركية. تصبحان غريبين في نظري وينتابني خجل شديد. الفرق كبير بين مخاطبتي إياك بقول ''أوغلم'' أو ''ياورم'' وبين مخاطبتك بقولي ''برخى من''. عندما أقول ''برخى من'' أشعر أنك لا تزال جنيناً في بطني. أشعر بقربك مني وأنك لا تزال رضيعاً في حضني.

حفظت كل الجمل التي سأقولها لك. طال الطريق. مرت الساعات ثقيلة وبطيئة جداً. كنت أسأل أباك كل لحظة: "كم بقي لنا لنصل؟" وكان يجيبني الجواب نفسه دائماً: "العصفورة تعرف".

بعد أكثر من أربع ساعات أوصلتنا العصفورة إلى باب السجن. كان هناك ناس كثيرون. أمهات بائسات حزينات جالسات ينتظرن سماح الحراس لهن بالدخول. انتصف النهار وسرى قليل من الدفء في أوصالنا. ذهب والدك مرات عدة إلى البوابة وتكلم مع الحراس. كان في كل مرة يعود متجهم الوجه ويقول: "الضابط الذي اتفقنا معه لم يصل بعد". فجأة قال أبوك إنه يشعر بالغثيان. ولم يكد ينهي جملته حتى ابتعد قليلاً وصار يتقيأ.

"ربما بسبب الفطور الذي تناولناه"، قلت له أواسيه.

رد مبتسماً: "قلت لك ألف مرة لا تضعي الثوم في اللبن على الفطور. ذات يوم ستضعين الثوم حتى في الشاي".

ثم جلس بجانبي ممتقع الوجه.

كان الجنود يتجولون بيننا ويسخرون منا، وينهرون الجالسات ليقمن ويأمرن الواقفات بالابتعاد عن البوابة وعدم التسبب في الازدحام. تعرضنا لإهانات كبيرة ومستمرة ذلك اليوم. صار أبوك يغلي من الداخل. عرفت ذلك من صمته ووجهه الذابل. صار يشكو من وجع في عضده الأيسر ويفركه. قلت له: "لا بأس هذا من أثر السياقة المستمرة". قال غاضباً: "قلت لك سنعمل استراحة في الطريق. لكنك رفضت. من يقود أربع ساعات متواصلة؟" واسيته واعتذرت له وقلت: "إننا ننتظر منذ أكثر من سنة لقاء مثل هذا. أريد أن أتكلم مع ابني. أريد أن أسمع صوته. دون ذلك تذبحني الوقفة بمواجهته دون كلام أمام نظرات عينيه الغامضتين. يذبحني صمته. أرى في تعابير وجهه ونظرات عينيه آلاماً كثيرة يريد أن يخبرنا بها. وحين أعود دون أن يتكلم أشعر بحجر يسحق قلبي".

المهم ذهبت في ذلك اليوم المشؤوم مرات عدة بصحبته إلى البوابة للسؤال عن الضابط الذي سيسهل لنا اللقاء بك. كل مرة كان الحارس ينهره ويطردنا بعبارات قاسية مهينة. لم تنفع والدك البدلة الجميلة والغالية ولا ربطة العنق الأنيقة. في ذلك اليوم اهتم بهندامه كثيراً. قلت

له: "ما هذه الأناقة يا كمال؟ هل سنذهب إلى عرس؟ أم تريد أن تخطب لنفسك؟" قال وهو ينثر العطر على رقبته: "شهادة الهندسة ليست معلقة على صدري يا جانان. لكن ربطة العنق الساتان والبدلة السموكن وقميص الحرير والحذاء الجلدي اللامع ورائحة العطر الفرنسي دلائل على غنى المرء ووجاهته ورفعة مكانته الاجتماعية. الناس تحترم الثياب. القشرة مهمة يا جانان واللب لا شيء. سترين حين نكون عند البوابة كيف يفسح لنا الجنودُ الطريقَ إلى داخل مبنى السجن وكيف سيستقبلنا الضباط هناك".

حين تكررت الإهانات شعر والدك بحرج كبير. فك ربطة العنق الزرقاء قليلاً وقال لي: "لا أحزن لأنني دفعت مبلغاً محترماً كرشوة لهؤلاء الأوغاد. لقد غدروا بي والغدر من شيمهم منذ وطئوا أرضنا عقب معركة ملاذكرد قبل ألف عام. لكنني أحزن من أجلك. لقد منحتك أملاً لم يكن سوى سراب. أنا حزين من أجلك فقط يا جانان. أشعر بأنني خدعتك، وكذبت عليك".

رأيت عينيه مبتلتين بالدموع.

واصلت مواساته، وقلت له: "لا بأس عليك. أنت لم تخدعني. أصلاً من يتوقع عسلاً من الحنظل؟"

فجأة مد يده إلى صدره. امتقع لونه ومال على جنبه الأيسر وهو ينظر إليّ نظرة لن أنساها ما حييت يا ولدي. كان في عينيه ألم كبير واعتذار وقهر وأمل ولا أدري ماذا أيضاً. نظراته لا تفارقني إلى الآن. لم أعرف أنه أصيب بجلطة قلبية إلا بعد أن وصلت سيارة إسعاف بعد ساعتين.

مات أبوك على باب السجن.

لكن قل لي يا بنيَّ. ما الذي جرى في ملاذكرد قبل ألف عام؟

الأحد 7 شباط 2016

ثلج.

ثلج أبيض جميل لكنه لا يذكرني بالطهارة والنقاء. ليس البياض سوى خداع بصري. فخ تقع فيه الحاسة البشرية الموكول إليها أمر ترجمة الضوء المحيط بالأشياء إلى صور في خلايا الدماغ. ثلج ناصع البياض لكنه لا يذكرني إلا بالعنف الأسود الذي مارسه الجلادون علينا في باحة السجن الضيقة ذات شتاء. نهار ذلك اليوم أخطأ العديد من السجناء كالعادة وخاصة الأميين في سرد المبدأ الثاني من "مبادئ أتاتورك الأساسية الستة"[13]، الذي يقول: القومية مصطلح يطلق على الشعب التركي مؤسس الجمهورية التركية. الشعب التركي واحد وعروقه واحدة سواء كان المنتمي إليها من ديار بكر أو وان أو أرضروم أو طرابزون أو إسطنبول أو تراكيا أو مقدونيا. نحن أمة تركية محبة للقومية والوطنية ومقدسة لها. وأساس جمهوريتنا هو المجتمع التركي. وتزداد الجمهورية قوة كلما ازداد تمسك أفراد هذا المجتمع التركي وتعلقهم بالوطنية والقومية التركية.

13 Atatürk İlkeleri: ستة مبادئ وضعها أتاتورك بعد تأسيس الجمهورية التركية وأدرجت في الدستور التركي عام 1937.

حفظ عدد قليل منا هذا المبدأ وغير ذلك من المبادئ تلافياً للعقوبات الفظيعة التي كان يتعرض لها من لا يحفظها أو يخطئ فيها. كان الجلادون يرددون على مسامعنا قائلين إن السجن مدرسة وإن غايتهم هي إصلاحنا وتهذيبنا وإعادتنا إلى الطريق الصحيح لو بالقوة حتى نصبح مواطنين صالحين يليق بنا لقب المواطن التركي.

وكانوا دائماً يجدون حجة ما لتعذيبنا. إن لم يكن عدم حفظ المقولات الأتاتوركية والأناشيد القومية التركية، فهناك حجة عدم الانضباط، كالسعال مثلاً أثناء الاجتماع أو ترديد النشيد الوطني التركي أو الخطأ في خطوات النظام المنظم والمشية العسكرية وحتى الصوت الخفيض أثناء ترديد الشعارات صباحاً.

***

ثلج أبيض يكافح سواد الليل، كممحاة بيضاء تريد مسح الظلام الغارق في الصمت.

ولكن هيهات. لا الظلام ينحسر ولا طيف الشاعر يظهر، وحتى صوت الرصاص الذي كان وشياً يزين وسادة الليل اختفى.

هدوء مطلق يخيم على الأجواء. لا صوت إلا لذكرياتي تثرثر وتتقافز حول شمعة خيالي كالفراشات. قلبي على المقاتلين الذين لا يمكنهم أن يشعلوا نيراناً تدفئهم في هذا الزمهرير الحالك والطقس السيبيري. أن تشعل ناراً في هذا الليل يعني أن تصبح هدفاً لقناصي الجيش التركي. حتى في النهار لا يشعلون النيران، فكل نار تخلف دخاناً يتصاعد في الجو ويشي بوجود ناس لم يحصدهم الموت بعد. إنني أشفق عليهم. قلبي معهم. أحبهم وأعلم تماماً أن أغلبهم من المراهقين والشباب في مقتبل العمر مثل نِشتيمان. خدعتهم الشعارات كما خدعنا بياض ثلج ذلك اليوم في باحة السجن.

يومذاك تفاءلنا بفراشات الثلج البيضاء تحط بهدوء على أجسادنا العارية في الساحة ونحن نردد واحداً إثر آخر مبادئ أتاتورك. لكن ما بدّد تفاؤلنا أن أكثر من ثلاثة أرباعنا أخطأ في قراءة المبادئ التي أعطاها لنا السجان قبل يوم واحد وطلب منا أن نحفظها بالترتيب عن ظهر قلب.

طلب منا السجان، عقاباً على كسلنا وغبائنا كما قال، أن نبني هرماً. فوراً شكل سبعة سجناء كنت أحدهم قاعدة الهرم ثم صعد على أكتافنا خمسة سجناء وبعد ذلك ارتقى ثلاثة سجناء أحنوا ظهورهم ليفسحوا المجال للسجان الذي صعد إلى القمة التي شكلها أولئك السجناء الثلاثة فرفع العلم التركي وصار يلوح به وهو يهتف بشعار: "كم سعيد من يقول أنا تركي" ويأمرنا أن نردد ذلك وراءه. أما في الأسفل أي عند قاعدة الهرم، فبدأ سجان آخر يجلد ظهورنا العارية التي كانت نتف الثلج تذوب فوقها.

***

كان بعض السجانين يرتجلون عقوبات غريبة تصيب المرء بالجنون. كثيرون قاوموا العذاب وكثيرون استسلموا. اعترفوا حتى بجرائم لم يرتكبوها.

صمد الخال حامد في وجه التعذيب الوحشي دون أن يعترف بأي شيء. كان يكبت صراخه خلال التعذيب ويعض على لسانه حتى ينفر الدم من بين أسنانه. في النهاية، لم يتحمل جسده

النحيل صنوف العذاب الأليم الذي لا يخطر على بال أحد فقضى في السجن بعد مضي أسبوعين من اعتقاله. صمد حتى مات تحت التعذيب وكتب الطبيب في تقريره أنه مات جراء نوبة قلبية.

مات الخال حامد تحت التعذيب. مات ولم يبح بحرف واحد. حتى وهو على وشك الموت أصر السجان على إدخال العصا الغليظة في مؤخرته. لم يسلم إلا القليلون من هذا العذاب الذي يحطم السجين روحاً وجسداً.

لن أكتب كثيراً عن فنون التعذيب التي تعرضنا لها. فهي لا تعد ولا تحصى حتى أنني نسيت بعضها.

في السجن، تعرفت إلى صور الخيانة. تعرفت إلى ضعف الإنسان وانهياره أمام الألم الجسدي. تعرفت إلى المقاومة البطولية لبعض الأفراد. إلى التحدي الدامي. إلى عظمة بعض السجناء الذين أصابوا السجانين بالهلوسة والهذيان. اعترف العديدون ووشوا برفاق خارج السجن. لم أحقد على هؤلاء لأنني ذقت من العذاب الذي ذاقوه وعرفت أن الجبال تنهار أمام ذلك العنف الوحشي. لم أبح بشيء ليس لأنني قوي بل لأنه لم تكن لدي معلومات أبوح بها. كنت مجرد عنصر جبهوي أي منتمياً إلى جبهة تحرير كردستان. لم تكن عندي معلومات كثيرة ولم أكن أعرف كوادر الحزب من كثب. كثيرون ممن كانوا خارج السجن هربوا والتحقوا بالمقاتلين. احتموا بالجبال الوعرة والشعاب العميقة هرباً من التعذيب الذي تعمدت الدولة تسريب قصصه وصوره إرهاباً للشباب. استشهد الخال حامد تحت التعذيب. رموه جثة لأهله. اعترف زَيْنَلْ بنشاطاتنا وعلاقات مجموعتنا الجامعية. تسبب في اعتقال الكثير من الناشطين. نظمي الأوروبي دخل في غيبوبة عقب إيلاج العصا في مؤخرته. ظنوه ميتاً فرموه في مكب للنفايات عند نهر دجلة. بقي هناك يومين حتى عثر عليه أحد الرعيان فجراً. بعد سنوات عدة عرفت قصته. هرب عبر إقليم كردستان إلى أوروبا. من هناك حكى لي قصته قبل عامين ثم انقطعت أخباره. كان مصاباً بمس من الجنون. حين كلمني عبر الماسنجر وظهرت صورته لم أعرفه. كان يهذي ويسب الحزب وتلك الأيام التي حرمته ليس

فقط رجولته، بل حرمته قدميه. حكى لي أنه مشى أكثر من عشرة أيام في الجبال والشعاب ولم ينم فيها سوى سويعات حتى وصل إلى زاخو في إقليم كردستان ومنها إلى أوروبا.

– لم يكن هناك إقليم كردستان وقتذاك. كانت الحكومة العراقية تبسط سيطرتها في الشمال وكانت أيام حرب... الشهور الأخيرة من حرب العراق وإيران. أصبت بالغرغرينا. اسودت أصابع قدمي. لم أعرف أنها الغرغرينا. حين وصلت إلى أوروبا كانت قد انتشرت حتى حدود الركبتين. بتروا ساقي الاثنتين يا رفيق آمد. قصوا جناحيَّ. أنا طائر سجين يا رفيقي. هل يمكن أن تطير؟ قل لي كيف حال مؤخرتك؟ اللعنة على ذلك الشارب الكث. هل رأيت كيف أصبح ذليلاً يتوسل خاطفيه؟ لو عنده ذرة كرامة وإلكترون شجاعة من شجاعتنا، لقاوم من سجنه ودافع عنا وعن شهدائنا بدلاً من الاعتذار لأمهات من جاؤوا لتدمير قرانا وقتل شبابنا. جاءته أكبر فرصة لجعل قضيتنا المقدسة في المقدمة فآثر عليها روحه. الجبان!

– دعنا من الشارب الكث الآن. أخبرني عن أوروبا. هل تنصحني بالمجيء إليها؟

– أوروبا؟ أخبرني أنت أولاً عن قضيبك. هل ينتصب؟ إن كان جوابك نعم، فتعال. أما إن كنت صاحب قضيب مشلول، قضيب عجيني مثل قضيبي، فالبقاء حيث أنت أفضل وأشرف. أوروبا تحتاج إلى قضيب ينتصب في اليوم سبع مرات يا آمد.

أما عليّ الشطرنجي، فكان صاحب خيال واسع. عمل قطعاً للشطرنج من الخبز والمربى. رش الماء على الخبز من الداخل حتى أصبح طرياً ثم خلطه مع المربى وعجنه حتى تماسك قوام العجينة فصنع منها البيادق وبقية الأحجار. أما القطع السوداء، فصنعها وفق الوصفة السابقة مع خلط العجين بالرماد الأسود أو السخام المتراكم على الجدران ثم ترك القطع يومين حتى يبست وتصلبت. صرنا نتسلى بلعب الشطرنج بعد أن مرت شهور عدة وهدأت وطأة حفلات التعذيب. وهكذا صار الرفاق يطلقون لقب الشطرنجي على الرفيق علي.

حين خرج علي من السجن أصر أهله أن يزوجوه. كان مثلنا جميعاً قد فقد القدرة الجنسية. لكنه تزوج أمام إصرار أبيه وأمه. تزوج بما يشبه الإكراه. لكنه انتحر بعد سنتين من زواجه. انتحر لأنه فوجئ بامرأته حاملاً وهو الذي لم يستطع أن يقربها. تبين بعد أن زوجته حملت

من شقيقه. لم يتحمل الخبر. انتحر. قضى نحبه كأي بيدق يضحي بنفسه في سبيل القطع الأكثر قيمة.

***

ثلج.

يسقط بهدوء لص. يفرش بساطه على الأرض. يغطيها كما يغطي الزمن أوجاعنا وذكرياتنا. أشعر براحة نفسية كنت بحاجة إليها. أعوام طويلة مُرةٌ مَرَّتْ وأنا أخفي أسراري حتى عن الورق. أغطيها بثلج ثخين الطبقات من النسيان والتناسي. واليوم فقط، اليوم بحت للورق بذلك السر الذي احتفظت به في قلبي كشوكة جارحة.

ثلج.

بياض بارد جميل يوشوش بأسرار السماء لهذا الليل الصامت.

أتذكر أن أمي المسكينة التي أرهقها مرض السكري كانت تصر عليّ أن أتزوج ابنة عمي التي تعيش في أدرنة. قالت لي مرات عدة: "مات يا ولدي. ولم يخلف سواك. تزوج واحفظ سلالة هَزارْكُوه من الانقراض".

كان أمر حفظ السلالة مرهوناً بقضيب ينتصب ويتدفق منه السائل السحري الذي عليّ أن أضخه في رحم امرأة لخلق نسل يستمر في الدبيب على هذه الأرض. ويستمر في تحمل ذل العبودية أيضاً. كنت أؤجل الموضوع، أقول لأمي: "امنحيني الفرصة حتى أتخرج في الجامعة. امنحيني الفرصة حتى أجد عملاً... امنحيني الفرصة حتى وحتى وحتى".

زرت أطباء كثيرين. الحبوب المنشطة لم تجد نفعاً. لم أستفد أيضاً من تناول الأعشاب التي قرأت عن مفعولها السحري الكثير.

"الأعصاب متضررة بشكل كبير. ربما بعملية جراحية دقيقة يعود الأمر طبيعياً. نسبة النجاح خمسة بالمئة"، قال الطبيب الذي زرته في إسطنبول كالعادة. لم أذهب إلى أي طبيب في الجزيرة أو ديار بكر أو أي مدينة أخرى في المنطقة الكردية خوفاً وخجلاً من أن ينكشف أمري.

وافقت على إجراء العملية التي كلفت مبلغاً كبيراً من المال.

فشلت العملية. فشل قضيبي في الاستجابة. فشلت الأعصاب في الاستيقاظ وتنبيه ذلك الفأر القابع في سباته الأبدي.

مرضت ابنة عمي التي أصرت أمي على أن أتزوجها. أصيبت بمرض غريب. أصاب الشلل ساقيها فلم تعد تقدر على المشي ثم أصيب دماغها فأصبحت مقعدة تماماً. جاءتنا الأخبار أنها لا تعي من دنياها شيئاً. حسدتُها، حسدتها كثيراً فالوعي أصل الألم. لا ألم إلا مع الوعي. لقد أنقذني مرضها من إلحاح أمي. هكذا تخيلت. لكن أمي عادت إلى سابق عهدها وصارت تطرح عليّ بنات كثيرات. لم تكفَّ عن اقتراح عروس لي بين وقت وآخر حتى بعد أن ازداد مرضها. كان السكّر قد أفقدها القدرة على المشي تقريباً. زاد وزنها كثيراً. وصارت تشتكي من آلام في العيون تبين بعد أنها نتيجة السكر. لم يعد الأنسولين ينفع مع كل ذلك السكر الذي تراكم في دمها.

كنت أمازحها دوماً وأسأل: "لماذا تتناولين الحلويات وهي تضر بصحتك يا أمي؟ لماذا لا تقلعين عن تناول السكر؟"

– يكفي أن الحياة مرة يا ولدي. هل تستكثر على أمك أن تقاوم مرارة الحياة بقليل من السكر في فمها! لا تخش عليّ من الموت. ليأتِ متى شاء. على الأقل سأموت وفي فمي مذاق حلو.

في المرحلة الأخيرة من مرض أمي، وكانت قد بلغت أكثر من سبعين عاماً، بدأ الطبيب المختص يستعمل الإبر لعلاج عينيها. كانت تتألم كثيراً جراء زرق الإبر في عينيها الكليلتين. ثم فشلت كليتاها عن العمل بنسبة أربعين في المئة تقريباً. انشغلت بها وبصحتها المتدهورة. كنا أيام الخميس نزور قبر والدي. كانت تجلس بجانب الشاهدة الرخامية وتبكي بحرقة. تلعن الدولة التي سببت لنا كل هذه المصائب كما تقول. ترفع يديها إلى السماء وتقول بكرديتها الأنيقة وصوتها المتهدج: Xwedê mala Roma reş xerab bike [14].

14 فليدمر الله بيت الأتراك.

في السنة الأخيرة، أي قبل نحو خمسة أعوام، ساءت أحوالها أكثر. فقدت حاسة البصر بنسبة كبيرة. لم تعد تستطيع الاعتماد على نفسها أثناء قضاء الحاجة أو الاغتسال وحتى

الذهاب إلى فراش النوم. ثم ضرب السكر أصابع قدميها فاسودت وتقرحت. أثرت زيادة نسبة السكر سلباً في الأعصاب الطرفية الحركية في القدمين. حذر الطبيب من أن البتر قادم. قال بنبرة يائسة: ''الشعيرات الدموية في نهايات أصابع القدمين مسدودة تماماً بسبب ارتفاع نسبة سكر الدم. ليس هناك حل سوى بتر الأصابع المصابة. الأعصاب لم تعد تعمل وهذا سبب الخدر في القدمين''.

وبين أخذ ورد ومحاولات مستمرة لإقناع أمي ببتر الأصابع انتشر السواد في القدم اليسرى كلها وأصابع القدم اليمنى. وصلنا إلى أخطر مرحلة: ''حُرِمت نور البصر. ستحرمونني القدمين أيضاً؟ هل تريد أن تصبح أمك مشلولة محمولة على كرسي متحرك مثل ابنة عمك يا أحمد؟''

– يا أمي الطبيب يقترح ذلك. البتر دواء لا بد منه. هذا أفضل من انتشار المرض في كل الجسم.

– دعني أموت براحتي. دعني ألتحق بأبيك بهاتين القدمين المعلولتين واترك الأطباء في ضلالهم.

عميت أمي تماماً بعد ذلك. صارت تبكي في اليوم مرات عدة وتندب حظها. قالت لي ذات مرة وأنا أطهر قدميها بمضادات التخثر: ''لو تزوجت بنت حلال لحملت عنك قليلاً من الأعباء. كم أشفق عليك يا ولدي''.

– ومن كانت ستتحمل رعايتك يا أمي؟ كنت سأنتحر لو تأففت زوجتي مثلاً أو ضجرت منك أو عاملتك ببعض الخشونة. لم أذهب للقتال من أجل البقاء بجانبك.

لا أدري ما الذي جرى لها بعد ذلك! اجتمعت عليها الأمراض والعلل. ضعفت كثيراً وصارت مثل عود كبريت إلى أن جاء يوم غابت فيه عن وعيها تماماً. اضطررت إلى إسعافها إلى المستشفى على عجل. بقيت بجانبها وأنا أنتظر أن تفتح عينيها وتخاطبني لو بكلمتين. لم يعطني الأطباء المشرفون على علاجها أي أمل بالشفاء.

''حالتها صعبة. السكر قد نال من كل أعضاء جسمها. الكليتان لا تعملان، والقلب ضعيف. الكبد لا يقدر على طرح السموم. الأنسولين صار يضرها أكثر مما ينفعها''.

أخيراً ماتت أمي. ماتت ولم أسمع منها كلمة وداع. لم تلوح لي بيدها كما كانت تفعل كلما كنت أودعها. شعرت بأن الدنيا كلها توقفت عن الحركة.

ماتت أمي بالسكر. ومات أبي بمرارة الإهانات.

ثلج.

ثلج أبيض يهطل الآن بغزارة. يغطي باحة الضريح. يغطي الأسطح والجدران. يلفّ الليل الصامت تماماً مثل ما لفَّ الكفنُ الأبيضُ جثمانَ أمي ذات ربيع.

الأحد 14 شباط 2016

عواء يحرث الليل من الشمال.

إنها الريح القطبية تلاحق الغيوم الهاربة وتزمجر خلفها بغضب. تظهر النجوم وتختفي في السماء من خلال الليل الحالك كبقايا جمر تنحسر عنه قشرة الرماد.

إطلاق نار متقطع يتردد صداه. لم تعد أصوات الرصاص تعربد كالسابق. رشقات قليلة يتبادلها المقاتلون مع جنود الجيش بين الحين والآخر. أعرف أن كثيراً من الرفاق المقاتلين قد قضوا نحبهم. لم تعد المناوشات الليلية بذلك الزخم السابق حين بدأت هذه الحرب. من هذا أستدل أن عدداً كبيراً من الرفاق المقاتلين قتلوا برصاص قناصة الجيش التركي. الرشقات القادمة من جهة خنادق الرفاق أصبحت قليلة جداً. هذا يعني واحداً من أمرين لا ثالث لهما: إما أن كثيراً من الرفاق قضوا في القتال وإما أن ذخيرتهم الحربية في تناقص مستمر. وكلا الاحتمالين يؤذن بقرب القضاء عليهم.

في الأيام القليلة الماضية سمعت أخباراً عن مجازر بحق المدنيين العالقين في حاراتهم وأقبية بناياتهم. تسعون مدنياً في حارة جودي، خمسة وأربعون في حارة السور، قتلهم الجيش التركي الذي يعتبر كل من يتحرك هناك إرهابياً.

الأخبار القادمة من ديار بكر وشرناخ وإيدل ونصيبين وسلوبي وغيرها ليست بعيدة عما أعاينه هنا كل يوم وكل ليلة. الجيش التركي لا يرحم. عقيدته القتالية تقتضي توسل أقصى درجات العنف ضد الخصم. عقيدة متوارثة عن عقيدة الجيش الإنكشاري الذي أنشأه

العثمانيون لاستخدامهم رأس حربة في مقدمة الجيوش الإمبراطورية الغازية. العقيدة الإنكشارية مستمرة إلى الآن والفظائع التي ارتكبها الجنود في القرى الكردية لا يمكن وصفها. لا يهم قادة هذا الجيش إن دمرت المدن والبلدات الكردية وهاجر سكانها من جديد إلى مدن الغرب التركية ليذوبوا فيها أكثر مما هم ذائبون أصلاً. يضرب المقاتلين المتحصنين ببيوت المدنيين بالمدافع. يدمر المنازل في سبيل أن يقتل أكبر عدد من المقاومين وهو واثق من وجود مدنيين عالقين هناك أو اختاروا البقاء لأن لا مكان آخر يذهبون إليه. أهذا ما كان الحزب يريده؟ من يقنعني أن هذه المعارك ليست بتدبير من خصوم تركيا الإقليميين لإلهائها عن التدخل في شؤون دول الجوار؟ ومن مثل كوادر الحزب للعب هذا الدور؟ قطعت الأمل حقاً من اللقاء مرة ثانية بنِشتيمان. قطعت الأمل من استعادة ذكورتي المهدورة. قطعت الأمل حتى من خروجي من هنا. لا أعرف لماذا صرت أتخيل أنني سأموت هنا دون أن يعثر عليّ أحد!

***

قبل أن أخرج من السجن ساءت علاقاتي برفاق الحزب. كانت هناك أسباب عدة تقف وراء موقفي وانقلابي على أفكار ما قبل السجن. كانت المجازر التي حصلت في بعض القرى على يد رفاق الحزب أهم الأسباب التي حدت بي للابتعاد عن مجموعة الرفاق والانزواء وحيداً مع قلة من السجناء. أصرت الغالبية على صوابية قتل الأطفال والنساء وأن ذلك يشكل ردعاً حقيقياً وقاسياً للخونة.

– إن لم نوجعهم بقتل أطفالهم، فسيزداد عددهم. لا بد من إرهابهم حتى يرتدعوا.

– لماذا لا نستميلهم؟ لماذا تستطيع الدولة استمالتهم ونحن لا؟

– لا تنسَ أن الدولة تعجز عن استمالة الوطنيين الأحرار.

– لكنهم أيضاً يُقتلون بسلاح الدولة. يقتلون بتهمة أنهم خونة وإرهابيون. هنا قتل وهناك قتل.

لم تكن نقاشاتنا المستمرة الصاخبة لتنتهي أبداً. ولم يكن لها أي نتيجة إيجابية بسبب التجاذب الحاد بين أفكارنا المتخالفة. كنا أقلية صغيرة من الشباب الذين يرفضون قتل المدنيين الكرد حتى لو حملوا سلاح العدو. وكنا إلى جانب ذلك نقترح فتح قنوات سرية مع حماة القرى دون اللجوء إلى القتل. كنا نقول إن القتل في مجتمع عشائري يخلق عداوات لا يمكن الاستهانة بها. وكنا نستشهد كثيراً بهذه القاعدة المهمة التي قرأناها في كراريس خاصة بحروب الأنصار: "يحرص مقاتلو حرب العصابات على أن تكون لهم صلات طيبة مع السكان المدنيين لأنهم خير من يؤمِّن لأولئك المقاتلين غطاء أمنياً ومصدراً أساسياً للتمويل والتموين".

لكنهم كانوا يردون علينا بقولهم: "إن كل من حمل سلاح الدولة سقطت عنه صفة المدني ولا مفر من قتاله حتى يترك جبهة الخيانة. وإن عائلته التي تعيش معه تشاركه الخيانة على حد سواء".

ثم جاءت مرحلة تأليه القائد التي رافقتها تصفية الأعضاء المؤسسين للحزب لينفرد الزعيم بالقيادة ويتم تمجيده على حساب تشويه سمعة خصومه المقتولين بمنهجية.

كنا، نحن المناشفة والأقلية المنزاحة كما كان عليّ الشطرنجي يسمينا، نفهم ونستوعب ضرورة وجود قائد صاحب كاريزما لقيادة المرحلة لكن ليس على الطريقة الستالينية. لم نكن نريد أخاً أكبر بالتعبير الأورويلي. صدمتنا محاولاتُ بعض الرفاق المأخوذين بالتجربة الستالينية فرضَ قائد بعيد عن جبهات القتال فرفضنا ذلك. ألصقوا بنا تهماً شتى. صاروا يسموننا "اعترافجي"[15]. بعبارة أخرى: اتهمونا بالخيانة العظمى. تذبذب بعض رفاقي من الأقلية الرافضة لتقديس الزعيم وتصنيمه ومحاولات فرض تقاليد عبادته. في النهاية لم يبقَ سوى عدد قليل ممن رفضوا فرض الزعيم القابع في مكان ناءٍ عن جبهة المواجهة. شتمونا. اخترعوا لنا صفات عدة: إصلاحيين، تروتسكيين، برجوازية طفيلية، كومبرادور، الجيش الروسي الأبيض، إقطاع... وغير ذلك من التهم التي كانت أختاماً جاهزة دمغوا بها كل من خالفهم في الرأي.

15 الذي يضطر إلى الاعتراف والوشاية برفاقه تحت وطأة التعذيب. واعترافجي بمعنى المعترف مرادف صفة الخائن.

كان ابتعادي عنهم فرصة ذهبية للاستغراق في التأمل ومراجعة الذات. كان مناسبة مهمة جداً للاختلاء بالنفس ومحاسبتها على أخطائها السابقة وتقويم مسيرتها المتعرجة.

"حين يبتعد الطائر عن السرب، يعي ذاته ويعي معنى السرب أيضاً"، قلت لرفيق لي في السجن وهو يلومني على انعزالي.

أخيراً بعد نحو أربع سنوات ونصف أطلق سراحي.

خرجت من السجن بعد تلك الأعوام الطويلة بروح معطوبة وجسد منتهك. خرجت بكوابيس ليلية ترافقني حتى الآن. حين تكون في السجن تعيش الجحيم بكل حواسك ولا أمنية لك هناك سوى الحرية أو الموت. أو ربما تعيش بأمل يمنحك قوة التحمل رغم قساوة العذاب. لكنك حين تتحرر تفقد الحلم وتصبح كمن أضاع البوصلة. تشعر بنفسك تهوي إلى وادٍ سحيق لا قعر له. الحياة دون حلم قاسية كالسجن.

لم أجد للحياة أي مذاق بعد خروجي من السجن. استقبلتني أمي في اليوم الأول ببكاء حار كاد يذيبني من القهر. كانت الثلوج تغطي الأشجار والأسطح والساحات وكانت عيناي تبحثان عن أبي، أبي الذي كان صديقاً لي أكثر من كونه أباً. كنت أحبه وكان يحبني ويعاملني كند له. كنا نرسم معاً ملامح مستقبل جميل.

كان أبي قد مات لكنني وجدته في الدفتر الصغير الذي تركه لي. دفتر صغير كتب فيه بخط يده بعض سيرته وكثيراً من النصائح والأفكار التي تأثرت بها كثيراً. كان أبي قد وضع عنواناً غريباً لرسالته الطويلة: "مقدمة في علم هندسة الكوارث"! قلت في نفسي لعل الأمر محاولة لتشتيت انتباه البوليس. إيحاء بأن الدفتر لا يحوي سوى أمور هندسية لها علاقة بالبناء. قرأته مرات عدة حتى كدت أحفظه غيباً.

أما والدتي التي ترملت، فلم يعد لديها ما يجعلها تتعلق بالحياة سوى إطلاق سراحي. كانت، كما روت لي بعد، تعد الدقائق في انتظار حريتي. لم تشأ أمي الأرملة أن تتزوج ثانية. بقيت وفية لذكرى أبي. أرادت أن تبرهن على وفائها لزوجها الراحل بعدم الزواج بعده. حلفت ألا تقترن برجل حتى تموت وبرَّتْ بقسمها كامرأة كردية.

خرجت من السجن لأسجن نفسي في بيتي وأرفض استقبال أي رفيق أو مقرب من الحزب. أردت أن أبتعد عن الدعاية الحزبية التي أدركت أنها مؤثرة على نحو رهيب.

في أيام التعذيب الرهيبة كنت أقول إنني سأصوم حتى الموت. ثم عدلت عن ذلك بتأثير من الرفيق عليّ الشطرنجي.

– لماذا نموت هنا جوعاً؟ هذا خطأ. ألم تسمع قول غيفارا: "على الأقل يجب ألا ندع الأعداء يهنؤون بالنوم".

– وماذا نفعل؟

– لن نعيش هنا خالدين مخلدين يا عزيزي. سنخرج ذات يوم. سيقيمون لنا محاكم ويصدرون أحكاماً بالسجن. وسنخرج في النهاية. حين نخرج سنلتحق بالرفاق المقاتلين ونثأر لأنفسنا. سنقاتل هؤلاء الأوغاد ونذيقهم بعض ما أذاقونا. سنثأر لرفاقنا الذين قضوا تحت التعذيب. سنثأر للخال حامد. سنثأر لكرامتنا المهدورة وشبابنا الذي ضيعوه في الزنازين. هذه ساحتهم. لكن الجبال لنا. نحن النسور وهم الخفافيش يا آمد.

اقتنعت بكلامه. كان منطقياً. يجب علينا محاربة فاشية الدولة بوسائل أنجع. الجوع ليس سلاحاً فعالاً ضد دولة فاشية لا تعطي قيمة للإنسان. يمكن في أوروبا أن يتحرك الرأي العام بسبب إضراب السجناء عن الطعام كما حدث في حالة الأيرلنديين العشرة، وعلى رأسهم بوبي ساندز، الذين ماتوا بعد شهرين من الإضراب. لقد انتشر خبر إضراب الأيرلنديين في العالم كله. تناقلت وكالات الأنباء أخبار الإضراب حتى وفاة بوبي ساندز ورفاقه. لكن من نقل أخبار رفاقنا الذين قضوا في السجن تعذيباً أو جوعاً؟ لا أحد.

كان ستالين يقول: "إلى السلاح إلى السلاح فمن دون السلاح لن يستسلم العدو".

هكذا كانت أغنية حماسية تثير النخوة في نفوس الشباب في بداية تسعينيات القرن الماضي عند خروجي من السجن. السلاح ولا شيء غيره. ما دامت هناك ثورة، وما دام هناك ظلم وإنكار للحقوق، السلاح هو الحل.

لكنني كنت قد ابتعدت عن الفكرة نهائياً قبيل إطلاق سراحي. كنت أستعيد كلام أبي حول ضرورة النضال السلمي الذي يوفر سفك الدم ويحقق أهدافاً أكثر وفي زمن أقل.

– النضال السلمي قليل الضحايا.

– لكنه قليل التأثير أيضاً. ألم تسمع ما قاله القائد؟

– ماذا قال؟

– علينا ألا نخاف من إراقة الدماء، بل من توقّفها.

– لكن هذا كلام خطير. دعوة للموت والقتل.

"بل هذه المقولة الذهبية دعوة للكفاح المسلح المشروع الذي تخوضه كل الشعوب المضطهدة يا رفيقي. القائد يعرف ماذا يقول"، رد علي الشطرنجي.

قلت له: "الهنود هزموا المستعمر البريطاني بسلميتهم".

فأجابني محتداً: "أليس عندك سوى الهنود مثالاً؟ اللعنة على غاندي وعلى مبدئه السخيف في اللاعنف. أنا أيضاً شاهدت فيلم غاندي الذي أخرجه ريتشارد أتينبورو وفاز بالأوسكار. هل نحن نعاج حتى نذهب إلى المسالخ دون مقاومة؟ لماذا لا تتحدث عن حركات التحرر العالمية المسلحة؟ أين مثال فيتنام؟ لاووس؟ كمبوديا؟ كوبا؟ الجزائر؟ وكل الشعوب التي نالت حريتها بفضل البندقية؟ من السخف أن تقدم رقبتك إلى العدو مجاناً".

رددت عليه محتداً أيضاً: "أن تنبذ العنف ليس معناه أنك تسلم رقبتك للعدو. بل يعني أنك تحرص على حياة المدنيين".

– لا بد من العنف. لا بد من السلاح. هل تعرف الورد؟ هل رأيت وردة في حياتك؟

– كيف لا! حوش دارنا في الجزيرة مليء بالورد. في كل زاوية أصيص.

– وما الذي لفت انتباهك في نبات الورد؟

– لونه ورائحته. لونه البديع ورائحته الزكية.

– لقد أفسدك الشعر يا رفيق آمد. الرفيق زَيْنَلْ على حق حين يقول ذلك. قل لي بالله عليك ألا يلفت شوك الورد نظرك أيضا؟

– بلى.

– الشوك سلاح الورد. حتى الوردة تدافع عن نفسها وعندها سلاح. كل كائنات الطبيعة ابتكرت أسلحة للمقاومة. ما من مخلوق يقاوم أعداءه من عوامل الطبيعة والمخلوقات الأخرى

سلمياً. فلنكن على الأقل مثل الوردة. لتكن لدينا أشواكنا التي نحارب بها الوحوش التي تسعى إلى افتراسنا.

لم تبقَ عندي رغبة في نقاش الرفاق حول جدوى الكفاح المسلح أو ضرورة الانتقال إلى النضال السلمي. بعض الرفاق اقترحوا حلاً وسطاً يجمع بين أسلوبي النضال: السلمي والمسلح، الرائحة الزكية والشوكة الحادة. لكنني لم أنجذب إلى ذلك أيضاً. كنت مصراً على أن ضرر الركون إلى السلاح أكبر من نفعه.

***

عزمت على متابعة دراسة الأدب التركي. قلت لنفسي إن اللغة مفتاح معرفة الشعوب وخصائصها والتوغل في أعماق بناها النفسية والمجتمعية. لن أفهم إقصائي عن المشاركة في حكم هذه الدولة، ولن أفهم أسباب قمع لغتي وتهميش ثقافتي وكذلك لن أفهم سبب إخصائي في سجن من سجون هذه الدولة إلا عبر معرفة لغة وثقافة العرق التركي المهيمن وعبرهما معرفة العقلية التركية. إن اللغة بناءٌ على غرار الحياة كما يؤكد رولان بارت. وبتعبير جاك دريدا لا يوجد شيء خارج النص. وما يحصل في هذه البلاد، بناء على استنتاجات هذين الفطحلين، ليس إلا إفرازاً من إفرازات اللغة التركية التي أنتجت هذه العقلية الاستعلائية المهيمنة. إن أي لغة من حيث كونها فضاء منتجاً للأفكار هي المسؤولة عن سلوكات المتحدثين بها وهي التي تنتج الطبقة الحاكمة مستندة على إرث من المخلوقات اللغوية التي تؤثر في بناء الشخصية القومية.

ضغطت على نفسي كثيراً لكيلا أختلط بالرفاق مرة أخرى. كنت أسمع أنهم يتهمونني بأنني "اعترافجي"، وأنني وشيت برفاقي وأن خروجي من السجن مكافأة لي على خيانتي. لكنني لم آبه لكل ذلك.

صرت كمن تأكد من الطريق الذي يؤدي إلى الكنز فلم يعد يصغي إلى أي اقتراح آخر. لم أعد أهتم بكل ما يشاع عني من قصص ملفقة واتهامات باطلة. لم اشأ حتى الرد عليها.

"الرد على الباطل قد يضعك في خانة الباطل"، قال لي أبي ذات مرة.

حاول الرفاق أن أعود إلى العمل الجبهوي لكنني رفضت. اتهموني بالتخاذل، ووصفوني بالجبن، بل تعدى ذلك إلى وصمي بالخيانة لكنني لم آبه لكل تلك الاتهامات. لقد قبضت على جمر الحقيقة واستمتعت باللذع.

– سأناضل بطريقتي الخاصة. سوف أسعى لنصرة هذا الشعب بأسلوب يختلف عن أساليب الحزب التقليدية العنيفة.

– الحزب وضع طريق الخلاص. رسم خريطة النجاة. ولا درب غير الذي رسمته القيادة.

"فلتسر عليه أنت وباقي الرفاق. أما أنا فقد وجدت طريقاً آخر، وربما أقصر، للوصول إلى الهدف. خريطة نجاتي مختلفة عن خرائطكم أيها الرفيق"، رددت على أحد الرفاق في آخر زيارة إلى بيتي.

***

عام خرجت من السجن تم إعلان أسماء كثيرين من المقاتلين شهداء للحزب سقطوا في المعارك التي جرت في إقليم كردستان بين الحزب والحزبين الحاكمين في كردستان. استغل الحزب الموضوع لتعميق مشاعر الكراهية ضد حكومة الإقليم وفي المقابل وجدت الدولة في وجود مقاتلي الحزب في الإقليم الناشئ حديثاً ذريعة للتدخل السافر وعقد تحالفات مع قيادات الإقليم وخاصة الحزب الديموقراطي الكردستاني.

كانت أعوام التسعينيات، حين كنت طالباً في جامعة دجلة، أعواماً صعبة مشوبة بتغيرات كبيرة في المجتمع الكردي. ألقت الحرب الأهلية الكردية بظلالها القاتمة على الحياة الكردية العامة. ازداد الكرد انقساماً وتشظياً، وحميت النقاشات التي اتسمت كلها بطابع إقصائي. استيقظت غريزة التوحش. وازدادت بالموازاة مع الحرب الأهلية في إقليم كردستان عمليات التصفية التي طاولت المثقفين والناشطين والحقوقيين. قيدت كل تلك التصفيات ضد فاعل مجهول مع أن القتلة كانوا معروفين للناس. حزب الله الكردي من جهة ومنظمة "جيتم"[16] من جهة أخرى أخذا على عاتقهما خطف وتصفية خصوم الدولة والناشطين في الحقل

الاجتماعي والحقوقي والثقافي. لم يسلم المعارضون للحزب أيضاً من التصفية والملاحقة حتى في أوروبا وغيرها. القتل كان الأسلوب الوحيد لرفض الآخر وأفكار الآخر. سنوات التسعينيات وقبلها نهاية الثمانينيات كانت نفقاً أسود طويلاً مر به الناس في هذه الجغرافية المنيوكة.

16 JITEM اختصار لـJandarma İstihbarat ve Terörle Mücadele: استخبارات الشرطة ومكافحة الإرهاب. وهي منظمة سرية مهمتها القتل والتصفية لمصلحة الدولة.

عقب خروجي من السجن بأسابيع قليلة، خرج الناس للاحتفال بعيد النيروز في الجزيرة وغيرها متحدين حظر الدولة. سمعت ضوضاء الناس وشعاراتهم فالتزمت بيتي. هل جبنت؟ نعم. لقد حطم السجن إرادتي. سلبني رجولتي وجعلني أعيد النظر في كل مواقفي وأفكاري التي سبقت دخولي إلى السجن. لم أعد ذلك الشاب المتهور الذي يرمي بنفسه في المهالك خاصة بعد أن عرفت حقائق صادمة عن الحزب وتوجهه صوب عبادة الزعيم وترسيخ ديكتاتورية موازية لديكتاتورية النظام الفاشي. لا يمكن أن نقاوم الفاشية بفاشية أخرى. هكذا صرت أفكر. لم تعد تغريني الشعارات ولم يعد يجذبني مغناطيسها القوي. صرت قطعة خشب.

لم تكن الدولة مستعدة للتنازل. لم يكن لديها استعداد للاعتراف الدستوري بحقوق شعب يعيش على أرضه منذ آلاف السنوات. لم يكن الحل ضمن خطة الدولة في التهدئة. القتل والدم، الحديد والنار، ذلك ما قابلت به الدولة مطالب الناس. وجدت الدولة الفاشية ضالتها في حزب يمارس العنف فصارت تصور كل احتجاج على أنه إرهاب يمارسه الحزب. لا الناس حاولوا فصل مساراتهم عن مسار الحزب، ولا الحزب قبل أن يكون للشعب مساره الخاص بعيداً عن أيديولوجية الحزب المتطرفة.

لم يكن الجبن وحده سبباً لعدم خروجي إلى الاحتفال بالنيروز، بل كان طغيان اللون الحزبي على النشاطات سبباً أهم بكثير من باقي الأسباب.

إن جبهة شعبية واسعة تشمل أطياف المجتمع بكل اختلافاته هي الحل. جبهة بعيدة عن هيمنة الحزب ويده الثقيلة وأيديولوجيته الستالينية الإقصائية هي التي ستقطع الطريق على ادعاءات الدولة المستمرة بأن الموضوع ليس سوى موضع إرهاب ضاربة مظلوميتنا المحقة

بعرض الحائط. لكن من سيسمع هذا الكلام في ضجيج الشعارات والغبار؟ من سيقتنع بأن مقاومة سلمية دون صبغة حزبية تستطيع في غضون شهرين إنجاز ما لا يستطيع حزب مسلح إنجازه في عشرين عاماً؟

في ذلك اليوم الذي كان أشبه بانتفاضة شعبية، قتلت أجهزة الأمن العشرات من المواطنين المسالمين واعتقلت عشرات آخرين. صحيح أنهم خرجوا تحت أعلام الحزب وألوانه الخاصة لكنهم كانوا سلميين. كان من الحكمة ألا يكون الخروج بذلك الشكل. النيروز ليس ملك الحزب. ولا ينبغي احتكاره كما تم احتكار الحياة السياسية واحتكار قرار الحرب والسلم واحتكار الثقافة والفن والموسيقا وكل شيء عدا ذلك. إن أنانية الحزب قتلتنا.

***

في العشرين من أيلول 1992 اغتيل المثقف الكبير موسى عنتر كاتبي المفضل ومؤلف مسرحية الجرح الأسود، أول كتاب أراه وأقرؤه باللغة الكردية. في ذلك اليوم، الذي صادف يوم الأحد، وصلت إلى ديار بكر ونزلت في فندق بويوك هوتيل لأقوم بتسجيل نفسي من جديد طالباً في قسم الأدب التركي بجامعة ديار بكر بعد أن عزلت نفسي عن الدنيا كلها مدة ثمانية أشهر.

حجزت لنفسي غرفة في الفندق ثم جلست في ردهة الاستقبال أشرب الشاي. فجأة سمعت صخباً قادماً عبر الاب الرئيسي. رفعت رأسي فلمحت بضعة رجال يدخلون الفندق. عرفت موسى عنتر فوراً من قامته الفارعة وملامحه المعروفة. كان يرتدي كنزة مخططة وبنطالاً صيفياً، وعلى رأسه يلمع شعر أبيض كالثلج وبين شفتيه سيجارة مشتعلة. كان يتحدث مع مرافقيه بالكردية وبصوت جهوري. فوراً انتبذوا ركناً في اللوبي وجلسوا. أخرستني الدهشة. هل يعقل أن ألتقي بهذا الكاتب الكبير، هذا الرجل الساخر الذي قضى حياته منتقلاً من سجن إلى آخر! هل هو الكاتب موسى عنتر نفسه أم رجل يشبهه؟

حاولت أن أنهض لأسلم عليه لكن ركبتاي لم تحملاني من الخجل. فكرت في حجة مقنعة تبرر ذهابي إليه فلم أعثر على شيء. بقيت أكثر من نصف ساعة متردداً. صوت يدفعني إلى

التوجه إليه وصوت يشدني إلى مقعدي.

أخيراً انتصر الصوت المحرض على الذهاب صوب الكاتب الكبير العم موسى كما كان يعرف في الأوساط الكردية. استجمعت كل ما عندي من بقايا جرأة فنهضت وتوجهت إلى المجموعة الصغيرة التي كاد دخان السجائر يخفيها. سلمت بصوت خافت. صافحت العم موسى وانحنيت لأقبل يده فسحبها فوراً. لم تطل محادثتي معه سوى دقيقتين أو ثلاث. قلت له أنا أعرفك من كتاب الجرح الأسود، فضحك وقال: ''كان هذا جواز سفري إلى عالم الكتابة''. ثم قال لي: ''أنا كتبت هذه المسرحية قبل أكثر من ثلاثين عاماً حين كنت في السجن''.

– وأنا كنت في السجن خمسة أعوام. أطلقوا سراحي بداية هذا العام. لكنني لم أكتب شيئاً.

– ستكتب يا ابن أخي. بل يجب أن تكتب. السجناء السابقون هم أصدق من يكتبون.

لفتت نظري المنفضة الزجاجية الكبيرة التي أمامه. كانت ممتلئة بأعقاب السجائر المطفأة. حاولت أن أبدو لطيفاً فقلت هل يمكن أن آتيكم بمنفضة جديدة؟

''هل أنت من مستخدمي الفندق؟'' سألني أحد المرافقين، فأجبت: ''لا. أنا من الجزيرة. جئت إلى ديار بكر للتسجيل في الجامعة''.

في هذه اللحظة قطع مستخدمٌ شاب حديثنا بحضوره. رفع المنفضة التي تكدست فيها الأعقاب والرماد ثم مسح الطاولة ووضع منفضة نظيفة وغادر. كنت أود البقاء وقتاً أطول لكنني لاحظت أن هناك حديثاً قطعته باقتحامي خلوة تلك الجماعة. طلبت الإذن بالانصراف وعدت إلى مكاني. شربت كأساً أخرى من الشاي ودخنت سيجارتين قبل أن أصعد إلى غرفتي لأرتاح.

كنت سعيداً بلقائي بكاتب أحبه. استلقيت على سريري وصرت أقرأ في ملحمة قلعة دمدم وهي قصة شعرية كردية شهيرة كانت قد صدرت حديثاً في إسطنبول. لم تفارقني صورة كاتبي السبعيني الأثير موسى عنتر ذي الشعر الثلجي والقامة الفارعة ولا صوته الجهوري الحنون. استعرضت حديثي القصير معه وقلت لنفسي سأحاوره غداً لمصلحة مجلة كردية تصدر في السويد وسيكون ذلك حجة لأبقى معه زمناً أطول.

كان الفندق يضج ذلك النهار بالحركة والصخب. عرفت بعد أن ديار بكر تشهد مهرجاناً ثقافياً كان الكاتب موسى عنتر وغيره مدعوين إليه. لكنني آثرت الهدوء والبقاء في غرفتي. نمت حتى المغرب تقريباً ثم استيقظت بتأثير الشعور بالجوع.

بعد العشاء تناهت إلى سمعي جلبة غير طبيعية. رأيت موظفي الاستقبال وبعض المستخدمين يحدقون في شاشة تلفزيون صغير قلقين يهمهمون وتبدو الدهشة والحزن على ملامحهم.

”قتل اليوم في ديار بكر الكاتب موسى عنتر برصاص مجهولين“، قناة تلفزيونية تركية كانت تنقل هذا الخبر الرهيب مرفقاً بصورة للعم موسى. لم أصدق عيني. في شريط الأخبار تكرر اسم موسى عنتر. عاجل: ”مقتل موسى عنتر في ديار بكر على يد مجهول“.

يا إلهي! هل هذا صحيح؟

كان الخبر صحيحاً للأسف. العم موسى، الشاب السبعيني كما كان يسمي نفسه، صاحب المقالات الساخرة يُقتل؟ ليتني لم ألتق به هذا اليوم. بل ليتني بقيت معه مدة أطول واستمعت إليه.

في ما بعد تكشفت خيوط الجريمة.

استدرجه أحد عناصر الشرطة السرية JITEM. جاء إليه في الفندق بعد أن أوهمه بوجود مشكلة عشائرية وأنه مدعو ليصبح وسيطاً في المصالحة. جاء العنصر إلى الفندق واصطحبه مع شخص آخر بالسيارة ليقتله بعد دقائق حين ابتعدت بهم السيارة.

في اليوم التالي نشرت الصحف صورته قتيلاً.

كان يرتدي البنطال الذي التقيته به عند الظهيرة في بهو الفندق. الساق اليسرى ملطخة بالدم حيث أصيب بطلقة. الكنزة المخططة نفسها. جهة القلب من الصدر أيضاً ملطخة بالدم. الشعر الثلجي كذلك غارق في الدم من أثر طلقة. ثلاث طلقات غادرة أنهت حياة ذلك الرجل الشجاع.

متأخراً جداً اعترف أحد القتلة وسرد واقعة التصفية. كان كردياً منشقاً عن الحزب جندته منظمة JITEM لتصفية الناشطين. قال ذلك القاتل إن تصفية موسى عنتر كانت أعظم

الإنجازات التي حققوها.

بعد أسبوع من مقتله صدرت جريدة ولات الكردية الإسطنبولية وقد اتشحت بالسواد. زوايا الكتاب الأسبوعيين ورئيس التحرير خلت من الكتابة ولم تكن سوى مساحات سوداء. وحدها الزاوية التي كان يكتب فيها الراحل استمرت على ما هي. كان العم موسى ينشر زاوية أسبوعية ناقدة تغلب عليها السخرية تحت اسم Tîr أي السهم. في ذلك الأسبوع نشرت الصحيفة مقالة له بعنوان: ''شجرة الدلب'' كتب فيها:

> عام 1951 ذهبت إلى قريتي. هناك زرعت شجرة دلب. الآن يبلغ طول الشجرة مترين ونصف المتر وعرضها نحو ستين سنتيمتراً. بطبيعة الحال أرغب أن يكون قبري تحت تلك الشجرة.

حزنا عليه، نحن محبيه، كثيراً لكننا لم نستطع حضور مراسم دفنه. وحتى حين تم نقل رفاته إلى قريته ليدفن هناك بناء على وصيته لم يحمل نعشه سوى ثلاثة أشخاص. كان مؤلماً أن يسير رجل مثله وحيداً إلى القبر كما كتبت ابنته في ما بعد. منعت السلطة الحاكمة التجمع لأكثر من ثلاثين شخصاً. كانت الأحكام العرفية التي فرضها الانقلاب العسكري لا تزال سارية المفعول.

ذهب الكاتب الذي ألهب حماسة الشباب وأرَّقَ السلطات على مدى نصف قرن وحيداً إلى قبره.

***

قبل اغتيال العم موسى بعشرة أشهر، اغتيل المحامي وداد آيدن رئيس فرع ديار بكر لمنظمة حقوق الإنسان. في الخامس من تموز 1991 وقبل أن أخرج من السجن ببضعة أشهر، خطفه ثلاثة رجال من بيته مدعين أنهم رجال شرطة. بعد يومين من خطفه تم العثور على جثته مرمية تحت جسر في بلدة معدن في ولاية ألعزيز على بعد نحو ثمانين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من ديار بكر.

ظهرت على جسده آثار تعذيب وحشي: ساقاه مكسورتان وجمجمته محطمة وفي جسده خمس عشرة طلقة.

كالعادة قيدت الجريمة ضد فاعل مجهول. والفاعل المجهول في تلك الأعوام كان معروفاً أكثر من رئيس الجمهورية تورغوت أوزال.

بعد ثلاثة أيام على إعلان مقتله، انتفض الناس أثناء تشييع جثمانه في ديار بكر.

أطلقت الشرطة الذخيرة الحية على حشد من آلاف المشيعين. سقط أكثر من عشرة قتلى وأصيب نحو مئة شخص من المشيعين. بعد عامين، وأثناء قيام وفد من البرلمانيين الكرد بالتحقيق في حادثة القتل التي طاولت المحامي آيدن حدث إطلاق نار قتل بموجبه النائب عن ولاية ماردين محمد سنجار وأصيب النائب عن باتمان نظام الدين توغوج مع ثلاثة آخرين. في ما بعد تم إغلاق الملف لأن التقصي صار يكلف أرواحاً أكثر.

كانت تلك دائرة النار الشيطانية. من يحاول الوصول إلى مبدأ الدائرة ليكتشف خيط الحقيقة يتعرض إلى القتل. أيادٍ خفية كانت تضغط على الزناد وتحصد المزيد من الناشطين والحقوقيين الذين يريدون رفع الحجب عن الحقائق المخفية. أحكمت الدولة قبضتها على المشهد، وانتشر عملاؤها في كل مكان يغتالون الناشطين ويصفون الوطنيين في حرب سرية بدا أن القتلة فيها مجهولون فعلاً. اختفى المئات وانتشر الرعب. تحدثت الإشاعات عن آبار بعيدة أصبحت مقابر لمن يتم تصفيتهم. كانت البلاد تغطس في الدم.

كثرت عواصف الغبار في تلك الأعوام واضطربت الرؤية. تصادم الناس في الطرقات والأزقة وحتى داخل البيوت والأسواق. الغبار في كل مكان والدم يلون المشهد مصحوباً بشعارات صاخبة لا يتحقق منها شيء. كانت المرحلة تتطلب مزيداً من الحذر فانصرفت إلى دراستي الجامعية. حاولت أن أبتعد قدر الإمكان عن كل ما قد يثير الشبهات حولي. أيقنت أنني مراقب من أجهزة الدولة الأمنية. لذلك اعتقدت أنني بابتعادي عن الاختلاط برفاق مقربين من الحزب سأكسب ثقة هذه الأجهزة سريعاً فيكفون عن مراقبتي. في الجامعة استعرت النقاشات بين الطلاب وتركزت أغلبها حول مشروعية قتل أطفال وعائلات الخونة ومحاربة الحزب الديموقراطي الكردستاني وتمجيد القائد وتقديسه. انتشرت الأغاني التي

تقدس القائد وتعتبره شمساً أضاءت الكون كله. سقط معارضوه قتلى واحداً تلو الآخر أو اختفوا وهربوا ومع ذلك لوحقوا واغتيلوا حتى في منافيهم الأوروبية.

يوماً بعد يوم كان الطلاب أيضاً يختفون. عرفنا أن بعضهم سيقوا إلى السجون وكثير منهم صعدوا إلى الجبال للالتحاق بقوات الكريلا.

تبين لاحقاً أن غالبية من يلتحقون بالقتال يذهبون إلى إقليم كردستان حيث معسكرات الحزب. كان ذلك الإقليم قد تشكل حديثاً بعد حرب الكويت ووجد الحزب في جبال المنطقة ملاذاً آمناً له مستغلاً ضعف حكومة الإقليم الذي كان يشهد صراعاً مريراً على السلطة والنفوذ بين أقوى حزبين هناك.

الأربعاء 17 شباط 2016

"هذه الحياة ليست سوى طعام وخراء. وما بين تناول الأول وطرح الثاني ليس سوى ثرثرة فارغة إلى حين يتم تحويل هذا إلى ذاك"، سمعت هذه الحكمة الصادمة في السجن ذات يوم من رفيق سجين اسمه خليل ولقبه الفيلسوف. أصابه انهيار عقلي جراء التعذيب. وحين استفسرت منه عن مغزى مقولته قال ضاحكاً ضحكة هيستيرية: "أنت تستيقظ صباحاً فلا تفكر سوى في ملء بطنك. صحيح؟ بعد ذلك لا تفكر إلا في إفراغ ذلك البطن. أو العكس. صحيح؟ وهكذا مع كل وجبة طعام. ملء ثم إفراغ، ملء ثم إفراغ، ملء ثم إفراغ. أو العكس. صحيح؟ هل فهمت الآن يا آمد؟ هل فهمت؟"

– نعم فهمت يا رفيقي. نعم فهمت. هذه طبيعة الإنسان ولا بد من ذلك. لكن ما يحمله الإنسان في رأسه من أفكار هو الأهم.

– لا يا صديقي. بل إن ما يحمله الإنسان في بطنه هو الأهم. على الأقل تستطيع التحكم فيه. تفرغه حين تشعر بالحاجة إلى ذلك. وتستطيع أن تحبسه إلى حين تجد مكاناً تفرغه فيه. أما الفكر، هذا الخراء الذي يتراكم في رأسك، فتعيش عمرك كله دون أن تتحكم فيه. تسعى أحياناً

إلى إبقائه حبيساً بين جدران جمجمتك حيث دماغك المسكين فلا تقدر. وأحياناً ترغب في طرحه وما إن تطرحه حتى تحيط بك الأهوال مثلي. هل فهمت الآن يا آمد؟ هل فهمت؟

– نعم فهمت يا رفيقي. نعم فهمت.

تذكرت حواراتي مع خليل الفيلسوف حين استيقظت هذا الصباح البارد جائعاً. كانت فلسفته كما يسميها تتركز في أن تفريغ الرأس من الأفكار والفلسفات والديانات والأيديولوجيات يريح الإنسان ويوصله إلى النيرفانا.

"النيرفانا هي أن يصبح رأسك يقطينة فارغة. على الرأس أن يخرأ"، كان هذا شعاره الذي يردده على الدوام.

***

قريباً سينفد الخبز القاسي والمعلبات والفواكه المجففة التي أعيش عليها منذ انعزالي ولجوئي إلى هذا الضريح. أنا أستطيع أن أغامر بكسر الحظر والخروج من أجل الذهاب إلى حانوت صغير في زاوية شارع قريب لكن الخوف يمنعني. الخوف من الخطف والاعتقال. من طلقة قناص أو طلقة طائشة. لا أعتقد أن هناك فرقاً بين الطيش والقنص. قد تأتيني رصاصة تائهة لتستقر في صدري أو رأسي. سأسقط نتيجة ذلك على إسفلت الشارع على وجهي وأنزف حتى أموت. وقد يترصدني قناص مختبئ بعيداً يقنص أي شيء يتحرك في الشارع الخالي إلا من بعض النسوة العجائز والأطفال الذين لا يصدقون ما يجري. سيطلق القناص باتجاهي طلقة واحدة قد تستقر في صدري أو في رأسي. والنتيجة أيضاً ستكون سقوطي على إسفلت الشارع لأنزف حتى أموت.

الحروب تتفنن في الموت. تجرب كل ألعابه القاتلة. ولا أدري أي لعبة ستكون نصيبي عندما أخرج من مخبئي هذا.

في الأيام الماضية سمعت إطلاق رصاص كثيراً. ليلاً ونهاراً. طلقات مفردة أيضاً كانت تئز في الأجواء. ترسم للموت دروباً في الهواء المسمم بالغبار. ليس من الممكن أبداً تفريق

طلقة تقتل جندياً من جيش الدولة عن أخرى تصرع مقاتلاً متخندقاً وراء أكياس الرمل في الحارات الضيقة. تتقاسم الطلقاتُ القدرة على القتل بعدالة. لا أعلم إن كانت نِشتيمان لا تزال على قيد الجنون الذي نسميه نضالاً ومقاومة أو قضت في معركة ما! لكنني أتخيل أحياناً أن طلقة ما ربما أودت بها إذ لم أعد أتلقى منها أي إشارة. أحسست في حالات خاصة بشيء ما يعصر قلبي عندما كان صوت الرصاص يتناهى إلى سمعي. كنت أشعر أن الرصاصة اخترقت عظامها الهشة وجسدها اللطيف. رعب وقهر وجوع وبرد وحرب. إنه قاموس الألم الذي نقتات على مفرداته ونسير في حقول شوكه.

السيناريو الأقرب إلى الحدوث هو احتمال أن الجيش، هنا في الجزيرة وفي بقية المدن التي تحصن فيها المقاتلون، سيدمر ما تبقى من البيوت والحارات على رؤوسهم. لن يخرج أحد حياً من خندقه إلا إذا استسلم. وإذا استسلم فأجهزة الدولة كفيلة بأن تذيقه الموت ألف مرة في اليوم. أي عبث وأي دوامة شيطانية! أي استهتار بالأرواح يحصد المزيد! لماذا لا يخطط الحزب مقاومة مدنية لا عنفية تتركز على الاعتصامات والمظاهرات والفعاليات المؤثرة عالمياً؟ لماذا لا نجرب نموذج اللاعنف الذي طبقه غاندي في الهند؟ بهذا النموذج وحده سيتم قطع الطريق أمام تهمة الإرهاب التي التصقت بنضال هذا الشعب المسكين في سبيل حقوقه. لقد وصلت إلى قناعة تامة بأن لا الحزب ولا الدولة يريدون السلام. كلاهما يستفيد من الحرب والعنف والقتل بطريقته الخاصة. ألم يصرح زعيم الحزب عام 1991 بأنه لا يخاف من سفك الدماء بقدر ما يخاف من وقف سفكها؟

هذا الحزب طاحونة لا يحركها إلا شلال الدم. لكن من يجرؤ على القول إن ما يحدث الآن من عنف وسفك دماء عبثٌ في عبث؟ من يجرؤ على القول إن بعض دول الجوار التي يرتبط بها الحزب بعلاقات استخباراتية وتحالفات غير معلنة هي التي حركت هذه الورقة الآن للحصول على تنازلات من الدولة في ملفات إقليمية ساخنة أهمها الملف السوري! من يتفوه بمثل هذا الكلام سيتهم بالخيانة والجبن وسيتم التشهير به من كثير من الكتاب والمثقفين الذين يجلسون في بيوتهم وبجانب مدافئهم وزوجاتهم وأطفالهم يوزعون صكوك الخيانة والوطنية يميناً ويساراً. إنها الحرب ولا مجال فيها للحكمة بل هي الحكمة العليا التي لا تغلبها حكمة

أخرى. في الحروب تصبح الغريزة راعياً والعقول قطعاناً سارحة لا تصغي إلا إلى صدى مزماره.

لقد كثر الملح الفاسد بعد عاصفة الغبار. إنهم المثقفون ذوو الأرواح المتأكسدة، الكتاب والشعراء والموسيقيون والنخبة الأكاديمية من الذين تركوا دورهم الطليعي واستسلموا لسطوة البروباغندا الحزبية وضغط الأيديولوجيا وبريق الشعارات على حساب الانتصار للحق والدعوة إلى توسيع جبهة النضال لتشمل كل تيارات المجتمع. سكت معظم المثقفين عن تجاوزات الحزب واحتكاره قيادة المجتمع في الحرب والسياسة والثقافة وكل المجالات الأخرى. لم يحاولوا إيجاد مناخ ملائم لنمو فكر معتدل ينبذ العنف ويقاوم عنف الدولة وإنكارها المستمر بفعاليات سلمية تجلب انتباه العالم ولا يمكن للسلطة أن تشوهها بأي شكل. لم يسمحوا أو على أقل تقدير لم يسعوا إلى إنشاء جبهة واسعة. خضع معظم المثقفين واستسلموا للأسطورة التي صنعها الحزب لنفسه. أنشئت جمعيات واتحادات كتاب ودور نشر ومراكز ثقافية لم تكن سوى مراكز لتجنيد الشباب وبث الدعاية الحزبية. أشرف بعض المثقفين على تلك المؤسسات وانتفعوا منها وصاروا يحاربون كل رأي معارض ويجيشون الغوغاء ويؤلبون المجتمع ضد الذين يحاولون النأي بأنفسهم عن القطيع الأيديولوجي. استغل الحزب عواطف الناس وكراهيتهم للدولة وفاشيتها وسياستها الإنكارية فاحتكر كل شيء في يده مستنداً على الدماء التي سالت باسمه وعلى قائمة مروعة من الشهداء الذين جعلهم الحزب سيفاً مسلطاً على رقبة كل معارض.

– نحن قدمنا آلاف الشهداء. أنت ماذا فعلت؟

– إننا حزب الشهداء. وكل من يعارض نهج الحزب والقائد يهين الشهداء.

– حذاء شهيد أفضل من ألف كتاب.

عبارات من هذا القبيل ملأت منصات التواصل الاجتماعي حين اشتدت وتيرة معارك حامية بين سدنة الأيديولوجيا وبعض المتمردين الذين حاولوا التأسيس لفكر مغاير ونهج مختلف. حاولت دخول المعمعة وإثارة قضايا ثقافية مهمة لكن الغوغاء والذباب الإلكتروني أثاروا الغبار وشوشوا على فكرتي التي تمحورت حول رفض الفاشية المحلية والاستبداد

الكردي حتى خسرت الكثير من قرائي. قال لي ناشري الإسطنبولي ذات لقاء في إسطنبول: ''أفكارك التي تنشرها في منصات التواصل الاجتماعي أثرت كثيراً في مبيعات كتبك. خفف من أوار معركتك''.

لكنني لم أقبل نصيحته. كان صوت مارتن لوثر كينغ يرن في أذني: ''المصيبة ليست في ظلم الأشرار بل في سكوت الأخيار''. لم أخسر في خضم الصراع الافتراضي سوى بعض المعجبين التافهين والكتاب المنافقين، وفي أسوأ الأحوال جيشاً من الأغبياء الذين تعج بهم منصات التواصل ممن أتيح لهم الوصول بأقصر الطرق إلى الكتاب والساسة والفنانين ومناقشتهم بل كيل الشتائم لهم وإهانتهم متى شاؤوا.

لقد تم احتكار الصراع وحصره بين الدولة والحزب منذ قُضي على بقية المنظمات الكردية التي نشطت في السبعينيات. ضاق نطاق الخيارات أمام الناس. فإما أن تكون مع الحزب وإما أن تكون مع الدولة. لا أحد يقبل منك أن تكون معارضاً شرساً لنهج الحزب وفي الوقت نفسه تقف على النقيض من ممارسات الدولة وفاشيتها الفاقعة وسياستها الإنكارية. لا الحزب وأنصاره يقبلون منك ذلك ولا الدولة وأجهزتها الأمنية. لا يتركون لك سوى خيار واحد ثم يحاسبونك عليه. أنت ضد ظلم الدولة! إذن أنت مع الحزب. أنت تنتقد نهج الحزب وعنفه! إذن أنت مع الدولة. منطقة الأعراف في هذه الحالة غير معترف بها. إما النعيم وإما الجحيم. لن تبقى إلى الأبد على الصراط. إن لم تكن معي فأنت ضدي. هذا هو المنطق السائد. وبناء على هذا لم يبقَ إلا القليل ممن اختاروا رفض هذه الثنائية. أقلية منبوذة لم تستطع إقناع الجماهير الواقعة تحت سلطة الدعاية الحزبية أو دعاية الدولة بأي شيء. أقلية نخبوية لم تستطع الجمع بين مقاومة فاشيتين: فاشية محلية شرسة تتمثل في الحزب، وفاشية أكثر شراسة تمثلها الدولة. وفاشية الدولة تتناغم مع فاشية الحزب وترتبط معها بخيوط غامضة وغير مرئية لكنها حقيقية، شبكة عنكبوت سامة وشريرة.

تسلق الحزبُ مظلومية الكُرد المزمنة. صعدَ آلامَ الناس الشاهقة وحين وصل إلى القمة أعلن نفسه الوكيل الحصري للنضال. سرق الجغرافيا وعبث بالتاريخ وبلبل المجتمع. استلب العقول وخطف القلوب بأضواء شعاراته الصاخبة البراقة.

حين سافرت إلى إسطنبول عام 1996 لمعالجة قضية الانتصاب، ذهبت إلى ساحة غلطة سراي يوم السبت وشاهدت الأمهات المفجوعات أو أمهات السبت كما دأبت الصحافة على تسميتهن. أكثر من مئتين من النسوة البائسات كن يحملن صور أولادهن المفقودين. يلوحن بأعواد القرنفل الأحمر للمارة. رأيت عيونهن الطافحة بالحزن ووجوههن الحائرة. قرأت اللهفة في كلامهن الخافت وهن يتحدثن إلى بعض الصحافيين. استغل الحزب تلك المأساة أيضاً. لم يسمح للمجتمع المدني بتبني تلك القضية الإنسانية بل وسمها بميسمه الخاص. كان يعرف أن وصمة الإرهاب لا تفارقه وأن من الأفضل في تلك القضية أن يتراجع هو عن المشهد قليلاً. كان يعرف أنه لو تم تسليم تلك القضية لمنظمات مدنية بعيدة عن نفوذه لكان تأثيرها في الرأي العام المحلي والعالمي أكثر لكنه أبى ذلك. أبى إلا أن تكون أصابعه في كل الثقوب وأن يكون هو الوحيد الذي يحرك كل خيوط اللعبة.

الأربعاء 24 شباط 2016

قبل قليل سمعت من إذاعة أنقرة أن هيئة الأركان العامة صرحت في بيان لها اليوم الأربعاء أنه تم تحييد 666 مقاتلاً في الجزيرة خلال شهرين ونصف فقط من الاشتباكات.

يا إلهي! إنها إبادة جماعية. إنها مجزرة. بلدة صغيرة مثل جزيرتنا المسكينة لا تحتمل هذا العدد الكبير من الضحايا الذين تم الزج بهم في أتون معركة معروفة النتائج سلفاً! ترى كيف سيبرر الحزب هذا العدد الضخم من الضحايا؟ أليس الأمر أصلاً خطة من الدولة لتصفية الناشطين والمتحمسين؟ 666 مقاتلاً! أي عدد سحري هو هذا العدد؟ يتكرر فيه الرقم ستة كثلاث ضربات من خنجر حاد يصيب القلب. بلا شك نِشتيمان بينهم. بلا شك تلك الغزالة التي أحيت رميم روحي سقطت ظامئة ضحية السعي وراء سراب جميل. أغلب من تحصن هناك هم من الشباب الثوريين الحالمين. أعرفهم. تناقشت مع كثيرين قبل بدء المعركة. في المقاهي المطلة على نهر دجلة كنا نجلس وكانت النقاشات تحتدم. كانوا متحمسين كما كنا متحمسين في الثمانينيات. يظنون أن النصر قاب قوسين. اللغة والأفكار نفسها التي كنا

نتداولها قبل نحو ثلاثين عاماً كان الشباب واليافعون يتداولونها وهم يحلمون بنصر قريب. أعرفهم. أغلبهم أنقياء طيبون يستحقون حياة أفضل، ويستحقون وطناً أجمل. يستحقون بلاداً لا تذبح أبناءها الحالمين. استغل الحزب أحلامهم وعاطفتهم القومية المتأججة ليزج بهم في حرب عبثية يعلم الله وحده من أعطى إشارة البدء بإشعال فتيلها ولمصلحة من!

إنه رقم ضخم. خسارة كبيرة. قد تكون هناك مبالغة في الرقم جرياً على عادة الحروب حيث تكون الحرب النفسية الموازية أشد فتكاً. بلا شك جيش الدولة يريد تحطيم المعنويات التي بلغت ذروتها قبل بدء المعارك. استفادت آلة الحزب الدعائية من مجريات الحرب في كوباني وهزيمة "داعش" في العام الماضي. ارتفع رصيد الحزب وزادت أسهمه في البورصة الجماهيرية وحتى لدى الرأي العام العالمي. زين للناس أن انتصاراً شبيهاً بالانتصارات على "داعش" ممكن الحدوث هنا أيضاً. التحق كثير من طلاب الجامعات بالمقاتلين الذين نزلوا من الجبال وبعض الذين عادوا من الحرب في سوريا. تحصنوا منذ أشهر في حارات بعض المدن التي أصبحت الآن تحت وطأة القصف المدفعي المستمر أطلالاً بلا شك. لم يقل أحد إن ما جرى في كوباني لا يمكن أن يُستنسخ في ديار بكر والجزيرة وغيرهما. لم يقل أحد إن الطيران الأميركي والدعم اللوجستي الهائل لعبا الدور الحاسم في دحر "داعش". هنا لن يتدخل أحد. ليس من مصلحة أي دولة كبرى أن تخسر حليفتها التركية في هذه الظروف الحساسة. وحدها الأهواء حركت الشارع حتى بلغ المد العاطفي ذروته. أما العقل فقد انحسر كالعادة مثل أي بحر هائج تتراجع أمواجه بفعل الجزر.

ترى ما أعداد الضحايا الآخرين في نصيبين وشرناخ وديار بكر وسلوبي وغيرها؟

لقد قالها زعيم الحزب عام 1991: "نحن لا نخاف من إراقة الدماء بل من توقفها". الحزب يطبق هذه المقولة بحذافيرها منذ سنة الغبار. إنها مقولة مرعبة تلخص جوهر مشكلتنا مع هذا الحزب. استرخاص الدم والاستعداد للتضحية بقرابين كثيرة في سبيل مكاسب هزيلة جداً. الحزب ماكينة لا تعمل إلا على الدماء. وكلما كانت كمية الدم التي يريقها أكبر، كان صوته أعلى ونبرته أقسى.

لقد اعتذر زعيم الحزب من أمهات جنود جيش الدولة عقب اعتقاله سنة 1999. ربما كان تصريحه خطوة دبلوماسية. لكنها كانت خطوة مجانية. لم يعتذر أي جنرال انقلابي في الجيش عن قتل المدنيين في القرى النائية. لم يعتذر مديرو سجن ديار بكر عن الوحشية التي مارسها جلاوزتهم بحق السجناء على مدى أعوام. لا أحد اعتذر لي عن سلبي حريتي ثم رجولتي وتركي نهباً لآلام نفسية لم أجد لها علاجاً إلى الآن. لم يعتذر أيضاً أي قائد عسكري من الحزب عن أعوام المجازر الرهيبة التي ارتكبوها بحق عائلات حماة القرى وكذلك جرائم القتل التي طاولت العديد من معارضي الحزب في كل مكان سواء في معسكرات الحزب في لبنان أو هنا في هذه البلاد المغضوب عليها أو في أوروبا.

أكثر من ثلاثين عاماً ونهر الدم لا يكف عن التدفق. آلاف القرى أُفرغت تماماً من سكانها. يتحدثون عن أكثر من أربعة آلاف قرية هرب سكانها وزحفوا على المدن ليستقر معظمهم في ديار بكر. الريف الكردي تضرر بشكل لا مثيل له حتى في أيام السفر برلك. أكثر من مليونين نزحوا إلى المدن التركية في الغرب هرباً من طاحونة الموت.

حين زرت إسطنبول عام 1996 وجدتها مدينة صاخبة معربدة، ولا تنام، وتعج بالمقاهي والبارات والمطاعم والموسيقا التي تصدح في كل زاوية. الشوارع آمنة يمشي فيها العشاق متعانقين لا يخافون رقيباً ولا انفجاراً ولا أي مضايقات أخرى. هل هذه أكبر مدينة في دولة تعيش حرباً؟ قلت لنفسي. استنتجت هناك أن الحرب محصورة في جغرافيتنا المنكوبة. استنتجت أن الحزب لو أراد الضغط على الدولة لحول إسطنبول وغيرها من المدن الكبرى إلى ساحة مواجهة أو بؤرة مظاهرات صاخبة كما كان يأمل العديد من الشباب المتحمسين لكنه لا يريد. هناك قال لي أحد المتحمسين للحزب: "لو حدثت هنا عمليات عسكرية وتفجيرات، لاتهمونا بالإرهاب".

ضحكت. أشفقت عليه. عرفت أنني لا أستطيع زحزحته عن قناعاته. مع ذلك قلت له بهدوء: "الحزب مصنف إرهابياً هنا وفي كثير من الدول الفعالة في العالم. ولكي تزول هذه التهمة يجب أن يتغير أسلوب النضال ليصبح سلمياً خالصاً. والمشكلة الكبيرة أن الحزب والدولة على حد سواء لا ينظرون إلى الكُرد إلا مختصرين في الحزب".

في الشرق الكردي قتل، انفجار قنابل، طائرات تقصف الجبال والوديان، حملات تمشيط مستمرة، مداهمات، حواجز على الطرق الرئيسية وعلى مداخل المدن والبلدات، جنازات شهداء، سجون ومعتقلات، خطف واعتقالات... أما في الغرب التركي، فلا شيء يوحي بوجود قتال دام وموت يومي. مدن صاخبة تضج بالحياة تعيش إيقاعها الروتيني دون أن يظهر أي أثر للحرب.

أتذكر أيام النضال الأولى وكيف كنا نصفق للهجوم الذي يشنه المقاتلون على المدارس الرسمية في القرى النائية. كنا نكرر مقولة الحزب: ''مدارس الدولة ليست للتعليم بل هي للتتريك''، وكانت هذه المقولة صواباً في المبدأ. فالدولة تقمع اللغة الكردية منذ تأسيس الجمهورية ولم تسمح بتطويرها أو الكتابة والنشر بها. حتى في السجن كنا نقرأ يومياً ونحن نتعرض للتعذيب عبارة مستفزة على أحد الجدران: ''تكلم التركية، تكلمها كثيراً''. كنا نعتقد أن هجوم الحزب على مدارس الدولة لغايات قومية تتعلق بالانتصار للغتنا المهمشة فعلاً. لكننا لم نسأل أنفسنا عن البديل الذي يقدمه الحزب وأين سيذهب التلاميذ؟ لم يطرح أحد منا تساؤلاً عن خطر شيوع الأمية بسبب إغلاق المدارس. حين تأزمت الأوضاع قبل أشهر وقاطع طلاب المدارس في الجزيرة الدراسة من الخامس عشر من كانون الأول الماضي تذكرت أبي الذي أكد أن الهدف من ضرب المعلمين ومنع ارتياد المدارس هو أصلاً نشر الأمية بين الفتيان والشباب ليسهل التحكم في عقولهم وجذبهم بسهولة إلى شعارات الحزب. قال أبي حينذاك إن مقولة الحزب أن المدارس الرسمية مراكز خطيرة للتتريك حق أريد به باطل. وفعلاً تبين لي بعد صدق ما ذهب إليه أبي في تحليلاته. لقد نقل لنا كثيرون أن الحزب يعتمد التركية في اجتماعاته في مقرات القيادة وأن لغة التخاطب بين أفراد المجموعات القتالية هي التركية وحتى المقاتلون الذين قدموا من سوريا والعراق وإيران تعلموا التركية لحاجتهم إليها. حتى في وسائل الإعلام الخاصة بالحزب بقيت التركية اللغة الرسمية. فصحيفة سرخوبون التي اعتقلتُ بسببها ولحق بي من الأذى ما لحق صدرت منذ عددها الأول في كانون الثاني عام 1982 بالتركية ولا تزال تصدر بالتركية حتى الآن وقد صدر العدد 410 هذا الشهر.

***

شباط، هذا المهرج، لا يترك طباعه واستعراضاته المجنونة الماجنة. أسمع الآن وقد انتصف الليل صوت مطر مفاجئ. قطراته تضرب بقوة أرض باحة الضريح في الخارج. كان الجو طوال اليوم متقلباً. مشمساً وهادئاً أحياناً، عاصفاً أحياناً أخرى. والآن أصبح ماطراً. هذا المطر المفاجئ يثير الذكريات. يساعد عربة الخيال في الانزلاق على سكة الذاكرة. لكن رغبتي في الكتابة فترت. موجة من الكآبة غمرتني منذ غربت الشمس قبل سبع ساعات. مرت هذه الليلة دون أن أسمع إطلاق نار. للمرة الأولى منذ نحو الشهرين لا تشهد المدينة إطلاق رصاص. لكن ليس في الأمر بشارة خير. هذا الهدوء لا يعني هدنة ما بأي حال من الأحوال. لا أرغب أن أفكر في الاحتمالات الأخرى وكلها سيئة ومرعبة. لا أحد يدري حقيقة ما يجري. الحارات المقاومة مطوقة بالكامل ولا يستطيع حتى العصفور أن يغادرها أو يحط فيها.

لم يعد طيف الشاعر يتراءى لي. أقتصد في شرب النبيذ لأنه أوشك على النفاد. بقيت زجاجة مختومة يتيمة فقط. ولا أدري كم يوماً سأبقى هنا. استأنست بالمكان واعتدته. لم أعد أرغب في الخروج منه أصلاً. هذا الأخضر الذي تتدثر به روح الشاعر وأرواح بقية المدفونين هنا يمنحني راحة كبيرة.

الثلاثاء 1 آذار 2016

صباح هذا اليوم خرجت إلى الباحة لأشم قليلاً من الهواء. أغراني الهدوء الذي نسج عباءة الليلة الماضية بالخروج. أوشكت أن أرى طيف شباط يغادر سريعاً. نظرت إلى السماء فرأيت الشتاء يحتضر. فاحت رائحة المطر الزكية. رائحة فريدة لا تشبه رائحة أخرى. عطر نادر يجمع بين سمو السماء وتواضع الأرض. شذىً يمنح الطمأنينة للنفوس القلقة الخائفة

المرتقبة مثلي.

لم تمضِ دقائق حتى حطت حمامتان زرقاوان على مصطبة من المصاطب الأربعة التي تشبه صلباناً حجرية مرمية في الباحة. بقيتا دون حركة دقائق عدة. حدقت فيهما فبدتا كأنهما حمامتان محنطتان. كانت تنظران في اتجاهي دون أدنى حركة. فجأة دوى صوت انفجارات متلاحقة. فزعت الحمامتان وطارتا بعيداً. اتخذتا سمت مسجد النبي نوح الذي لا يبعد كثيراً في الجنوب. وحين صارتا بين المئذنتين الرفيعتين توجهت كل واحدة منهما إلى إحدى المئذنتين وغابتا عن أنظاري.

في تلك اللحظة شاهدت طائرة هليكوبتر تحلق على ارتفاع منخفض جداً. أصابني رعب غير قليل. كانت الحوامة دانية حتى رأيت رتبة قائد الحوامة: ثلاث نجمات تزين كتفه اليمنى.

كانت طائرة من نوع أباتشي تهدر متجهة شمالاً صوب حي النور. رأيتها مثل رعّاد أسطوري هائل. ذكرتني بإلهة الحرب الإغريقية إيريس. رأيت مدفعها الرشاش ذا الفوهات المتعددة. فجأة دوى صوت رشقات متتابعة. عرفت أن الحوامة بدأت تقصف. خشيت أن أصبح هدفاً لطائر الموت الأسود ذاك فانسحبت فوراً باتجاه القوس المدبب فوق مدخل الضريح.

التقطت أنفاسي وأنا أحدق في السماء الغائمة ثم قررت العودة إلى داخل الضريح.

"لا أمان إلا في عالم الموتى. الموتى لا يقتلون أحداً حتى ولو كانوا في الأصل قتلة سفاحين في حياتهم الدنيا"، قلت لنفسي واستدرت لأدخل. في هذه اللحظة فوجئت بلوحة تعريفية على الجدار الأحمر. رأيتها مرات كثيرة لكنني لم أجد وقتاً لأقرأ ما فيها. يحدث أن تمر عشرات المرات في شارع بعينه ولا يلفت شيء بعينه نظرك. أصيص فيه شجيرة صغيرة على مدخل ميني ماركت مثلاً، تمثال صغير أو نافورة مياه أو أي تفصيل صغير غير ذلك. لكن في لحظة معينة تكتشف الشيء الذي مررت بجانبه مرات كثيرة ولم تره. ربما رأيته لكنه لم يعلق بذاكرتك فيبدو الأمر كأنك لم تره منه قبل. وهذا ما حدث معي هذا الصباح بعد انقشاع غيمة الحوامة الحربية.

دققت في اللوحة التي تتحدث عن الشاعر الجزري باللغتين التركية والإنكليزية وشعرت بها تصدم رأسي. كيف لم أنتبه إلى هذا الأمر من قبل!

إن من المؤسف أن تخلو اللوحة التعريفية لأعظم شاعر كردي إطلاقاً من لغته الأثيرة التي لم يكتب إلا بها ودعا قومه إلى قراءة شعره معلناً أن كلامه الكردي وقصائده معجزات إبداعية.

كيف لم يغير ثلاثون ألف قتيل منذ بدء الحركة المسلحة في 1984 من الذهنية الكولونيالية التي تعامل بها الدولة الشعب الكردي؟ لماذا لم يستطع الحزب الذي يخوض الصراع المسلح منذ سبعة وثلاثين عاماً ويحتكر النضال رافضاً مشاركة أي فصيل آخر خوض نضال سلمي مؤثر يعتمد مبدأ اللاعنف الذي أثبت نجاعته؟

لماذا لم تظهر حركة شعبية تنأى بنفسها عن هيمنة هذا الحزب تقود النضال المشروع بعيداً عن العنف وسفك الدم؟

كان ضرورياً تشكيل جبهة واسعة تضم أطياف المجتمع كافة؟ كان ضرورياً عدم ترك تقرير مصير الكرد بيد حزب واحد شمولي النزعة ستاليني المنشأ.

وأنا أحدق في اللوحة مذهولاً ربطت بين هدير الحوامة وصخب الأفكار التي هاجت في مخيلتي. قلت في سري: "لو كانت هذه اللوحة تحمل نصاً بلغة صاحب الضريح أيضاً، ما كانت هناك حاجة إلى هذه الحوامة في سماء المدينة".

سمعت هاتفاً من الغيب تشبه نبرته نبرة صوت الطيف الذي يزورني في بعض الليالي يجيبني: "وما كانت هناك أيضاً حاجة أن يسقط كل أولئك الشباب في خنادق ومتاريس بنوها في أزقة جزيرة الحب هذه، وما كانت هناك حاجة إلى كل هذا الدم الذي يراق منذ عقود على هذه الأرض المتعبة".

تلفت حولي. كانت الباحة فارغة إلا من هواء مرعوب تركته حوامة الأباتشي. دخلت على عجلٍ الضريحَ الصامت الرطب. اجتزتُ العتبةَ الواطئة ثم مشيت متحاشياً القفز فوق قبور الأمراء الرفيعة المغطاة بسجاجيد ملونة حتى وقفت بجانب قبر الجزري العظيم. لمست سندسه القدسي الأملس. مررت بأصابعي على التطريز الذهبي، ذلك الوشي النافر للحروف

العربية المقدسة فشعرت به دافئاً مثل حضن أم. أحسست بشيء من الأمان والراحة بعد الرعب الذي نالني من مشاهدة الحوامة وهي تقصف من مدفعها الرشاش.

ثمانية وسبعون يوماً من الحظر. ثمانية وسبعون يوماً وأهل هذه البلدة محاصرون في بيوتهم، والمقاتلون محاصرون في خنادقهم التي سمعنا تصريحات من قادة الجيش أنها ستكون مدافن للإرهابيين ولن يخرجوا منها أحياء. ثمانية وسبعون يوماً من القلق والسهر تحت قبة هذا المزار أحتسي الخمر وأشغل نفسي بالكتابة والقراءة المتقطعة، متنقلاً بين كتابة يومياتي ومذكراتي وبين كتابة روايتي القصيرة "مجنون سلمى" التي لا تريد أن تنتهي. ثمانية وسبعون يوماً من الانفجارات والموت في الخارج. الدم يسيل هناك والحبر يسيل هنا. الخنادق في الأزقة والحارات المحاصرة تشهد مصرع من نحبهم، من الذين خرجوا من أجل حلم مشروع تصادره الأيديولوجية ورهانات الحزب الخاسرة، حلم تصادره أيضاً الدولة التي تصر على سحق الهوية بحجة محاربة الإرهاب. إنها تحاول بإصرار سيزيفي تذويب الكرد في بوتقة الطورانية منذ تسعين عاماً وتفشل. تكرر المحاولة وتفشل، تكرر وتفشل دون أن تحاول البحث عن سبيل آخر لمعالجة هذا الجرح المتقيح إلا بالطرق البدائية.

لقد عشت، قبل أن تبدأ حرب الخنادق، أسابيع عدة هارباً من الغبار الذي أحست رئتاي بقرب هبوب عاصفته، منزوياً كالناسك في هذه الصومعة الرطبة الباردة الجليلة. كنت أخرج كل بضعة أيام لأتسوق وأتمون وأتشمم الأخبار. أجلب بعض ما سأحتاجه في قوقعتي هذه. كنت أعرف أن غباراً سيعصف بالجزيرة ومدن الغبار الأخرى. كنت أعرف أن الجزيرة ستتحول إلى ساحة حرب طاحنة بين طرفين غير متكافئين: أحدهما مدجج بفكر فاشي إقصائي تعززه أفتك الأسلحة والآخر مدجج بأحلامه البسيطة المشروعة التي تصبح دائماً ضحية ارتجالية قادته وارتهانهم لأجندات دول إقليمية.

في هذه المدة تركت لحيتي تطول حتى صرت أشبه خدم المزارات فعلاً. استطعت تقمص شخصية خادم هذا الضريح، صوفي شاهوز، الذي أخبرني أنه هارب من العاصفة إلى شرناخ، بلدته التي عصف الغبار بها أيضاً. هرب من الغبار إلى الغبار.

كم سيطول بي الأمر هنا؟ إلى متى سيدوم هذا الحظر؟ متى ستنتهي الحرب؟ لا بد من نهاية. والنهاية أحسها قريبة. لم أسمع في اليومين الماضيين سوى قصف متقطع من مدفعية الجيش وطلعات نادرة للحوامات ترشق بين مدة وأخرى باتجاه أهداف لا أراها ولا أسمع ردها. نعم لم أعد أسمع رداً من جهة الخنادق في الحارات والأزقة الضيقة المحاصرة. يخيفني هذا الأمر. يرعبني صمت جبهة الشباب. أشعر أنها ستكون النهاية. النهاية الأليمة.

***

قلق أعرف طعمه ويدهمني موجه الآن. إنه المخاض. المخاض الذي عشته مع انتهاء كل رواية من رواياتي السابقة.

أعتقد أنني سأنهي الليلة روايتي القصيرة ''مجنون سلمى'' عن الشاعر الجزري وقصة حبه الشهيرة للأميرة الجزرية سلمى شقيقة حاكم جزيرة بوطان. إنها مفارقة أن أعيش الحرب بأبشع وجوهها وأكتب رواية عن الحب.

''وما الغريب في الأمر؟'' فاجأني الطيف بحضوره الأنيس حين نهض فجأة من تحت الغطاء الأخضر وقال مبتسماً. قلت له: ''مولاي. إنني أكتب قصتك. أعني قصة عشقك الأميرة''.

فرد وهو يزفر: ''الحبُ عصي على الكتابة. هو يُعاش فقط''.

ثم سألني: ''هل جربت الحب؟''

أجبته متلعثماً: ''لا يا مولاي. أقصد لم أعش قصة عميقة. أعني لم تنتهِ قصتي بعد''.

– إذن الأفضل لك أن تترك ما بدأت به.

– سأتخيل ما جرى. سأكتب الأحداث بناء على ما قرأته وسمعته.

– وهل عشت آلامي؟ هل ذقت طعم فراق الأميرة سلمى؟ هل اكتويت بنار الهجران؟ هل عاينت ليالي السهاد؟ هل لذعتك جمرة الحرمان؟

اضطررت أن أبوح له بما جرى لي جراء حب نِشتيمان، تلك العاصفة المدوية.

صمت طيف الشاعر قليلاً. شممت من صمته رائحة حزن ثقيل. عرفت أنه غرق في ذكرياته. انتظرته دون أن أتكلم. ثم قال بهدوء: ''الحب حرب، معركة لا بد أن تنتصر فيها

القلوب. غنيمة العاشق أحزانه. غنيمته الآلام التي يتركها الحب في قلبه. ولا يعول على عاشق لا يتألم. لن أسألك ماذا ستكتب عني وعن أميرة قلبي. ولا يهمني ذلك أصلاً. لقد أشيعت حكايات أقرب إلى الأسطورة عن قصة حبنا أنا وأميرتي الفاتنة سلمى. لكنني أود أن أعيد عليك قولي: الحب يُعاش ولا يُكتب. ما يكتب في هذا الباب ليس سوى صدى، ظل باهت، صورة بلا روح".

اختفى الطيف فجأة كما ظهر فجأة فهبت نسمة ربيعية لطيفة في تلك اللحظة. سقطت قطرة ماء من سقف الضريح الرطب. سمعت صداها وهي تلامس سجادة فوق أحد القبور. نقطة في آخر سطر الشتاء.

نعم. فالشتاء يحتضر. أسمع حشرجته في الخارج. إنه رواية توشك أن تنتهي. مسرحية قاسية تُسدلُ الستارة على مشهدها الأخير. يبدو لي أن فصلاً دموياً آخر من فصول تاريخنا سينتهي الليلة. سينتهي بعد أن أنهى أرواح المئات من الشباب الذين كان بإمكانهم خدمة قضيتهم العادلة بحياتهم أكثر مما خدموها بموتهم. فأن تعيش من أجل وطنك أفضل بكثير من أن تموت في سبيله. قلبي على نِشتيمان. أتمنى أن تحدث معجزة، أن ألتقي بها من جديد. أعانقها وأقبلها وأعتذر منها لأنني لم أنظر إليها إلا من زاوية كونها أنثى، أنثى أثارتني وأعادت إليّ فحولتي المسلوبة للحظات انتظرتها سنوات طويلة ما خلق عندي أملاً في إمكانية عودتي رجلاً سوياً وإصلاح ما خربته سنوات السجن في روحي وجسدي.

***

انتصف الليل.

أنهيت قبل لحظات آخر فصول روايتي القصيرة عن حب الشاعر والأميرة، الرواية التي استلهمت أحداثها من الخيال ومما سمعته عن سيرة الملا الجزري من المسنين في هذه الجزيرة المنكوبة. كل ما حولي كان يلهمني. حتى أصوات القصف والاشتباكات، والحمام الذي يهدل في الباحة الكئيبة، وهدير الحوامات، والأحلام والذكريات وأصوات قطرات الوكف وهي تسقط من السقف الرطب في الأيام الماطرة، وأيضاً هبوب الرياح في الليالي

الخرساء. كان الأمل في عبور نفق الحرب والخروج إلى الحياة مرة أخرى يلهمني ويحفزني على الكتابة التي كانت عزائي الوحيد في خلوتي الطويلة هذه.

إنهاء أي رواية يشبه الشفاء من علة وبيلة. فالكتابة مرض، مرض يمنح المتعة والألم فيمتزجان ويولدان إحساساً جديداً، إحساساً هجيناً أمه المتعة وأبوه الألم. الكتابة مرضٌ إذا شفيت منه انتابكَ حزن غريب وكآبة، وإذا أصبت به شعرت بلذة لا تقاس بلذائذ أخرى.

انتصف الليل وانتهت الرواية.

انتهت الرواية وانتهت الحرب أيضاً. وهل الحروب إلا روايات كابوسية لا يعلم أبطالها الواقعون في فخ أحداثها أين تقع صفحة النهاية؟ هل الحرب إلا ليل حالك لا تعرف نجومه متى تغور وتذوي في أضواء الفجر؟

سمعت قبل قليل أن حظر التجول سينتهي من نهار غد الأربعاء. في الخامسة صباحاً حتى السابعة والنصف مساءً سيُرفع الحظر. أي لم يبقَ بيني وبين الحرية سوى خمس ساعات. أي خبر سعيد! انتهت الحرب! لا يعرف معنى هذه الجملة إلا من عاش مثلي هذا الكابوس الخانق من الناس المحاصرين في الحارات والمختبئين في الأقبية، الهاربين مثلي إلى أماكن أقل موتاً في انتظار الفجر. لا شك أنهم سعيدون مثلي بهذا الخبر. لا شك أنهم ينتظرون الفجر، الفجر الذي أشعر بلمسته الحانية منذ الآن وأكاد أراه يطل من جبال الجودي شرقاً ويرمي على الجزيرة غلائله الفضية.

انتهت الحرب بعد تسعة وسبعين يوماً. سيكون بإمكاني بعد ساعات مغادرة هذه الصومعة والذهاب إلى بيتي حيث تركتُ نشتيمان تقاتل في سبيل أحلامها. سأزور بيتي في حارة يافث على ضفة دجلة الغربية وسألتقي نشتيمان. بعد ساعات سأتنفس الهواء الذي يتهادى فوق النهر الحزين قادماً من جبال الجودي شرقاً وجبال كابار شمالاً. سأغسل رئتي من الهواء الخانق الثقيل الذي استنشقته طوال الأشهر الماضية وأنا هنا. ستعود عيناي لرؤية النور في حارة النور. سأزور قصر الإمارة الأبلق. سأزور ضريح العاشقين مم وزين. سأتمشى على الضفاف الجميلة أستمع لحفيف أوراق شجر الحور وشدو الطيور وهدير النهر. سأنشد وأنا أمشي قصائد الجزري عن الحب وأبحث في كل ركن عن نشتيمان الجميلة. سأبحث عنها

ومن يدري فربما هي التي ستبحث عني ونلتقي في زاوية ما من هذه البلدة المرعوبة المنتهكة الذبيحة.

إن التقيت بها، وأنا على يقين أنني سأراها ثانية، فسأعتذر منها. سأعتذر لها عن أنانيتي التي جعلتني لا أراها إلا بلسماً وهي جرح نازف مثلي. سأعانقها بحرارة العشاق وبراءة الآباء. سأضع رأسها المشاكس المتمرد على صدري. سأمسد شعرها القصير بحنان وأهمس في أذنها: "كيف يتحول وطن نحبه إلى سكين يطعن القلب؟"

من 3/3/2020 **حتى** 30/5/2021

حول الكتاب

نبذة

تسعة وسبعون يوماً مرت على حرب الخنادق التي بدأتها الدولة ضد الحزب، وبدأها الحزب ضد نفسه! ولا أحد إلا المجانين يختار ساحة المعركة ليكتب روايته: «مجنون سلمى».

بين ذاك وذاك، كان آمد يبحث عن رجولته الضائعة التي أحياها حب نِشتيمان. وفي اليوم الأخير، انتصف الليل وانتهى كل شيء. وكما انتهت الرواية، انتهت الحرب.

لكن الحروب ليست إلا روايات كابوسية لا يعلم أبطالها الواقعون في فخ أحداثها أين تقع صفحة النهاية. إنها ليلٌ حالك لا تعرف نجومه متى تغور وتذوي في أضواء الفجر.

عن المؤلف

جان دوست كاتب وروائي سوري مقيم في ألمانيا. حاز جوائز عدة منها جائزة المعهد الثقافي الكردي في فيينا عام 2021، وجائزة مهرجان مم وزين الثقافي في أربيل عام 2021، وجائزة القصة القصيرة في سوريا عام 1993.